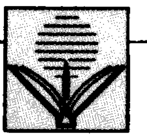
وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى

فضيلة الدكتور يوسف المرعشلي

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى :1424 هـ 2003 م

ISBN 9953-429-50-2



دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

جسر المطار - شارع البرجاوي - ص ب:٧٨٧٦ ,هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٢٠ ، فاكس ٨٣٥٦١٤، بيروت - لبنان
Airport Square, P.O.Box :7876,Tel : 834301 , 858820, Fax : 835614 , Beirut - Lebanon
http: // www.marefah.com/ E.mail: info@marefah.com

وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: 180] وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلاّ واحداً، مَنْ أحصاها دَخَلَ الجَنَّة، وهو وِتْرٌ يُحِبُّ الوتر**». متّفق عليه. ومعنى الإحصاء في اللغة: العَدُّ والحِفْظُ. واختلف العلماء في قوله (أحصاها) في هذا الحديث على خمسة أقوال نذكرها جميعاً للفائدة:

1 ـ فقيل: أحصاها عِلْماً بها وإيماناً.

2 ـ وقيل: أي: حفظها على قلبه.

3 ـ وقيل: أراد مَن استخرجها من كتاب الله تعالى ومن أحاديث رسولِهِ ﷺ.

4 ـ وقيل: أرادَ العَمَلَ بمُقْتضاها، مِثل مَن يَعْلَم أنه سبحانه سميعٌ بصير، فيَكُفُّ لِسانَه وسَمْعَهُ عمّا لا يجوز، وكذا باقي الأسماء.

5 ـ وقيلَ: أراد مَن أَخْطَرَ ببالِهِ عند ذكرها معناها، وتفكَّرَ في مَدْلُولِها مُعَظِّماً لِمُسمّاها ومُقَدِّساً مُعْتَبِراً بمعانيها، ومُتَدَبِّراً راغِباً فيها وراهِباً، وبالجُمْلَة ففي كل اسْمٍ يُجْرِيه على لسانه يُخطِرُ بِبالِهِ الوَصْفَ الدالَّ عليه.

وأخرجَ الترمِذِيُّ في «الجامع» والبيهقي في «الدعوات الكبير» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ للَّهِ تِسْعَةً وتِسْعَين اسماً من أحصاها دخل الجنة، هو اللَّهُ الذي لا إلَهَ إلّا هو، الرحمٰن الرحيمُ المَلِكُ القدُّوسُ السَّلَامُ المؤمِنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجبَّار المُتَكَبِّرُ الخَالِقُ البارِىءُ المُصَوِّرُ الغَفَّارُ القهّارُ الوهّابُ الرزّاقُ**

الفتّاحُ العليمُ القابِضُ الباسِطُ الخافضُ الرافِعُ المُعِزُّ المُذِلُّ السَميعُ البصيرُ الحَكَمُ العَدْلُ اللطيفُ الخَبيرُ الحليمُ العَظِيمُ الغَفُورُ الشَّكورُ العليُّ الكبيرُ الحفيظُ المُقِيتُ الحَسيبُ الجَليلُ الكريمُ الرَّقيبُ المُجيبُ الواسِعُ الحكيمُ الوَدودُ المَجيدُ الباعِثُ الشهيد الحَقُّ الوكيلُ القويُّ المَتينُ الوَلِيُّ الحَميدُ المُحْصِي الْمُبْدِىءُ المُعِيدُ المُحْيي المُميتُ الحيُّ القيُّومُ الواجدُ الماجدُ الواحِدُ الأَحَدُ الصَمَدُ القادِرُ المُقْتَدِرُ المُقدِّمُ المُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظاهِرُ الباطِنُ الوالي المُتَعالِي البَرُّ التوَّابُ المُنْتَقِمُ العَفُوُّ الرَّؤُوفُ مالِكُ المُلكِ ذو الجلالِ والإِكرام المُقْسِطُ الجامِعُ الغنيُّ المُغنِي المانِعُ الضارُّ النافِعُ النُّورُ الهادي البديعُ الباقي الوارِثُ الرَّشيدُ الصَبُورُ».

وفي روايات هذا الحديث بعضُ تغيير في الأسماء، وهذه الأسماء الحسنى هي المشهورة، أما أسماء الله فلا تَنْحِصُر، ودليل ذلك حديث الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «**ما أصاب أحداً قطّ هَمٌّ ولا حُزْنٌ فقال: اللهُمَّ إني عَبْدُكَ وابنُ عَبْدِكَ، أَسأَلُكَ بكُلِّ اسم هو لكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أو أَنْزَلْتَهُ في كتابِك، أو عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْم الغَيْبِ عِنْدَكَ، أن تَجْعَلَ القُرآنَ العظيمَ رَبيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وذهابَ حُزْنِيَ، وجَلاءَ هَمِّي وغَمِّي، إلاّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وحُزْنَهُ، وأَبْدَلَهُ مكانَهُ فَرَحاً**»، فقيل: يا رسولَ اللَّهِ! ألا نَتَعَلَّمُهَا؟ فقال: «**بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعْهَا أَن يَتَعَلَّمَهَا**»، وأخرجه أيضاً أبو حاتم، وابن حِبّان في «صحيحه». وأيضاً فإن الآية مُطلقة، ولم تُخَصِّص أسماءَ اللَّهِ بِعَدَدٍ، وقد ورد في القرآنِ الكريم أسماءٌ وصفيّةٌ لِلَّهِ تعالى لم تُدْرَجْ في التسعةِ والتسعين المشهورة التي سبق بيانُها، ومنها: المولى، النصير، الغالب، القاهر، القريبُ، الربُّ، الناصِرُ، الأعلى، الأكرم، أحسن الخالقين، أرحمُ الراحمين، ذو الطَوْل، ذو القوّة، ذو المعارج، بديع السمٰوات والأرض، غافِرُ الذنب، قابل التَوْبِ، شديدُ العقاب، مولجُ الليل في النهار، ومولجُ النهار في الليل، ومخرِجُ الحي من الميت، ومُخرجُ الميّتِ من الحي.

وقد جاء في رواية ابن ماجه لحديث أسماء اللهِ التسعة والتسعين أسماءُ ليست في الرواية المشهورة التي سبق ذكرُها، وذلك بدلاً عن بعض ما جاء فيها، ومنها: التامُّ، القديمُ، الوترُ، الشديد، الكافي، الدائِم، النور، المبين، الجميلُ، الصادق، المحِيط، القَريبُ، الفاطِرُ، العلّام، المَليكُ، الأَكْرَمُ، المُدَبِّرُ، الرفيع، ذو الفضلِ، الخَلّاق.

كما ورد في أحاديث نبوية أخرى بعضُ أسماءَ أيضاً منها: الحَنَّانُ، المَنَّانُ، السَيِّدُ، الديَّانُ، ومنها: جميلٌ، ففي الحديث الصحيح: «**إنّ اللَّهَ جميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ**» ومنها: رفيقٌ، ففي الحديث الصحيح: «**إنّ اللَّهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِفْقَ**».

وهذه الأسماء الحسنى المأثورة توقيفية، يجوز إطلاقها عليه سبحانه اتفاقاً، ولا يجوز إطلاق اسم على الله لم يَرِدْ في المأثور من الكتاب والسنّة، خشية إطلاقِ اسمٍ عليه سبحانه يُوهِمُ النقصَ مِن كمال الألوهية، وجلال الربوبيّة.

ونحنُ إن شاء الله سنذكر هذه الأسماء الحسنى مُوَزَّعَةً بتنسيقٍ ضمن تسعة أبواب تدلُّ على صفات ذاته وأفعاله سبحانَه وتعالى.

الدكتور يوسف مرعشلي

بيروت في 5 جمادى الثاني 1424

1 ـ اللّه جلّ جلاله

هو اسمُ عَلَم في اللغة العربية، على الذات الإلٰهية الواجب الوجود، المُسْتَحِقّ لجميع المَحامِد، الجامع لجميع صفات الكمال، والمُنَزَّه عن أيّة صِفَةٍ من صِفاتِ النُقصان التي لا تليق بكمال الألوهية والرُّبُوبِيَّة، ولذلك فهو أَعْظَمُ أسمائه الحُسْنَى.

ومن خواصّ هٰذا الاسم أنه لم يُسَمَّ به غَيْرُ الخالِقِ جلّ وعلا، لا على سبيل الحقيقة، ولا على سبيل المجاز، قال الله تعالى في مُحكَم كتابه الكريم: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65] أي هل تعلم أحداً سُمِّي (الله) غير الله؟ وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: 22]، وقد ورد في القرآن الكريم في (2697) موضعاً.

واختلف العلماء في أصل هذا الاسم، فقال الرافعيُّ في كتابه «العلاوة والتذنيب»: أن أصله (إلٰه) كـ (إمام)، ثمّ أدخلوا عليه الألف واللام، ثم حُذِفت الهمزة طلباً للخِفَّةِ ونُقِلَت حركتها إلى اللام فصار بلامَيْن متحركتين، ثم سُكِّنَت الأولى، وأُدْغِمَت في الثانية للتسهيل. انتهى ما قاله الرافعي، وقال الخطيب الشربيني في «مغني المحتاج»: (والحقُّ أنه أَصْلٌ بنفسه غيرُ مأخوذٍ من شيء، بَلْ وُضِعَ عَلَماً ابْتِداءً، فكما أنّ ذاته لا يُحِيطُ بها شيء، ولا ترجِعُ إلى شيء، فكذلك اسْمُه تعالى، وهو عَرَبيٌّ عند الأكثر، وعند المُحَقِّقينَ أنه اسمُ اللَّهِ الأَعْظم، واختار النووي تبعاً لجماعة أنه الحيُّ القَيُّومُ قال: ولذلك لم يُذْكَر في القرآن إلّا في ثلاثَةِ مواضِع: في البقرة، وآل عمران، وطه).

وقال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي في كتابه: «المَقْصَد الأَسْنَى في شرح أسماء الله الحُسْنَى»: (اللَّهُ اسْمٌ للمُوجِد الحَقّ، الجامِع لصفاتِ الأُلوهية، المنعوت بنعوت الرُّبُوبِيّة، المُتَفَرِّد

بالوجود الحقيقي، فإنَّ كلَّ موجود سِواهُ غيرُ مُسْتَحِقٍّ للوجودِ بذاته. وهٰذا الاسمُ أعظمُ الأسماءِ التِسْعَةِ والتِّسْعَين؛ لأنه دالٌّ على الذات الجامعة لصفاتِ الإلٰهية كلّها، حتّى لا يَشِذّ منها شيء، وسائرُ الأسماء لا تَدُلُّ آحادُها إلّا على آحاد المعاني، من عِلْم، أو قُدرةٍ، أو فعلٍ، أو غيره، ولأنّه أخصُّ الأسماء، إذ لا يُطْلِقُهُ أحدٌ على غيرِه لا حقيقةً ولا مجازاً، وسائِرُ الأسماءِ قَدْ تَسَمَّى بها غَيْرُه، كالقادِرِ، والعَلِيم، والرَّحِيم وغيرِه. وأما معنى هٰذا الاسم فخاصٌّ خصوصاً لا يُتَصَوَّرُ فيه مُشارَكَةٌ لا بالمجاز ولا بالحقيقة، ولأَجْلِ هٰذا الخصوص، يُوصَفُ سائرُ الأسماءِ بأنه اسم الله، ويُعَرَّفُ بالإضافة إليه، فيقالُ: الصَّبورُ مِن أسماءِ الله).

(وينبغي أن يكون حَظّ العَبْدِ مِن هذا الاسم التَأَلُّه، وأعني به أن يكونَ مُسْتَغْرِقَ القَلْبِ والهِمَّةِ بالله تعالى، لا يَرَى غيْرَه، ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلّا إيّاه، وكيفَ لا يكونُ كذلك وقد فَهِم من هذا الاسم أنه المُوجدُ الحقُّ، وكلَّ ما سُواه فَانٍ وهالِكٌ وباطِلٌ؟ كما قال رسولُ الله ﷺ: «**أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعِرُ كلمةُ لَبيدٍ: ألاَ كُلّ شَيءٍ ما خَلا اللَّهَ باطِلُ**»).

مفهوم الإيمان الصحيح بالله

ليس الإيمانُ فقط مجرّد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن، كما يفعله كثير من المسلمين اليوم، وهم لا يُصَلّون، ولا يصومون، ولا يُحِلُّون حلالاً، ولا يُحَرِّمون حَراماً، ويشربون المُسْكِرات، ويقترفون المعاصي والموبقات، وإذا كلَّمتَهم ناصحاً، ومُصحِّحاً، وآمِراً بالمعروف قالوا: نحن مؤمنون، فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩**﴾ [البقرة: 8، 9]، كما أنه ليس مُجَرَّد قيام الإنسان بأعمال وشعائر اعتاد أن يقوم بها، فإذا صَلَّى أحدهم، أو أخرج الحروف من مخارجَها وبالغ في ذلك، ظنّ أنه أتى بجميع أركان الإيمان والإسلام، وتراه يتعاطى الربا ويضع أمواله في البنوك، ويأكل الحرام، ويغش الناس، ويكذب، ويسرق، ويفحش، ويعصي الله ورسوله، ولا يتورَّع عن النظر الحرام، والمال

الحرام، وينتمي إلى جمعيات ومحافل وأحزاب غير إسلامية، يأتمر بأوامرهم ويقدم لهم الطاعة ولو كان ما يأمرونه به ليس في مصلحة الإسلام وأهله، بل يحاربُ اللَّهَ ورسولَه، طمعاً بغرض دنيوي كمنصب، أو جاه، أو مال، أو ثروة، فما أكثر الدجّالين الذين يتظاهرون بالصالحات وأعمال الخير، وشعائر التَعبُّد، وقلوبُهم خرابٌ مِنَ الخَيْرِ والصلاح والإخلاص لِلَّهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: 142].

وليس الإيمانُ مجرَّد معرفةٍ ذهْنِيَّةٍ بحقائق الإيمان، فكَمْ مِنْ قَوْم عرفوا حقائق الإيمان، ولم يؤمِنُوا ولم يعملوا بمضمون علمهم، فخالفت أَعمَالُهم أقوالَهم، وأطلقوا ألسنتهم في الحكم على الناس، فهؤلاء المستشرقون عندهم دراسات متعمقة عن أمور الإسلام ودقائقها التفصيليّة، ولكنهم لا يلتزمون بالإسلام ديناً وعقيدة وسلوكاً. وكذلك المنافقون، فهم يتمتّعون بحِيازَةِ الشهادات العالية من أيدي المستشرقين وأعداء الإسلام، وإذا تصدَّروا المجالس والمراكز، تسمع لقولهم فتطرب، وتنظر لفعلهم فتعجب، وما أكثرهم في مجتمعات المسلمين اليوم، قال تعالى عنهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: 103 ـ 106] وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14] فهؤلاء قد حالَ بينهم وبين الإيمان والعمل بمقتضاه كبرٌ في أَنْفسِهم، أو مرضٌ في نفوسهم كالحَسَدِ، أو حُبِّ الدنيا والشهوات، أو التعالي على الناس والازدراء بهم واحتقارهم. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146].

إن الإيمان في حقيقته عمل نفسي، يبلغ أغوار النفس وأعماقها، فَيُحَوّل حياة الإنسان كلها بمعتقداتها، وتصرّفاتها وعواطفها، فلا بُدَّ مِن العلم اليقيني بأركان الإيمان، ولا بُدَّ أن يبلغ هٰذا الإدراك العقلي حدّ الجَزْم المُوقِن، واليقين الجازم، الذي لا يزلزله شك أو شَبْهة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: 15] ولا بُدَّ أن يَصْحَبَ هٰذه المعرفةَ الجازِمَة

إذعانٌ قَلْبِيٌّ، وانْقِيادٌ إرادِيٌّ، يَتمثّلُ في الخضوع والطاعَةِ لحكم مَن آمَن به، مع الرِضَا والتَسْلِيم، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]. ولا بُدَّ أن يَتْبَعَ تلك المعرفة وهٰذا الإذعان حَرارَةٌ وجدانية قلبية، تبعث الإنسانَ على العمل بمقتضيات العقيدة والالتزام بمبادئها الخُلُقِيَّة والسلوكية، والجهاد في سبيلها بالنفس والمال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: 2 ـ 4].

معنى لا إله إلا الله

أي: لا معبود بِحَقٍّ سِوَى الله.

أهمية لا إله إلا الله: قال الله في محكم كتابه الكريم: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19] فَحَصَرَ العِلْمَ كُلَّه في هٰذه الكلمة، مما يَسْتَوْجِبُ على العبد طلبَ العِلْم بها، وأيضاً فقد جعل الله هٰذه الكلمة مفْتَاحَ الدخول في الإسلام، وأولَ ركن من أركانه، وجَعَلَ إعلانَ الإيمان بالله سبحانه بها، كما في حديث جبريل عليه السلام حينما سأل النبي ﷺ: ما الإسلام؟ قال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله**».

أقول: لو أن إنساناً انتسب إلى مدرسة، أو اشتغل في شركة، أو مَصْنَعٍ، أو مؤسسة، أو سافر إلى دولة وجب على هٰؤلاء جميعاً أن يخضعوا لقوانينِ هذه المدرسة أو الشركة أو المصنع أو الدولة، التي وضعها أصحابها، فَمَنْ خَضَعَ للقوانين ولم يخالفها اعتُبِرَ مواطناً صالحاً مُحْسِناً، ومن خالف هٰذه القوانين اعتُبِر خارجاً على القانون مُجرِماً، مُطارَداً من أصحاب هٰذه المؤسسات، وعرّض نفسَه لعقوباتها. إن أصحابَ هٰذه المؤسسات لم يضعوا هٰذه القوانين عبثاً لتعذيب موظفيهم، وإنما أرادوا تنظيم مؤسساتهم، وضمان حسن سير العمل فيها بانتظام، ولو أنهم لم يَضَعُوا هذه القوانين، لسادت الفوضى في مؤسساتهم، وقد يظهر بين الموظفين من لا يعترف بحقِّ أصحاب المؤسسات، ولا يخضع لقوانينهم، بل يثور عليها ويحرّض غيره من الموظفين للخروج معه عليها، فهذا لا شك سيكون عنصر تخريب في هذه المؤسسة يستوجب الطرد منها، وأشدّ العقوبة.

لِلَّهِ المُلك: كذلك فإن هذا الكون الكبير مخلوقٌ لِلَّه، وهو مالِكهُ، وله وحدَه حقّ التصرُّف فيه، ونحن البشر لسنا سِوَى جزء من هذا الكون الكبير، فوجب علينا أن نخضع لأوامر الله ربِّ هٰذا الكون، وألاّ نَخرُجَ عن أوامره، وليس من حق أي مخلوق أن يتصرّف في ملك الله بشيء، مهما يكن ذلك الشيء **إلّا أن يأذن اللَّهُ له بذلك التصرّف، فالمؤمن يُقِرّ لله بالربوبية، ويشهد أنه لا ربّ سواه عن اقتناع وطواعية، ويعلن خضوعه لله ولقوانينه وشرعه، ويكون ذلك بإعلان هذه الكلمة (لا إله إلا الله) موقناً بها في قلبه، مقرّاً بها بلسانه، مُصدّقاً لها بأعماله وأقواله، فتكون جميع تصرفاته موافقة لأوامر الله. وأما الكافر فيأبَى الاعتراف لله بالمُلكِ والربوبية والألوهية، ويتمرّد على شريعته، ويحرّض غيره على العصيان، ويشرّع لنفسه قوانين نابعةً من هواه أو مصالحه، فهذا جاحد بربه غير خاضع لقوانينه وتشريعه ودينه، استحق غضبه وعقوبته.**

مثلاً: الأرض التي نسكنها، ونحرثها ونزرعها ونستعمل خيراتها ونتسلط على حيازة أموالها، مُلْكٌ للهِ تعالى الذي خلقها، وليس لنا أن نفعل فيها شيئاً إلّا كما أذِن الله لنا، وضِمْنَ الحدود التي يَحُدُّها لنا، فإذا أذِنَ لنا مثلاً أن نَذْبَحَ حيواناً ونأكلَ لَحْمَهُ، كان لنا ذلك بمُقْتَضَى الإذن، وإنْ لَمْ يأْذَنْ لنا أن نَذْبَحَ حيواناً آخر ونأكلَ لَحْمَهُ، لم يكن لنا ذلك بمقتضى عدم الإذن، لأنَّ المُلْكَ مُلْكه، والأمرَ أمْرُهُ، والإذْنَ إذْنُه.

وإذا أذِنَ لنا بِشَرابٍ فلنا أن نشرَبَه، وإذا لم يأذَنْ لنا بِشَرابٍ آخَرَ فليس لنا أن نشربه، لأن المُلكَ مُلْكُهُ، والأمْرَ أمْرُه.

وإذا أذِنَ لنا أن نَسْلُكَ طريقاً ما، أو أن نعمل عملاً ما، كان لنا ذلك، وإذا لم يأذن لنا بأن نَسْلُكَ طريقاً آخر، أو أن نعملَ عملاً آخر، لم يكن لنا ذلك؛ لأن المُلْكَ مُلْكُهُ، والأمْرَ أمره، فنحن إذن مُلْزَمُونَ بِتَتَبُّع الشرع الذي شرعه لنا خالق الكون ومالكه، ومُلْزَمُون بالتقيّد بمُقْتضيات الإذن الذي يأذن لنا به في ملكه، وليس لنا أن نتجاوز هٰذه الحُدود، ولا أن نتعدّى مقتضيات الإذن، وإلّا كنا عُصَاةً معتدين على حقِّ مالِكِ المُلْكِ، الخالِقِ القادِرِ، والمعتدي يعرِّض نفسه للعقوبة.

لِلَّهِ الخلق والأمر: وحيث إنّ الله هو خَالِقُنا ومُمِدُّنا باستمرارِ الوجود، ورازِقُنا بعطائه المحمود، والمُنْعِم علينا بجلائل النِعَم ودقائقها، والذي بيده

نواصِينا مُلْكاً وتَصرُّفاً، وحياةً وموتاً، فهو الذي يملك تحديد طريق سلوكنا في الحياة فعلاً وقولاً واعتقاداً، وهو الذي بِأَمْرِهِ يَحُدُّ مِن حُرِّياتِنا التي مَنَحَنا إيّاها، ويُقَيِّد مِنْ شَهَوَاتِنَا التي هي من هِبَاتِهِ لنا، وذلك رِعايَةً لِمَصَالِحِنا، وامتحاناً لطاعَتِنا في عُبُودِيَّتِنَا له، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

لِلَّهِ الحُكْمُ: ومِن ثَمَّ فليس لنا أن نَحكُمَ لأَنْفُسِنا بالإباحَةِ، **إلّا أن نَعْلَمَ أن الله حَكَمَ لنا بها، وإلّا كُنّا مُشَرِّعِينَ على اللّهِ بغَيْرِ عِلْم ولا إذْنٍ** منه، **وكذلكَ ليس لنا أن نحكُمَ بالتحريم إلّا أن نَعْلَم أنَّ اللهَ حكم علينا به، وإلّا كُنّا مُشرِّعين على الله بغير علم ولا إذْنٍ** منه. **وهكذا فليس لأَحَدٍ مَهْمَا كان ذا مَنْزلَةٍ في الدين، أن يُشَرِّعَ مِنَ الدينِ ما لَمْ يَأْذَنْ به اللَّهُ خالِقُنا؛ لأنَّ مَنْ له الخَلْقُ فله المُلْكُ، ومَن له المُلْكُ فَلَهُ الأَمْرُ، وبيده حَقُّ التَصرُّفِ بِمَمْلُوكِهِ، وعلى المملوك أن يَتَحقَّقَ بِوَصْفِ عُبُودِيَّتِه لمالِكِهِ بالحقّ فَيُطِيعُهُ فيما أَمَرَ، ولا يَعْصِيهِ فيما نَهَى. قال الله تعالى**: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: 70]. وقال على لسان نَبيِّهِ يوسف ﷺ حينما كان في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: 39، - 40].

فليس لأحَدٍ مِن البشر أن يخترِعَ عِبادَةً لم يأت بها حُكْمٌ مِنَ اللّهِ أو إذْنٌ، وقَدْ نَدَّدَ اللَّهُ في القُرآن بِحُكْم غيره، وبَيَّن كمال حكمه في الحُسْنِ والعَدْلِ ورعَايَة المصالح، مِنْ غير ظُلْم ولا انْحِرَافٍ عَنِ الصراطِ السَّوِيِّ، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: 50] ونَفَى الإيمانَ عمّن لا يرضى بِحُكْم اللّهِ ورسولِهِ فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65] وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44] ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: 45] و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

والإنسان خاضع بالقهر هو والكون حولَه لقوانين الخلق الربّاني، في حياته

وموته، وصحّته ومرضه، إلا أنّ اللَّهَ ترك له جانباً من الحرِّيّة والاختيار في إرادته لأفعاله، وذلك ليختبر فيه هٰذه الإرادة، وليُلْقِي عليه مسؤولية هٰذا الاختيار، فهل يَخْضَعُ الإنسانُ لقوانين التكليف الربّاني وأنظمته بالتسليم والطاعة؟ وهل يَرْبط إرادته واختياره بإرادة الله واختياره، فيُحِلّ ما أحلّ الله، ويُحرّم ما حرّم الله ويتّبع شريعته لعباده، متجاوزاً نفسه ومطالبها وشهواتها امتثالاً لأمر الله؟ وقد بَيّن الله أن هذا شأن المؤمنين فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 36]، وحيث كان الإنسان في هذه الدنيا في اختبار فقد منحه الله هبات تؤهّله لهٰذا الدور، فمنحه قدرة على تنفيذ الأفعال، وعقلاً لمعرفة الحق من الباطل، وفهم التكاليف ووعي الأوامر والنواهي، فكان لزاماً على هٰذا الإنسان أن يشكر ربه، والشكر يتحقق بالعبادة والطاعة، بالشكل الذي يرضاه، ولا يمكن للإنسان أن يتوصل إلى ذلك إلا باتباع رسل الله الذين جاءوا بالشرائع من عند الله، بشكل يضمن للإنسان سعادتَيْ الدنيا والآخرة، ولو تُرك الناس لأنفسهم لانتحلوا ألواناً من العبادة لا يرضاها الله ولافترقوا فيها، ولطَغَوْا في تحديد مناهج حياتهم وأنظمتها، فلا يجوز للناس أن ينسبوا شرائع إلى الله لم تأت من طريقٍ صادقٍ عن الله، أو أن يحكموا بأحكام لم يأذن بها ولم تأت عنه جل وعلا، لأن الحكمَ لله.

المجموعة الأولى من الأسماء الحسنى
وهي المتعلقة بالخلق والإيجاد والتكوين

نذكر المجموعة الأولى من أسماء الله الحسنى المتعلّقة كُلّها بالخلق والإيجاد والتكوين وهي: الحكيم، الرشيد، الخالق، البارىء، البديع، المُصَوِّر، الهادي (في أحد معانيه)، المبدىء، المعيد، الباعث، المُحْيِي، المميت، الجبار، القهار، القيّوم، الحفيظ، المؤمن (في أحد معانيه)، المهيمن (في أحد معانيه).

2 ــ الحكيم

وحيث علمنا أن اللَّهَ سبحانه حَيٌّ عَليمٌ، يفعل ما يشاء ويختار، فلا بُدَّ أن تكونَ جميع أفعاله سبحانه موافِقَةً للحِكْمَة، مُطابِقَةً للرشاد؛ لأنه عليمٌ فلا جَهْلَ يَحْجُبُهُ عن الكمال، ولأنه قادر فلا عَجْزَ يَمْنَعُهُ عنه، ولأنه يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويختار، فلا شيء يُجْبِرُه على النقص، ولأنَّه مُنَزَّهٌ عمّا لا يَليقُ بالأُلوهِيَّة والرُّبُوبِيَّةِ، فلا شَهْوَةَ تُزَينُ لهُ النَقصَ وتَصْرِفُه عن الكمال، ومِن هنا جاء في أسماءِ اللَّهِ الحسنى (الحكيم).

ومعنى (الحكيم) أي: ذو الحِكْمة، وهي الإصابَةُ في التقدير، والإحسانُ في التدبير، ومِنْ ذلك نرى جميعَ أفعالِ الخالِقِ مُوافِقَةً للحِكْمَة، ولَئِن خَفِيَتْ عَنّا الحكمةُ في بَعْضِ أفعالِ الخالِقِ، فَذَلِكَ مِن قُصُورِ نَظَرِنا، وضِيقِ أُفُق تفكيرنا وتجارِبنا، ومن تأثُّرنا بالعوامِل النفسيّة والغَرِيزيَّة فينا، قال اللَّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: 6]. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في (97) مَوْضِعاً.

قال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزاليُّ رَحِمَهُ اللهُ

في «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (والحكمة عبارةٌ عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، وأجلُّ مَن يُعْرَفُ هُو اللّه سبحانه وتعالى، وقد سَبَق أنه لا يعرفه كنه معرفته غيرُه، فهو الحكيمُ الحقُّ، لأنّه يعلمُ أَجَلَّ الأشياء بأَجَلِّ العلوم، إذْ أَجَلُّ العلوم هو العِلْمُ الأَزَليُّ الدائِمُ الذي لا يُتَصَوَّرُ بذلك إلَّا عِلْمُ الله تعالى، وقد يُقالُ لمن يُحْسِن دَقائِقَ الصناعات ويُحْكِمُها ويُتْقِنُ صَنْعَتها: حكيمٌ، وكمالُ ذلك أيضاً ليس إلّا لِلّهِ تعالى، فهو الحكيمُ الحق.

ومَن عرف جميع الأشياء، ولم يعرف اللّهَ تعالى، لم يَسْتَحقَّ أَنْ يُسَمَّى: حكيماً؛ لأنه لم يَعرِف أَجَلَّ مَن يُعْرَفُ وأَفْضَلَهُ، والحكمَةُ أَجَلُّ العُلوم، وجلالَةُ العلوم بقدر جلالَةِ المَعْلُوم، ولا أجلَّ من الله سبحانه وتعالى. ومَن عَرَف اللّهَ فهو حَكيمٌ، وإن كان ضعيفَ الفِطْنَةِ في سائر العلوم الرسمِيَّة، كليلَ اللسانِ، قاصِرَ البيان فيها.

إلّا أن نسبة حِكمةِ العبد إلى حِكْمَةِ اللّهِ تعالى كَنِسْبَة معرفته به إلى معرفة اللّهِ بذاته، وشتَّانَ بين المَعْرِفَتَيْنِ، فشتَّانَ بين الحكمتين، ولكنه مع بعده عنه فهو أَنْفَسُ المعارفِ، وأكثَرُهَا خيراً، ومَن أوتِيَ الحِكْمَةِ فقد أوتِي خَيراً كثيراً. ومَن عرف اللّهَ كان كلامُهُ مُخالِفاً لكلام غيره، فإنّه قَلّما يتعرّض للجزئيات، بل يكون كلامُه كليّاً، ولا يتعرَّضُ لمصالح العاجلة ـ أي: الدنيا ـ بل يتعرض لِما ينفع ـ في العاقبة.

آثار الحكمة تدلّ على الحكيم

لا شك أن آثار المخلوقات تدلّ على حكمة الحكيم، ونجد هٰذا واضحاً في كل مخلوق في هذا الكون، وكذلك في علاقة كثير من هذه المخلوقات مع بعضها في أصل خلقها، دون أن تعبث بها يدُ إنسان، فمن ذلك الحياة على سطح الأرض، التي هي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية، فالتُرْبَة تحتوي العناصر التي يمتصُّها النبات، فيحوّلها إلى طعام للحيوان والإنسان، ويوجد كثيرٌ من المعادن قريبة من سطح الأرض، ممّا هيّأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة ونشأة كثير من الصناعات، وعلى ذلك فإن الأرض مُهَيَّأَةٌ على أحسن صورة للحياة، ولا شكّ أنّ كُلَّ هٰذا من تيسير حكيم خبير، ولو شاء الله لخلق الأرض على غير هٰذه الصورة التي هي عليها الآن.

لو كانت الأرضُ في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها، لتضاعفت جاذبيّتها للأجسام التي عليها 15 ضعفاً، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوّي إلى أربعة أميال، ولأصبح تبخّر الماء مُسْتَحيلاً ولارْتَفَعَ الضغط الجوّي إلى ما يزيد على 150 غ على السنتمتر المربّع، وَلَوَصَلَ وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً واحداً إلى 150 رطلاً، ولتضاءَل حجم الإنسان حتى صار في حجم السنجاب، ولتعذَّرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو ابتعدت الأرض عن الشمس لنَقُصَت كمية الحرارة التي تتلقّاها من الشمس، ولقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء، ولتجمّدت الكائنات الحيّة على سطح الأرض.

ولو اقتربت الأرض من الشمس لارتفعت الحرارة، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس، واختلّت الفصول، ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

يُفهم من هٰذا أن الوضع الحالي للأرض مختار بحكمة فائقة وحسابات بالغة في الدقّة، وأن الأرض بحجمها وبُعْدِها الحاليَّيْن عن الشمس، وسرعتها في مدارها الحالي تهيّىءُ للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صُوَرِها المادِّيَّة، والفكرية، والروحية على النحو الذي نشاهِدُه اليوم في حياتنا الاعتيادية، التي لا نُلقي لها بالاً، ولا نتساءل لماذا اختيرت هٰذه الأوضاع دون غيرها، ومَن اختارها، ولماذا، وهل يستحِقّ الشكر والثناء والتقدير أم لا؟ لا شك أنه تدبير الحكيم جلَّ جلاله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: 190 ـ 194].

3 ـ الخالق

عَلِمنا أنّ اللّهَ سبحانه هو وَحْدُهُ واجِبُ الوُجُود، ووجودُه وَحْدُه هو الأَصْلُ، وأنَّ كُلَّ ما عَداهُ من مَوْجُودات، إنّما وُجِدَ بإرادَتِهِ تعالى وقُدْرَتِهِ، وهٰذا الإيجادُ مِنَ العَدَمِ هو أعلى ما يُطْلَقُ عليه اسمُ الخَلْقِ، كان الله هو الخالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، ومِن هنا جَاء في المأْثُورِ مِن أسمائه الحُسْنَى (الخالِقُ)، وقد ورد في القرآن الكريم في ثمانية مواضع.

وهو مأخوذٌ من الخَلْقِ، وأَصْلُهُ التَقْدِيرُ المُسْتَقِيمُ، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: 102]. ويُسْتَعْمَل بمعنى الإبْداع، وهو إيجادُ الشيء مِنَ العَدَم لاعَلَى مِثالٍ سابِقٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: 36].

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الخالِقُ هو الذي أوجد الأشياء جَميعَها بعد أن لم تكن مَوْجُودَة، وأَصْلُ الخلق: التَقديرُ، فهو باعتبارِ تقديرِ ما منه وُجُودُها، وباعتبار الإيجاد على وَفْقِ التقديرِ خالِقٌ).

وقال حجَّةُ الإسلام الإمامُ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغَزَّاليّ في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللّهِ الحُسْنى»: (كلُّ ما يخرُجُ من العَدَمِ إلى الوُجُودِ يَفْتَقِرُ إلى التقدير أوّلاً، وإلى الإيجادِ على وَفْقِ التقديرِ ثانياً، وإلى التصوير بعدَ الإيجاد ثالثاً، واللّهُ تعالى خالِقٌ من حيث إنّه المُقَدِّرُ والموجِدُ، والمُزَيِّنُ المصوِّرُ.

كالبناء مثلاً، فإنه يحتاج إلى مُقدِّرٍ يُقَدِّرُ ما لا بُدَّ منه، من الخشب، واللَّبِنِ، ومساحةِ الأرض وعدد الأبنية وطولها، وعرضها، وهٰذا يتولّاه المهندس، فيرسُمُهُ ويُصوِّرُه، ثم يحتاج إلى بَنَّاءٍ يتولّى الأعمال التي عندها يحدث حصول الأبْنِيَة، ثم يَحْتَاجُ إلى مُزَيِّن يَنْقُشُ ظاهره، ويُزَيِّن صورَتَهُ، ويتولّاهُ غَيْرُ البَنّاءِ، هٰذه هي العادات في التقدير، والبناء، والتصوير، وليس كذلك في أفعال اللّهِ تعالى، بل هو المُقدِّرُ، والمُوجِدُ، والمُزَيِّنُ، فهو الخالقُ البارىء المُصَوِّرُ.

فمِن عَلِمَ أن كلّ شيء حوله مَخْلُوقٌ لِلّهِ، مَمْلُوكٌ له، قبضته بيده، محتاجٌ في كلّ لَحْظةٍ إليه سبحانه، فقيرٌ إليه، إذا شاء أبْقاهُ، وإذا شاء أفناه، لم يُعَلّق قَلْبَهُ بشيء سِوَى الله الخالق، ونظر لكلّ ما حوله نظرة استِغْناء، ولجأ إلى الله الخالِقِ المالكِ المتصرّف، وعلّق قلبه به، فخافه ورجاه، وتاب إليه وأناب، وأقبل على طاعته بكلّيته ولم يغفل عن ذكره بقلبه وخواطره ولسانه، واشتغل طول حياته برضاه، والعمل على نشر دينه ونُصرته، وتعلّمه وتعليمه، والجهاد في سبيله حتى يعلو، وعلم أن الأسباب بيد الله، وأنه هو مُسَبِّبُها، فلم يتعلّق بالأسباب، واعتمد على مُسَبِّبها، فأراح قلبه واستراح، واطمئنّ إلى مولاه، ولاذ بجنابه، وهٰذه هي حقيقة الإيمان.

المخلوقات تدلّ على الخالق

إنّ كلّ شيء في الكون، صغيراً كان أم كبيراً يدل على تجلّي الخالق سبحانه وتعالى عليه بهذا الاسم. ولو نظر الإنسان في نفسه، وفي كل عضو من أعضائه، وفي الكون حوله، في السماء وما فيها من كواكب ونجوم، وليل ونهار، وغيوم وأمطار، وجاذبية وقوانين، وفي الأرض وما فيها من حياة، وعوالم متنوّعة؛ فمن عالَم الطيور وأسرارها، إلى عالم الحيوانات وتنوّعها، وعالم البحار وأسماكها، وعالم النباتات وأنواعها، وعالم الناس وطبائعها ومجتمعاتها وعاداتها وتقاليدها، لاهتدى إلى خالقها.

ولن نتعرّض لكل المخلوقات لنبيّن أهمية هٰذا الاسم (الخالق) ونفهم معناه، ولكن يكفي أن نأخذ مثلاً واحداً من الخلق، وليكن من أنفسنا نحن البشر لنهتدي إلى عظمة الخالق، فقد قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: 4] وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: 21]، ولنتأمل في مُخ الإنسان ودماغه.

إن المُخّ في الإنسان هو مناط التفكير والإدارة، وإن أجهزته المتعدّدة تتعاون بشكل عجيب ليصدر عنها تصرفات الإنسان بشكل محكم متقن، فيه تفكير وروية، وعقل وحكمة، فَحَرِيٌّ بنا أن نتعرّف على كيفية خلق هذا المخلوق وأقسامه وبعض وظائفها، فهو من الناحية الفيزيولوجية يتألف من خلايا لحمية،

وينقسم إلى عدة أجزاء تُسمّى: الفصوص، ويخترقه منخفضات عميقة تسمّى: الأخاديد، وهو يزن عند الرجل المتوسط العمر حوالي (1400) غراماً، وهو أنقص منه عند المرأة ليصل إلى 1300 غراماً. يحتمي داخل صندوق عظمي مَتين هو الجمجمة، وقد حفظه الله تعالى بثلاثة أجهزة دفاع أمنية تمنع تعرّضه لأي صدمة أو ضربة أو تأثير يمنعه عن القيام بعمله، فهناك ثلاثة أغلفة غشائية بينها ماء تساعده على تحمل الصدمات، الداخليُّ منها رقيق جداً تتخلّلُه الشرايينُ والأَوْرِدَةُ التي تُغَذّيه. **فالمخ هو المركز الرئيسي للجهاز العصبي، أو هو (السنترال) الذي يُرسِل الإشارات إلى جميع أجزاء الجسم**، ومِن المُخّ تصدر الأوامر بكلّ حركة يتحرّكها الجسم، فعينُ الإنسان وأُذُنُهُ وجِلْدُه تَنْقُل الأحاسيس إلى هٰذا المركز الذي يترجمها بلغته إلى مرئيّات ومسموعات، وأحاسيس، وإذا أراد الإنسانُ المشيَ، أصدر أوامره بواسطة الأعصاب إلى الأطراف، فتحرّكت، كمثل السيارة فيها محرّك يدور، وينقل حركته إلى العجلات فتمشي السيارة.

وقد عجز العلماء الأوّلون والآخرون عن تفسير عمل المخ، فهو مولّد كهربائي، يرسل تيّاراته الكهربائية وإشاراتها عن طريق الأنسجة العصبية إلى العضلات، وهناك 12 زوجاً من الأعصاب تخرج من المخ عبر ثقوب صغيرة، وتمرّ خلال الأنسجة، وتتوزّع على الجلد والعضلات والأعضاء الأخرى في الرأس والرقبة، ومن أهمّها أعصاب الشمّ والبصر والسمع والذوق.

ويوجد بالمخ مركز لاختزان المعلومات المتجدّدة للإنسان في كل لحظة، فهو يحتفظ بملايين الذكريات والمعلومات والصورة، وقد وُهِبَ قدرة استرجاعها بشكل منظّم وسريع في الوقت المناسب بالرغم من أن خلايا جسم الإنسان تتلف وتموت وتتجّدد في كل لحظة ويولد غيرُها، فكيف لا تموت المعلومات معها؟ إنه سؤال مُحَيِّر، عجز العلم عن الإجابة عنه إلى يومنا هذا، ولو حاول العلماء تخزين هٰذه المعلومات في الحاسوب (الكمبيوتر)، لاحتاجوا إلى آلاف الأقراص وَلَمَا وسِعَها قُرْصٌ واحد.

وعموماً فإن دماغ الإنسان جهازٌ عجيب التركيب، ولو جمعنا ما في العالم من أجهزة الإبراق، والهاتف، والرادار، والتلفزيون واستطعنا أن نُحَوِّلها جميعاً

إلى قطعة صغيرة في الحجم فإنها لا تبلغ في تعقيدها درجة دماغ الإنسان ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: 88].

الإعجاز العلمي يؤدّي للإيمان بالخالق

ما هو الإعجاز العلمي: العلم الحديث هو ثمرة الجهد العقلي العلمي، والتجارب العلمية التي قام بها الإنسان عبر آلاف السنين، ونقصد بالإعجاز العلمي الحقائق العلمية التي عرضها القرآن الكريم حين نزوله على النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزمن، في وقتٍ لم تكن البشرية في تقدّمها العلمي قد توصّلت إلى معرفتها بعد، ولكن مع تطوّر الوسائل العلمية عبر الزمن، وتقدّم المستوى العلمي للبشرية في العصر الحديث، توصّل العلماء لهٰذه الحقائق، فهٰذه المعلومات التي كان يعجز البشر عن الإتيان بمثلها في ذلك الوقت، هي إعجاز لهم، ليؤكّد أنّ هٰذا الكتاب هو من عند الله، ويؤكد صدق الرسول ﷺ في رسالته وتبليغه عن ربّه، ويدُلّ على وجود خالق لهٰذا الكون، ويقوّي الإيمان به، ويدفع الشكوك والأوهام عنه، كما يدلّ على صفاته الكمالية، وأسمائه الحسنى.

لما أُنْزِلَ القرآن على قلب الحبيب محمد ﷺ كانت في الأرض حضارتان قويّتان تتنازعان السيطرة، دولة الرومان، ودولة الفرس، وشريعتان هما: اليهودية والنصرانية، وكان العرب في جزيرتهم في جاهلية عمياء، وعبادة للأوثان، فلم تكن البشرية تؤمن بالله الإيمان الصحيح، فقد أشرك به الرومان بنسبة الزوجة والولد له، وانحرف الفرس في عبادتهم لغير الله، واتخذوا من النار إلٰهاً، فأرسلَ الله نبيّه محمداً ﷺ ليبيّن للناس الدينَ الحقّ، وليصحّح مفهوم الألوهيّة عند البشر، فينزّه الله عن الشريك، وعن الزوجة والولد، والنقص، والتشبيه بالمخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وليدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد، وكم سقطت عقائد وملل ونحل ومذاهب أمام التطوّرات العلمية الهائلة المعاصِرة، وأما الإسلام فقد بقي بعقيدته، بل جاء العلمُ الحديث ليؤكّدها باكتشافاته واختراعاته وتقدّمه، وهٰذا إعجاز، لأنّ كلّ العقائد الفاسدة عجزت عن اللحوق بركب الحضارة الحديثة ومواكبتها، بينما جاء العلم الحديث ليبرهن على صحّة العقيدة الإسلامية، وهٰذا ما يُنْبِىءُ بأن المستقبل للإسلام.

مدى العلم الحديث والحضارة المادية

البشرية اليوم بحاجة ماسَّة لسموّ الروح، وسط الصراع المادّي على السيطرة الفردية. وإنّ سوء استخدام القوّة، والطاقة، والاكتشافات العلمية من قِبَل بعض المادّيّين المُلحدين العَلْمانيين، ومحاولتهم استعباد الناس بالقوة، وإذلال رقابهم بفرض مبادئهم فرضاً، وعَبَثِهم المُضِرّ بحياة البشرية دليل على إفلاسهم الحضاري، فهم مثلاً قد تسبَّبوا في إحداث ثُقْبٍ في طبقة الأوزون، وهي بالغة الأهمية من أجل الحفاظ على الحياة على سطح الأرض؛ ذلك لأنها تمتصّ الأشعة فوق البنفسجية من فئة (ب) الخطرة على الكائنات الحية كافة، ومن نتائج ثقب هذه الطبقة إحداث أضرار جسيمة على البشر. ومنها: التسبب بسرطانات الجلد، وحدوث تلف في الحمض النووي (DNA) التأثير الوراثي، ومنها: ضعف الجهاز المناعي للإنسان، ونقص المحاصيل الزراعية، وإتلاف الغابات، وتغيّر المناخ على سطح الأرض. والسَبَبُ في إحداث ثقب الأوزون هو إنتاجُ مُركّبات (الكلورو فلورو كربون) كل سنة في العالم، بما يزيد على المليون طن، وتُنْتِج أمريكا وحدها ثلث هٰذه الكمية، وتنتج أوروبا ثلثها الثاني، وتُنتجُ اليابان 15٪ منها، وهٰذا كله يؤدي إلى اختلالات خطيرة في حياة الإنسان على وجه الأرض، ومنها: تبدّل الطقس من حرارة وبرودة.

كذلك فإن إحراق (الوقود الحفري) المستخرج بالحفر كالنفط، يعتبر المصدر الرئيسي لانبعاث ثاني أوكسيد الكربون المُصنَّع، ويساهم هٰذا الغاز بنسبة 50٪ من غازات الاحتباس الحراري، وتشير التقارير بسببه بأن من المتوقَّع أن ترتفع درجة حرارة الأرض، مما سيؤدّي إلى ذوبان بعض جليد القُطبَيْن ممّا يُغْرِقُ بعضَ المناطقِ الساحلية المنخفضة. إن هٰذا كله ينذر بفشل الحضارة المادية المعاصرة لخوائها الروحي، وفسادها الأخلاقي، وإضرارها بالإنسان بسبب سوء استخدامها للعلم ومكتشفاته.

القرآن كتاب هداية

والقرآنُ الكريم هو كتاب هداية، أنزله اللّهِ لِلبَشَر ليهديهم إلى الدين الحق، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وليرشدهم إلى الصراط المستقيم في الدنيا

الموصل إلى رضوان الله، وليبيّن لهم شرعه الّذي ارتضى لهم، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]. وليس كتاب هندسة أو رياضيات، أو طب، أو فيزياء، أو كيمياء، أو فلك أو غيرها من العلوم الكونية، وعلى الرغم من ذلك، فقد تضمن آيات تحدّثت عن ظواهر علمية وفلكية وهندسيّة وطِبّيّة توصّل العلم الحديث إلى اكتشافها، بعد تطوّر وسائله وتجاربه ونظريّاته ليلفت أنظار الناس إلى الإيمان بالله بذكر آيات في الكون يستدلّون بها على الخالق العظيم الحكيم الخبير، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: 46]، ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101]، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: 45] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۝ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: 43 ـ 44].

وليستدلّوا على اليوم الآخر أيضاً قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78 ـ 79]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: 9 ـ 11] وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: 50].

وهو يدعو الناس إلى إعمال العقل، والتأمل، والتفكّر، والنظر في المخلوقات من حولهم ليؤمنوا بالخالق، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ

خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: 17 ـ 22].

شروط التفسير العلمي: لا يسوغ لأحد أن يفسّر القرآن برأيه لقوله ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار**». (أخرجه الترمذي وأحمد) وقد حدّد العلماء شروطاً يجب أن تتوافر في المفسّر منها:

1 ـ أن يكون التفسير منبثقاً عن أحد المصادر الخمسة لتفسير القرآن، وهي: تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالحديث إن لم يوجد في القرآن، فإن لم يوجد فيهما فبأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين إذا اتفقوا، وبلغات العرب، فإذا كان هناك معنيان لغويّان أخذنا بما يوافق المصادر الأربعة السابقة، مع كون المفسّر يتمتّع بشروط المفسّر التي ذكرها العلماء في كتبهم، وأهمها: علم التوحيد والإيمان، ومعرفة ما يجب لله وما يجوز في حقّه وما يستحيل عليه، وعلم الحديث؛ لأن السنة تفسّر القرآن وتبيّن مُجْمَلَه ومُبْهَمَه، وتخصّص مُطلقه، وعلم الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية من حلال وحرام، ومعرفة أصول الفقه، وقواعد استنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها التفصيلية، وعلوم اللغة العربية بنحوها وصرفها، وبلاغتها، ووجوه الاستعمالات اللغوية ليفهم الكلام على وجهه الصحيح، ولا يخرج عن ذلك. ويُضاف إلى كل ذلك خوف المفسّر من الله العظيم من أن يقول في كتابه بغير علم، ويلوي معاني الآيات ويبتعد عن معانيها الأصلية ليؤيّد نظريات مخالفة للدين الحق، كما نشاهد اليوم من كثير ممّن يخترقون الإسلام من العَلْمانيين، الذين يريدون حرف المسلمين عن دينهم، بإحداث مفاهيم جديدة لم يقل بها الأوّلون والآخرون، يخالفون بها عقائد المسلمين ليُخْرِجوهم من دينهم.

4 ـ الرشيد

أي ذو الرَّشاد، والرَّشَادُ: مُوَافقة الحقّ والصواب في جميع الأفعال. ومن ذلك نرى جميع أفعال الخالق موافِقَةً لوجه الرَّشادِ والحقِّ.

لم يَرِدْ هٰذا الاسمُ في القرآن الكريم، لكنَّه مُجْمَعٌ عليه، وقد ورد في حديث أبي هريرة: ﷺ الذي أخرجه الترمذي والبيهقي في كتابه «الدعوات الكبير».

قال حُجَّة الإسلام الإمامُ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنَى»: (الرشيد هو الذي تَنْسَاقُ تَدْبيراتُه إلى غاياتها على سنن السداد مِن غير إشارة مشير، وتسديد مُسَدِّد، وإرشاد مرشد، وهو الله تعالى، ورُشدُ كلِّ عَبْدٍ بِقَدْرِ هِدَايَتِهِ في تَدْبيراتِهِ إلى إصابة شاكِلَةِ الصوابِ من مقاصده في دينه ودُنْياهُ).

وقال الإمامُ مجدُ الدين أبو السعادات المُباركُ بن محمد الجَزَرِيُّ المعروف بابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الرشيدُ هو الذي أرْشَدَ الخَلْقَ إلى مَصالِحِهم أي هَداهُم ودَلَّهُم عليها، فهو على وزن (فَعِيل) بمعنى (مُفْعِل) أي مُرشِد.

وقد جاءت كلمة (رشِيد) في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى حاكياً عن نبيّه لوطٍ عليه السلام مخاطباً قَوْمَه وقد أرادوا الاعتداء على ضيوفه بالفاحشة: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: 78] أي فيه خيرٌ ما آمره به، وقال حاكياً على لسان قوم نبيه شعيب عليه السلام بعد أن أمرهم بعبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان وعدم الإفساد في الأرض: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] أي العاقل المُهْتَدِي الحكيم. قال ابن عباس: يقولُ ذلكَ أعداءُ الله لنبيّهم على سبيل الاستهزاء، قَبَّحُهُمُ اللَّهُ ولَعَنَهم.

وقال تعالى حاكياً عن إرسال نبيِّه موسى عليه السلام إلى فرعون أنّ فرعون لم يكن على رُشدٍ من أمره بادّعائه الألوهية، واتِّباع قومه له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 96-97] أي ليس فيه رُشدٌ ولا هُدًى، وإنما هو جَهْلٌ وضلالٌ وكُفْرٌ وعِناد.

كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتي وسُنَّة الخُلَفَاءِ**

الراشِدِينَ مِنْ بَعْدِي» (أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد) يُريد بهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم، والراشِد اسم فاعل من رَشَدَ يَرْشُدُ رُشْداً.

إنّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ رَشِيدٌ، وأن جميعَ أفعال الخالق موافِقَةٌ لوجه الرَّشاد والحقّ والصواب يَثِقُ بِرَبِّه ويَمْضِي على بَصِيرَةٍ مِنْ أمره دونما شَكٍّ في إيمانه أو عقيدته، وهٰذا ما يميّز إيمان المسلمين عن غيرهم، فهم على ثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ تامَّةٍ بأنهم على الحقّ والهُدَى والرشاد وهٰذا ما يحملهم على الثبات على حقّهم ودينهم وعقيدتهم وعدم التخلّي عنه مطلقاً.

نَجاةُ المُؤْمِن مِنْ عذاب الحيرة والشَّكِّ

لقد جاء الدين من عند الله مرشِداً للإنسان بما يُكمِّلُ فطرته، ويأخذ بيد عَقْلِه، ولم يجىء بما يُصادم الفطرة، أو يُناقض العقل، والعقلُ مهما أوتي من الذكاء والقدرة على الاستنتاج محدود مُقيَّد بقيود الزمان والمكان والوراثة والبيئة، فلا غِنَى له أبداً عن سَنَد يُسَدِّدُه إذا أخطأ، ويهديه إذا ضلّ، ويُرشده إلى الصواب، وهٰذا السند هو الوحيُ من عند الله، الذي أراح الإنسان من عناء البحث فيما يبدّد طاقته دون الظفر بما يُشْبِع ويُغنِي. وأعفاه من السير في دروب مُعْتِمَة ومُلْتَوِيَة، لا يدري أين توصله، وقدَّم له ما ينبغي أن يعلمه عن مبدأ الوجود ومنتهاه، وعلّته وأسراره، سالِمَةً من جدل المجادِلين، وفلسفة المتفلسفين، وأوهام المُتَكلِّفين.

كيف يكون حال الإنسان لو مشى في درب الحياة وحده دون دليل مِن وحْي الله؟ إنه سيضرب في مَتاهة لا يعرف فيها شيئاً، ويَسْبَحُ في بحار من ظلمات الشك والحيرة، لا يهتدي فيها إلى بَرٍّ وقرار، كالتي حدّثنا عنها الله تعالى في كتابه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 40]. لقد حاول كثير من الفلاسفة في القديم والحديث أن يحلّوا ألغاز الوجود، ووضعوا فلسفات وتشريعات، وسَنّوا قوانين ودساتير ليظفروا بطمأنينة النفس البشرية وسعادتها، عن طريق الفلسفة البشرية بعيداً عن هدى الله فأفلسوا وعجزوا.

الفلسفة الإسلامية: قال الفيلسوف المسلم الفخر الرازي في كتابه «أقسام اللّذات»، بعد أن طالع أفكار الفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين: «لقد تأمَّلْتُ الكتبَ الكلامِيَّة، والمناهج الفلسفية، فما رأيتُها تروي غليلاً، ولا تُشْفِي عليلاً، ورأيتُ أقربَ الطُرُقِ طريقة القرآن، ومَن جَرَّبَ تجربتي عرف مثل معرفتي».

وهكذا أَفْلَسَت الفلسفات البشرية أن تمنَحَ القلبَ الإنسانيّ طمأنينته التي هي أول عنصر لسعادته، ومَحالٌ أن يَسْعَدَ إنسانٌ يُؤرِّقُ الشكُّ ليله، ويُكدِّر القَلَقُ نهارَه، وعَرَفَ المُنْصِفُونَ أن أهْدَى السُّبُلِ وأقرَبَها وآمَنَها للظفر بالطمأنينة إنما هو سبيل الله، إنه البَلْسَم الشافي من الشك المُحطّم، والقَلَق المُفْزِع، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: 43]، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل: 89]، والحق المُبين هو الذي اتّضحت أعلامه واستبانَتْ طريقه، وزال عنه الغُموضُ واللَّبْسُ، والاختلافُ والرَّيْبُ، وشعورُ الإنسان واعتقاده أنه على (الحق المُبين)، وأنه على (صِراطٍ مستقيم) شعورٌ لا يَظفَرُ به غيرُ المؤمن بوحْيِ اللّهِ وهُداهُ، وأما الذي شَرَدَ عن هُدَى اللّهِ فهو ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: 71]. إن الوحيَ وحدَه هو السبيل للوصول إلى اليقين في قضايا الوجود الكبرى، وبغير الوحي لن يهتدي الإنسان ولن يكون لديه يقين، وبغير اليقين لن تكون لديه سَكينة، وبغير السكينة لن تكون سعادة. بالوحي وحده يبلغ المؤمن درجة علم اليقين، وقد يرتقي بروحه حتى يشارف عين اليقين، قال أحد الصالحين: «لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازدَدْتُ يَقيناً»، ذلك لأنه آمن بما أخبر به الوحيُ إيماناً تَجَلَّت به حقائق الوجود لعين قلبه كأنه يراها بعينيه، ويشهدها حاضرة كالشمس في رابعة النهار.

بين الدين والفلسفة

أ ـــ تعريفات

الدين

هو مجموع التعاليم والشرائع والأحكام الإلٰهية المُبَيَّنَة بكلام الله سبحانه وتعالى، المجموعة في الكتب والصحف المُنزَلة بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام على الأنبياء والرسل من آدم عليه السلام إلى خاتمهم وهو محمّدٌ ﷺ، والدين عند الله واحد هو الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85].

وأما الفلسفة

فهي مجموع الآراء والنظريات والأفكار التي صدرت عن بعض الناس حول وجود الكون والإنسان والحياة، وهي بعبارة أخرى إطلاق العقل الإنساني في التفكير والتحليل بعيداً عن هدى الله ودينه، لذلك فقد تعدّدت هٰذه النظريات وتضاربت وتناقضت.

متى أُنزل الدين؟

حينما خلق اللّهُ سبحانه وتعالى الإنسان الأول وهو آدمُ عليه السلام، وأهبطه إلى الأرض بسبب خطيئته التي اقترفها، أنزل معه هُدًى يهتدي به، ولم يتركه يتيه في الحياة الدنيا في ظلمات الحيرة والشكّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: 38، 39] قال أبو العالية في تفسير (الهدى) قال: هم الأنبياء والرسُل والبيّنات والبيان، وفي

قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: أَقْبَلَ على ما أُنْزِلَتْ به الكُتُبُ وأُرسِلَتْ به الرسُلُ.

ماذا يحتوي الدين؟

لقد بَيَّن اللَّهُ سبحانه للإنسان كلَّ شيء ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: 89].

وأخرج الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود قال: خطّ لنا رسولُ الله ﷺ خطاً ثم قال: «**هٰذه سبيل الله**»، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: «**هذه سُبُل متفرّقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: 53] ومعنى قوله ﷺ: «**هذه سبيل الله**» أي مثلٌ له في الاستقامة، وإحاطة الخطوط المعوجّة به التي هي أمثال السُبُلِ الشياطين من الجن والإنس، وما جاءوا به من فلسفات وتشريعات. فاللَّهُ بيّن له نَشْأَتَه، ومَصِيرَه، ودَلَّهُ على خالِقِهِ، وبَيَّن له دَوْرَه في الحياة ومُهِمَّتَه ووظيفته فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: 56 ـ 58]، فبَيَّن أن دوره في هٰذه الحياة الدنيا هو عبادَةُ اللَّه، فاللَّهُ هو الرب الخالقُ المَعْبُودُ؛ والإنسان عَبْدٌ مخلوقٌ لِلَّه فوجب عليه أن يَعْبُدَ خَالِقَه، وأول العبادة المعرفة، فإذا عرف أن ربه خالق عظيم متصف بكل كمال ومنزّه عن كل نَقصَ، وأنه الرب المعبودُ، وجب ان يخضع له ويُطيعه فيما أمر ونهى، ويشكره على نعمه التي أغدق بها عليه، ويتّبع هُداه الذي أنزله على رسله، ولا ينساق وراء صيحات الشياطين من الجن والإنس، ولا يتّبع هواه وشهواته لكي لا يضيع ويضلّ ويهلك.

أهمية الدين في الحياة

تُرى لو لم يُنْزِلُ اللَّهُ الدينَ، ما الذي يوضّح للإنسان طريقه في الحياة وغايته، ويبيّن له دوره فيها، ومصيره ومستقبله؟ وما الذي يضع للإنسان القواعد الأخلاقية السليمة الصحيحة؟ وما الذي يحدّد للإنسان سلوكه المستقيم؟ ويرسم له

طريقاً موصلاً إلى غاية لا عِوَجَ فيها، ويدفعه إلى السير في هذا الطريق القويم؟ ما الذي سينظم علاقته بربّه، وعلاقته مع نفسه، ومع أسرته وعائلته، والمجتمع من حوله؟ هل هي سلطة الحكم والقانون؟ أم الفلسفة؟.

أما سلطة الحكم والقانون فهي أمر لا بُدَّ منه لتنظيم شؤون الجماعة وتحديد علاقاتها، ولكنها لا تصلح وحدها لضبط سلوك البشر؛ لأن سلطانها على الظاهر وليس على الباطن، ودائرتها في العلاقات العامة لا في الشؤون الخاصّة، ومهمّتها معاقبة المسيء دون أن تستطيع مكافأة المحسن، كذلك فإن البشر في مقدورهم التحايل على سلطة القانون، وتطويع نصوصه لأهوائهم، والهرب من عقوباته، فالقانون وحده إذن عاجز عن أن يكون زاجراً عن الشرّ، ورادِعاً عن الجريمة والفساد، وهو أعجز أيضاً عن أن يكون دافعاً إلى الخير، أو باعثاً على حق، أو حافزاً على عمل صالح.

إذن فلا غِنى لسلطة القانون والحكومة عن سلطانٍ نازِعٍ وازِعٍ، يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حُرُماتِه، وقد تبيّن بالاستقراء التاريخي أنه ليس على وجه الأرض قُوَّةٌ تكافىء قوّة التَدَيُّن، أو تُدانيها في كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه.

والسرُّ في ذلك أن الإنسان يمتازُ عن سائر المخلوقات الحية بأن حركاته وتصرُّفاته الاختيارية تَنْبُعُ من عقيدته، فالعقيدة والإيمان هما المُوَجِّهان لتصرُّفات الإنسان الخارجية، والإنسانُ يُسَاق من باطنِهِ لا مِن ظاهره، وليست القوانين ولا السلطات الحكومية بكافِيَيْن وحدهما لإقامة مَدَنِيَّة فاضلة تُحْتَرَمُ فيها الحقوق، وتُؤَدّى الواجباتُ على وجهها الكامل، فإنّ الذي يؤدّي واجبه رَهْبَةً من السَوْط أو السجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يُهمِلَهُ متى اطمأنَّ إلى أنه سَيَفْلِتُ من سلطة القانون.

كذلك فإنه من الخطأ أن نظن أن في نشر التوعية والثقافة وحدها ضماناً للأمن والرخاء، إذا لم يكن هناك رادِعٌ ديني وتربية وتهذيب خلقي، تدفع الإنسان للعمل والأخذ بالتعاليم. إن هناك حلقةً مفقودة لم يتوصل الغربُ إليها في حضارته المادّيّة رغم تطوّره الهائل في مجال العلوم والتكنولوجيا، إنها الوصول

إلى الحِسّ الداخلي الذي يُحرِّك تصرُّفات الإنسان، وهذا الحِسّ لا يربّيه شيء إلا الدين الصحيح، إنه الشعور بالإيمان بالخالق ورقابته الدائمة، والخوف من عقابه، والرجاء في ثوابه، وإن التقدُّم العلمي الهائل هو سِلاحٌ ذو حَدَّيْن، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولا بدّ في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي ووازع ديني يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض.

فشل الفلسفة في بناء الإنسان الصالح

إذا تتبّعنا تاريخ الفلسفة ومذاهبها القديمة والوسيطة والمعاصرة، نجد أولاً أنّ لكل فيلسوف مذهباً، وكلُّ مذهبٍ له مقياسٌ، وآراءٌ، ونظرياتٌ متناقضة، فأية فلسفة تلك التي يَتَّبعها الناس؟ أهي فلسفة المنفعة التي نادى بها (وليم جيمس)؟ أم فلسفة اللذَّة التي نادى بها (أريستيب) و(أبيقور)؟ أم فلسفة القوّة التي نادى بها (نيتشه)؟ أم فلسفة الواجب التي دعا إليها (كانت)؟ أم فلسفة الإلحاد التي دعا إليها (ماركس)؟

ولقد أخطأ الفلاسفة ثانياً حينما صَنَّفُوا أنفسهم فوق رتبة البشر، وأعطوا أنفسهم حق التشريع والتنظير وإصدار الأحكام؛ لأنهم بذلك تخطَّوْا حدودهم البشرية، فالتشريع ليس من حقّ الإنسان المحدود التفكير، وإنما هو للَّهِ وَحْدَهُ خالقِ البَشَرِ، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]. وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [الأنعام: 62]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: 70]. وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: 88].

وأخطأوا ثالثاً عندما خاضوا في أمور الغَيْبِ بغير علم ولا سلطان أتاهم، وأطلقوا أحكاماً خاطئة مخالفة للصواب، بينما أَرْسَلَ اللَّهُ وَحْياً من عالم الغيب يخبر بما فيه من حقائق.

وقد تَتَبَّعَ حُجَّةُ الإسلام الإمام الغزالي الفلاسفة وأبطل مذاهبهم، وصنّف في ذلك كتباً منها: «مقاصد الفلاسفة»، و«تهافت الفلاسفة»، و«المنقذ من

الضلال»، قال في التهافت: (أما بعد: فإني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التمييز عن الأتراب والنُظراء بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات، والتوقّي عن المحظورات، واستهابوا بتعَبُّدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون يتَّبعون فيها رهطاً يصدّون عن سبيل الله، ويبغونها عوَجاً، وهم بالآخرة هم كافرون. . . ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر).

وكان من أثر هذه الضربة المؤلمة التي وجهها الغزالي إلى الفلسفة أن ركدت، وأبعد الناسَ عنها ودعا إلى إحياء علوم الدين، فكان له أبعد الأثر في ردّ الأمة إلى دينها بعد أن كادت تضل في متاهات الفلسفة ونظرياتها المختلفة. وتوالى العلماء المسلمون في التحذير من الفلسفة، وبيان ضلال أصحابها، ومنهم: الفقيه المحدث المشهور عثمان بن عبد الرحمٰن أبو عمرو ابن الصلاح الشهرزوري الشافعي المتوفّى عام (643 هـ) الذي ذكر في فتاويه جواباً عن سؤال عن الفلسفة وأصحابها فقال: (الفلسفة أسّ السفه والانحلال، ومادّة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومَن تفلسف عمِيَت بصيرَتُه عن محاسِنِ الشريعة المطهّرة، المؤيَّدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومَن تَلَبَّسَ بها تعلُّماً قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأيُّ فَنٍّ أخْزَى مِن فَنٍّ يُعْمِي صاحبه، ويُظلِم قَلْبَه عن نُبوة نبيّنا محمّدٍ ﷺ . . .)

5 ــ البارىء

لما كان الخَلْقُ صادراً عن حكيم رشيد، كان لا بُدّ أن يأتي أيُّ مخلوق له في ذروة الكمال للغاية التي أُعِدَّ لها، ومتى كان كذلك كان هٰذا المخلوق مُبَرَّءاً من أي نقص عن مرتبة الكمال بحسب الغاية التي أعدّ لها، ومتى كان المخلوق مُبَرَّءاً من النقص المذكور، كان خالقُه هو البارىء له، ومِن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (البارىء).

و(البارىء): مأخوذ من البُرْءِ، وهو خلوص الشيء عن غيره، وفاعل البُرء في الخلق هو الذي جعل المخلوقات كلَّها بريئة وخالصة من التنافر المُخِلّ

بالنظام، فهو أدلّ على كمال الخلق من لفظ الخالق، فالله سبحانه هو الخالق البارىء. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: 24]. وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط.

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثِير الجزري الشافعي رحمهُ الله في معنىٰ هٰذا الاسم في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (البارىء هو الذي خَلَقَ الخَلْقَ لا عَنْ مِثال، ولٰهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ـ أي: ما فيه حياة ـ ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلّما تُستعمل في غير الحيوان، فيُقال: بَرَأَ اللَّهُ النَسَمَةَ، وخَلَقَ السمٰوات والأرضَ).

وقال حُجَّةَ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: في تفسير الأسماء الثلاثة: الخالق البارىء المُصوِّر: (قد يُظَنّ أن هٰذه الأسماءَ مُترادِفَةٌ، وأن الكُلَّ يرجع إلى الخلق والاختراع. ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يَخْرُجُ من العَدَمِ إلى الوجود فيفتقر إلى التقدير أوّلاً، وإلى الإيجاد على وِفْقِ التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً، واللَّهُ تعالى خالقٌ من حيث إنه مُقَدِّرٌ، وبارىء مِن حيث إنّه مخترعٌ مُوجِدٌ، ومصوِّرٌ من حيث إنه مرتِّبٌ صُوَرَ المخترعاتِ أحسن ترتيب).

خلق الإنسان

من ينظر في القرآن يلاحظ أنه قد ورد فيه أن الإنسان مخلوق من تراب في موضع، وفي موضع آخر مخلوق من طين، وهنالك آية تقرر أنه مخلوق من حمأ مسنون، بينما تقرر آية أخرى أنه من صلصال كالفخار، وآية ثالثة تقرر أنه مخلوق من ماء دافق...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: 5].

وقال أيضاً: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7].

وقال أيضاً: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 33].

وقال أيضاً: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمٰن: 14].

وقال أيضاً: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: 5 ـ 7].

فخلق الإنسان من التراب فيه إشارة إلى الأصل الذي ينتمي إليه الإنسان، الذي لم يخلق من العدم المحض. فالمرحلة الأولى لخلق الإنسان كانت من التراب، ثم المرحلة الثانية من الطين، أي: التراب الممزوج بالماء، ثم الحمأ المسنون أي الطين المسود المنتن، الذي تحول إلى صلصال كالفخار، وقد ذكر ابن عباس أن الصلصال: هو التراب اليابس والفخار هو: الطين اليابس.

هذا تطور خلق البدن، فإذا بدأ هدم البدن فإنه ينهدم تدريجياً من آخر مرحلة وهي الصلصال، إلى أول مرحلة وهي التراب، مروراً بمرحلتي الحمأ المسنون والطين. كما قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: 55].

فإذا فارقت الروح البدن، تحول جسم الميت إلى صلصال كالفخار، الذي يحرق حتى يتحجر. وكما أن الفخار إذا نقرته بإصبعك أحدث صوتاً، كذلك الأمر فإن بدن الميت إذا نقرته أحدث صوتاً. فإذا دفن هذا البدن، بدأ في الفناء على التتابع بحيث يعود حمأً مسنوناً، ثم يتبخر الماء من الطين فيعود البدن تراباً. إن العناصر الأولية للبدن الإنساني تشبه منجماً صغيراً، يشترك في تركيبته حوالي 22 عنصراً، أهمها: الماء الذي يأخذ نسبة عالية، وهذه العناصر جميعها موجودة في تراب الأرض، لكن من الملاحظ أن مكونات التراب تتعدى مائة عنصر، لم يظهر في الأرض منها أكثر من 22 عنصراً.

وبعد أن خلق الله تعالى آدم وحواء أصبح بقية البشر يأتون على نظام واحد (من ذكر وأنثى) أي: من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب.

الصلب والترائب

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: 5 ـ 7].

هذه الآيات تحض الإنسان على التأمل والتفكير والبحث في أصل المادة التي خُلق منها وفي مصدرها. فهو قد خُلق من ماء مندفع، مكانه بين العمود الفقري وعظام الصدر.

وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الجنين يتكون من مني الرجل الذي يخرج من الخصيتين، ويتحد ببويضة الأنثى التي تتكون في المبيض، كما بيّنت هذه الدراسات أن أصل الخصيتين والمبيض من حدبة تناسلية لدى الجنين، موجودة بين خلايا العمود الفقري وخلايا عظام الصدر، بعد ذلك تبدأ الخصيتان بالنزول تدريجياً حتى تستقرا في موضعهما النهائي خارج الجسم، في أواخر الشهر السابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض الأنثى ليصل إلى موضعه النهائي في هذا الشهر.

وقد كشف علم الطب الحديث أن تغذية الخصيتين والمبيض بالدماء والأعصاب، إنما تأتي من بين الصلب والترائب، مكان نشأتها الأولى.

ظلمات ثلاث

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: 6].

والظلمات الثلاث التي وردت في الآية، رأى علماء التفسير أنها ظلمة البطن والرحم والمشيمة التي هي كيس يغلف الجنين. وقد ذكر الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس ـ لبنان ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن بويضة الأنثى تتكون في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الألبوميني، ثم تخرج البويضة من المبيض إلى ظلمة عنقه، وراء الرحم مباشرة حيث يصل إليها الحيوان المنوي ليلقحها وينزلا معاً إلى ظلمة الرحم. لكن علم الأجنة الآن يقرر معلومات أدق حول هذه الظلمات:

فالجنين يكون في بطن أمه محاطاً بثلاثة أغشية، لكل منها دوره الخاص به:

ـ **فالغشاء الأول (غشاء السلي)** أو الأمينون، وهو الغشاء الباطن، وهو عبارة عن كيس يحتوي على سائل يقوم بتغذية الجنين وحمايته من الصدمات ويسمح له بالحركة، ويحتفظ له بالحرارة الثابتة.

ـ **الغشاء الثاني (غشاء الكوريون)**، وينحصر دوره في نقل الأغذية والأكسجين من الأم إلى الجنين، كما ينقل ثاني أوكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى الأم.

ـ **الغشاء الثالث (الغشاء الساقا)**، الذي يحيط بالغشاء الثاني، ويتكون من الغشاء المخاطي المبطن للرحم، وهو رقيق إلا أنه ينمو نمواً سريعاً بتأثير هرمون الحمل.

فهذه الظلمات الثلاث التي أشار إليها القرآن، والتي لم يكتشفها العلم إلا مؤخراً.

الأمشاج

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴿٢﴾﴾ [الإنسان: 2].

﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴿٢﴾﴾: فسرها ابن عباس ﷺ بأنها مختلفة الألوان.

أما ابن كثير فإنه يذكر أن ﴿أَمْشَاجٍ﴿٢﴾﴾ تعني: أخلاط، والمشج والمشيج: الشيء المختلط بعضه ببعض.

ومن المعلوم أن الأمم القديمة لم تكن تعلم شيئاً عن حقيقة بداية خلق الجنين وتكوينه في رحم أمه، حتى إن الأمم ذات الحضارة الراقية آنذاك، كاليونان مثلاً، لم تكن معلوماتهم في هذا الموضوع إلا تصورات ساذجة. وعند اختراع المجهر تمكن العلماء من اكتشاف مني الرجل وبويضة المرأة. وفي عام 1875 م اكتشف الإنسان أن الجنين يتكون من تلقيح الحيوان المنوي للبويضة. وبعد ذلك

توالت الاكتشافات لتبين أن هذا الجنين هو خليط متساوٍ من امتزاج الحيوان المنوي والبويضة. ثم في العام 1909 م عرف الإنسان الكروموزومات وانقسامها وخصائصها. وفي عام 1912 م تمكن العالِم (مورجان) من اكتشاف الجينات وعملها أي: الخلية الأمشاج. والأمشاج هي: الأخلاط المؤلفة من ماء الرجل وماء المرأة. فبعد عملية التلقيح يبدأ العمل المشترك لتكوين وبناء الإنسان الجديد، وذلك بين بويضة الأنثى والحيوان المنوي للذكر.

فيمشج الشريكان كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط النووي (الكروموزومات)، وما فيها من الخلق المخلَّقة (الجينات) التي خلقها الله تعالى، عبر الأجيال، من الجدود والآباء إلى الأبناء والأحفاد. ومن هذا الاختلاط تتكون النطفة الأمشاج.

وهذه الجينات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان، فهي تحتوي الخصائص الفردية، والأحوال النفسية، والألوان، والأجناس. وهي من الدقة بحيث لو جمعت جينات البشر جميعاً في مكان واحد لكان حجمها أقل من حجم (الكشتبان).

مراحل تطور الجنين

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: 5].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12 ـ 14].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ

فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: 36 ـ 40].

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: 17 ـ 19].

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: 20 ـ 22].

يذكر ابن كثير أن النطفة تلتصق بالرحم وتمكث أربعين يوماً، يضاف ما يجتمع إليها ثم تنقلب علقة حمراء، فتمكث أربعين يوماً ثم تستحيل فتصير مضغة أي: قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط. ثم يتشكل منها: رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء. وقد أجمع المفسرون على أن المضغة المخلقة هي التي تكون خلقاً سوياً، بينما غير مخلقة تعني: ما دفعته الأرحام وألقته قبل أن يكون خلقاً سوياً. وبعد الأجل المسمى يخرج طفل ضعيف في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله. ثم يعطيه المولى القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به، ويحنن والديه في آناء الليل وأطراف النهار. وبعد ذلك يبلغ أشده من القوة، وعنفوان الشباب، وحسن المنظر. فبعض البشر يموتون خلال تطور حياتهم، والأقلون يصلون إلى الشيخوخة والهرم، وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقض الأحوال من الخرف، وضعف الفكر.

إن علم الأجنة في عصرنا الحاضر قد تمكن من اكتشاف المراحل المتتابعة التي يمر بها الجنين وقد حدد هذه الأطوار بما يلي:

أ ـ مرحلة النطفة التي أطلقت على ثلاثة أشياء:

1 ـ نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية للذكر، والتي تحمل الملايين من حيوانات الذكورة والأنوثة. وأن هذا المني هو مصدر تحديد جنس الجنين، كما ذكرنا.

2 ـ نطفة الأنثى وهي البويضة.

3 ـ النطفة الأمشاج التي يتكون منها الجنين، وهي المختلطة بماء الرجل وماء المرأة أي: البويضة الملقحة. لقد أثبت علم الطب الحديث أن بويضة المرأة تلقح من قبل حيوان منوي واحد، وهو الذي يتمكن من اختراق غشائها. فإذا تم ذلك، أفرز هذا الحيوان مادة خاصة تُحدث تغيرات بيولوجية داخل البويضة من شأنها منع كل حيوان منوي آخر من اختراقها.

وفي اليوم التالي للإخصاب، تنقسم الخلية المخصبة لينجم عنها البلاستوييد. وبعد أن كانت الخلية المخصبة تحتوي على مجموع كروموزومات الحيوان المنوي والبويضة بشكل منفصل، فإن الخلية البلاستوييدية تحتوي على 22 زوجاً من الكروموزمات وزوج واحد من الكروموزومات الجنسية. ومنذ هذه المرحلة فإن خلايا الجنين تحوي نفس عدد الكروموزومات التي تحتويها الخلية الإنسانية الناضجة.

هذه النطفة الأمشاج تتحول إلى كرة جرثومية، لها خلايا تمكنها من التعلق بجدار الرحم الذي هو القرار المكين، حيث يغور بين عظام الحوض التي تحميه من التأثر باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات ورجّات وتأثيرات.

٢ ـ مرحلة العلقة

وتبدأ منذ اليوم السابع للتلقيح. في هذه المرحلة تفقد الكرة الجرثومية شكلها المستدير، لتأخذ شكل الدودة المستطيلة حيث يتشابه المظهر الخارجي للجنين مع الدم الجامد الغليظ.

٣ ـ مرحلة المضغة

في الأسبوع الرابع تظهر الكتل البدنية الأولى على هيئة خلايا متلاصقة وظيفتها تكوين اللحم. أما شكلها فيكون كقطعة لحم ممضوغة تبدو آثار الأسنان عليها.

ومن المضغة المخططة المخلقة بما تحوي من الكروموزومات المختلطة

وجيناتها، يبدأ تكوين الأعضاء والأحشاء، كما يبدأ تكوين أغشية الحفظ والوقاية والتغذية من الخلايا المحمية غير المخلقة، فيقوم قسم من الخلايا الجرثومية بتكوين مبادىء القلب، بينما يقوم قسم آخر منها بتكوين مبادىء المخ ومبادىء العمود الفقري، إلى جانب خلايا أخرى تقوم بتكوين مبادىء الأجهزة المختلفة، كالهضم، والتنفس والتناسل، إلى جانب آخر تقوم بتكوين العظام، كلٌ في دائرة اختصاصه.

٤ . مرحلة العظام

تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع فتظهر خلالها الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف.

٥ . مرحلة اللحم

أول علامة لها تكون بظهور عضلات الأطراف في الأسبوع السابع.

٦ . مرحلة الإنشاء والخلق

وهي فترة التصوير والتسوية والتعديل ونفخ الروح، فيتحول من خلق إلى خلق في أحسن تقويم. قال الرازي: (أي: جعلناه خلقاً مبيناً للخلق الأول، حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكماً، وسميعاً وكان أصماً، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة، لا يحيط بها وصف الواصفين). وجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية، لكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة المستعدة للارتقاء، بينما يبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان، مجرداً من خصائص الارتقاء والكمال التي يمتاز بها الإنسان.

6 ـــ البَدِيع

إن جميع ما خلق اللَّهُ قد خلقه على غير مثال سابق، وأبدعه إبداعاً تاماً، في صورته وشكله، وجميع جوانب تكوينه، فكان الخالق سبحانه هو المُبْدِع له

والمُصَوِّر، ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (البديع).

والبَدِيعُ معناه: المُبدِع، أي: الموجد للأشياء على غير مثال سابق، ودون إرشاد من أحد، قال الله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: 117]. وقد ورد في موضعين من القرآن الكريم فقط.

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (البديع هو الخالق المخترع، لا عَن مِثال سابق، فَعِيلٌ بمعنى: مُفعِل، أَبْدَعَ فهو: مُبْدِع).

أما حُجّة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، فيشرح هذا الاسم شرحاً آخر يتعلق بالخالق لا بالمخلوق في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» فيقول: (البديع: هو الذي لا عَهْدَ بمثله لا في ذاتِه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في كل أمر راجع إليه فهو البديع المطلق، وإن كان شيءٌ من ذلك مَعْهُودٌ فليس ببديع مطلق، ولا يليق هذا الاسم مطلقاً إلا لله تعالى، فإنه ليس له قَبْلٌ فيكون مثلَه معهوداً قبله، وكل موجود بعده فحاصل بإيجاده، وهو غير مناسب لموجوده فهو بديع أزلاً وأبداً).

قال الشاعر:

لا شيءَ مِثلُكَ في وَصْفٍ ولا ذات ... يا خالقَ الأرض بِدْعاً والسماواتِ

فمثلاً: يخلق الله يومياً مئات الآلاف من الأشخاص، لا يشبهُ أيُّ واحِدٍ منهم الآخر، وكلُّ مخلوق لا شبيه له مِنْ قَبْلُ ولا مِن بَعْدُ، ولكل شخص بصماتٌ تختلف عن الآخر، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: 3، 4].

كذلك فإن كل عُضْوٍ في جسم الإنسان يوجد في مكانه المناسب، بحيث يتحقق أمران: **أحدهما**: القيام بوظيفة العضو. **والثاني**: الجمال بانسجام العضو مع الأعضاء الأخرى منظراً، وكُلَّما تحقّق هذا الانسجام بنسبة أكبر كان الجمالُ أروع وأبدع.

لقد خلق اللَّهُ فَمَ الإنسان في مكان شريف من جسمه، وهو الرأس، وجعل له وظيفتين: إدْخال الطعام والشراب، ووظيفة الكلام، بينما جعل مخرج الطعام في أسفل جسمه، ولنتصوّر أنه وضع الفم في مكان المخرج، والعكس، فكيف يكون وضع الإنسان حين ذلك؟ إن المتأمل في خلق الإنسان يجد بِدْعاً في الصنع، واللَّهُ تعالى دعا الإنسان إلى التأمل في نفسه وفي الكون من حوله ليتعرّف على خالقه وعلى حكمته، وعلمه، وبديع صُنْعه، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: 21] لقد اقتضت حكمة الله وبديع صنعه أن يضع الفم الذي هو مدخل الطعام الطيّب والفاكهة تحتَ الأنف الذي يَشُمُّ رَوائِحَ الطعام الطيِّب والفاكهةَ، فيحرّض على كثرة العُصارات المَعِدِيَّة، ويدفع إلى فتح الشهية، أما مكان خروجِ الروائح الكريهةِ والأصواتِ المؤذيةِ والمناظِرِ البَشِعَةِ، فقد جعله الله في أبعد مكان عن العين والأنف والأُذن، وصدق اللَّهُ العظيم حيث يقول: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التين: 4] فما مِن عُضوٍ في الإنسان إلا وهو في مكانه المناسب في حكمة وإحكام: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾.

ونُريد هنا أن نبيّن آيةً أخرى في الكون تدلّ على عظيم صُنْع البديع، وهي دور الجبال في الأرض، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ: 6، 7]. نلحظ من خلال الآية أن هناك دوراً للجبال مُعَيَّناً أيّده العلم الحديث بكشوفاته بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن، وهٰذا من الإعجاز العلمي في هذه الآية.

فإذا ذهبنا إلى التطبيق الجغرافي لما جاء في هٰذه الآية، نجد إعجازاً لا يملك المَرءُ أمامه إلّا الإيمان بالله والركوع من خشيته، وإدراك قدرته وبديع صُنْعه، والتصديق برسوله وكتابه. فقد أكّد العلمُ الحديث عن امتدادات جذور الجبال تحت القِشْرَة الأرضية؛ لأنه وُجِدَ بالبحث العلمي أن سُمْكَ القشرة الأرضية تحت القارّات 5 كلم، وتتخذ الجبال شكل الأوتاد ووظيفتها، فالجبال ماسكات للقارّات في الصخور السائلة التي توجد تحت القشرة الصلبة، ولولا جذور هٰذه الجبال لَطَفَتِ القِشْرَةُ وسَبَحَتْ فوق صخور الباطن (SIMA) اللَّيِّنة، ولَانْعَدَمَ توازُنُها وثباتُها فوقها، وقد عُرِفَت هذه الحقائق عن طبيعة الجبال

ووظيفتها سنة 1956 فقط، أي: بعد إشارة القرآن الكريم لها بحوالي 1376 سنة.

ولولا انغراس الجبال في مواد السيما، لتحرّكت الجبال والقارّات من أماكنها، نظراً لضآلة كثافتهما، ولو طَفَتِ القارّات وسبَحَت لاضطربت الأرضُ تحت أقدامِنا، ولاهتزّت بِنا.

تُرى من أين كان لمحمد ﷺ أن يأتي بهٰذه الحقائق العلمية الدقيقة عن طبيعة الأرض ودور الجبال فيها وذلك قبل حوالي 1400 سنة تقريباً، يوم كانت المعارف البشرية ضئيلة والاكتشافات العلمية بسيطة؟ لا شك أن هٰذا إخبار من عند الله الخالق العليم، الحكيم الخبير، المُبدِع، أوحى به بواسطة وحيه جبريل لرسوله محمدٍ ﷺ، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3، 4].

ونذكر مثالاً آخر في الكون من حولنا يدلّ على بديع صُنْع الله وحسنَ تدبيره وإحكامه لأمور خلقه، ألا وهُوَ التوازنُ التامُّ في علاقة المخلوقات مع بعضها في هٰذا الكون الرحيب، مِنْ ذلك: توازن الطيور مع الحشرات مع الإنسان مع الحيوان.

تظهر الحشرات في أواخر الربيع من كل عام، إما بتفقيس بيضةٍ وُضِعَتْ في العام السابق، أو من شرنقةٍ كانت تضمُّها في الشتاء، وفي الوقت الذي تتكاثر فيه الحشرات، تكون صغار الطيور قد خرَجَت من بيضها واحتاجت إلى الغذاء، فيجمع لها أبواها الحشرات بمقادير كبيرة من مطلع الشمس إلى مغربها، فينقص بذلك عدد الحشرات نقصاً بالغاً، ولولا ذلك لأصبحت الحشرات مشكلةً كبيرة للإنسان، ووباءً يعجز عن مكافحته؛ لأنها تتغذّى على النباتات، ولو تُركت لأكلت الأخضر واليابس، ولَتَسبَّبَ انقراض النباتات بموت الحيوانات التي تتغذّى على الأعشاب، مما يؤدّي إلى موت الحيوانات التي تتغذّى على اللحوم، وإلى افتقار الإنسان إلى أهم مَوْرِدَيْن لغذائه، وهما: النبات واللحوم، وبالتالي موته، ولأصبحت الأرض موتاً لا حياة فيها.

تُرَى مَن أبدع هذا التوازن العجيب في الجبال، وبين الحشرات والطيور والنباتات والحيوانات والإنسان؟ إنه البديع الخبير ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: 88].

7 ـ المُصَوِّر

معناه: الموجد للصُّوَر، المركِّب لها على هيئات مختلفة، المعطي لكل مخلوق صُورَةً تُميِّزُه عن غيره. وهو مأخوذ من التصوير، وهو التخطيط والتزيين، والمُراد: أنّه المُبْدِع للصُّوَر والمُزَيِّن المُرتِّب لها. قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 24]. وقد ورد في القرآن الكريم في موضع واحد، ووردت صيغة الفعل في خمس مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: 64].

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هٰذا الاسم في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (المُصَوِّرُ: هُوَ الذي صَوَّر جميعَ المَوْجُودَاتِ وَرَتَّبها، فَأَعْطَى كلَّ شيءٍ صُورَةً خاصَّةً، وهَيْئَةً مُنْفَرِدَةً، يَتميَّز بها على اختلافها وكثرتها).

وقال الإمام حُجّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هٰذا الاسم في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (اللَّهُ تعالى خالقٌ مِن حيثُ إنه مُقَدِّر، وبارِئٌ مِن حيث إنه مُخْتَرِعٌ مُوجِد، ومُصَوِّرٌ من حيث إنه مُرَتِّب صُوَرَ المخترعات أحْسَنَ ترتيبٍ، ومثالُه: الإنسانُ، وهو أحد مخلوقاته).

ويقول الدكتور خالص جلبي في كتابه: «الطب محراب الإيمان» عن تصوير الإنسان في بطن أمّه: (إن نموّ الجنين في بطن أمه لا يمشي وفق تسلسلٍ واحدٍ،

فهو في مرحلةٍ يمشي باتجاهِ زيادةِ الخلايا فقط بدون تمييز أو تخصُّص، وهكذا تُصْبِحُ الخلايا أكثر عدداً، ولكنها كلُّها من شكل واحد، ثم تبدأ بعدها عملية التَخَصُّص، حيث تُفْرَزُ مجموعاتٌ لِتَتَخَصَّصَ في إيجاد عضوٍ مُعيَّن، وإذا ظهر هٰذا النسيج أو العضو، فإن له شخصيّته المُسْتَقِلّةِ ووظيفته المُحَدَّدة، وفي آخر المراحل الجَنِينيّة يميلُ الجنين باتّجاه زيادة الوزن، وإعطاء الرَّوْنَق الأخير للإنسان، حتى يخرُج للحياة في أجمل صورة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 5، 6]. ونتساءلُ هنا عن تلك الدِّقةَ العجيبة والرَوْعَة المُدْهِشة في فعل المُسَرِّعات وتنظيمها أثناء خلق الإنسان وبعث الحياة فيه، إن مَنْحى المُسَرِّعات يمشي كما يلي: الأيام العشرة الأولى انقسام رهيب سريع في الخلية الإنسانية الأولى مع المحافظة على الحجم كما هو، ولا يحدُثُ شَيْءٌ سِوَى الانقسام، وهكذا يحدث ما يقرب من خمسين انقِساماً أو يزيد في الخلية الأولى، في رحلتها ضمن بوق الرحم بعد تلقيحها، لتصل إلى داخل الرحم وتلتصق بجدرانه وتُعَشِّشَ فيه، ولنتصوَّر تسلسل الأرقام (1 ـ 2 ـ 4 ـ 8 ـ 32 ـ 64 ـ 128 ـ 256 . . .) ثم ينعطف المُسَرِّع في تخصّص الخلايا وتشكُّل الأعضاء.

وهكذا يتخلَّق الإنسان وتتشكّل أعضاؤه وأجهزته في الأشهرُ الثلاثة الأولى، وكأننا أمام ورشةِ عَمَل أَدَقّ ما تكون، فهذه مجموعة خلايا تتخلّق منها العين، وتلك للأحشاء، وثالثة للأطراف. ثم إن الورشة نفسها لها مُهَنْدِسُون عُقَلَاءُ وعُمّالٌ فَنِّيُّونَ من أدقّ ما يكونُ؛ لأن باجْتِماعِ الخلايا يُوجَد النَّسِيج، وباجتماع الأنسجة يوجد العُضُو، وباجتماع الأعضاء يوجَد الجهازُ، فالمَعِدَةُ مثلاً تتكوّن من طبقاتٍ أربع، والطبقة الداخليّة المخاطيّة تقوم بِعدِّة وظائف، فهي تُنْتِج حمض كلور الماء (HCl) لتهيئة الطعام للهضم، وبنسبة مُرَكَّزة حوالي 4 بالألف، كما أنها تَفرُز خميرة (الببسين) لهضم الطعام، وبالإضافة لذلك تفرز العامل الداخلي الذي يُعتبر بمثابة «إدارة الهجرة والجوازات» التي تعطي «تأشيرة دخول» للفيتامين (B_{12})، وإذا لم يحصل على تأشيرة الدخول هذه لم يمتص. وبالتالي حصل فقر الدم الخبيث الذي يُعتبر مُميتاً إذا لم يُعالجَ.

والعَيْنُ مُكَوَّنةٌ مثلاً من ثلاث كُراتٍ تُغلّفُ بعضَها البَعْضُ، ففي الخارج الطبقة الصلبة الحامية، وهي التي تُرى مِنْ تبارُزِ العَيْنِ الأَمَامِيِّ بالشكل الأبيض، وتُغلّف من الداخل طبقة أولى غنيّة بالأوعية الدموية هي طبقة المشيمية، ومِن أقصى الداخل نرى نصفَ كُرة مسؤولة عن الإبصار، وفيها عشرة طبقات منضّدة فوق بعضِها البعض، وإحدى تلك الطبقات هي المُسْتَقْبِلَة للنور، وفيها نوعان من مُسْتَقْبِلات الضوء، الأول: مختصّ بالنور العادي والضعيف، وهي العُصَيّات، والثاني: مختصة بالنور المركَّز والألوان، وهي مجتمعة في المركز، وهي المخاريط، وعَدَدُ هٰذه المستقبلات في العين الواحدة حوالي (140) مليون عصاة، وسبع ملايين مخروط، وبين الجميع تعاون وثيق في كلّ خلية، وبِتَخَصُّصٍ مُحَدَّدٍ، وتتعاون هٰذه الخلايا مع بعضها لِتكوِّن النسيج، ثم يتضافر عمل الأنسجة لتكوين الأعضاء، ثم تتعاون الأعضاء مع بعضها لتكوين الجهاز، ثم تتعاون هٰذه الأجهزة مع بعضها لتكوين الإنسان السوي، وأيُّ خلل بسيط في العمل معناه حدوث تَشَوُّهٍ مُرْعِب، ولْنَتَصَوَّر لو أن طائفة من الخلايا أثناء انشطارها وُضعت في الفم مكان الشرج، أو العينان مكان الصدر، أو الدماغ مكان البطن، ماذا كان يحدث للإنسان؟ إن هناك مصوّراً خالقاً حكيماً بديعاً عليماً يتولّى عملية الخلق، ولم يحدث في تاريخ الخلق أن وقع خلل أو سهو أو خطأ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: 3، 4].

ثم ينعطف المُسَرِّعُ في اتّجاه ثالث حينَ يَسِيرُ الجنينُ في زيادة الوزن حتى يَصِلَ إلى رقم مقدّر نحو (3250 غ)، بعد أن كان وزن النطفة واحداً من مليار من الغرام، وهكذا ازداد وزن الإنسان ما بين مرحلة النطفة إلى مرحلة التخلُّق الإنساني الأخيرة 3000 مليار مرة.

ثم يخرج الإنسان من بطن أمّه مُجهّزاً بجميع الأجهزة التي تؤهّله للحياة، ويبدأ انعطافٌ جديدٌ في حياة الإنسان، وهي تكوين المعارف والمشاعر والأفكار وبناء النفس الإنسانية، ويتدرّج في معرفة العالَم من حوله، وكأن الحياة هي مرحلة استخدام هٰذه الأجهزة.

ثم تسير الحياة، والإنسان هو هو لم يتغيّر، ولكنه يتغيّر في كل لحظة، ذلك أن خلايا الإنسان تموت ليُولد غيرها، وتستمر عملية الهدم والبناء، فالكريات الحمر تتولّد من مصنع الكريات الحمر وهي: نقي العظام، والمقبرة التي تستقبل الخلايا الميتة هي: الطحال، ويكفي أن نعلم أن عشرة مليارات كريَّة حمراء تموت في الساعة الواحدة ليولد غيرها، ومع ذلك لا يتغير شكل الإنسان وصورته وهيئته التي صوّره الله عليها، والتي لا يشبهه فيها أحد، أثناء حياته، وقبلها وبعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 6 ـ 8].

8 ـــ الهادي

أي: المرشد لخلقه إلى ما فيه صلاحهم، فقد هدى خلقه بالعقل والتوفيق.

إن كل مخلوق في الكون مُهَيَّأ في التكوين العام إلى غاية أُعِدَّ لها، وقد هداهُ الله إلى سلوك السبيل التي تؤدي به إلى الغاية التي أعِدَّ لها بالطبع والاستعداد، أو بالفِطرة والغريزة، أو بالميل والإرادة. والله سبحانه هو الذي خلق كل شيء وهَداهُ إلى غايَتِهِ. فَهَدَى الشجرةَ مثلاً إلى النماء والإثمار، وهدى الماءَ إلى السَيلان والانحِدار، وهَدَى الحيوانات على اختلاف أنواعها إلى اكتِسَاب أرزاقها، وجعل ذلك في فطرتها وغريزتها، وهَدَى الإنسانَ إلى السَعْي والعَمَلِ بالإرادة والاختيار، فسبحان مَن خلق كل شيءٍ وهدى، ومِنْ هنا جاء في المأثور مِن أسماء الله الحسنى: (الهادي).

وهو مأخوذ من الهداية، وهي الدِلاَلَة، سواء كان ذلك بِخَلْق الاستعداد الفِطري، أو عن طريق هِبَة الغرائز، أو عن طريق إقامة الأدلَّة الكونية الصَامِتَة، أو عن طريق إقامة الأدلَّة الناطِقَة المُبَلِّغة على أَلْسِنَةِ الرُسُل، والمقصود من معنى اسم الله (الهادي): هو ما كان عن طريق خلق الاستعدادات الفطرية، وهبةِ الغرائز، فيكون معناه: المرشِدُ لمخلوقاته إلى الغايات التي أُعِدَّت لها بقضاء اللَّهِ وَقَدَرِه. ومنه قولُه تعالى في سورة طه حكاية لقولِ موسى ﷺ في جوابه لسؤال فِرْعَون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ وقولُه تعالى في سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ

فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ وقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في شرح معنى هذا الاسم في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الهادي: هو الذي بَصَّرَ عِبادَه وعَرَّفهم طريق معرفته حتّى أَقَرُّوا بِرُبُوبِيَّتِهِ، وهَدَى كُلَّ مخلوقٍ إلى ما لا بُدّ منه في بقائه ودوام وُجوده).

وقال الإمام حُجّةُ الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الاسم في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الهادي: هو الذي هدى خواصّ عباده أولاً: إلى معرفةِ ذاته حتّى استشهدوا بها على معرفة ذاته، وهدى عوامّ عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته، وهدى كلّ مخلوق إلى ما لا بد منه في قضاء حاجاته، فهدى الطِفْلَ إلى التقام ثدي أُمِّه عند انفصاله، وهَدَى الفَرْخ إلى التقاط الحبّ وقت خروجه من البيضة، وهدى النَحلَ إلى بناء بيته على شكل سُدَاسِي لكونه أوفق الأشكال لبدنه وأحواها له. والهُداةُ من العباد: هم الأنبياء والعلماء الذين أرشدُوا الخلق إلى ربّهم وإلى السعادة الأخروية وهدوهم إلى الصراط المستقيم).

هداية الطفل للرضاعة

لننظر إلى هٰذا الكون الكبير من حولنا، لنرى في الآفاق وفي أنفسنا الدلائل التي تدل على الهادي سبحانه وتعالى، ولنأخذ بعض الأمثلة على ظاهرة الهداية، ومنها: هداية الإنسان والحيوان الطفل عقب ولادته لالتقام ثدي أمّه، وامتصاصه بحركة فسيولوجية منتظمة دون سابق تعليم، فالجنين حين يكون في بطن أمه يتلقّى تغذيته عبر حبل السُرَّة، وبعد الولادة ينفصل عن أمه ليطلب الغذاء بنفسه، ولكنه بسبب صغر سنه وعجزه التام، وعدم وجود أسنان له وقلّة حيلته وإدراكه ومعرفته، يظل يرتبط بأمّه فترة سنتين، وهما فترة الرضاعة، وهي فترة هامّة من حياة الإنسان، يتلقى الطفل فيها الغذاء والحنان والسعادة، فهو بمجرّد خروجه من بطن أمه يبحث عن ثدييها بِنَهَم، وبمجرّد وضعه عليه يمارس الرضاعة بحركة امتصاص عجيبة يشارك فيها اللسان والخدّان والأنف، ويستطيع الرضاعة والتنفس خلالها دون أن يتعرض للاختناق بطريقة تحتاج إلى تعليم وتدريب وممارسة،

والمولود في هذه السن يكون غير قابل للتعليم والتدريب، فمن هداه لهٰذه الرضاعة؟ إنه الله الهادي سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: 3].

تقليب بيض الدجاج

خطر لعالم أن يَسْتَفْرِخَ البيض دون حَضَانَة دجاج، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلمّا جمع البيض ووضعه في جهاز التفريخ نَصَحَهُ فلّاح أن يُقلّب البيض؛ لأنه رأى الدجاج يفعل ذلك، فَسَخِرَ منه العالِم وأفهمه أن الدجاجة إنما تُقَلِّب البيض لِتُعْطِي الجزءَ الأسفلَ منه حرارة جسمها الذي حُرم منها، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يُشيعُ حرارَةً ثابتة لكلّ أجزاء البيضة، واستمرَّ العالِمُ في عمله حتى جاء دور الفَقْسِ، وفات ميعادُه ولم تفقس بيضةٌ واحدة، وأعاد التجربة، وقد استمع إلى نصيحة الفلّاح، أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة فصار يقلب البيض، حتى إذا أتى ميعاد الفقس خَرَجَت الأفراخ من البيض، وآخِر تعليل علمي لتقليب البيض، أن الفرخ حينما يُخلق في البيضة تَرْسُب الموادُّ الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي بدون تحريك. ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير، ولهٰذه الهداية الكاملة الأهمية الكبرى في عملية بقاء الدجاج في العالَم؛ لأنه يعلم تماماً ما يجب أن يفعله، ولا بُدّ أن ذلك فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج. فمن الذي هدى الدجاجة لهٰذا التقليب؟ هل ترى بأعينها فرخَها داخل البيضة وترى غذاءه؟ لا بُدَّ أنها ظاهرة الهداية التي تدلّ على الهادي سبحانه وتعالى.

عودة الطيور إلى ديارها

تهاجر الطيور بشكل جماعي وهي طائرة آلاف الكيلومترات بحثاً عن درجة الحرارة المناسبة والغذاء، وتعود لأوطانها دون دليل للطيران، وهي لا تضلّ طريقها في هٰذا الطيران، فمن السخف أن نقول إن عندها حاسة اتِّجاه، أو غريزة العودة إلى الديار، هذه فقط مجرّد كلمات، ولا توضح شيئاً، نريد أن نعرف بالضبط ما هي الحواس التي تستخدمها الطيور لمعرفة طريق الهجرة، وطريق العودة، وكيف تستطيع أن تعلم بأي اتّجاه تسير، وهي لم تتعلّم في معاهد الطيران، ولا تعرف القارّات ولا الخطوط الجوية بين القارات؟

فمثلاً يقطع الكروان الذهبي من أقصى الأرض شمالاً إلى أقصى الجنوب مسافة ثمانية آلاف ميل عابراً الأمريكتين، من جهة الشرق، ويعود لوطنه من جهة غرب القارّتين قاطعاً المسافة نفسها من طريق غير الطريق الآتي منها.

ويقطع جلم الماء العظيم من شمال المحيط الأطلسي إلى جنوبه ثم يعود من طريق أخرى إلى دياره نفسها.

ويقطع الخَرْشَنَه، ويُسَمَّى: بطل الطيور المهاجرة مسافة أربعة عشر ألف ميل وأكثر عبر القارّات، ليعود لموطنه الأصيل دون أن يضل طريقه، ويهاجر طائر المِمْراح من كندا إلى الأرجنتين بمسافة قدرها سبعة آلاف ميل.

تُرى من هَداها في طريقها إلى مهجرها وموطنها؟ إنه الله الهادي ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ۝١٩﴾ [الملك: 19].

هداية الله للإنسان

أنواع هداية الله

قال الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المفردات في غريب القرآن»:

هداية الله عزّ وجلّ للإنسان على أربعة أوجُه:

الأول: الهداية التي عمّ بجِنْسِها كلَّ مُكَلَّف، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، بل عمَّ بها كلَّ شيءٍ حسب احتماله، كما قال ﷻ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50].

الثاني: هداية الناس جميعاً إلى الحق بالوحي وبإرسال الرُسُل والأنبياء وبإنزال الكتب كالقرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: 24].

الثالث: التوفيق الذي يَخُصُّ به مَن آمَن، وهو المقصود بقوله ﷻ: ﴿زَادَهُمْ

هُدَى﴾ [محمد: 17] وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: 43].

هداية التبيين والتوضيح

لقد هَدَى اللَّهُ سُبْحَانه وتعالى الإنسان حين خلقه وأنزله إلى الأرض، لكيلا يتيهَ في الأرض ويخبطَ خبْط عشواء، فَبَيَّنَ له طريق الخير وطريق الشر، قال تعالى في قصة خلق آدم: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: 38 ـ 39]. وقد زَوَّدَ اللَّهُ الإنسانَ بعَقْلٍ حَازِمٍ مُدْرِك يُمَيِّزُ به الخيرَ من الشرِّ، والحَقَّ من الباطِل، وأرسلَ الرُسُلَ، وأنزلَ عليهم الكُتُبَ لكي يُبَيِّنُوا له الطريق المستقيم، فَكُلُّ إنسانٍ قَدْ هُدِيَ هِدَايَة التبيين والتوضيح، وبهٰذا أُقِيمت الحُجَّةُ على جميع الخلق، قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: 165]. وجعل هذه الدنيا دار امتحانٍ وابتلاءٍ، والآخرةَ دار حسابٍ وجزاء، فمن آمن في هٰذه الدنيا واتَّبع هُدَى الله، ورَضِيَ بدينِ الله عن قناعة وطواعية، وخضع لمولاه ولم يتكبّر عن طاعة الله ولم يتجبَّر على خلقه في الأرض، كان في الآخرة من أهل النعيم والرضوان المُقيم، وأمّا مَن كَفَرَ بربّه واستكبر عن عبادته ورفض الخضوع لخالقه والانصياع لأوامره، واتَّبع شهواتِهِ وأهواءَهُ، وانحرف عن الصراط المستقيم، فهو في الآخرة من الخاسِرين والعذاب الأليم خالداً مُخلّداً فيها.

أسباب الضلال

تُرَى ما هي أسباب الضلال؟ لقد بيّن الله لنا في القرآن الكريم كيف يضلّ الإنسان ولا يهتدي فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف: 146].

لقد خلق اللَّهُ الإنسانَ على فطرة سَوِيَّة سَليمة خالية من الانحرافات والأمراض النفسية والشذوذات، بحيث تنسجم مع الحقّ وتتقبَّلُه إذا عُرِضَ عليها، ولكن الإنسان قد تَتَشَوَّهُ فِطْرَتُه بدوافع من إيحاءات الشياطين ووساوسهم وتضليلهم، فيستجيب لهم، ويطاوعهم، ويَجدُ في ذلك لذَّةً وتحقيقاً لرغباته وشهواته المزروعة بداخل كل إنسان، فَيَدْفَعُهُ حُبُّ الهوى وَالشهواتِ إلى إغماض عينه عن الحق، والاستكبار عليه، والتكذيب به بعدما رآه واتّضح له، وقد يحاربُه إذا أظلم قَلْبُه بالكفر والمعاصي كثيراً. فهذا وأمثاله كذّبُوا وكفروا، واستكبرُوا بغير الحقّ، إنّهم يَرَوْنَ آياتِ اللَّهِ الدالَّة على أُلوهيّته في الكون، ولكنهم يُصِرُّون على عدم الإيمان بها؛ لأن قلوبَهم أظلمت وتغلّفت بغلاف الكفر، فلم تعد ترى نور الحق، ولم يعودوا يتقبّلون هداية الله سبحانه وتعالى.

وأما أصحابُ الفِطَرِ السَوِيَّة السليمة الذين لم تنحرف نفوسهم بضلالات الشياطين، والذين لم يستجيبوا لنداءاتهم، بل كبحوا جماح أنفسهم، ولم ينقادوا لشهواتهم وأهوائهم، بل جاهدوها كما أُمِروا فأولئك هم المحسنون: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ [النازعات: 37 ـ 41].

أنواع النفوس الإنسانية

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: **«مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به من الهُدَى والعِلم كَمَثل الغَيْثِ الكثيرِ أصاب أرضاً، فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلَت الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانَتْ منها أجادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها الناسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وَزَرَعُوا، وأصابت منها طائفةً أخرى إنما هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلك مَثلُ مَن فقِهَ في دينِ اللَّهِ ونفعه ما بعثني اللَّهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لم يرفع بذلك رأساً ولم يَقْبلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ به»**. قال الحافظ ابن حَجَر في كتابه: «فتح الباري شرح صحيح

البخاري»: (قِيعانٌ: جمعَ قاع، وهو: الأرض المستوية المَلْسَاءُ التي لا تنبتُ).
ونقل عن القرطبي في شرحه لهٰذا الحديث قال: (ضَرَبَ النبيُّ ﷺ لِما جاء به مِنَ الدينِ مثلاً بالغيثِ العام الذي يأتي الناسَ في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حالُ الناسِ قبل مَبْعَثِه، فكما أن الغيثَ يُحْيي البلدَ المَيتَ فكذا عُلومُ الدين تُحْيي القَلبَ المَيْتَ، ثم شَبَّهَ السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغَيْثُ على ثلاثة أنواع، فمنهم: العاملُ المُعَلِّمُ، فهو بمنزلة الأرض الطَّيِّبَة شَرِبَتْ فانْتَفَعَتْ في نفسها وأنْبَتَتْ فَنَفَعَتْ غيرَها. (والنوع الثاني): الجامع لِلعِلْم المستغرق لزمانِهِ فيه، غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يَتَفَقَّه فيما جمع، لكنّه أدّاه لغيره، فهو بِمَنْزِلَةِ الأرض التي يَسْتَقِرُّ فيها الماءُ فَيَنْتَفِعُ الناسُ به، وهو المُشَارُ إليه بقوله ﷺ: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءاً سَمِعَ مقالتي فأدّاها كما سَمِعَها، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوْعَى مِنْ سَامِع**».
(والثالث): من يَسْمَعُ العِلْمَ فلا يحفظه ولا يعملُ به ولا ينقله لغيره، أو يسمع الهُدَى فلا يَتَقَبَّلُهُ لقسوة قلبه، واسوداده بالكفر والمعاصي، فهو كمثل الأرض الصمّاء المَلْسَاء المُسْتَوِيَة التي يَمُرُّ عليها الماءُ فلا تَنْتَفِعُ به، وأشير إليه بقوله ﷺ: «**ولم يَقْبَل هُدَى اللَّهِ الذي جئتُ به**».

9 ـــ المُبْدِىءُ

لما كان جميع ما نشاهده في الكون من حولنا مخلوق لله وقد جعل له أجلاً مسمّى ينتهي وجوده عنده، إما بالموت، أو بتفريق أجزائه وتشتيت وحدته، ثم يبعثُه الله تعالى مرّة ثانية على سبيل الإعادة للجزاء والحساب أو غير ذلك، كان الخالق هو الذي بدأ خلقه، وهو الذي يُعيدُه، ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (المُبْدِىءُ).

ومعنى المبدىء: المُوجِد مِن العَدَم ابتداءً من غير مِثال. وهو مأخوذٌ مِن أبْدَأَ، بمعنى فعل الشيء ابتداءً، أو مِنْ أبْدَى بمعنى أظْهَرَ، فاللَّهُ سبحانه وتعالى هوَ المُنْشِىءُ للمخلوقات ابتداءاً، والمُظْهِر لها من العَدَمِ إلى الوجود.

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجَزَري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذ الاسم: (المُبْدِىءُ: هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداءً من غير سابق مِثال).

وقال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا الاسم في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنَى»: (المُبْدِىء معناه: المُوجِد، لكن الإيْجاد إذا لم يكن مَسْبوقاً بمثله سُمّي: إبْداءً، وإذا كان مَسْبوقاً بمثله سُمِّي: إعادة. واللَّهُ تعالى بدأ خلق الناس، ثم هو الذي يُعيدُهم ـ أي: يَحْشُرُهُم ـ والأشياءُ كلُّها بَدَتْ منه، وإليه تَعودُ، وبه بَدَأَتْ، وبه تعود) انتهى كلام الإمام الغزالي.

دليله من القرآن الكريم

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم على صيغة الفعل (12) مرة منها قول اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: 12، 13]، أي: مِنْ قُوَّتِه وقُدرته التامَّة يُبْدِىءُ الخلق ويُعيدُه، كما بَدَأَهُ بلا مُمانِع ولا مُدافِع. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: 27]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: 19، 20]. أرشدَ اللَّهُ عبادَه إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المُشاهَدَة من خَلْقِ اللَّهِ الأشياءَ: السمٰوات وما فيها من الكواكب النَيِّرَة الثوابت والسَّيَّارَات، والأرضين وما فيها مِن وِهادٍ وجبال، وأودية وبَرارِي وقِفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كلُّ ذلك دالٌّ على حُدُوثِها وعلى وجود صانِعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن فيكون. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: 7 ـ 9].

دليله من العلم الحديث

جاء في مقالة علمية تحت عنوان: «النتيجة الحتميّة» كتبها العالِم الكيميائي الرياضي الأمريكي (جون كليف لاندكُوثران) رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة

«دولث»، وهي المقالة (4) ضمن كتاب: «الله يَتَجلّى في عصر العلم»، الذي جمعه الصحفي الأمريكي (جون كلوفر مونسما) وترجمه للعربية د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، وراجعه وعلّق عليه د. محمد جمال الدين الفندي: يقول اللورد كيلفن، وهو من عُلماء الطبيعة البارزين في العالَم: (إذا فكرتَ تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرُّك إلى الاعتقاد بوجود الله)، ثم يشرع جون في عرض مقالته، وهي تتلخّص بما يلي:

إن التطوّرات الهامة التي تمّت في جميع العلوم الطبيعية، خلال السنين المائة الأخيرة، بما في ذلك الكيمياء، قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في دراسة المادّة والطاقة، وعند استخدام هٰذه الطريقة تُبذل كل الجهود للتخلُّص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة، التي تجعل النتيجة التي نَصِل إليها راجعةً إلى مَحْضِ الصُدْفة.

ثم أسْهَبَ في الأمثلة العلمية عن طريق الكيمياء التي تُثْبت أنَّ سُلوكَ أيِّ جزء من أجزاءِ المادّة مهما صَغُرَ، لا يُمكن أن يكون سلوكاً عشوائياً ناجِمَاً عن المصادفة، بل كلُّ شيءٍ يَسِيرُ وِفْقَ قانُونٍ يُهَيْمِنُ على سلوكه.

ثم قال: فهل يتصوَّرُ عاقِلٌ أن يُفكِّر أو يعتقدَ أنَّ المادّة المجَرَّدَةَ من العقْل والحِكْمَةِ قد أوْجَدَتْ نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوْجَدَتْ هٰذا النظامَ وتلك القوانين، ثم فَرَضَتْهُ على نفسها؟ لا شكَّ أنّ الجواب سوف يكون سَلْبياً.

وتَدُلُّنا الكيمياءُ على أنَّ بَعْضَ الموادِّ في سَبيلِ الزَوالِ أوِ الفَناءِ، ولكنَّ بَعضَها يَسِيرُ نحو الفناء بِسُرْعَةٍ كبيرة، والآخَرَ بِسُرْعَةٍ بَطيئة، وعلى ذلكَ فإنّ المادّة ليستْ أَبَدِيَّةً، ومعنى ذلك أنها ليست أَزَلِيَّةً، إذن لها بداية.

وتدلُّ الشواهِدُ من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بدايَة المادّة لم تكن بطيئة ولا تدريجية، بل وُجِدَتْ بِصورَةٍ فُجائِيَّة.

وتستطيعُ العلومُ أن تحدِّدَ لنا الوقتَ الذي نَشَأَتْ فيهِ الموادُّ، وعلى ذلك فإنَّ هٰذا العالَمَ المادِّيَّ لا بُدَّ أن يكونَ مخلوقاً، وهو مُنْذُ أن خُلِقَ، يَخْضَع لقوانينَ

وسُنَنٍ كَوْنِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، ليس لعُنْصر المصادَفَةِ بينها مكانٌ.

فإذا كان هٰذا العالَمُ المادِّيُّ عاجِزاً عن أن يَخْلُقَ نَفْسَهُ، أو يُحَدِّدَ القوانينَ التي يَخْضَعُ لها، فلا بُدَّ أن يكونَ الخَلْقُ قَدْ تَمَّ بقُدْرَةِ قادِرٍ غير مادِّيٍّ، مُتَّصِفٍ بالعلم والحكمةِ، وهو اللَّهُ الخالق المُبْدِىءُ.

10 ــ المُعِيدُ

معناه: مأخوذٌ من الإعادة، وهي: إرجاع الشيء إلى ما كان عليه، فاللَّهُ سبحانه وتعالى هو المعيد لما يَشاء إعادته من مخلوقاته، بعد إعدام ذاته أو صورته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ [البروج: 12، 13]. قال المفسّرون: أي من قُوَّته وقدرته التامَّة يُبدِىءُ الخَلْقَ ويُعيدُهُ كما بدأه بلا مُمانِع ولا مُدافع.

قال مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي المتوفى سنة 606 هـ في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذا الاسم: (المُعيد هو الذي يُعيد الخلقَ بعد الحياة إلى المَمات في الدنيا، وبعد الممات إلى الحياة يوم القيامة). انتهى كلام ابن الأثير.

وقال حُجَّة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي المتوفى سنة 505 هـ في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» (الإيجاد إذا لم يكن مسبوقاً بمثله سُمِّيَ: ابتداءً، وإذا كان مسبوقاً بمثله سُمِّيَ: إعادة، واللَّهُ تعالى بدأ خلق الناس، ثم هو الذي يعيدهم أي: يحشُرُهم، والأشياء كلّها منه بَدَت، وإليه تعود، وبه بَدَأَتِ وبه تعود) انتهى كلامه.

إثبات البعث بعد الموت

قال اللَّهُ تعالى مُثْبِتاً إعادة الخلق بعد الموت في محكم كتابه الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ

تُوقِدُونَ﴿٨٠﴾ [يسٓ: 77 ـ 80]. قال مجاهد في تفسير هذه الآية: جاءَ أُبَيُّ بن خلف ـ لَعَنَهُ اللَّهُ ـ إلى رَسُولُ الله ﷺ وفي يده عَظْمٌ رَمِيمٌ، وهو يَفُتُّهُ ويَذْرُوهُ في الهواء وهو يقول: يا مُحَمَّد! أتَزْعَمُ أن اللَّهَ يبعثُ هذا؟ قال: «**نعم يُميتُكَ اللَّهُ تعالى، ثم يَبْعَثُكَ، ثم يَحْشُرُكَ إلى النار**». وفي حديث ابن عباس أن هٰذا الرجلَ هو العاص ابن وائل. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عامٌّ لكلّ مُنكرٍ بالبعث. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴿٧٧﴾﴾. أي: أَوَلَم يستدلّ مَنْ أنكر البعثَ بالبَدْءِ على الإعادة، فإنّ الله تعالى ابتدأ خلق الإنسانَ من سُلالَة من ماءٍ مَهينٍ، فخلقه مِن شيءٍ حقير ضعيف مَهِينٍ يخرج من مَخْرَجَيْ البول عند الرجل والمرأة، كما قال عزّ وجل: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴿٢٠﴾﴾. فالذي خلقه من نطفة ضعيفة أليس بقادرٍ على إعادته بعد موته؟ ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴿٧٨﴾﴾ أي: استبعد إعادَة اللَّهِ تعالى ذي القدرة العظيمة الذي خلق السمٰوات والأرض، استبعد إعادة الأجساد والعظام البالية الرَّمِيمَة، ونَسِيَ نَفْسَه، وأن الله تعالى خلقه من العَدَم إلى الوجود، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسه ما هو أعظم ممّا استبعده وأنكره وجحده، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴿٧٩﴾﴾ أي: يعلم العظامَ في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرّقت وتمزّقت، ومن يموت في البحار فتأكله الحيتان والأسماك، ومن تأكله الوحوش والسباع، ومن يحترق. وفي حديث للإمام أحمد، عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن رَجُلاً حَضَرَهُ الموت فلمّا يَئِسَ مِنَ الحياةِ أَوْصَى أَهلَهُ: إذا أنا مِتُّ فاجْمَعُوا لي حَطباً كثيراً جزلاً، ثم أَوْقِدُوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت فخذوها فدُقّوها، فذُرُّوها في اليمّ، ففعلوا، فجَمَعَهُ اللَّهُ تعالى إليه، ثم قال لهُ: لِمَ فعلتَ ذلكَ؟ قال مِنْ خَشْيَتِكَ، فغفر الله عزّ وجلّ له**».

وقال تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴿١٦﴾﴾ [الروم: 11 ـ 16] يقول تعالى ﴿ٱللَّهُ

﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: كما هو قادرٌ على بداءته فهو قادرٌ على إعادته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يومَ القِيامَة، فيُجازي كل عامل بعمله.

ثم قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾ [الروم: 17 ـ 19]. إنّ القادرَ على خَلق الأشياء وأضدادها كاملُ القدرة، ومِن كمال قدرته إخراجُ النباتِ من الحَبِ، والحبِّ من النبات، والبيضِ من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسانِ من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمنِ من الكافرِ، والكافرِ من المؤمن، والقادر على إحياء الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، قادِر كذلك على أن يُحْيِيَ الناس يوم القيامَةِ وإعادتهم للحياة من جديد للحساب. ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الروم: 20، 21]، أي: من آياته الدالَّة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أباكم آدمَ من ترابٍ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، فأصْلُكُمْ من تراب، ثم مِن ماءٍ مَهين، ثم تَصوَّرَ فكان عَلَقَةً، ثم مُضْغَةً، ثم صار عِظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا اللَّهُ تلكَ العِظام لحماً، ثم نفخ فيه الروحُ فإذا هو سميعٌ بصيرٌ، ثم خَرَجَ من بَطْنِ أمِّهِ صغيراً ضعيفَ القُوى والحركة، ثم كلّما طال عمره تكاملت قُواهُ وحركاته، حتى آل به الحال إلى أن يبني القصور والمباني الشامخات والمصانع، ويخترع الآلات، ويدور أقطار الأرض ويكتسب ويجمع الأموال، وله فكر ودهاءٌ ومكر، ورأيٌ وعلمٌ ومعارف، فسبحان من أقْدَرَه وسيَّره وسخّره وصرّفه في أنواع الحياة وفاوت بين خلقه في العقول والمدارك، والحُسْن والقُبْح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاء ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: إن في هذه الأمور لدليل واضح على كمال قدرة الله على إحيائه بعد الموت، وإعادته للحساب إلى أن قال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾. قال مجاهد: الإعادَةُ أهْوَنُ عليه من البداءَةِ، والبَداءَةُ عليه هَيِّنَةٌ. روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: «**يقولُ اللّه تعالى: كذّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشتمَني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيَّايَ فقولُه: لَنْ يَعيدَني كما بَدَأني، وليسَ أولُ الخلقِ بأهونَ عليَّ مِن إعادته، وأما شَتْمُه إيايّ فقوله: اتخذَ اللّهُ وَلداً، وأنا الأحد الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**».

11 ـ الباعث

لما كان في ضمن الخلق بَعْثُ السواكِنِ إلى الحركة، وبَعْثُ المَوْتى إلى الحياة مرَّة ثانية، كان الخالق الواحِدُ هو الذي يَبْعَثُها، ومِن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الباعث). وهو مأخُوذٌ من البَعْث، وهو إثارَةُ الساكِن وتغيير حاله، فاللّهُ سبحانه هو باعثُ الرُّسُل بالأحكام والشرائع، وباعِثُ المَوْتى إلى الحياة، وباعِثُ النائمينَ إلى اليقظةِ، ونحْو ذلك...

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في معنى هٰذا الاسم: (الباعِثُ: هو الذي يَبْعَثُ الخَلْقَ، أي: يُحْييهِم بعد الموتِ يومَ القيامة).

وقال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللهُ، في كتابه: «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الباعث: هو الذي يُحْيي الخَلْقَ يوم النُشورِ، ويَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ، ويُحَصِّل ما في الصدور، والبَعْثُ: هو النَّشْأَةُ الآخِرَة، ومعرفة هٰذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث، وذلك مِن أغْمَض المَعَارِف، وأكْثَرُ الخلقِ منه على توهُّماتٍ مُجْمَلَةٍ، وَتَخيُّلاتٍ مُبْهَمَةٍ، وغايَتُهم فيه تَخيُّلُهُم أنَّ الموتَ عَدَمٌ، والبَعْث إيجادٌ مُبْتدأٌ بعد العدم مثلُ: الإيجاد الأول.

هل الموت عدم؟

فَظَنُّهُم أن الموتَ عَدَمٌ غَلَطٌ، وظنُّهم أن الإيجادَ الثاني مثلُ الإيجاد الأَوَّلِ غَلَطٌ. فأما ظَنُّهم أن الموتَ عَدَمٌ فهو باطِلٌ، بَلِ القَبْرُ إمّا حُفْرَةٌ مِن حُفَرِ النيران، أو رَوْضَةٌ من رياض الجَنَّةِ. والمَوْتى إمّا سُعَداءُ وأولئك ليْسُوا أمواتاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: 169، 170]، وإمَّا أشْقِياءُ، وهم أيضاً أَحْياءُ، ولذلك ناداهُم رسولُ اللّهِ ﷺ في وَقْعةِ بَدْرٍ وقال: «**إنّي وَجدْتُ ما وَعدَني ربّي حقّاً، فهل وَجدْتُم ما وعد رَبُّكم حقاً؟**» فقيل له: كيفَ تُنادِي قَوْماً قد جَيَّفُوا؟ قال: «**ما أنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِما أقولُ مِنْهم، ولكنَّهم لا يَسْتَطِيعُونَ أن يُجيبُوني**».

ما الذي خلقه الله أولاً؟

وأما ظَنُّهُمْ أن البَعْثَ إيجادٌ ثانٍ وهو مِثْلُ الإيجاد الأوَّلِ، فَغَيْرُ صحيح، بَلِ البَعْثُ إِنْشاءٌ آخَرُ لا يُناسِبُ الإِنْشَاءَ الأَوَّلَ أَصْلاً. وللإنسان نَشْآتٌ كثيرةٌ، وليست هي نَشْأَتَيْنِ فقط، ولذلك قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: 6]، وكذلك قال الله تعالى بعد خَلْقِ المُضْغَةِ والعَلَقَةِ وغير ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 14]، بل النُطفة نَشْأة من التُراب، والمُضْغَةُ نَشْأَةٌ مِنَ النُطفَةِ، والعَلَقَةُ نَشْأَةٌ مِنَ المُضْغَةِ، والرُوحُ نَشْأَةٌ من العَلَقَةِ، ولِشَرَفِ نَشْأَةِ الرُوحِ وجَلالتِها وكَوْنِها أمْراً ربّانيّاً، قال عزّ وجل عند ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: 8] ثم خَلْقُ الإدراكات الحِسِّيَّة بعد خَلْقِ أَصْلِ الرّوح نشأةٌ أُخرى، ثم خَلْقُ العَقْلِ بعد خمسَ عَشْرَةَ سَنةٍ وما يُقاربها نَشْأَةٌ أخرى، وكلُّ نشأةٍ طَوْرٌ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: 14]، ثم ظهور خاصِّيَّة الوِلاية ـ لِمَنْ رُزِقَ تلك الخاصِّيَّة ـ نَشْأَةٌ أخرى، ثم ظهور خاصّيّة النبوّة بعد ذلك نَشْأَةٌ أخرى، وهو نوعٌ مِن البعثِ، واللّهُ تعالى باعِثُ الرُسُلِ، كما أنه الباعِثُ يومَ النُّشُورِ. وكما أنه يَعْسُرُ على مَنْ في المهد فَهْمُ حَقيقةِ التَّمْييزِ قبل حُصولِ التمييز، يَعْسُرُ على المُمَيِّزِ فَهْمُ حقيقة العقل وما يتكشَّف في طوره من العجائب قبل حصول العقل، وكذلك يَعْسُرُ فهم طَوْرِ الوِلايةِ والنُبوّة في طَوْر العَقْل، فإنّ الوِلايَةَ طَوْرُ كمالٍ وراء نشأةِ العَقْلِ، كما أن العَقْلَ طَوْرُ كمال وراء نشأةِ التمييز، والتمييزَ كمالٌ وراء نشأةِ الحواس.

وكما أنّ مِن طِباع الناس إنكارَ ما لم يبلغوه ولم ينالوه، حتى إنّ كلَّ واحد يُنكر ما لم يشاهده، ولم يَحْصَلْ له، ولا يُؤْمِنُ بما غَابَ عَنْهُ، فمِن طِباعهم إنكار

الولاية وعجائبها والنبوّة وغرائبها. بل مِن طِباعهم إنكار النشأة الثانية والحياة الآخرة؛ لأنهم لم يبلغوها بعد. ولو عَرَضَ طَوْرُ العَقْلِ وعالَمُهُ وما يَظهر فيه مِنَ العَجائِب على المُميِّز، لأنكره وجحده وأحال وُجودَه. فَمَنْ آمن بشيء مِمَّا لم يَبْلُغْه فقد آمن بالغَيْب؛ وذلك هو مُفْتاحُ السعادات.

هل الوصول إلى الكمال يكون في النشأة الآخرة؟

وكما أن طَوْرَ العقل وإدراكاتِهِ ونشأتَهُ بَعِيدُ المناسبة عن الإدراكات التي قبله، فكذلك النشأةُ الأخيره أبْعَدُ، فلا ينبغي أن تُقاسَ النَشأةُ الأخيرة بالأولى. وهذه النشأة هي أَطْوَارُ ذاتٍ واحِدَةٍ، ومَراقيها التي يَصْعَد فيها إلى مراتب درجات الكمال حتى يَقْرُبَ من الحضرة التي هي مُنْتَهى كُلِّ كمال، إذْ يكون عند الله تعالى بَيْن رَدٍّ وقَبول، وحِجابٍ وَوُصُول، فإن قُبِلَ رَقِيَ إلى أعلى عليّين، وإلا رُدَّ إلى أسفل سافلين. والمقصودُ أن لا مناسبة بين النشأتين إلّا مِن حيث الاسم، ومَن لم يعرف النشأة والبَعْث، لم يعرف اسم الباعث.

هل البعث مقصور على إحياء الموتى؟

حَقيقَةُ البَعْث يرجعُ إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى. والجهلُ: هو الموتُ الأكبر، والعِلْمُ: هو الحياة الأشرف، وقد ذكر الله تعالى العلمَ والجهلَ في الكتاب وسمّاهُ: حَياةً ومَوتاً. ومَن رَقّى غيره من الجهل إلى العلم فقد أنشأه نشأة أخرى وأحْياهُ حياةً طيّبةً، فإن كان للعبد مَدْخَلٌ في إفادة الخَلْقِ العِلْمَ ودُعائِهم إلى الله تعالى، فذلك نوعٌ من الإحْيَاءِ، وهي رُتْبَة الأنبياء ومَن يَرِثُهم من العلماء) اهـ.

دليله من القرآن

ورد فعل البعث في القرآن في مواضع كثيرة منها قوله تعالى في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ

بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝﴾ [الحج: 5 ـ 7]. ذكر اللَّهُ تعالى للناس المنكرين للبعث الدليل على قدرته تعالى على بعث الخلق، بإعادة إحيائهم بعد الموت بما يشاهدونه من بَدْئِه للخلق، من تراب، ثم من نطفة، طوراً بعد طور، ثم يأتي بدليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يُحْيي الأرض الميْتَة الهامدة وهي المُقْحِلَة التي لا يَنْبُتُ فيها شيء، فإذا أَنْزَلَ اللَّهُ عليها المطرَ اهتَزّت أي: تحرَّكت بالنبات وحَيِيَتْ بعد موتها، فهو الخالق المُدَبِّر الفعّال لما يريد، وهو قادر على إعادة الناس بعدما صاروا في قبورهم رِمَماً، ويوجدهم بعد العدم.

12 ـــ المُحْيِي

معنى الاسم

لما كان مِنْ صُوَرِ الخَلْقِ إلقاءُ الحَياةِ في الجَوامِد، وسَلْبُ الحياةِ من الأَحْيَاءِ بالمَوْتِ، كان الخالق الواحد سبحانه هو الذي يُحْيي ويُميت، ومِن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (المُحْيِي) ومعناه: خالقُ الحياةِ وواهِبُها لِمَنْ يَشاءُ حياته.

أقوال العلماء

قال الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن السَّرِيّ الزجّاج المتوفّى سنة 311 هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه «تفسير أسماء الله الحسنى» (**المُحْيِي**: اللَّهُ الذي أَحْيا الخَلْقَ بأن خَلَقَ فيهم الحياة، وأحيا المواتِ بإنزالِ الحياة، وإنباتَ العُشْبِ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2].

وقال حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي المتوفَّى سنة 505 هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه «المقصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (**المُحْيِي** يرجع معناه إلى الإيجاد، والموجودُ إذا كان هو الحياةَ يُسَمّى فِعلُه إِحْياءً، وإذا كان المَوتَ سُمِّيَ فِعْلُهُ إماتَةً، ولا خالِقَ لِلْمَوتِ والحياةِ إلّا الله

تعالى، فلا مُحْيِي ولا مُمِيت، إلّا الله تعالى).

دليله من القرآن الكريم

قال الله تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡىِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: 48 ـ 50]. نبَّهَ اللَّهُ تعالى على إحياءِ الأَجْسَاد بَعدَ موتها وتفريقها وتمزّقها بإحياء الأرض الميتة اليابسة بالمطر بعد موتها، فتعودُ خضراءَ تُنْبِتُ الزَرْعَ وتعودُ الحياةُ فيها من جديد، فالذي فعل ذلك لقادرٌ على إحياء الأموات إنه على كلّ شيءٍ قديرٌ.

محاولة الإنسان إيجاد الحياة

تقدّم الإنسان المعاصر في موضوع التكنولوجيا تقدُّماً هائلاً، فحاول في العصر الحديث أن يتدخّل في شؤون الخلْق ويَدَّعِي إيجاد الحياة، وهو يُجري المحاولات في المختبرات لصناعة الحياة، ولكن علماء الغرب أنكروا الإيمان بالله الخالق، وآمنوا بالعلم التجريبي إيماناً مُطلقاً، فهم لا يؤمنون إلا بما يرونه ويشاهدونه ويحسّون به، ويَخْضَعُ لتجاربهم، وقد أطلق زعيمهم الملحد «ماركس» مقولته الشهيرة: (لا إله والكون مادّة)، فالحياة عندهم بأصلها، وكل شيء فيها هي حياة مادِّيَّة، والذي دفعهم لهٰذه المادِّيَّة الجانحة المتطرّفة موقف رجال الكنيسة من رجال العلم والمخترعين والمكتشفين، الذين جاءوا ليُثبتوا للناس نظريات علمية كان رجال الكنيسة يرفضونها ويعتبرونها كفراً، ويفرضون على الناس نظريات خاطئة يُلبِسُونَها ثوب الدين، ليُمَوِّهوا على الناس باسم الدين لتتمّ لهم السيطرة عليهم وعلى عقولهم، وهٰذا موقف خاطىء اتخذه رجال الكنيسة من العلم لا دخل للدين به، ولم يأمر به، وقد تسبّب عنه إحداثُ جَفْوَة واسعة بين العلم والدين، لا يزال العالم الغربي في أوروبا وأمريكا يعاني منها حتى اليوم، وتُلقي بظلالها الثقيلة وآثارها السيئة على العالم بأكمله، فنشأ عندهم نتيجةً لذلك الفكر العَلْماني المعاكس للفكر الديني والمحارب له، وتمّت الغلبة آخر الأمر في

أوروبا للعَلْمانيين الذي اعتبروا الدينَ خُرافةً، ومانعاً من تقدُّمهم العلمي، فثارُوا في القرن الخامس عشر الميلادي ثورتهم الصناعية، ومن ذلك التاريخ، والغرب يطرح الدين جانباً ويعتبره سبباً من أسباب التأخّر والتقهقر، ويحارب أتباعه، وهو معذور في ذلك بسبب موقف رجال الاكليروس من العلماء.

الإسلام والعَلمانية

ولكن ما شأننا نحن المسلمون نقلّد الغرب تقليداً أعمى في كل شيء حتى في موقفنا من الدين؟! إن الوضع عندنا مختلف تماماً عمّا هو عندهم، فلا ديننا دينهم، ولا رجال ديننا حاربوا العلماء والعلم، بل على العكس من ذلك تماماً، فَدِينُنا الإسلام يدعو للعِلم، ويجعل طلبه فرضاً على كل مسلم ومسلمة، ويجعله من أفضل القربات إلى الله، ويجعل العلماء من أفضل الناس وأخشاهم لله، ويبوّؤهم في المجتمع مركز الصدارة والقيادة والإصلاح والتوجيه والإرشاد، ويدعو الإنسان إلى إعمال عقله والتفكر والنظر في الكون ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [النمل: 69]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: 24]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: 50]، ويحارب الجهل والخرافة، والظنون والشكوك والأوهام، ويدعو الناسَ للتثبّت من الأخبار، ويضع قواعد لقبول الأخبار لم يوجد مثلها في أمةٍ من الأمم، أصبحت منهجاً للمؤرّخين في التوثيق والمعلوماتية.

ولكنها عِلَّةُ التقليد الأعمى للغرب بعُجَرِه وبُجَرِه، ولو أنصف المسلمون مع أنفسهم لَعَلِمُوا قيمة دينهم وأنه سَبَبُ نهضتهم ورُقِيِّهم، وأنهم لم يتقهقروا ويضعفوا إلا بسبب هَجْرِهِمْ له وابتعادهم عنه.

وها هي الحضارة الغربية تعلن إفلاس مبادئها، وانهيار إلٰهها المزعوم الجديد: «العلم»، أمام تَسَلُّط فئة حاقدة من شُذّاذ الآفاق، ومرضى النفوس الذين يحاولون السيطرة على الشعوب بالقوة، وفرض هيمنتهم عليهم، واستعبادهم وإذلالهم، واستغلال مواردهم، ونهب خيرات الدول والشعوب، واستخدام العلم والتكنولوجيا لتحقيق أهدافهم الأنانية المنحطّة، وفرض نظام جديد للعالم، وأنموذج للعيش هو النظام الأمريكي، فهم يريدون «أمْرَكَة» العالم بالقوة، وبسط أفكارهم على جميع شعوب العالم بما يسمّى: «بالعولمة»، «والنظام العالمي

الجديد» وغيرها من التسميات البرّاقة الخدّاعة، التي تموّه على الشعوب باسم: التقدُّم والرقي، وهي لا تريد لها الخير، وإنما تطمع باستعبادها، ونهب خيراتها وثرواتها وتركها ضعيفة حقيرة ذليلة لا تقوى على مجابهتها ولا تخرج عن سيطرتها. بينما جاء الدين الإسلامي ليحقّق للناس الكرامة والعزة والسعادة، ويهديهم إلى الإيمان بخالقهم وبارئهم ويدعو إلى سلوك الصراط المستقيم بطاعة ربّهم واتّباع دينه القويم، وعدم الخضوع إلّا له.

فشل محاولة الخلق

لقد حاول علماء الغرب أن يُثبتوا أن الحياة يُمكن أن تُصنَع من المادة، فأرادوا أن يَصِلُوا إلى هٰذا بكل جهودهم، فهل أفلحوا في صُنْع الحياة من المادة؟ هناك عالم أمريكي أستاذ للأحياء ومختص في علم الوراثة اسمه: (ألبرت ونشستر) أعلن عن عجز الإنسان خلق الحياة في المختبر، بل توصّل إلى إثبات وجود الله عن طريق اختصاصه، وقد مزج بعض المواد الكيميائية بِنِسَبٍ مُعَيَّنة، لكي تتكون منها مادة تسمّى حمض (D.N.A.) النووي، وهي من المواد الموجودة داخل الخلية الحيَّة، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ هل الحمض الذي ركّبوه من مواد غير حيّة يتكاثر؟ الجواب: لا، مع أنه نفس الحمض الطبيعي وبنفس تركيباته، إن هناك سِرّاً مفقوداً، ألا وهو الحياة، وهٰذه لا يهبها أحد إلا الله المبدىء المحيي الخالق. وقد تَحَدّى اللَّهُ مُنكري أُلوهيته والكافرين به أن يخلقوا أتفه شيء في الكون وهو الذباب فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73].

قيمة الحياة الإنسانية في الإسلام

تكريم الله للإنسان

الإنسان مَخْلُوقٌ مُكَرَّمٌ مُفَضَّل، أرادَ اللَّهُ له أن يَتَسَنَّمَ الصدارة في سُلَّم الخليقة والكائنات جميعاً، قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا

تَفۡضِيلٗا﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: 70]. ومن أعظم الدِلالات على تعظيم الإنسان المؤمن ما قاله عبد الله بن عمر مخاطباً الكعبة: «ما أَعْظَمَكِ وأعظمَ حُرْمَتُكِ، ولحُرْمَةُ المؤمن عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حُرْمَتِكِ» (أخرجه ابن ماجه) واستدلّ العلماءُ لذلك أيضاً بأن خطيبَ الحَرَم المكي يستقبل المؤمنين بوجهه في خُطْبَة الجمعةِ، ويولّي ظهره للكعبة، وكذلك يفعل خطباء الأرض جميعاً.

كما اسْتَدَلَّ العلماءُ على أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات وتميُّزه عنهم بأمر الله للملائكة بالسجود له، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة: 34]. ولقد عَرَضَ اللَّهُ أمانة استخلافه في الأرض على سائر المخلوقات فَأَبَيْن أن يَحْمِلنها لِثِقْلِها وَتَبِعَتِها وجسيم مسؤوليتها، وحَمَلَها الإنسانُ جهلاً منه بعظمةِ ربّه وخطر دَوْرِهِ، وظُلماً منه لِنفسه حين يُعرّضها للعقاب جزاء تقصيره فيها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: 72].

ولقد هَيَّأ اللَّهُ الإنسان لهٰذا الدور في الأرض، وشَحَنَهُ بالمواهب والطاقات وعظيم القُدُرات والاستعدادات، وسَخّر له جميع ما في السمٰوات والأرض، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان 20]، وحَشَدَ اللَّهُ له كبيرَ العناية والحرص، وأنزل له التشريع والكتب، وأرسل له الرسل ليدلّوه على ربّه وعلى دينه الذي يرتضيه لعباده، كي يعيش آمناً مطمئنّاً مصوناً، لا يمسّه أذى أو شرّ.

ومنذ أُهْبِطَ الإنسانُ إلى الأرض افترقت ذرّيّته فريقَيْن: فَريقٌ آمن بربّه ورضي بطاعته، واتّبع رضوانه، وصدَّقَ رُسُلَه، وعمل بدينه وشرعه فاستحق تكريمه، وفريق انتكسَ إلى أسْفلَ سافلين حيث كَفَرَ بربّه، وجَحَدَ نِعَمَه عليه، واتّبع شيطانه وهواه، فضلّ عن سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴿٦﴾﴾ [التين: 4 ـ 6].

تحريم الاعتداء على الحياة

إن المتأمّل في دين الله الإسلام يجده يُحيط الإنسان بسياج من التشريع، يحفظ عليه حياته ونفسه وجسده وكيانه كلّه، لينشأ سوياً متكامل الشخصية، وليكون إنساناً صالحاً، وحرّم الاعتداء عليه في حياته، وعقله، أو نسله، أو ماله، أو نفسه، أو عرضه، أو دينه، أو شعوره وكرامته، واعتبر الاعتداء على النفس المؤمنة بغير حقّ جريمةً بَشِعَةً لا تُضاهِيها جريمةٌ إلا الشركُ باللَّه، ولقد اشتدّ غضبُ اللَّهِ على مَن يَقتل مؤمناً عَمْداً، قال تعالى: **﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾** [النساء: 93]. وروى الترمذي والنسائي، عن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ: «**لزوالُ الدُّنيا أهْوَنُ على اللَّهِ مِن قتل رَجُلٍ مسلم**». وأَوْجَبَ عقوبة القتل على من يقتل مؤمناً بغير حق.

تحريم الانتحار

ومن مظاهر تكريم الإسلام للإنسان: تحريم الانتحار، وهو قتل النفس يَأساً، وهذه فِعلة بَشِعَةً نكراء يلجأ الإنسانُ اليائسُ الشَقِيُّ الجاحِدُ التعيس الذي فقد أعصابه وصوابَهُ في لحظة غَفلةٍ عن اللَّهِ، ولا يُقْدِمُ على قتل نفسه إلّا من فَسَقَ عن أمْرِ اللَّهِ في وجوب الاعتصام بحبله، والتحلّي بالصَبْرِ وقوّة الإرادة، وليس في قتل النفس إلّا التمرُّد على الله، والنُكرانُ اليائِسُ لنعمة الله الكبرى وهي الروح، فإذا ما أقْدَمَ الإنسان على إزهاقِ هٰذه الروح عَمْداً كان ذلك ردّاً لنعمة الله الجليلة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]. وأخرج الأئمة الأربعة عن أبي هُريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**مَن تَرَدَّى مِن جَبَلٍ فقتل نَفْسَهُ فهو في نار جهنم يتردّى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومَن تَحس سُمّاً فقتلَ نفسه فسُمُّه في يده يَتَحَسَّاه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومَن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يَجأُ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً**».

فرض العقوبات لحماية الحياة

لا يكتفي الإسلام بتحريم القتل على سبيل الموعظة الوجدانية فقط والتي لا تتجاوز غير الترغيب أو الترهيب، بحيث تكون الأمور مَنُوطَةً بضمير الفرد،

ولكن الدين والشرع الإسلامي نظام واقعي يعتمد حقيقتين عند التطبيق:

الأولى: التقوى أو الوازع الديني الذي يستقرّ في القلب والضمير، وينتشر في أعماق الإنسان، ليكون للإنسان خيرَ حافز ومؤثّر، قال رسول الله ﷺ: «**التَقْوَى هاهنا**»، وأشار إلى صدره الشريف، (أخرجه مسلم) فالتقوى تُحفِّز الإنسان المؤمن على أداء الواجبات وفِعل الخيرات، وتزجره عن إتيان المنهيات والمنكرات والمحظورات، وتهيمن على الحسّ هَيْمَنَةً تَنشر فيه التَيَقُّظ وتُربّي الضميرَ على الشعور الدائم بحبّ الخير، وبُغْضِ الشرّ والباطل.

الثانية: التشريع التنفيذي الذي يُوجبُ أن تتحقَّقَ الأحكام بالفعل لتَتَحوَّلَ إلى ممارسات وتصرُّفات عملية، تتحقّق في مَيْدان الحياة وفي واقع البشر، وعلى ذلك فإنه ما مِنْ حكم إلّا وقد أوجبَ الإسلامُ تحقيقَهُ فعلًا ودون تَرَدُّد، كيلا يكون التكليف بهٰذا الحكم مجرَّداً عَنِ السُلْطَةِ الآمِرَة المُنَفِّذَةِ، التي تفرِض تطبيقَ الحُكم عن طريق القُوَّة، فليس الإسلام نظاماً تشريعياً فقط يقول كلمته دون متابعة، وإنما أوجب قيام حكومة إسلامية ترعى تطبيق التشريع النظري وتنفذ الأحكام على الفور عملياً، وعلى هٰذا الأساس فإنه من أجل حماية الحياة وأرواح الناس، ومنع الاعتداء على الإنسان، فقد شرع الإسلام عقابه الحازم الصارم الذي يتناول كل أنواع الجرائم التي تلحق بالفرد والجماعة. ومنها: القصاص، والحدود، والتعازير.

والقصاص يعني: المماثلة، وهو أن يُقتل القاتل عمداً، وكذلك يعاقب بالمثل من قارف جرحاً عمداً، فمن ضَرَبَ يُضرَب، ومن لَطَمَ يُلطَم، ومَن قَطَعَ يُقْطَع، ومَن فقأ عيناً فُقِئَتْ عَيْنُه بالمثل، إلّا أن يعفو أخوه أو أولياؤه أو يرضوا بالدية. والأصل في تشريع القصاص قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة: 178]. وقال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥﴾ [المائدة: 45]. ثم يبيِّنُ القرآن أن في تشريع القصاص ما يحقق للناس الأمنَ والرخاء ويزرع في الأرض قواعد الطمأنينة والاستقرار والسلامة العامة، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾ [البقرة: 179].

13 ــ المُمِيتُ

معناه: لمّا كان من صُوَر الخلق إلقاءُ الحياة في الجوامد، ونَزْعُ الحياة من الأحياء بالمَوْت، كان الخالق الواحِد هو سبحانه الذي يُحْيي ويُمِيت، ومِنْ هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحُسْنَى: (المُمِيت).

ومعنى المُمِيت أي: هو خالق المَوْت فيمن سَبَقَ أن وهبه الحياة، ونازعُ حياته منه. قال الله تعالى في معنى أنه يُحْيِي ويُميت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: 158].

أقوال العلماء

قال حجّة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنى»: (هٰذا أيضاً يَرْجِعُ إلى الإيجاد، ولكن المَوْجُود إذا كان هو الحياة يُسَمَّى فِعْلُه: إحْيَاءً، وإذا كان هو الموت سُمِّي فعله: إماتَةً، ولا خالق للمَوْتِ والحياةِ إلّا اللّهُ تعالى، فلا مُحْيِي ولا مُمِيت إلّا اللّهُ تعالى).

وقال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (المَوْتُ يُطْلَقُ في كلام العرب على السكون، ويَقَعُ الموتُ على أنواع بحسَب أنواع الحياة، فمنها ما هو بإزاءِ القُوَّة النامِيَةِ الموجودة في الحيوانِ والنبات، كقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: 19].

ومنها: زوال القُوَّة الحِسِّيَّة، كقوله تعالى على لسان مَرْيم ابنة عمران: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: 23].

ومنها: زوال القوة العاقلة وهي: الجهالة، كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122]. ، وفي سورة النمل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: 80].

ومنها: الحُزنُ، والخوف المُكَدِّرُ للحياة، كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: 17].

ومنها: المنامُ كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42]. وقد قيل: المَنَامُ: هو الموتُ الخَفِيفُ، والمَوْتُ هو النوم الثَّقِيلُ.

وقد يُسْتَعَارُ الموتُ للأحوال الشاقَّة، كالفقر، والذُّلِّ، والسُّؤال، والهَرَم، والمَعْصِيَةِ وغير ذلك) انتهى كلام ابن الأثير.

دليله من القرآن الكريم

قال الله تعالى في سورة غافر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾ أي: هو المتفرّد بذلك لا يقدرُ على ذلك أحَدٌ سِواهُ.

وقال تعالى في آخر سورة المنافقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾. يقول الله تعالى آمِراً لعباده المؤمنين بكثرة ذِكْرِه، وناهِياً لهم عن أن تشغلهم الأموالُ والأولادُ عن ذلك، ومُخْبِراً لهم بأنه مَنِ الْتَهَى بمتاع الحياة الدنيا عمّا خُلِقَ له من طاعَةِ ربِّه وذِكْرِه، فإنّه من الخاسِرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ثم حثَّهم على الإنفاق في طاعته، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠)﴾، فكلُّ مُفرِّطٍ يندمُ عند الاحتضار، ويسأل طولَ المُدَّة ولو شيئاً يَسِيراً لِيَسْتَعْتِبَ ويَسْتَدْرِكَ ما فاته، وهيهات، كان ما كان وأَتَى ما هُوَ آتٍ، وكلٌّ بِحَسَبِ تفريطِهِ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99 ـ 100]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يُنْظِرُ أحداً بَعْد حُلول أَجَلِهِ وهو أعلم وأخبَرُ بمن يكون صادِقاً في قوله وسؤاله، مِمَّن لو رُدَّ عادَ إلى أشرِّ مِمّا كان عليه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن المؤمِنَ الذي يعتقدُ أن الموتَ والحياة بيد الله تعالى وَحْدَه، لا يخاف أحداً غيره تعالى، ويعلمُ أنّ أَجَلَهُ ورزقه مُقدَّرٌ مَحْتُومٌ قبل أن يخلُقَ اللَّهُ الخَلْقَ، ومكتوب في اللوح المحفوظ، وقد روى ابن مسعود ﷺ في الحديث المتّفق عليه عند الشيخين البخاري ومسلم في كتابَيْهما، اللذين هما أَصَحُّ الكتب بعد كتاب الله تعالى عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «**إن خَلْقَ أَحَدِكم يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعينَ يوماً نُطْفَةً، ثم يكونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثم يكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثم يَبْعَثُ اللَّهُ إليه مَلَكاً بأَرْبَعِ كلماتٍ فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَمَلَهُ وأَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وشَقِيٌّ أَو سَعِيدٌ، ثم يُنْفَخُ فيه الرّوحُ**».

إن عقيدة الإيمان بأن الله هو المحيي المميت، تُميّزُ المسلمين عن غيرهم من الناس، إنها تنزع من قلوبهم الجُبْنَ وحبّ الدنيا والخَوْف من الموت، وتُكسِبُهم الشجاعة والبطولة والفِداءَ والإقدام في المعارك الحربية غيرَ هيّابين ولا وَجِلين، وهٰذا ما يُسَمَّى اليوم: بالدعم المعنوي، والتعبئة المعنوية، في أنظمة الجيوش العالمية، فهي تحاول تعبئة جيوشها بالروح المعنوية العالية قبل خوض المعارك، فالجندي غير المسلم في ساحة المعركة يشعر بمواجهة الموت، وأنه سيفقد أعزّ ما لديه وهو حياته وروحه، وأنه سيخسر الدنيا، وبالتالي فهو يخاف الموت ولا تستطيع قُوَّةٌ إقناعَهُ بتقديم روحه فداءً لأمر آخر أغلى من روحه كالوطن، والمكاسب المادية، فهل هناك أغلى من روحه؟ أما الإنسان المسلم المؤمن بالله فإن دين الله عنده أغلى من روحه ومن حياته ، والله قد وعده حياة أطيب من حياته هي: الجنة، إن مات في سبيله، وسمّاه: شهيداً، فهناك دافعٌ له قوي يحمله على بذل روحه وتعويضٌ أكبر، وهدفٌ أَسْمَى من هٰذه الحياة الدنيا

ومتاعها وزخارفها، إنه رِضْوانُ اللَّه، والفوزُ بقربه في جناته، والله قد وعد الشهداءَ أعلى مراتب في الجنة مع الأنبياء والصديقين والصالحين، قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

لقد جاء الإسلام ليصحّح للناس مفهوم الحياة والموت، فالحياة فيه هي لِعبَادَةِ الله وطاعته ونشر دينه في الأرض ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56] والموتُ فيه هو في سَبيلِ الله ومَرْضاتِه، ونُصْرةِ دِينِهِ، فالدينُ لا ينتصرُ إلا بتضحيات أَهْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: 10 ـ 13]. إن المؤمن الذي يبذُل روحه رخيصة في سبيل الله في ساحات القتال يتيقّن أنه سيفوز بإحدى الحُسْنَيَيْن: إما النصر لدين الله، وإما الشهادة في سبيل الله.

عقيدة الموت في سبيل الله عند المسلمين وفضل الجهاد

تعريف سبيل الله: يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: 33]. يُبيِّنُ اللَّهُ تعالى في هٰذه الآية الكريمة أنه أرسل رسوله محمداً ﷺ رسولاً إلى البشرية جمعاء برسالة الإسلام، فما هي هٰذه الرسالة؟ وما هو مضمونها؟ إنها دعوة الناس كافة إلى عبادةِ الله وطاعته وحده؛ لأنه الإلٰه الخالق، وله الأمر، وإلى عدم جحوده والكفران به والخروج عن منهجه وشريعته والتمرُّد عليه، وأن يُبَلِّغَ الناسَ كُلَّهم هذه الرسالة وأن يخاطبهم بالحسنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21]، وأمره بمخاطبة

أهل الكتاب خاصّة بأن يقول لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 64].

الدعوة إلى الله

وبيَّن الله أن هٰذه الرسالة هي الهُدَى ودِينِ الحَقِّ، وأنها سَبِيلُ اللَّهِ، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]، وأمر نبيَّه والمُؤْمنين معه أن يَسْلُكوا مَسالِكَ الدَّعْوَة جميعها إلى هداية الناسِ إلى الله، بَدْءاً بالمناقشة والبيان، والحُجَّة والبُرْهَان، وانْتِهاءً بالمقارَعَةِ والسنَان لمن يقف حاجزاً في وجه هٰذه الدعوة، ويُناصِبُها العداءَ والحربَ، فأمر رسُولَهُ والذين آمنوا الجهاد في سَبِيلِهِ، وعدم الاعتداء على الناس فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: 190].

الأمر بالجهاد في سبيل الله

وَوَعَدَهم بأنَّه سَيَنْصُرُهُم ويُعْلِي دينَه على جميعِ الأديان المخالِفَة له، وأنّ هٰذا الأمْرَ سَيَغيظُ المُشْركينَ بالله والكَفَرَة، وسَيَحْمِلُهم على مُجابَهَة دينِ اللَّهِ انتصَاراً لباطِلهم وحِفاظاً على وُجودِهم وعروشهم ومراكزهم ومصالِحِهم المُهَدَّدَة بالزَّوال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 76]، وأنّ الكَفَرَة سَيَعْمَلُون بكل ما أُوتُوا من قُوَّةٍ لإطْفَاءِ نورِ اللَّهِ وشَرْعِهِ وَدِينِهِ والقضاءِ على أَهْلِهِ، وسَيَضَعُونَ المُخَطَّطات الشيطانية وسَيَشُنُّونَ الحملات المنظّمة، وسَيَسْتَعِينُونَ بكل قِواهُم الأرضية الشِرِّيرَة، ومُنَظَّماتهم السرّيّة التي وصلت إلى مراكز السلطة في كل بلاد العالم، والمُجَهَّزَة بأحْدثِ الأسْلِحَة الفتّاكة، والمُدَرَّبَةِ أحسن تدريب، وسَيَعْقِدُونَ المؤتمرات لذلك الغرض، ولكن النتيجة النهائية الحتمية أنهم لن يُفْلِحُوا في إطفاء نُورِ اللَّهِ، وأَنّ اللَّهَ سَيُتِمُّ نُورَهُ وينصر دينه ولو كَرِهَ هٰؤلاء الكافرون: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: 32].

الصراع بين الحق والباطل

إنَّ الصِراعَ بين الخَيْرِ والشَرِّ، والحَقِّ والباطِلِ، والهُدَى والضَلال قديمٌ قِدَمَ البَشَرِيَّةِ، فَمُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ وفَضَّلَه على سائر الكائنات، وأمر ملائكته بالسُجُودِ له، وكان فيهم إبليسُ ـ وليسَ منهم بل هو مِن الجنّ كما بين الله في سورة الكهف ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ ـ أبى أن يَسْجُدَ له حَسَداً وعِناداً وكِبْراً وكُفراً، وناصَبَهُ العَداوَةَ، وأَقْسَمَ بعِزَّةِ الله ليُغْوِيَنَّه وذُرِّيَّتَهُ أجمعين إلّا عبادَه المُخْلَصِينَ، فكان عَدُوَّه الذي يَسْعَى للمَكرِ به وإضلالِهِ وإغوائه وصَرْفِه عن سبيل الله، ليُرْدِيَه معه في جَهَنَّم، وقد حذّر اللَّهُ الناسَ مِن عِبادَةِ الشيطانِ واتّباع وسوسته، وأَمَرَهُمْ بمجاهدته فقال لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يسٓ: 60 ـ 61].

تعدُّد صور الجهاد

عرفنا أنّ المسلمين أصحابُ رسالة، وأنّ الله قد شرّفهم بحمل دينه ودعوة الناس إليه، بكل الوسائل المتاحة لنشره في أرجاء الأرض، وقد بيَّن اللَّهُ لنا أن صُوَر الجهاد في سبيل الله متعدّدة، فمنها: المجاهدة بالدعوة واللسان، ليشيع دينُ الله في الأرض، عسى أن تهتديَ الأمم إلى ربّها، وتبادر إلى الصلاة والاستقامة، ومنها: البَذْلُ للمال يُؤدِّيه الأغنياءُ للمجاهدين أولي العزم والقوة، فيتجهّزون به، ومنها: الجهاد بالنفس والروح بإنزالها في ميدان القتال للتصدّي لأعداء الله، وهٰذا أعلى درجات الجهاد.

لقد أَمَرَ اللَّهُ المسلمين ألّا يطرقوا باب القتال ابتداءً، بل يبدأوا بالدعوة الهادئة أولاً بالبيان والإقناع والعرض الهادىء العقلي المنطقي، المُدلّل بالبراهين والحجج والكلمة الحانية المرغّبة، وقد دخلت كثير من شعوب الأرض في الإسلام بأسلوب الدعوة، وأمرهم وألّا يلجأوا إلى القتال إلا في مراحل الدعوة الأخيرة، وذلك أن الإسلام أساساً مبنيٌّ على التصديق واليقين، وهما أمران أساسهما: العقل والتفكير السليم، وسبيل ذلك هو البرهان الظاهر والحجة الوافية

الدامغة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]. ثم بعد ذلك إذا رأى المسلمون أن الظالمين والمعتدين الذين يقفون في وجه نشر دين الله وتبليغه لشعوب الأرض لا سبيل إلى التفاهم معهم إلا بلسان الشِدَّة والحرب، فحينئذٍ لا مَناصَ من حمل السلاح وإعلان الجهاد لمجابهتهم في حربٍ لا هَوَادَة فيها.

إن الإنسان الكافر الذي لم يؤمن بربّه ويخضع لجبروته ويستسلم لأوامره، قد يَطْغَى في الأرض ويعلو على بني جنسه، وقد يتألّه عليهم كما فعل فرعون والنمروذ، ويستذلّ رقابهم، وقد ينهب خيراتهم ومواردهم ليحصر الثروة في يد فئة من الحاقدين الطامعين الجشعين، وقد يُجَنِّد الجنود ويسخرها ليبطش بالناس ويقهرهم لجبروته وحكمه وسلطانه ـ كما هو مشاهد اليوم في العالم ـ وليفرض عليهم أوامره ونظامه تحت مسمّيات برّاقة كالعولمة، والنظام العالمي الجديد، والديموقراطية، والانفتاح، والتحرّر، والتمدّن، والرقي، وهي تخفي في طياتها السُمَّ الناقع لشعوب الأرض، وامتصاص دمائهم، وامتهان كراماتهم، وإذلال رقابهم، واستعبادهم، وتركهم شعوباً مقهورة، لا تقوى على العيش الكريم ولا مجابهتهم، وقد دعا اللّٰهُ سبحانه عباده المؤمنين إلى عدم القبول بهٰذا الواقع المؤلم المرير، والثورة عليه، وتبديله بالقوة، فَأَمَرَهُمْ بالجهاد، وقتال هؤلاء الطغاة الأشرار، وعدم الاستكانة لهم والخضوع لهم، والقبول بواقعهم الذي يفرضونه بالقوة على شعوب الأرض.

وعلى العكس من ذلك، فإن المسلمين مُطالَبون ليس فقط بقتال الطغاة والجبابرة، ودكّ عروشهم وإزالة باطلهم بل إنهم حملة رسالة وعليهم نشر دين الله الذي يحقّق للبشرية الأمن والرخاء والسعادة، وهٰذا يتطلب جهاداً وقتالاً، وفي سبيل الله، هٰذا الهدف السامي النبيل يسترخص المسلم نفسه وروحه، وينزل إلى ساحات المعارك مستسهلاً الموت، غير خائف ولا وَجِل، يبذلها رخيصة في سبيل مرضاة ربه ونصرة دينه ونشر الحق في الأرض وإزالة الباطل.

14 ــ الجَبَّار

معناه

الذي تَنْفُذُ مَشيئَتُه على سَبيل الإجْبَارِ في كل أَحَدٍ، ولا تَنْفُذُ فيه مَشِيئَةُ أَحَدٍ، فهو المُنَفِّذُ لأوامِره. ويجوز أن يكون معناه مِن جَبَرَ: إذا أغْنى الفقير وأصلح الكَسِير، واللَّهُ جَلَّ جلاله يُصْلِحُ الكسير، ويُغْني الفقير.

والجبَّار، صيغة مبالغة للجابر، مأخوذٌ مِنَ الجبر، وهو في الأصل: إصلاحُ الشيء مع القهر، ومعنى هٰذا الاسم: أن اللَّهَ تعالى كثير الإصلاح للأشياء مع القهر. وقد ورد في موضع واحد من القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: 23].

وقيل في معنى الجبَّار: هو العالي الذي لا شَيْءَ فَوْقَهُ. تقولُ العرب: نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ إذا كانت عالِيَةً طويلةً جداً. وهٰذه صفة لا يليق أن يتّصف بها إلا اللَّهُ عَزّ وجلّ.

أقوال الأئمة فيه

قال الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الشافعي (ت 505 هـ) في كتابه «المقْصِد الأسْنَى في شرح أسماء الله الحُسْنَى» في معنى هٰذا الاسم: (هو الذي تَنْفُذُ مشيئَتُه على سَبيل الإجبار في كل أَحَدٍ، ولا تَنْفُذ فيه مشيئةُ أحد. والذي لا يَخْرُجُ أحَدٌ عن قَبْضَتِهِ وتَقْصُرُ الأَيْدي دون حِمَى حَضْرَتِهِ. فالجبّارُ المُطلق هو اللَّهُ تعالى، فإنه يُجْبِرُ كُلَّ وَاحِدٍ ولا يُجبِرُهُ أَحَدٌ).

وقال الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي (ت 606 هـ) في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذا الاسم: (معناه: الذي يَقْهَرُ العِبَادَ على ما أراد من أمر ونهي، يُقالُ: جَبَرَ الخَلْقَ، وأَجْبَرَهُم، وأَجْبَرَ أكثر، وقيل: هو العالي فوق خَلْقِهِ. و«فَعَّال»: مِن أَبْنِيَةِ المُبالَغَة).

أقوال المفسرين

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي عزَّ كلَّ شيءٍ فَقَهَرَهُ وغَلَبَ الأشياءَ فلا يُنالُ جَنابُهُ لِعِزَّتِهِ وعَظَمَتِهِ وجَبَروتِهِ وكبريائه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿الجبَّارُ المُتَكبِّرُ﴾ أي: الذي لا تَليقُ الجَبْرِيَّةُ إلّا لَهُ، ولا التكبُّر إلّا لِعَظَمَتِهِ، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، عن رب العِزّة جل جلالُه: «**الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي والعَظَمَةُ إزارِي، مَنْ نازَعَنِي واحداً منهما أَدخَلْتُهُ جهَنَّم**». معنى «**نازَعَنِي**» أي: تَخلَّقَ بهٰذا الخُلُقِ فصار في مَعْنَى المشارك لي، وهٰذا وعيدٌ شديد في الكبر، مُصَرَّحٌ بتحريمه، وأما تَسْمِيَتُه رِداءً وإزاراً فَمَجازٌ واسْتِعَارَةٌ حَسَنَةٌ، كما تقولُ العربُ: فُلانٌ شِعارُهُ الزهدُ ودِثارُه التقوى. لا يُريدون الثوبَ الذي هو شِعارٌ أو دِثارٌ، بل معناه: صِفَتُهُ كذا. قال المازِرِيُّ: ومعنى الاستعارة هنا: أنّه الإزارُ والرِداءُ يَلْصُقانِ بالإنسانِ ويَلْزَمانِهِ، وهُمَا جَمَالٌ له، قال: فضربَ ذلكَ مثلاً لكون العِزّ والكبرياء بالله تعالى أحقُّ، وله أَلْزَمُ، واقتضاهما جلالُه. ومِن مشهور كلام العرب: فُلانٌ واسِعُ الرِدَاءِ أي: واسِعُ العطيّة.

وقال قتادةُ: الجَبَّارُ: الذي جَبَرَ خَلْقَهُ على ما يشاءُ. وقال ابن جَريرٍ: الجَبَّارُ: المُصْلِحُ أمورَ خَلْقِهِ المُتَصَرِّفُ فيهم بما فيه صلاحُهُم. وقال قتادةُ: المتكبرُ يعني: عن كل سوء.

أثر هٰذا الاسم في الإنسان

إنّ مَن عَلِمَ أن العِزَّة والكِبْرِيَاءَ والجَبَرُوتَ من صِفَاتِ الله عزّ وجلّ وحده، وَجَبَ عليه أن يَخْضَعَ لربوبيّته وجبروته، وأن يُعظِّمَهُ ويُوقِّرَهُ، ويُطيع أوامره وينتهي عما نهى عنه، فهو وحده الإله الرب المعبود، الذي خضعت لجبروته السمٰوات والأرض ومَن فيهن طَوْعاً وكَرهاً، قال الله تعالى في مُحْكَم كتابه الكريم: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا

طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: 9 ـ 11]، أي: اسْتَجيبَا لأَمْري وانْفَعِلَا لِفِعْلِي طائِعَتَيْن أَوْ مُكْرَهَتَيْن. قال الثَّوْرِيُّ، عن ابن جُرَيْج، عن سُلَيمان بن موسى، عن مُجاهِد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال اللَّهُ تبارك وتعالى للسمٰوات: أَطْلِعِي شمْسي وقَمَري ونُجُومي، وقال للأرض: شَقِّقِي أَنهارَكِ وأَخْرِجي ثِمارَكِ ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، واختارَهُ ابن جَرير رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: بل نَسْتَجِيبُ لكَ مُطِيعينَ بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس، جميعاً مطيعين لك؛ حكاه ابنُ جرير، عن بعضِ أهل العربية قال: وقيل تَنْزيلاً لهُنَّ مُعامَلَةَ مَن يَعْقِل بكلامهما. وقيلَ: إنّ المُتَكَلِّمَ من الأرض بذلكَ هو مكانُ الكعبة، ومِنَ السَماءِ ما يُسَامِتُهُ منها، واللَّهُ أعلمُ. وقال الحَسَنُ البَصْرِيُّ: لَوْ أَبَيَا عليه أَمْرَهُ لَعَذَّبَهُما عَذاباً يَجِدَانِ أَلَمَهُ، ورواه ابنُ أبي حاتم.

فقد أخبر تَعالى عن عظمته وسُلطانه الذي قَهَرَ كلَّ شيء، ودَانَ له كلُّ شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: 15] فالمؤمنُ يَسْجُدُ لِلَّهِ طَوْعاً وإيماناً وعبادَةً وخضوعاً لأمره، كما يَسْجُدُ كلّ ما في الكون كَرْهاً لِلَّهِ؛ لأنه خَاضِعٌ لِلقوانين الكونية التي خلق الخَلْقَ عليها، من قوانين فلكية، وفيزيائية وكيميائية وبشرية لا تَتَخَلَّفُ في الكائنات، فهي مِن هٰذا القبيل لا تملك تغيير أنظمة الكون التي خلق اللَّهُ الخلقَ عليها، ولا تستطيع مخالفتها والخروج عن أمر الله فيها، وعن سُلطانه وأمره ومُلْكِهِ. فالكافِرُ الذي يعيش بإيجادِ اللَّهِ له وتكوينه إياه، وتحت ألطافه وأرزاقه وتقاديره، خاضِعٌ للهِ كَرْهاً عنه؛ لأنه لا يستطيع الخُروجَ عن مُلكه وسلطانه وقوانينه الكونية، وإن خالف إرادة ربِّه وأوامره له بالطاعة، فهو متروكٌ لاختياره وكَسْبه، ولم يُجْبِرْهُ اللَّهُ جَبْراً على طاعته والإيمان به، بل تركه لاختياره وإرادته، وهو سَيَتَحَمَّلُ نَتيجَةَ اختياره وسعيه وعمله في الآخرة يوم الدين والحساب والجزاء، يوم يحاسِبُ اللَّهُ العِباد، فيُدخِلُ الذين آمنوا في الدنيا طوعاً في رحمته وجنّته، ويُدخل الذين اسْتَكْبَروا عن عبادته، فكفروا به وجَحَدُوه، وعَصَوْه ناراً، وهذا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [صۤ: 28]، وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: 35].

كذلك فإنَّ مَن علم من البشر أنّ صِفاتِ الجَبْر والكِبْرِيَاء لله تعالى وَحْدَهُ،

تَجنّب الاتّصاف بهٰذِهِ الصفات؛ لأن الله نهى البَشَر أن يتَّصفوا بها لما في ذلك من الفسادِ والطُغيانِ، وقد مَقتَ اللَّهُ العِبادَ الجبّارِينَ على الخلق المُسْتَكبِرينَ عن طاعته، وتوعّدهم بالعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: 23]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

هل الإنسان مُسَيّر أم مخيّر

شُبْهة الجَبْر

هناك من الناسِ مَن إذا سألته: (لماذا تعصي اللهَ؟) فينفي عن نفسه التُهمَةَ ويتَّهمُ اللَّهَ عز وجل فيقول: (اللَّهُ قَدَّر عليَّ المعصية قبل أن يَخلُقَنِي وليس لي دخل فيها)، وهٰذه شُبْهَةٌ تسَيْطر على أفكار كثير من الناس اليوم، وهي شَبْهَة خطيرة لأنها تدفع للحيرة والشك واليأس؛ ولأن فيها اتّهاماً للذات الإلٰهيّة بالظلم، وتعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: 182]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: 44]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]. وهٰذا خطأ في تَفْكِيرِهِمْ ناشِيءٌ عن عقيدة فاسدة، وجهل بالدين، وضعفٍ في الإيمان، وسُوءِ أدَبٍ مع الله، وعَدَم العِلْم بكماله، وبالنشأةِ الإنسانية، وبدورِ الإنسان في الحياةِ ومسؤوليته فيها، وسَنحاولُ بيانَ هٰذه الشُبْهَة وإيضاح الحقّ فيها.

ما معنى التَسْيير والتخيير؟

التَسْيير هو مجموعة الأمور التي تمرّ بالإنسان وليس له فيها قَصْدٌ أو إرادة، كالولادة، والموت، والأجل، والرزق، والمرض، والحوادث. . .

والتخيير هو مجموعة التصرّفات والأعمال التي يفعلها الإنسان بقصده واختياره وإرادته كالإيمان بالله، وتصديق الرسول، وتطبيق أوامر الله وفعل الطاعات، أو الكفر بالله، وتكذيب الرسول، والتمرّد على الله وعصيانه وعدم

طاعته، وارتكاب المحرّمات، والتخطيط للمشاريع التجارية... وحياة الإنسان مليئة بكلا النوعين، والله سبحانه لا يحاسب الإنسان إلا بالأمور المخير فيها.

مهمة الإنسان في الحياة

الإنسان عبدٌ لله، مخلوقٌ لعبادته ومعرفته وطاعته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]، ولكي يستطيع تأدية هٰذا الدور في الحياة فقد جهّزه بعدّة أجْهِزة: كالروح والعقل والتفكير والنفس، ووضع في داخله عدة غرائز، كحبّ الشهوات من المال، والنساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والأملاك، والأراضي، والشركات، والتسَلُّط، وغير ذلك. وحين خلق اللَّهُ الإنسانَ وأهبطه إلى الأرض كلّفه مهمّة استخلافه وحمّله هٰذه الأمانة، وكان تكليفُه على قدر طاقتِهِ وما جهّزه به من أجهزة، ولم يحمّله فوق طاقته: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: 286]، وأنزل إليه تشريعاً ينسجم وتكوينه الروحي والجسدي والنفسي والفطري. وجعل الدنيا له دار اختبار وامتحان وابتلاء، والآخرة دار جزاء، فإن وجه إرادته في الدنيا وفق مُراد الله من الإيمان بربه وتصديق رسله، والتزام شرعه وما أُمِر به، والانتهاء عما نُهِيَ عنه، فاز برضوان ربه وجناته، وإن وجه إرادته للكفر والعصيان خسر رضوان ربه واستحقّ عقوبته وناره، والله سبحانه لا يحاسبه إلّا فيما كسبت يداه باختياره وإرادته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾، ولا يحاسبه فيما كان فيه مُسَيّراً، فهو لا يحاسِبُه مثلاً على المَرَض، لِماذا مرض، أو الرزق، أو الحوادث التي ألمّت به دون اختياره.

هل تخضع إرادة الإنسان للبيئة التي يعيش فيها ولمؤثرات أخرى؟

يقع الإنسان تحت نوعين من المؤثّرات: داخلية وخارجية. فتكوين الإنسان من جسم وروح، وما فيه من غرائز نفسية، يضع الإنسان أمام مطالب وحاجات متنوعة كثيرة، فالروح بحاجة لطاعات ربها لتسمو، والجسم يتطلّب الطعام والشراب والنوم والراحة وسائر المطالب لينمو ويحافظ على بقائه، والنفس أمّارة بالسوء تأمر الإنسان بالشهوات والملذّات وتستعذب المعاصي والمنكرات، وهذه كلها مؤثرات داخلية تلح على الإنسان وتضغط عليه.

وهناك أيضاً مؤثرات خارجية كثيرة، منها: البيئة التي يتربّى فيها الإنسان ويتلقّى تَوْجِيهَهُ فيها، وهي إمّا أن تكون صالحة أو فاسدة، والظروف الاجتماعية أو النفسية أو الاقتصادية الضاغِطَة التي تدفع الإنسان إلى اتخاذ قراراتٍ ما، كالقتل أو السرقة أو الاحتيال أو التزوير، أو الاختلاس أو التهرُّب، وما شابه ذلك. فهل تُرك الإنسان لهٰذه الضغوطات الداخلية والخارجية؟ أم زوّده الله بعقل وإرادة لاتخاذ القرارات الصحيحة؟

إنّ الله ﷻ زوّد الإنسان بالعقل الذي يميّز به الخير والشر، والذي به يتخذ القرارات النهائية وجعله مناط التكليف، مسؤولاً عمّا يختاره من أمور، وما يتّخذه من قرارات، وأَخْبَرَ الإنسانَ أنه مُراقَبٌ في جميع أَحْوالِهِ في الدنيا محاسب في الآخرة، كيلا يشعر أنه في منأى عن الرقيب، وأن ليس هناك مسؤولية تترتب على اختياره يوم القيامة إنْ خيراً فَخَيْرٌ وإن شرّاً فَشَرٌّ. وأضاء له طريق حياته والصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكه، والسبل المعوجّة المنحرفة التي تؤدي إلى هلاكه، ووضع له دليلاً يدلّه على الطريق ويرشده إليه، وإشارات للمرور عند كل مفترق، ما يجب سلوكه وما لا يجب، فأنزل له الكتب والشرائع بواسطة الوحي إلى الأنبياء والرسل، وأنار له سبيل حياته فبيّن له الخير، وحضّه على اتباعه، وبيّن له الشرَّ وحذّره من اتباعه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

إن التفاعُلَ بين المجتمع والفرد، وبين النوازع الداخلية للفرد، حقيقةٌ ثابتةٌ يمكنها أن توجّه إرادة الإنسان، ولكنها لا تُعْدِمُها، ويبقى العقل في كل الأحوال والظروف هو المسؤولُ الأول عن القرار الذي يتّخذه، ومن الأمثلة على ذلك: البيئةُ التي كان يعيش فيها العرب حينَ بُعِثَ النبيُّ ﷺ، فإنها كانت واحدةً، وقد اختار منهم أصحابُ رسول الله الإيمانَ بالله وتصديقَ النبي محمد ﷺ، رغم علمهم بما سيتعرّضون له من تعذيب شديد من أعداء الله، بينما رفض أقوامُهم ذلك. وكم من شابٍّ وفتاةٍ مؤمنَيْن نشآ في بيئة فاسدة آثرا الإيمان بالله واتباع رضوانه على طريق المعاصي...

وكذلك فإن النوازع الداخلية قد أوجدها الله في كل إنسان، ولكننا نشاهدُ المُؤمِن يَكْبَحُ جَماحَ نفسِه، ويَرْدَعُها عن غيّها، ولا يستجيبُ لكل مطاليبها

ويجاهدها فيما تتطلّبه من معاصي للّه، وفواحشَ ومُنكراتٍ، مُسْتَشْعِراً رقابة ربّه، خاشياً له سبحانه، راجياً ثوابه، وطامعاً برضوانه ومحبّته، بينما يستسلم لها ضعيفو الإرادة الذين استعذبوا المعاصي، وانجرفوا وراء وساوس الشياطين، واستجابوا لنداء النفس الأمارة بالسوء، فعطّلوا إرادتهم واتّبعوا أهواءهم، فلم يستشعروا رقابة ربّهم، ولم يخافوا عقابه، ولم يخشوا عذابِه، وأعمَوا أبصارهم عن الحق، وهٰؤلاء سيتحمّلون نتيجة قرارهم بدون شك وهذا من عدل اللّهِ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 37 ـ 41] ولا يستوي المؤمن الطائع مع الفاسق العاصي، وإلّا فما معنى التكليف؟

لقد جعل الله الدنيا دار ابتلاء وتكليف وامتحان، والآخرة دار حساب وجزاء، والإنسانُ يعيش في الدنيا كالطالب في المدرسة أو الجامعة، فإذا أمضى عامه بجدّ واجتهاد وسهر وتعب نجح، وإذا أمضى عامه باللعب واللهو، والانجراف وراء شهوات نفسه وتكاسَلَ، رَسَب وفَشِلَ، فهل يحقّ لهٰذا الطالب الفاشل أن يتّهم إدارة المدرسة بترسيبه ويحملها مسؤولية فشله؟ إنه إذا فعل ذلك يكون مخطئاً بدون شك؛ لأنه يُوجِد المبرِّرات لكسله، والإنسان بطبيعته يميل لتبرير تصرّفاته، ودَفْع التهمة عن نفسه واتّهام غيره، بينما هو في قرارة نفسه يعلم أنه هو المسؤول عن فشله ومصيره، ولكن شتان بين اتهام إدارة مدرسةٍ بالظلم، واتّهام رب العالمين جلّ جلالُه! فإن هذا من أكبر الكبائر وأعظم المفتريات، ويُوجِبُ مَقْتَ الربّ وغَضَبَهُ على هٰذا العبد اللئيم، الذي ظلم نفسه، ويريد أن يلقي باللائمة على ربِّه سبحانه، تبريراً لكسله وفسقه وفجوره وتقصيره: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: 17 ـ 23].

والخلاصة: أن طريق السَيْر إلى الله تعالى محفوف بشتّى الدواعي الصارفة عنه، ومليء بكثير من العوائق التي مِن شأنها أن تُتْعِبَ السالِك من حظوظ النفس وأهوائها، وضغوطات المجتمع والظروف الخارجية، والحكمة من ذلك أن يكون انقياد الإنسان لأوامر الله مصحوباً بجهد يستأهل عليه الأجر، وإنما الجهد أن يقتحم عقبة الصراع مع إبليس ونفسه، والضغوطات الخارجية، ويجتازها إلى

تنفيذ أوامر الله، وهذا ما يجعل المؤمن الذي جاهد نفسه والتزم أوامر الله عز وجل أعلى درجة من الملائكة؛ لأنهم لا يقدرون على المعصية.

15 ـــ القَهّار

أي: الذي قَهَرَ الجَبابِرَة، فَقَصَمَ ظهورَهُم، والكُلُّ مُسَخَّر تحت سلطانه خاضِعٌ له شاء أم أَبى. والقَهّار: صيغة مبالغة، مأخوذ من القَهْر، وهي الغَلَبَة، فمعنى هٰذا الاسم: أن اللَّهَ سُبْحانه يُنَفِّذُ مَشيئَتَه في خلقه بالقهر والسلطان. قال اللَّهُ سبحانه في محكم كتابه المبين: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4]، أي: تعالى وتَنَزَّه وتَقَدَّس عن أن يكون له ولد. فإنه الواحد الأحد، الفَرْدُ الصَمَدُ، الذي كلُّ شَيْءٍ عَبْدٌ لَدَيْهِ، فقير إليه، وهو الغنيُّ عمّا سِواه، الذي قهر الأشياء فدانَتْ له وذَلّت وخَضَعَتْ تبارك وتعالى.

وقد ورد هٰذا الاسم في ستة مواضع من القرآن الكريم، **أحدها**: هٰذا الذي ذكرناه، **والثاني**: في قوله تعالى: ﴿يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: 39]، حيث خاطب النبي يوسف عليه السلام الفَتَيَيْن داعياً إيّاهما إلى عِبادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وخَلع ما سِواهُ من الأوثان التي يَعْبُدها قَوْمَهُما فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: الذي ذَلّ كلُّ شيء لِعزّ جلالِهِ وعَظَمَةِ سلطانه.

والموضع الثالث

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: 16] يُقَرِّرُ اللَّهُ تعالى أنه لا إلٰه إلّا هو، وأن الذين عبدوا آلهةً سوى الله لا تملِكُ لأَنْفسُها ولا لعابديها نفعاً ولا ضَرّاً، أي: لا تحصّل لهم منفعةً، ولا تدفعُ عنهم مَضَرّةً، فهل يستوي من عبد هٰذه الآلهة مع الله، ومَن عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَه لا شريك له فهو على نورٍ مِن ربه؟ ثم يُسائِلُ هؤلاء المشركين الذين جعَلُوا مع الله آلهة تناظِرُه وتماثله في الخلق فخلقوا كَخَلْقِهِ فتشابَهَ الخَلْقُ عليهم،

فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوقٍ غيرِه، أي: ليس الأمرُ كذلك، فإنه لا يشابِهُه شيء ولا يماثِلُه نِدٌّ له ولا عَدْلَ له ولا وزير ولا ولد ولا صاحِبَة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: 43]، فالجميع عبيد عنده، فَلِمَ يَعْبُدُ بَعْضُهُم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل مجرَّد الرأي والظنون، واللّهُ قد أرسل الرسُلَ تزجرهم عن ذلك وتنهاهُم عن عِبادَةِ مَن سِوَى الله، فكذّبوهم وخالَفُوهم، فَحَقَّت عليهم كلمةُ العذاب لا محالة، ثم أمر نبيَّه ﷺ أن يُبَيِّن لهم أن اللّهَ هو خالقُ كلِّ شيءٍ المستحقّ للعبادة وحده؛ لأنه القاهر الذي خضع جميع ما في الكون لسلطانه.

والموضِعُ الرابع

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: 47، 48]. يقولُ تعالى مقرِّراً لوعده ومؤكداً نصرة رسله في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنّه ذو عِزَّةٍ لا يَمْتَنِعُ عليه شيْءٌ أراده، ولا يغالَبُ، وأنه ذو انتقام ممّن كفر به وجحد، ووَعْدُه هٰذا حاصِلٌ يوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض، وفي حديث الصور المشهور عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُبَدِّلُ اللّهُ الأرضَ غيرَ الأرضِ والسمٰواتِ، فيبسطها ويمدّها مدَّ الأديم** - أي: الجلد - **العُكاظي، لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً، ثم يَزْجُرُ اللّهُ الخَلْقَ زَجْرَةً، فإذا هم في هٰذه المُبَدَّلَة**» وقوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: خَرَجَتِ الخلائِقُ جميعُها مِن قُبورِهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ وغَلَبَهُ ودانَتْ لَهُ الرِقابُ وخَضَعَتْ له الألْباب.

والموضع الخامس

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [صَ: 65، 66]. يقول تعالى آمِراً رسوله ﷺ أن يقولَ للكفّار بالله المشركين به المكذّبين لرسوله: إنما أنا مُنذِرٌ، ولستُ كما تَزْعُمُونَ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: هو وحده قد قهر كلَّ شَيْءٍ وغلَبه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: هو مالِكُ جميعُ ذلكَ ومُتَصَرِّفٌ فيه

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾، أي: غفَّارٌ للمؤمنين مع عَظَمَتِهِ وعِزَّتِهِ.

والموضع السادس

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: 15، 16]. يقول تعالى مُخْبِراً عن عظمته وكبريائه وعَرْشِه، ثم يقول: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، كقوله جلَّتْ عظَمَتُهُ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: 2] وكقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: 193، 194] ولهذا قال ﷺ: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (يومُ التَلاقِ: اسْمٌ مِن أَسْمَاءِ يوم القِيامَةِ حَذَّرَ اللَّهُ مِنْهُ عِبادَهُ). وقال ابنُ جُرَيج، قال ابنُ عَبَّاسٍ: (يلْتَقِي فيه آدَمُ وآخِرُ ولده). وقال ابنُ زيد: (يلْتقي فيه العبادُ) وقال قَتادَةُ، والسُدِّيُّ، وبلالُ بن سَعْدٍ، وسُفيانُ بن عُيَيْنَةَ: (يلتقي فيه أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ والخالقُ والمَخْلُوقُ). وقال مَيْمُونُ بن مِهْران: (يَلْتَقِي الظالِمُ والمَظْلُومُ). وقد يُقالُ: إن يومَ التَلاقِ يَشْمَلُ هذا كُلَّهُ وَيَشْمَلُ أنَّ كلَّ عامِلٍ سَيَلْقَى ما عَمِلَهُ مِن خَيْرٍ وشرٍّ كما قاله آخرون. وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، أي: ظاهِرُونَ بادُون كُلُّهُم لا شَيْءَ يُكِنُّهم ولا يُظِلُّهم ولا يَسْتُرُهم، مع أن الجميعَ في علمه على السَواءِ عَلِمَ الجميعَ، وما عَمِلَ كلُّ واحِدٍ منهم من خَيْرٍ أو شَرٍّ، وقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. جاء في حديث الصور أنه عَزَّ وجلَّ إذا قَبَضَ أَرْوَاحَ جميع خلقه فلم يَبْقَ سِوَاهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، حِينَئِذٍ يقولُ: «**لِمَنِ المُلْكُ اليومَ؟**» ثلاثَ مَرّاتٍ، ثم يُجِيبُ نَفْسَهُ قائِلاً: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، أي: الذي هو وَحْدَهُ قد قَهَرَ كُلَّ شيءٍ وغَلَبَهُ.

أقوال العلماء في تفسير هٰذا الاسم

قال حُجَّةُ الإسلام أبي حامِد محمد بن محمد بن محمد الغزالي في كتابه «المَقْصدِ الأسنى»: (هو الذي يَقْصِمُ ظهر الجبابِرَة مِن أعدائه فيقهرهم بالإماتةِ

والإذلال. بل الذي لا مَوْجُودَ إلّا هو مُسَخَّرٌ تحتَ قَهْرِهِ وقُدْرَتِه، عَاجِزٌ في قبضته). وقال الإمام مجد الدين ابن الأثير الجزري في كتابه «النهاية في غريب الحديث» **القاهِرُ**: هو الغالب جميع الخلائق، يُقال: قَهَرَهُ يَقْهَرُهُ قَهْراً فهو قاهِرٌ، وقهّارٌ للمبالغة.

أثر هٰذا الاسم في العبد

إنّ من عَرَف ربَّه أنه قَهّارٌ غَلّاب لجميعِ مخلوقاته خضع لقهره عن طَواعِيَةٍ واختيار، ورضي بطاعته ولم يستكبر ويتمرّد على ربه، لعلمه أنه عَبْدٌ مخلوق، وظيفته العبودية والطاعة.

بين إرادة الله وإرادة الإنسان

هناك شُبْهَةٌ تدور فِي أذهان بعضِ المُشَكِّكين، يقول بعضُهم: إن اللَّهَ يَعْلَمُ أزلاً أنّ فلاناً من الناس إنْ خَلَقَه وامْتَدَّ به الأَجَلُ سَيَرْتَكِبُ المُوبِقات، فلماذا خَلَقَهُ وهو يَعْلَمُ أنه سَيَرْتَكِبُ ما لا يُرضيه، وسَيَتَعَرَّض بسبب ذلك لسخط اللَّهِ وعقابه ونيرانه؟

إنّ هٰؤلاء يَفْهَمُونَ القضاءَ والقَدَرَ على خلافِ حَقيقَتِهِ، فيظنّون أن معناه: حكمُ اللَّهِ على عبادِهِ بما شاءَه لكلٍّ منهم، بحيث لا يَبْقَى مع حكمه في حقّهم أيُّ إرادةٍ لهم أو اختيارٍ. وهٰذا الفهمُ الباطِلُ لم يَقُلْ به أَحَدٌ مِنْ عُلماءِ العقيدة مِن أهلِ السُنّة والجماعَة، ولا يَسْتَنِدُ إلى أيّ نصٍّ أو دليل، ولعلَّ مصدرَ هٰذا الخطإِ ما هو ثابتٌ أن معنى القضَاءِ في اللغةِ: الحُكْمُ، يُقالُ: قَضَى الحاكمُ بكذا، أي: حَكَمَ به، فظَنَّ كثيرٌ من الناسِ أن هٰذا المعنَى اللّغَوِيَّ يَنْسَحِبُ على القضاء بمعناه الاصطلاحي هنا، فَفَهِمُوا من ذلكَ الحكمَ المُلْزِمَ الذي يقضي على اختيار الإنسانِ وإرادته. فما هو المعنَى السليمُ للقضاء والقدر إذن؟

إن الإيمانَ بالقضاءِ والقدرِ ركنٌ مِن أركان الإيمان يختلُّ الإيمان بدونه، ودليله ما أخرجه الشيخان عن عمرَ بن الخطّابِ ﵁، أن رسول الله ﷺ قال في حديث جبريل حينما سأله: ما الإيمان؟ قال: «**أن تُؤْمِنَ باللَّهِ وملائكته وكتبه ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ وبالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرّه**». وقد علمنا أن مِن صفات الكمال لله

تعالى صفةَ العلم، والإيمان بالعلم يستلزم الإيمان بالقضاء والقدر.

أما القضاء: فهو عِلْمُ اللَّه عَزّ وجلّ في الأَزَلِ بالأشياءِ كُلِّها على ما ستكون عليه في المُسْتَقْبَل، ومِن ذلك سائر تصرّفات الإنسانَ الاختيارية والقَسْرِيّة، وأما القَدَرُ: فهو ظُهورُ تلكَ الأشياءِ بالفِعْلِ طِبقاً لعلمه الأزلي المتعلّق بها. يقول الإمام النوويُّ في «شرحه على صحيح مسلم» قال الخطّابي: وقد يَحْسِبُ كثيرٌ من الناس أنّ معنى القضاء والقدر: إجبارُ اللَّهِ سبحانه وتعالى العَبْدَ وقَهْرُهُ على ما قضاهُ وقدَّره، وليس الأمرُ كما يتوهَّمون، وإنما معناه: الإخبارُ عن تقدُّمِ علمِ اللَّهِ سبحانه وتعالى بما يكونُ مِن أكْسَاب العَبْدِ وصُدورِها عن تقديرٍ منه.

ويقُول ابنُ حَجَرٍ الهيثميُّ في كتابه «فتح المُبين بشرح الأربعين» النووية، في شرحه لحديث عمر المتقدّم: والقضاءُ عِلْمُ اللَّهِ أوّلاً بالأشياء على ما هي عليه، والقَدَرُ إيجادُه إيّاها على ما يطابقُ العِلْمَ. فالعِلْمُ إذن صِفَةٌ كاشِفَةٌ وليستْ صِفةً مُؤثِّرة على عكس من توهَّم أنَّ القضاءَ حُكمُ اللَّهِ على الإنسانِ، والجوابُ على شبهتهم من وجْهَيْن:

الوجه الأول: أن اللَّهَ خلق الإنسانَ حُرًّا يتصرَّفُ كيف يشاء، وهٰذه الحرِّيَّةُ هِبَةٌ كبيرة ونعمةٌ أنعمَ اللَّهُ بها على الإنسان، وهٰذه النعمة مستقلَّةٌ عما يمكن أن يختاره الإنسانُ بمُقْتَضَى هٰذه النعمة، فإذا قَصَدَ الإنسانُ الشَرَّ وعَزَمَ عليه واختاره، فإن اختياره هٰذا لا يُلغِي النعمة التي متّعه الله بها. ومِن ثَمَّ فإنّ اللَّهَ لا يتحمّل جريرَةَ السوءِ الذي اختارَهُ الإنسانُ بمحضِ رغبته وإرادته، أي إن اللَّهَ لا يوصَفُ بأنه هو المُتلَبِّس بذلك السوء؛ لأنه مَنّ على الإنسانِ بِنَعْمَتَيْ الوجود والاختيار، بل إن صاحبَ هاتين النعمتين هو المسؤولُ عن تسخيرهما للشرّ الذي اختارَهُ بنفسه.

الوجه الثاني: الذي يُجاب به أصحابُ هٰذه الشبهة، أنّهم يُخَيَّلُ إليهم أنَّ الكونَ الذي خلقه اللَّهُ تعالى كان ينبغي أن يكون خالياً عن الشرور والآثام، ولكي يكون كذلك لا بُدَّ أن يختارَ للوجودِ والعيش فيه مَنْ عَلِمَ أنّهم لن يتّجهوا باختياراتهم إلّا إلى الخير الذي يُفيدهم ويُفيد الآخرين. . . غير أن الكونَ لو سار على الخير وحده لكان الناسُ كالملائكة، ولخلا مِنَ الحكمة، ولَبَطل معنى

التكليف الذي شاءَ اللَّهُ بحكمته أن يَخْلُقَ الإنسانَ عليه، ولَبَطَلَ بناءً على ذلك الأجرُ والثواب والعقاب، ولما تحقّق قولُ الله عزّ وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: 1 ـ 2]، وقوله ﷻ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: 20]. إذْ لا معنى للابتلاء والاختبار إذا لم يكن هناك خير وشرّ، وانحراف واستقامة، ولم يكن ليوم الجزاء معنى.

لقد قضى اللَّهُ ﷻ أن يُشَرِّفَ الإنسانَ بالتكليف، وأن يؤهِّلَهُ بذلك للمثوبة والأجر، والتكليفُ يستدعي الكُلْفَةَ والجَهْدَ، ولا يتحقّق كلٌّ منهما إلّا إنْ جابه الإنسانُ غرائزه وأهواءه، وتسلّح بحبّ الخير والحق والإحسان، وتُركَ يختار ما يشاء، وهٰذا لا يَتمُّ إلا إذا وُجدَ أمامه الخيرُ والشرُّ، فعندئذٍ يتكامل في كيانه معنى التكليف الذي شَرّفه الله به. إنّ الله سبحانه سخّر للإنسان ما في السمٰوات والأرض: من الأطعمة المختلفة الألوان والطعوم، ومن المعادن والجبال وما فيها، والغابات وما فيها، والبحار وما فيها، والأنهار وما فيها، والأدوات المُنْبَثَّة حول الإنسان في كل مكان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾ [لقمان: 20]. وزوّده بمشاعر نفسيّة كَحُبِّ التملُّك، وعلّمه ما لم يَكن يعلم من العلوم التي هي مفاتيحُ لكلٍّ مِنَ الخير والشرّ، وجَهّزه بالعَقْلِ المُميِّز بين الخير والشرّ بقوّة وإرادة على اتخاذ القرارات، فإن أخضع إرادته لإرادة اللَّهِ وعمل صالحاً فَبِجُهْدِهِ وسعيه، وإن أَفْسَدَ في الأرض وارتكب الشرور فبِتَصَرُّفِهِ وسُوءِ استعمالِهِ لما وَضَعَهُ اللَّهُ تحت يَدِهِ، وأنعم به عليه، وهٰذا هو الابتلاءُ المقصود في الآية الكريمة: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35].

واللَّهُ سبحانه وتعالى نَهَى عن الإفْسَادِ فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]، وبَيَّن لنا أن هُناكَ صِنْفاً من الناس مُفْسِدِينَ وأنه لا يُحِبُّ الفَسَادَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا

قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴿٢٠٦﴾﴾. [البقرة: 204 ـ 206]. فَخَلْقُ اللَّهِ للإنسان الذي يُمارِسُ باختياره الفعلَ القَبيحَ لا يَسْتَوْجِبُ نِسْبَةَ القُبْحِ والشرِّ والفَسَادِ إلى اللَّهِ ﷻ، وتعالى عن ذلك عُلوّاً كبيراً إذْ ليس بينهما أيَّ ترابُطٍ أو لزوم.

إذن فخالِقَ كُلِّ شيءٍ هو اللَّهُ، وهناك فَرْقٌ بين أن يَخْلُقَ اللَّهُ الإنسان ويضع تحت تَصَرُّفه ما في الكون فيُسِيءُ هٰذا الإنسان في استخدام هٰذه النِعْمَةِ، نعمة حُرِّيّة الإرادة ونَعمة تسخير ما في الكون ليصدُرَ عنه الشَّرُّ، وبين نِسْبَةِ الشَرِّ لِلَّهِ، تعالى عن ذلك؛ لأنّ فاعِلَهُ والمُتَلَبِّسَ به هو الإنسانُ، وإنْ كان اللَّهُ قد أَقْدَرَهُ على ذلك نَعْمَةً منه وفضلاً، ولكنه أساء استخدامَ هذه النعمة، وهو المسؤول عن تصرّفاته وكَسْبِهِ، وسيحاسب عليه.

إن على الإنسان أن يُجاهد نفسه الأمّارة بالسوء، ولا يستسلم لرغباتها وشهواتها، فإنه إن فعل ذلك، فتح الله له باب الهداية ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: 69].

16 ـــ القَيُّومُ

معناه

القَيُّوم: هو القائِمُ بنفسه، المُقِيمُ لغيره، إذْ إنَّ الكائناتِ بحاجةٍ في استمرار بقائها وقيامها في وضعها من الوجود إلى الخالق الذي يُقيمها، ويرعاها بالحفظ، واللَّهُ هو المُقيمُ وَالحافظ لها، والمُؤَمِّن لها مِنَ المَخَاوِف، والمُهَيْمِن عليها.

والقَيُّومُ: صِيغَةُ مبالغة من القائِم، ومَعناه: القائِمُ بِنَفْسِه، الذي لا يحتاجُ إلى شيءٍ، والمُقِيمُ لغَيْرِهِ، فهو القائم بتدبير خَلْقِهِ. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة: 255]. فأخبر تعالى بأنه المنفردُ بالألوهية لجميع الخلائق الحيُّ في نفسه الذي لا يموت أبداً، القَيِّمُ لغيره، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمره كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الروم: 25].

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، في سُوَر: البقرة، وآل عمران، وطٰه.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنّ الاسم الأعظم: (الحيّ القَيُّوم)، فقد أخرج الإمام أحمد بسنده إلى أسماءَ بنتِ يزيد بن السكن ﵂ قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: 255] و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 1، 2]: «**إن فيهما الاسمَ الأعْظَمَ**» وكذا رواه أبو داود، والترمذيُّ وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه.

وأخرجَ ابن مَرْدَوَيْه في تفسيره عن أبي أُمامَةَ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسمُ اللَّهِ الأعظمُ الذي إذا دُعِيَ به أجاب في ثلاث سور: البقرة، وآل عمران، وطه**». قال هشام بن عمّار خطيب دمشق، وهو راوي الحديث: أما البقرة فـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: 255]، وفي آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 1، 2]، وفي طٰه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طه: 111].

أقوال العلماءِ في تفسيره

يقول الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (القَيُّوم: من أسْمَاءِ اللَّهِ تعالى المَعْدُودة، وهو القائِمُ بنفسه مُطلقاً لا بِغَيْرِهِ، وهو مع ذلك يقوم به كلُّ مَوْجُود، حتى لا يُتَصَوَّرُ وُجُودُ شيء ولا دوامُ وُجودِهِ إلّا به، وفي حديث الدعاء المُتَّفَقِ عليه عند الشيخين البخاري ومسلم: «لك الحمدُ أنتَ قيُّوم السمٰوات والأرض»، وفي رواية: «قَيّام»، وفي أخرى: «قيِّم»، وهي مِن أبْنِيَة المبالغة، وأصلها من الواو (قَيْوُوم) بوزن (فَيْعُول)، و(قَيْوَام) بوزن (فَيْعَال)، و(قَيْوِم) بوزن (فَيْعِل). ومنه حديث: «**حتى يكونَ لخمسينَ امرأةً قيِّمٌ واحدٌ**» (أخرجه الطبراني) ومعناه هنا: زوج، وقَيِّم المرأةِ: زوجُها؛ لأنه يَقومُ بأمْرها وما تحتاج إليه». ومنه أيضاً حديث: «**ما أفلح قَوْمٌ قَيِّمُهم امرأة**» (أخرجه أحمد وصحّحه ابن حجر العسقلاني في الفتح).

أما حجةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي فيقولُ في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الأشياء تفتقر إلى محلٍّ كالأعراض والأوصافِ فيقالُ فيها: إنها ليست قائمةً بأنفسِها. وما لا يحتاج إلى مَحَلٍّ فيُقالُ: إنه قَائِمٌ بنفسه كالجواهر. إلا أن الجوهر وإن كان قائماً بنفسه مُسْتغنياً عن مَحَلٍّ يَقومُ به، فليس مُسْتَغْنياً عن أمور لا بُدَّ منها لوجوده، وتكون شرطاً في وجوده، فلا يكون قائماً بنفسه؛ لأنه يَحتاج في قوامه إلى وُجود غيره، وإن لم يَحْتَج إلى مَحَلٍّ.

فإن كان في الوجود من يكتفي ذاتُه بِذاتِهِ، ولا قوامَ له بغيره، ولا يُشْتَرَطُ في دَوام وجودِه وجُودُ غيره، فهو القائمُ بنفسه مُطلقاً، فإن كان مع ذلك يقومُ به كلُّ مَوْجُودٍ، حتّى لا يُتَصَوَّرَ للأشياءِ وُجودٌ ولا دَوَامٌ إلّا به فهو القَيُّومُ؛ لأن قَوامَهُ بذاته، وقوامَ كلِّ شيءٍ به، وليسَ ذلك إلّا لِلَّهِ تعالى.

ومدخَلُ العبد في هٰذا الوصفِ بقَدرِ استغنائه عمّا سِوَى الله تعالى). انتهى كلام الغزالي.

أثر هذا الاسم على الإنسان

إن الذي يؤمن بأن الله وحده هو قيُّومُ السمٰواتِ والأرض، قائم بتدبيرهما وحفظهما، أراح باله من العناء والاضطراب النفسي، والقَلَقِ المُزْعِج المُكَدِّر للعيش وصفائه، وعَلِمَ أن رزقه ومستقبله وقوته وحياته، بيد قَيّوم السمٰوات والأرض الذي لا تقوم السمٰوات والأرض إلّا بأمره، فاطمأن إليه والتجأ لحماه، ولاذَ بجنابه، وطرق بابه، ولم يطرق باب سواه من المخلوقين العاجزين عن تدبير أنفسهم، فكيف بتدبير غيرهم؟ وَتَوَكَّلَ على اللَّهِ وَحْدَهُ، قال الله تعالى آمراً عباده بالتوكل عليه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: 58]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51]. وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]. وَوَعَدَ من توكَّل عليه بكفايته جميع أموره وحاجاته وتسخير الكون له فقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3]. وأمر عباده بتفويض أمورهم إليه لأنه وحده البصير بالعباد، والعالم بأحوالهم،

والقادر على إجابة دُعَائِهم وحاجاتهم ومطالِبِهم قال تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: 44].

ورَوى الإمام أحمد، والنسائيُّ، والتِّرمذي، والحاكم، وصحّحاه عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَو تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كما يَرْزُقُ الطَيْر، تَغْدُو خِماصاً** - أي تُصْبِحُ جائعةً - **وتَرُوحُ بِطاناً**» - أي ترجع مساءً إلى أوكارها ملأى البطون.

وروى الشيخان البخاريُّ ومسلمٌ، عن النبي ﷺ: «**يَدْخُلُ الجَنَّة سَبْعُونَ أَلْفاً مِن أُمَّتي بغير حِسَاب**» قيلَ: مَن هُمْ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: «**هم الذين لا يَرْقُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرون، ولا يَكْتَوون، وعلى ربّهم يتوكَّلون**»، يعني: هم الذين كمل إيمانهم بالله، ولم يعلق فيهم شيءٌ من أمور الجاهلية واعتقاداتها من الرقى والتمائم لما فيها من الشرك، وكالتشاؤم فإنه يُنافي الإيمان، فالتوكُّلُ من لوازم كمال الإيمان؛ لأن معناه: الاعتمادُ على الخالق دون رؤية الخلائق، فَمَن توكل على الله كفاهُ، ومَنِ انقطع إليه آواه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: 36]. والتوكل هو تركُ تدبير النفس، والانخلاعُ من الحولِ والقُوَّةِ، بأن لا يرى الإنسانُ لأحَدٍ حيلةً ولا قوَّةً إلا بالله العلي العظيم.

بين التوكُّلِ والتَّواكل أهمية العمل في الإسلام

معنى التواكُل

إنّ مِن الناس مَن يَتْرُكُ العَمَلَ والسَعْيَ المَأْمُورَ به بِدَعْوَى التَوَكُّل على اللَّهِ، والزُهْدِ في الدنيا، وانتظارِ الرِزْقِ والنصر من اللَّهِ، ويقولون في أنفسهم: بما أنّ اللَّهَ هو الحيُّ القَيُّومُ القائِم بتَدْبير أُمورِ عِبادِهِ، واسْتِجَابَةِ دُعائِهم، الغنيُّ الذي بيده ملكوتُ السمٰوات والأرضِ وخَزَائِنُهَما، القويّ القادر على كل شيء، والذي لا يَنْسَى من فضله أحداً، فَلْنَتْرُكِ الأمرَ إليه، ولنعتمد عليه وحده، فهو يرزقنا ويكفينا، وينصرنا على أعدائنا.

معنى التوكُّل

هٰؤلاء قومٌ أخطأوا فَهمَ الإسلامَ، ومعنى التوكُّل على اللَّه والزهد في الدنيا؛

لأنهم تركوا العَمَلَ والسَعْيَ، واكتفوا بالدُّعَاءِ وحسنِ الظنّ بالله سبحانَهُ وتعالى، إن التوكُّلَ على الله لا يعني بأي شكل من الأشكال تركَ العملِ، وعَدَمَ الأَخْذِ بأسبابِ الرزق، بل على العكس من ذلك تماماً، فهو يعني: الأخذَ بالأسباب، والسَعْيَ في طلب الرزق، ولكنه يحذّرُ من الاعتقادِ بأنّ هٰذا السَعْيَ هو الجالِبُ للرزق، فيعتمد على سعيه ويَعتدُّ به، وهذا الاعتقاد فاسِد، والاعتقاد الصحيح هو أن يتيقّن الإنسانُ أن الجالبَ للرزق بعد السَّعْي هو اللَّهُ سبحانه وتعالى. فَعَلَى الإنسانِ أن يَسْعَى في طلبِ الرزقِ مع الاعتقاد بأن اللَّهَ هو الرزَّاقُ، واللَّهُ سبحانه وتعالى حينما يرى عَبْدَه قد سَعَى واستنفذ وُسْعَه في السَعْي وهو مُعْتقِدٌ أنّ الرزّاقَ هو اللَّهُ سبحانه وتعالى، أعانه ووفّقه ورزقه. أما أن يَقْعُدَ ويتكاسل ويتواكل، ويقول: إن اللَّهَ هو الرزّاق، فلن ينال إلا الخَيْبَة والفشل، قال الله عزّ وجلَّ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: 39، 40]. وقد حضّ اللَّهُ على العَمَلِ فقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: 105].

لقد اقتضت سُنَّةُ اللَّهِ في الخلق أن الأرزاقَ التي ضمنها لِخَلْقِهِ، والأَقْواتِ التي قَدَّرَها، والمعايشَ التي يَسَّرَها لا تُنالُ إلّا بَجُهدٍ يُبْذَلُ، وعمل يؤدّى، ولهٰذا رَتَّبَ اللَّهُ سُبْحَانه وتعالى الأكلَ مِن رزْقِه على المشي في مَناكِبِ أرْضِهِ فقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]. فَمَن مَشَى أَكَلَ، ومَن كان قادراً على المَشْيِ ولم يَمْشِ كان جديراً ألّا يأكُلَ.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]. فمن سَعَى وانتشر في الأرض مُبْتَغياً فَضْلَ اللَّهِ ورِزْقَهُ، كان أهْلاً لأن يَنالَ منه، ومَن قَعَدَ وتكاسَلَ، كان جديراً بأن يُحْرَمَ.

رُوِيَ أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ رأى بعد الصلاة قوماً قابِعِينَ في المسجد، بدعوى التوكُّل على اللَّهِ فقال: مَنْ أنتُم؟ فقالوا: نحن نتوكّل على اللّهِ، فضربَهُم بدُرَّتِهِ وقال: لا يَقْعُدَنَّ أَحَدُكُمْ عن طلبِ الرِزْقِ ويقولُ: اللهمَّ ارزُقْني، وقد عَلِمَ أنّ السماءَ لا تُمطِرُ ذهباً ولا فِضَّة.

ويُرْوَى أن شقيقاً البَلْخِيّ ـ وهو أَحَدُ الصالحينَ ـ سافر في تجارة يَبْتَغِي من

فضل الله، وَوَدَّع صاحِبَهُ إبراهيمَ بنَ أَدْهَمَ، ولم تَمْضِ أيامٌ قليلةٌ حتى عادَ شقيق وقطع سفره، ورآهُ إبراهيمُ في المسجد، فقال له مُتَعَجِّباً: مَا الذي عَجَّل بَعَوْدَتِكَ؟ قال شقيقٌ: رأيتُ في سَفَرِي عجباً، فَعَدَلْتُ عن الرِحْلَةِ، قال إبراهيمُ: خيراً، ماذا رأيتَ؟ قال شقيقٌ: أَوَيْتُ إلى مكان خَرِبٍ لأَسْتَرِيحَ فيه، فَوَجَدْتُ به طائراً كسيحاً أَعْمَى، وَعَجِبْتُ وقُلْتُ في نفسي: كيف يعيش هذا الطائر، وهو لا يُبصِرُ ولا يتحرّك؟ ولم أَلْبَثْ إلّا قليلاً حتى أَقْبَلَ طائِرٌ آخرُ يَحْمِلُ لهُ الطعامَ في اليوم مَرَّاتٍ حتى يَكتَفِي، فقلتُ: إن الذي رزق هٰذا الطيرَ في هٰذا المكان قادِرٌ على أن يَرزُقَنِي، وعُدْتُ من ساعتي. فقال إبراهيم: عجباً لك يا شقيق! ولماذا رضيتَ لِنَفْسِكَ أن تكونَ الطائِرَ الأَعْمَى الكَسِيحُ الذي يعيشُ على مؤنَةِ غيره، ولَمْ ترضَ أن تكون الطائِرَ الآخَر الذي يَسْعَى على نفسه وعلى غيره من العِميانِ والمُقْعَدِينَ؟ أما عَلِمْتَ «**أن اليَدَ العُلْيَا خيرٌ مِنَ اليد السُفْلَى؟!**» فقامَ شقيق إلى إبراهيمَ وقبَّلَ يَدَهُ وقال: أنتَ أستاذُنا يا أبا إسحاق، وعاد إلى تجارته.

وقد استدلَّ بعضُ المُتَواكِلين القاعدين بحديث النبي ﷺ: «**لو توكَّلتم على الله حَقَّ توكُّلِهِ لَرَزَقكم كما يَرْزُقُ الطيْرَ، تغدو خِماصاً، وتروح بِطاناً**». والحديثُ نفسُه حُجَّةٌ عليهم، إذْ إنَّ اللَّهَ لم يضمن لها الرزق إلّا بعد غُدُوِّها. والغُدُوُّ: هو الخروج في الغَدْوَةِ لطلب الرزق، وفيه تنبيه على السعي واتخاذِ الأسباب، إذْ لا مكان في الحياة للكسول الخامِلِ.

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقولُ فيمن جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعملُ شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هٰذا رجل جَهِلَ العلم، أما سمع قولَ النبي ﷺ: «**جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**»؟ وكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يَتَّجِرُونَ في البَرِّ والبَحْرِ ويعملون في نخيلهم، والقُدْوَةُ بهم. وقد جاهد الرسولُ ﷺ أعداءَهُ، فخاضَ سبعاً وعشرين معركة ما بين سَرِيَّةٍ وغزوة، وكان اللَّهُ قادراً على نصرة دينه وهداية الناس بدون سَعيٍ وجهادٍ من رسولِ اللَّهِ ﷺ مدّة ثلاثٍ وعشرين سنة، مَليئةٍ بالكفاح، والجهاد، والعمل، والسعي، وأمر عباده المسلمين بالإعْدادِ لقتال الأعداء ونُصرة الدين فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]. إن أعداء الإسلام يحاولون بشتى الطرق أن

ينسخوا مفهوم الجهاد والقتال عند المسلمين، لكي يَعْجَزُوا عن المقاومة. وتسهل غلبتُهم والسيطرةُ عليهم. فيتّهمونهم بالإرهاب من أجل ذلك، وقد انخدع كثير من المسلمين بهذه الخدعة، ويحاولون أن ينفوا عن أنفسهم هٰذه التهمة فتركوا الجهاد وجروا خلف السلام، ووقعوا في الفخ الذي نصبه عدوّهم.

إنَّ اللَّهَ تعالى لم يأمر بتَرْكِ العَمَلِ بحجَّةِ الانقطاع الكامِلِ لِعِبادَة اللَّهِ؛ لأنَّ سَعْيَ الإنسان نَوْعٌ من الجهادِ في سبيل الله، ولهٰذا قرن بينهما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزّمّل: 20]. وروى البخاريُّ في صحيحه عن رسولِ الله ﷺ: «**ما أكلَ أَحَدٌ طعاماً قَطُّ خيراً من أن يأكُلَ مِن عَمَلِ يَدِه، وإنّ نبيَّ اللَّهِ داودَ كان يأكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ**» ومن المعلوم أنه كان نبيًّا ملكاً.

إنّ التواكلَ والقُعُودَ عن السَّعْي خُلُقٌ يأباهُ اللَّهُ للمسلمين؛ لأنه يتَعارَضُ مع قواعِدِ الإسلام العامَّة في معنى العِبادَةِ، ويؤدِّي إلى تأخّر المسلمين عن مكان الصدارة بين الأمم في العالم؛ لأن الله يُريدُ لأمة الإسلام أن تكونَ قويّةً مَرْمُوقَةً، عزيزةَ الجانب، ممتازةً في تقديرها لحقيقتها وتقويمها لنفسها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

وليس ذلك فحسب، بل أوجب على المسلمين أن يكون الرُوَّاد في قيادة البشرية ودعوتها إلى الإيمان الصحيح بالله والعبودية له، والتخلّق بالأخلاق الكريمة، وحين يُقَصِّر المسلمون في دورهم في ريادة الأمم، وحملِ دينِ اللَّه، فإن نتيجة تقصيرهم تعود عليهم بالخسارة، والفشل الذريع، والتأخّر، ويأتي اللَّهُ بقوم غيرَهم يحملون دينه ويؤمنون به وينصرونه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: 38].

17 ـــ الحَفيظُ

معناه

أنه حافظ الكون عن الخلل والاضطراب، ويكون ذلك بأمرين: (الأول): إدامَةُ وجود الموجودات، وبقائها بإيجاده وإبقائه، فالموجودات إنما وُجِدَت

بإيجاده وبَقِيتَ بإمداده. (الثاني): صيانة المتعاديات والمضادّات بعضها عن بعض. وهو مأخوذ من الحفظ. وهو صَوْنُ الشيء مِن الزوالِ والاختلال. فاللَّهُ جَلَّ وعلا هو الحافِظُ للموجودات، والصائنُ لها من الزوالِ والاختلال في نظامِها وتركيبها مُدَّة بقائها، بَحَسَبِ مشيئته. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 21]. ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الرقيب المُطَّلِع، الذي يُحْصِي أعمالَ عباده.

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً.

الملائكة تحفظ الإنسان بأمر الله

قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حَرَسٌ بالليل وحَرَسٌ بالنهار، يحفظونه من السوء والحوادث، وعن ابن عباس: المعقبات: ملائكة يحفظون الإنسان من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدرُ اللَّهُ خَلّوا عنه.

آية الكرسي لحفظ الإنسان

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255]. أي: لا يُثْقِلُهُ حِفْظُ السمٰواتِ والأرضِ ومَن فيهما ومَن بينهما، بل ذلك سَهْلٌ عليه يَسِيرٌ لديه، وهو القائِمُ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ، الرَّقيبُ على جميع الأشياء، فلا يَعْزُبُ عنه شيءٌ، ولا يغيبُ عنه شيءٌ، والأشياءُ كلُّها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلةٌ بالنِسْبَةِ إليه، محتاجةٌ فقيرةٌ، وهو الغَنِيُّ الحميدُ، الفَعَّالُ لما يريد، الذي لا يُسْأَلُ عمَّا يَفعَلُ وهم يُسألون، وهو القاهرُ لكلِّ شيءٍ، الحَسِيبُ على كل شَيءٍ، الرَّقيبُ العَليُّ العظيمُ، لا إِلٰهَ غيرُهُ، ولا ربَّ سِوَاهُ.

وتسمّى هٰذه الآية: بآية الكُرسِيّ ـ لذكر الكرسي فيها في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ ولها شأن عظيم، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب

الله، أخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده إلى الصحابيّ الجليل أُبَيّ بن كعب ﷺ أن النبي ﷺ سأله: «**أيُّ آيةٍ في كتاب اللَّهِ أعظم؟**» قال: اللَّهُ ورسولُه أعلم، فردّدها مِراراً ثم قال: آيةُ الكُرسِيّ، قال: «**لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المُنذِرِ**».

وأخرج البخاري في مواضع مِن صحيحه عن أبي هريرة قال: وكَّلَنِي رسولُ الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان: فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلتُ: لأرفَعَنّكَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، قال: دَعْنِي فإني مُحْتَاجٌ، وعليَّ عِيَالٌ، ولي حاجة شديدة، قال: فخلَّيْتُ عنه، فأصبحتُ، فقالَ النبيّ ﷺ: «**يا أبا هريرة: ما فعل أسِيرُكَ البارِحَةَ؟**» قال: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ شكا حاجَةً شديدة وعيالاً فرحمته وخلَّيتُ سبيله، قال: «**أما إنّه قد كذبك وسيعود**»، فعَرفتُ أنه سيعودُ لقولِ رسول اللَّهِ ﷺ أنه سيعود، فرصدته، فجاء، ففعل ذلك ثلاث مرات، فقال في الثالثة: دَعْني أعلّمكَ كلِماتٍ ينفعكَ اللَّهُ بها: قلتُ: وما هي؟ قال: إذا أَوَيْتَ إلى فراشِكَ فاقرأ آيةَ الكرسي ﴿اللَّهُ لا إله إلّا هُو الحيُّ القَيُّومُ﴾ حتى تختمَ الآيَة، فإنكَ لن يزالَ عليكَ مِنَ اللَّه حافِظٌ ولا يقرَبَك شيطانٌ حتى تُصبِحَ، فخلَّيتُ سَبيلَهُ، فأصبحتُ فقال لي رسولُ اللَّهِ ﷺ «**ما فعلَ أسيرُك البارحةَ؟**» قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ زعَمَ أنَّهُ يُعَلّمُنِي كلماتٍ ينفعني اللَّه بها، فخلَّيْتُ سَبيلَهُ، قال: «**وما هي؟**» قال: قال لي: إذا أَوَيْتَ إلى فراشِكَ فاقرأ آيةَ الكرسي من أوّلها حتى تختم الآية ﴿اللَّهُ لا إله إلا هُو الحيُّ القيّومُ﴾ وقال لي: لن يزال عليكَ من اللَّهِ حافِظٌ ولا يقربَك شيطانٌ حتى تُصْبِحَ، فقال النبي ﷺ: «**أما إنه صدقكَ وهو كذوبٌ، تعْلَمُ مَن تخاطِبُ من ثلاثَ ليالٍ يا أبا هريرة؟**» قلتُ لا: قال: «**ذاك شيطانٌ**».

وأخرج الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وقال حسن صحيح: عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ في هاتين الآيتين: «**﴿اللَّهُ لا إلَهَ إلّا هو الحيُّ القيّوم﴾ و﴿الم * اللَّهُ لا إله إلّا هو الحيُّ القيوم﴾**: «**إنّ فيهما الاسمَ الأعظم**».

وأخرج الترمذي، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾** [الآيات 1، 2، 3 من سورة غافر]، **وآيةَ الكرسي حين يُصبح، حُفِظَ بهما حتى يُمسِي، ومَن قَرأهما حين يُمسِي حُفِظَ بهما حتى يُصْبِحَ**».

آثار الحفظ تدلّ على الحفيظ

مقاومة الطفل ومناعته ضِدّ الأمراض

يولد الطفل بمناعة قويّة ترجع إلى ما اختزنه مِن أمّه من مضادات للأمراض، وهو في هٰذه المناعة أقوى من أُمّه في مُقاوَمَة الجراثيم الغازِيَة الفتّاكة، فالأمُّ أشَدُّ تعرّضاً للأمراض، ومن ذلك حُمَّى النفاس، أو الحمَّى الثانوية والالتهابات، وفقر الدم.

يفرز الثديان ابتداءً من الشهر الثالث مِن الحمل، وفي الأيام القليلة التي تعقِبُ الوِلادَة سائلاً قلويّاً يميل إلى الصُفرَةِ، وهو: اللَبَأُ أو الرسُوبُ أو (الكلوسترم)، ويختلف في تركيبه عن اللبن الحقيقي، إذ يحتوي على نسبةٍ أكبر من المواد الزلالية، أكثرها من (الجلوبيولين) ونسبةٍ أدنى من المواد السكّريّة والدُهنيّة، ويشتمل على كل الفيتامينات تقريباً، لا سيّما فيتامين (أ) الذي ثبت وجودُه بنسبة أعلى منها في اللبن الحقيقي، واللبأ علاوةً على قيمته الغذائية مُليِّن مسهّل لطيف، لكنه لا بُدّ منه ليتخلص الطفلُ من العقي الذي يملأ مصارينه وأمعاءه الدقيقة والغليظة على حدٍّ سواء، وهٰذا العقيُ مادّة سوداء تراكمت وتجمّعت وتكدّست منذ الشهر الخامس للحمل. ولا بُدّ من التخلّص منها حتى تبدأ أمعاء الطفل الصغير عملية الهضم، وقد يؤدي فشل الوليد في طردها إلى انْسِدادٍ مَعَوِيّ حادٍّ قاتِل وخطير النتائج، أهم مخاطره: الانفجار المعَوي، وانفجار الغشاء البريتوني.

ومادة اللبأ تنبه انقباضات الأمعاء مما يساعدها على التخلص من محتوياتها، وهو لا يحتوي على أجسام مضادة للجراثيم، إنما يقوي الدفاعات المناعية للجسم ضدّ هذه الجراثيم.

أما اللبن الحقيقي فيبدأ إفرازه بسخاء وغزارة وانسجام اعتباراً من اليوم الثالث أو الرابع للولادة، وممّا يحفّز ويسرّع بانسجامه هو عملية الإرضاع نفسها من الطفل الوليد ذاته. فمن الذي حفظ الطفل الرضيع بهٰذه المادة؟ إنه اللّهُ الحفيظ.

حفظ الله للقرآن

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ۝٩﴾ [الحجر: 9].

شُبْهَة تحريف القرآن

عَقِبَ الحروب الصليبية، اندحرت جيوش الصليبيين تجرّ أذيال الخيبة والفشل والهزيمة النكراء التي مُنُوا بها على أيدي جيوش المسلمين بقيادة البطلِ المسلم صلاح الدين الأيوبي، فعادوا إلى أوروبا وعكفوا على دراسة أحوال الشرق وديانته، وأسباب هزيمتهم وقوّة المسلمين لإعادة الكرة عليهم، وتخصص قومٌ منهم بدراسة أحوال الشرق، سُمُّوا: بالمستشرقين، ومعظمهم من رهبان الكنائس والأديرة، وتوصَّلُوا ألى أن حرب السيف لم تُجْدِ معهم نفعاً في غزو العالم الإسلامي. فلجأوا لشكل جديد من أشكال الحرب وهو ما يُسَمَّى: بالغزو الثقافي، وعكفوا على وضع المخططات والدراسات وتشكيل الجمعيات والمؤسسات، وعقد الندوات وآلاف المؤتمرات، ووضع الكتب وإرسال جيوش المُبَشّرين للعالم الإسلامي بهدف تنصير المسلمين وإخراجهم من دينهم.

ولكنهم فشلوا بعد جهود متواصلة في تنصير المسلمين، فغيّروا خطتهم، وخاصّة بعدما صار المُبَشِّرون الذين أرسلوهم للشرق يدخلون في الإسلام! وعلموا أنهم لن ينجحوا في هٰذا الهدف، فقرّروا الانتقال إلى تشكيك المسلمين بدينهم، والعمل على إخراجهم منه، لجعلهم أناس لا دينيّين، عَلْمانيين، لا يؤمنون بربّ، ولا نبيّ، ولا دين، ووقف رئيس وزراء بريطانيا السِير (غلادستون) أمام حكومته وقال مقولته الشهيرة: (لن نستطيع السيطرة على بلاد المسلمين ما دام القرآن بأيديهم، يجب علينا أن ننتزعه منهم)، فاقترح أحد الوزراء إجراء حملة تفتيش واسعة لمصادرة المصاحف من بلاد المسلمين، فأجابه: (إذا نزعناه من أيديهم فإنه في قلوبهم، الحلّ الصحيح هو بإبعادهم عنه وجعلهم يهجرونه ويتركون العمل به).

هكذا خطّط أعداء المسلمين لإبعاد المسلمين عن دينهم وكتابهم الأول القرآن الكريم، وهو دستورهم والمصدر الأول لدينهم، وقد شَنُّوا حملة تشكيك

واسعة النطاق حول صدق نبوّة محمد، وصحّة نصوص القرآن وأصله، وأنه من تأليف محمد ﷺ، وكيفية جمعه وكتابته، وتاريخ وصوله إلينا.

ومِن أخطر مَن حاول الطعن في القرآن الكريم المستشرق اليهودي: (جولد تسيهر) وذلك في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» وقد انتشر كتابه وكتابات أضرابه في العالم انتشاراً واسعاً، وقُرّرت آراؤهم للتدريس في المناهج التعليمية في المدارس والجامعات العالمية، على أنها مُسَلَّمات!! وسَرَت هذه الشكوك إلى مصادر الدراسات التاريخية ودوائر المعارف، وأخذت طريقها إلى الشرق الإسلامي، عن طريق أبنائه الذين تتلمذوا على أيدي أساتذتهم المستشرقين فحملوا أفكارهم الهدّامة إلى أبناء جنسهم، وانتشرت هٰذه الحرب على أيديهم واستعرت، حتى نشأ جيلٌ عَلْمَانِيٌّ في بلاد المسلمين مُتَغَرّبٌ، لا يعرف شيئاً عن أمور دينه، مشكِّك به، مُعْجَبٌ بالغرب، يأنَف من إسلامه ودينه، ويقلّد الغرب في تفكيره وكل مظاهر حياته، مما استَوْجَب إعادته إلى دينه وهويّته الإسلامية، وذلك بالردِّ العلميِّ المُقْنِع المُدَلَّلِ بالأدلَّةَ والبراهين، على أعداء الإسلام، لجلاء شُبَهِهم، وتفنيدها، وتوضيح الحق لأبناء المسلمين حول صِحَّةِ القرآن، وسلامةِ نصوصه، وحفظِ الله له.

القرآن كتابُ الله

القرآن الكريم هو كتابُ الله المُعجز المتضمن كلامه المُنْزَلُ من عند الله، من اللوح المحفوظ على خاتم أنبيائه محمّد ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وقد نَسَخَ اللَّهُ به جميع كتبه السابقة من صحفٍ وزبور وتوراة وإنجيل، وأَحْكَمَ آياته فلا ينسخها شيء، فحوّل الله به الحياة البشرية من شقاء لسعادة، ومن ذلَّة لسيادة، وأبدلهم بجهلهم علماً، وبِهَمَجِيَّتِهم ثقافة وحضارة، فملأ الأرضَ عدلاً، ورحمة، وحقّاً، وهدًى، وعِلماً، وصار دستور المسلمين.

وقد أُنْزل في اليوم السابع عشر من رمضان في السنة الحادية والأربعين من مولده ﷺ الموافق لسنة 621م، حين أوحي إليه في غار حراء، وأول ما نزل منه قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: 1 ـ 5]. وآخِرُ ما نزل منه ﴿ٱلْيَوْمَ

أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3]. وقد نزل مُفَرَّقاً خلال اثنتين وعشرين سنةً وشهرين واثنين وعشرين يوماً. ومنه ما نزل بمكة ويُقال له: المكّي خلال إقامته ﷺ فيها وهي: اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً على التحقيق، ومنه ما نزل بالمدينة المنورة ويقال له: المدني، خلال إقامته ﷺ بالمدينة وهي: تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام، وعَدَدُ سُوَر القرآن: (114) سورة منها: ثلاث وعشرون مدنية، والباقي: مكي. ولكل سورة اسم خاصٌ بها.

كيفية تدوين القرآن ووصوله إلينا

كانت الآيات والسور تنزل على رسول الله ﷺ، فيبلّغها لأصحابه ويأمرهم بكتابتها ويحفظها في بيته، وينسخ الصحابة لأنفسهم منها ويحفظونها في صدورهم حتى كثر فيهم الحفظة، ويقرؤونها في صلاتهم ويتعبّدون بتلاوتها في سائر أوقاتهم حتى استتمَّ نزول القرآن كاملاً، وكان جبريل يعرضه على الرسول ﷺ في كل سنة مرة، وقد عرضه عليه مرّتين سنة وفاته. وتوفي الرسول ﷺ والصحف مجموعةٌ في بيوت أزواجه، ومحفوظة في صدور كثير من المسلمين.

جمع القرآن على عهد أبي بكر

في عهد الخليفة الراشد أبي بكر توفي من حَفَظَةِ القرآن نحوُ سبعين في معركة اليمامة، فأشار عمرُ على أبي بكر أن يجمع القرآن بين دفّتي مصحف واحد، بعد أن كان صحفاً متفرقة على الرفوف في بيوت أزواجه ﷺ، فأمر أبو بكر زيدَ بن ثابت ومعه جَمْعٌ من الصحابة المعروفين بالحفظ والكتابة بجمع الصحف بين دفّتَي مصحف واحد على الترتيب الذي كان الرسول يتلوها بها. ويُضاف إليه حفظ الحفّاظ في صدورهم، وصار هٰذا المصحف مرجعَ المسلمين، فحفظه أبو بكر في حياته، وخلفه عليه عمر ثم تركه عمر عند ابنته حفصة أم المؤمنين.

الخليفة عثمان يجمع الناس على مصحف واحد

ولما كانت خلافة عثمان اختلف الناسُ في قراءة القرآن تبعاً لاختلاف

لغاتهم، فأشار عليه حذيفة بن اليمان أن يجمعَ الناسَ على مصحفٍ واحد، فأمرهم عثمان بحرق جميع ما لديهم من الصحف، وأمر زيد بن ثابت أن ينتسخ من المصحف المحفوظ عند حفصة سبعة مصاحف وزّعها في الأمصار وأمر الناسَ بنسخ مصاحفهم منها.

فأبو بكر جمع كل ما دُوِّنت فيه آية أو آيات من القرآن حتى لا يضيع منه شيء، وعثمان جمع المسلمين على هٰذا النص الواحد، وأمر بحرق ما سواه حتى لا يختلفوا في لفظ واحد منه، وأبقى لنفسه مصحفاً عُرِفَ بالمصحف الإمام، وأمر بنشر النسخ السبع في الأمصار ليقرأ منها القرّاء ويرجع إليها الحفاظ.

وبِعَمَلِ عثمان تمّ الأمنُ على كتاب الله عز وجل، وتناقلته الأجيال عبر العصور، وما اختلف المكتوب منه والمحفوظ، ولا اختلف في لفظه اثنان، وهٰذه ملايين المسلمين في أرجاء الأرض منذ أربعة عشر قرناً من الزمن يقرؤونه، ولا يختلف فيه اثنان بزيادة أو نقصان، أو تغيير، أو تبديل، أو ترتيب، تحقيقاً لوعد الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ۝٩﴾ [الحجر: 9].

18 ــ المؤمن

معناه

مأخوذ من الأمن، ومعناه: أن الله سبحانه هو الذي يؤمِّن عباده من المَخاوِف، فيدفع عنهم كلَّ ما هو خطرٌ عليهم، ويُلْقِي في قُلوبهم الطمأنينة والسكينة، ويدفع عنهم الخوف. وهٰذا التأمين يكون في الدنيا والآخرة، فيعود على هٰذا إلى ما يقرب من معنى الحفظ والصيانة، بزيادة معنى إلقاء الطمأنينة في قلب مَن يرعاه بِحِفْظه، ويكون بذلك اسماً من أسماء الأفعال. وهٰذا أحد معاني هٰذا الاسم، ويعود أيضاً إلى صفة العلم.

وقد ورد هٰذا الاسم في موضع واحد من القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ۝٢٣﴾ [الحشر: 23].

أقوال العلماء في تفسيره

قال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذا الاسم: (المُؤْمِنُ: هو الذي يَصْدُقُ عبادَه وعْدَهُ، فهو من الإيمان بمعنى التصديق، أو يؤمِّنُهم في القيامة من عذابه فهو من الأمان، والأَمْنُ ضِدُّ الخوف).

وقال الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الشافعي في كتابه «المَقْصِدِ الأسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى» في معنى هٰذا الاسم: (المؤمن: هو الذي يُعْزَى إليه الأَمْنُ والأمانُ بإفادته أسبابه، وسَدِّهِ طُرُقَ المخاوِفِ. ولا يُتَصَوَّرُ أَمْنٌ إلّا في مَحَلِّ الخَوْفِ، ولا خَوْفَ إلّا عند إمكان العدم والنَقْص والهَلاك.

والمؤمِنُ المُطْلَقُ هو الذي لا يُتَصَوَّرُ أمنٌ وأمانٌ إلّا ويكون مستفاداً مِن جهته، وهو الله تعالى.

وليس يخفى أن الأعمى يخاف أن ينالَه هلاك من حيث لا يرى، فعينه البصرية تفيده أمناً منه، والأقطَعُ يخاف آفةً لا تندفع إلا باليد، فاليدُ السليمة أمانٌ منها. وهكذا جميع الأطراف والحواسّ. واللّٰهُ خالِقُها ومصوِّرها ومُقَوِّيها، فهو المؤمن عبده.

ولو قدّرنا إنساناً وحده مطلوباً من جهة أعدائه، وهو مُلْقىً في مضيقة لا يتحرّك عليه أعضاؤه لضعفه، وإن تحرَّكت فلا سلاح معه، فإن كان معه سلاحُ لم يُقاوِمِ أعداءه وحده، وإن كانت له جُنود لم يأمَن أن تنكسِرَ جُنودُه، ولا يجد حِصْناً يأوي إليه. فجاء من عالج ضَعْفَهُ فَقَوَّاهُ، وأمدَّه بجنود وأسلحة، وبنى حوله حِصناً حصيناً، فقد أفاده أَمْناً وأماناً. فبالحَرِيِّ أن يُسَمَّى: مؤمناً في حقّه.

والعبدُ ضعيفٌ في أصل فطرته، وهو عُرْضَةٌ للأمراضِ والجوع والعطش من باطنه، وعُرْضَةٌ للآفات المُحْرِقَةِ، والمُغْرِقَةِ، والجارِحَةِ، والكاسِرَة من ظاهره. ولم يُؤَمِّنْهُ مِن هٰذه المخاوِفِ إلّا الذي أَعدَّ الأدوية دافِعَةً لأمراضه، والأَطْعِمَةَ مُزيلَةً لجوعه، والأشربةَ مُميطَةً لعطشه، والأعضاءَ دافعةً عن بَدَنِهِ، والحواسَّ جواسيسَ مُنْذِرَةً بما يقرِّبُ من مُهْلِكاتِهِ.

ثم خَوْفُه الأعظمُ مِن هلاكِ الآخِرةِ، ولا يحصّنه عنه إلّا كلمةُ التوحيد، واللَّهُ تعالى هاديه إليها، ومُرَغِّبُهُ فيها حيث قال تعالى في الحديث القدسي: «**لا إلٰه إلا اللَّهُ حِصْنِي، فمن دَخَلَ حِصْنِي فقد أَمِنَ عَذَابِي**» (أخرجه ابن النجار وابن عساكر عن أنس).

فلا أمن في العالَم إلّا هو مستفادٌ بأسبابٍ هو مُنْفَرِدٌ بخلقها، والهدايةِ إلى استعمالها، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50]، فهو المؤمنُ المطلَقُ حَقّاً.

حَظُّ العَبْدِ من هٰذا الوصف أن يأمَنَ الخَلْقُ كلُّهم جانِبَه، بل يرجو كلُّ خائِفٍ الاعتضادَ به في دفع الهلاكِ عن نفسه في دينه ودُنْياه، كما قال رسولُ الله ﷺ: «**واللَّهِ لا يُؤمِن، واللَّهِ لا يؤمِن، واللَّهِ لا يؤمن**»، قيل: ومَن يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: «**الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوَائِقَهُ**» (أخرجه البخاري عن أبي شرَيح).

وأَحَقُّ العِبادِ باسم المؤمن مَن كان سَبباً لأَمْنِ الخَلْقِ من عذابِ اللَّهِ بالهداية إلى طريق اللَّهِ والإرشادِ إلى سبيل النجاة. وهٰذه حِرْفَة الأنبياء والعُلماء، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**إنكّم تتهافتون في النارِ تَهافُتَ الفراش وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ**» (أخرجه أحمد في المسند).

ولعلَّكَ تَقُولُ: الخوفُ على الحَقِيقةِ مِنَ اللَّهِ، فلا مُخَوِّفَ إلّا إيّاهُ، فهو الذي خَوَّفَ عبادَه، وهو الذي خَلَقَ أَسْبَابَ الخوفِ، فكيفَ يُنْسَبُ إليه الأمْنُ؟ فجوابك أن الخوفَ منه، والأمْنَ منه، وهو خالِقٌ سبب الخوفِ والأمن جميعاً، وكونه مَخُوفاً لا يَمْنَعُ كونه مُؤمِناً، كما أَنَّ كَوْنَهُ مُذِلَّا لا يَمْنَعُ كَوْنَهُ مُعِزّاً، بل هو المُعِزُّ والمُذِلُّ. وكونُه خافِضاً لا يَمْنَعُ كونَه رافعاً، بل هو الخافِضُ الرافع، فكذلك هو المؤمِن المَخُوفُ، ولكنّ المؤمِنَ وَرَدَ التوقِيفُ به خاصَّةً دون المَخوف). انتهى كلام الغزالي.

أثر هٰذا الاسم على الإنسان

إن الإيمان باللَّهِ يُورِثُ النفسَ الإنسانيةَ سَكِينةً، هي: الينبوع الأول للسعادة، ولٰكن كيف السبيلُ إليها إذا كانت شيئاً لا يُثْمِرُهُ الذكاءُ ولا العلمُ، ولا

الصحةُ ولا القُوَّةُ، ولا المالُ والغِنَى، ولا الشُهْرَةُ والجاهُ، ولا غيرُ ذلك مِن نِعَمِ الحياة المادّيّة؟

إن للسكينة مصدراً واحداً، هو الإيمانُ باللّهِ واليوم الآخِر، الإيمانُ الصادِقُ العميقُ، الذي لا يكدّره شَكٌّ، ولا يُفْسِدُهُ نِفاقٌ. هٰذا ما يشهد به الواقع الماثِلُ، وما أَيَّدَهُ التاريخُ الحافِلُ، وما يَلْمَسُهُ كلُّ إنسانٍ بَصيرٍ مُنْصِفٍ، في نفسه وفيمن حولَه.

إنّ أكثر الناسِ قَلَقاً وضيقاً واضطراباً، وشعوراً بالتفاهَةِ والضَياع هُمُ المَحْرُومُون مِن نعمة الإيمان، وبَرْدِ اليقين. إنّ حياتهم لا طَعْمَ لها ولا مَذَاق، وإنْ حفلتْ باللذائذ والمُرَفِّهات؛ لأنهم لا يُدركون لها معنًى، ولا يَعْرِفُون لها هَدَفاً، ولا يَفْقَهُونَ لها سِرّاً، فكيف يَظْفَرون مع هٰذا بسكينة نفسٍ، أو انشراح صَدْرٍ؟ إن هذه السكينة ثمرةٌ مِن ثمارِ دَوْحَةِ الإيمان، وشجرة التوحيد الطيِّبَة التي تُؤْتِي أكُلَها كُلَّ حِين بإذنِ ربّها. فهي نَفحَةٌ ربّانيَّةٌ يُنْزِلُها اللّهُ على قُلوبِ المُؤمنينَ مِن أهلَ الأرض لِيَثْبُتُوا إذا اضطربَ الناسُ، ويَرْضُوا إذا سَخِطَ الناسُ، ويُوقِنُوا إذا شَكَّ الناسُ، ويَصْبِرُوا إذا جَزَعَ الناسُ، ويَحْلَموا إذا طاشَ الناسُ. هٰذه السِكينةُ يُنْزِلُها الله على المؤمنين ليسكنَ الخائفُ، ويَطمئنَّ القَلقُ، ويتسلّى الحزينُ، ويَسْتَرِوحَ المتْعَبُ، ويقوَى الضعيفُ ويَهتَدِي الحيرانُ.

الإنسان بين القلق النفسي والإيمان

يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه المُبين: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: 124 ـ 127].

إن أشَدَّ الأمراضِ انتِشاراً في العالم في هٰذه الآونة هو مرضُ اضْطِرابِ الأعصاب والقلقِ النفسيِّ، وضغطِ الدم والشرايين، وذلك ناشِىءٌ عن بُعْدِ الناسِ عن ربّهم، وإعراضهم عن الإيمان به وطاعته، واتّباع شرعه.

لقد مالت أوروبا منذ القرن الخامس عشر للمادِّيَّة المُفْرِطَة، وتبعها العالمُ

الإسلامي في القرن العشرين. فأعلنا إبعاد الدين وأهله عن المجتمع، بل ثارت عليهما ثورة عنيفة قضت على جميع مظاهر الإيمان وحاجات الروح الإنسانية، ومال الإنسانُ إلى تأليه نفسه، والسعي وراء حاجاته الجسدية وشهواته، وكفر بكلّ القيم، والمبادىء، والأخلاق، والدين، وظهر الإلحاد، والشيوعية، والعلمانية، والوجودية، فماذا كانت النتيجة؟

لقد تقدَّمَ الإنسانُ الغربيُّ في مجال الاكتشافات والاختراعات والتكنولوجيا تَطوُّراً هائلاً، فشق الطرق، وبَنَى الجسُور، ورفع المباني، وشاد القصور، وتوصل إلى الأسلحة المدمّرة الفتّاكة، وهٰذا كلُّه جانبٌ لا يُنكر، ولكنه يدور في فلك المادة، فأين هو الإنسانُ الغربي وسط هٰذه الحضارة المادّيَّة، وهل حقَّقت له السعادةَ والطمأنينة والحياة الهنيئة أم ماذا؟

إنّ الغربَ المادّيّ أخطأ الطريق، وضل عن السبيل الصحيح، بتأليه الإنسان، وإطلاق العنان لغرائزه وحاجاته وشهواته، وهٰذا فتحَ المجالَ أمام حِفْنَةٍ قليلة من اليهود شُذّاذ الآفاق، وقَتَلَةِ الأنبياء، أن يحقّقُوا مطامعهم في السيطرة على العالم، واستبعادِ شعوب الأرض، وجَعْلِها شعوباً حيوانية لا همَّ لها إلا شهواتها وتحقيق رغباتها، فتسهل بذلك السيطرة عليهم.

لذلك فهم الذين يروّجون للإلحاد والكفر بجميع صوره، ويفلسفونه، ويصوغونه بأسماء برّاقة كالتقدّم، والرقيُّ والحداثة، والعلمانية، والديموقراطية، وقد أسَّسُوا الجمعيات والمحافل السرّية والعلنية لنشر أفكارهم وتضليل شعوب الأرض، وهم بذلك يحقّقون تعاليم دينهم الذي حرَّفوه وبدّلوه، فقد جاء في كتابهم التلمود ما نصّه: (أنتم شعب الله المختار، وقد جعلتُ لكم سائر شعوب الأرض حميراً لتركبوها ولتبلغوا بها أهدافكم)!! فهم عنصريون يعتبرون أنفسهم شعباً ممتازاً، وينظرون لسائر البشر على أنهم حمير، يستغلّونهم لأغراضهم وقد خطّطوا للسيطرة على العالم وحُكمِه من مملكة إسرائيل الكبرى.

وقد تحقّق لهم ما أرادوا في أرجاء الأرض وها هم يقيمون دولتهم ويسيطرون على العالم وحكوماته وشعوبه، ويشعلون الحروب الفتاكة المُدمِّرة في أرجاء الأرض، للقضاء على من يعارضهم، ويُحدثون الأزمات السياسية

والاقتصادية والاجتماعية، ويسعون في الأرض فساداً، هٰذه هي نتيجة ابتعاد أوروبا والغرب عن الدين، فَمَنْ لِهٰؤلاء اليهود شُذّاذ الآفاق؟ مَن يتصدّى لمخططاتهم الإجرامية بحق شعوب الأرض؟ مَن يأخذ على أيديهم ويمنعهم من تحقيق مآربهم الخسيسة الدنيئة الحقيرة في استعباد شعوب الأرض والعلوّ عليهم استكباراً في الأرض؟

لقد وقع الناسُ في جميع بلاد العالم ـ وخاصة المسلمون ـ فريسَةً بيد هؤلاء المجرمين، وتحقّقت فيهم مخططاتهم الشيطانية، فعمّ الفقرُ والجَهْلُ والأمراضُ، وتفككت المجتمعات، وانحلّت الأسر، وتدهورت القيم والأخلاق، وانتشرت الرذيلة والانحلال، وتحول الناسُ إلى بهائم لا همَّ لها إلّا إشباع غرائزها وشهواتها، فانتشرت الأمراض الفتاكة كالإيدز، والسرطان، وأمراض الأعصاب، والقلق النفسي، والاضطرابات، والضغط، والشرايين، وبات الناسُ قلقين على مستقبلهم ومصيرهم، عاجزين لا يقدرون على شيء.

إن الإيمانَ باللَّهِ هو الحلُّ الوحيدُ للبشريَّة المُعَذَّبَةِ في الأرض، ولا دواء لها سِواه مهما حاولت، وها هي قد جرّبَت كلَّ شيء، كلَّ المبادىء والأفكار والأنظمة من شيوعية، ودكتاتورية، وديمقراطية، واشتراكية، لكنها لم تفلح في إنقاذ شعوبها فَلْتُجَرّبِ الإيمانَ، ولو لفترة، فإنه البَلْسَمُ الشافي: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. ولقد جَرَّبَت الإنسانية هٰذه التجربَة سابقاً على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، وعهود الإسلام المشرقة الوضّاءَة، فسَعِدَت، وعَزَّت بعد ذل، وصار المسلمون أسياد العالم ونشَروا دين اللَّهِ وهَدْيَه في الآفاق، فكانوا بحقّ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

إن الإيمان بالله يكسب النفس الإنسانية سعادةً وطمأنينة لا يمكن أن تحصل لها إلا بالإيمان، فلا المال، ولا المناصب والجاه، ولا الأولاد، ولا الأملاك، ولا الحضارة المادية هي التي تحقق سعادةِ الإنسان، بل إيمانه بربّه وخالقه، حينما يشعر أنه يؤدي دوره الذي خُلِقَ من أَجْلِهِ، وهو عبادَةُ الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 56]، حينما يخضع لجبّار السمٰوات والأرض

وينفذ أوامره، ويطيعه ويلوذ بجنابه، ويشعر أن له ربّاً يحميه ويصونه ويقوّيه، ويعينه على نوائب الدهر، فيستمد منه العون والمدد والقوة، فيرتاح بقربه، ويأنس بذكره، وتتنزّل عليه السكينةُ حينما يقف في الصلاة يناجيه ويُعلن له خضوعه وطاعته وامتثاله لأمره.

الأَمْنُ النَفْسِيّ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: 82]، أي: إن الذين آمنوا بالله وأخلصوا العبادة له وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمِنُون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه بسنده إلى عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لمّا نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأَيُّنا لا يَظْلِمُ نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى جرير بن عبد الله ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلمّا بَرَزْنا مِنَ المدينة إذا راكِبٌ يوضَعُ نَحْوَنا، فقال رسولُ الله ﷺ كأنَّ هٰذا الراكبَ إيّاكم يُريد، فانتهى الرجلُ إلينا فَسَلَّم، فرددنا عليه، فقالَ له النبي ﷺ: «**مِن أين أقبلتَ؟**» قال: مِن أهلي وولدي وعشيرتي، قال: «**فأين تريد؟**» قال: أريدُ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «**فقد أَصَبْتَه**»، قال: يا رسولَ اللهِ! عَلِّمْنِي ما الإيمان؟ قال: «**أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنّ محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت**»، قال: قد أقررتُ. قال: ثم إنّ بعيره دخلت يَدُهُ في جُحْرِ جُرْذَان فهوى بعيرُه، وهَوَى الرجلُ فَوَقَعَ على هامَتِهِ فماتَ، فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**عَلَيَّ بالرَّجُل**»، فَوَثَبَ عمّارُ بن ياسِر، وحُذَيْفَةُ بنُ اليمان، فأقعداه، فقالا: يا رسولَ اللّهِ! قُبِضَ الرجلُ، قال رسولُ اللّهِ ﷺ «**فإنّي رأيتُ مَلَكَيْن يَدُسَّانِ في فمه من ثمار الجنة فَعَلِمْتُ أنه مات جائعاً**». ثم قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**هٰذا مِنَ الذين قال اللّهُ عزّ وجلّ فيهم**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾» الآية.

وأخرج الشافعي بسنده إلى ابن مسعود قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**قيل لي: أنتَ منهم**».

أثر الإيمان على النفس

الإيمان هو مصدر الأَمْن، والأَمنُ ثَمرةُ الإيمان، وهو الطمأنينة والسكينة اللتان يضفيهما الإيمان على النفس الإنسانية، طمأنينة تتعلق بالمستقبل بكُلّ ما يتوقّعه الإنسانُ ويخاف منه، أو يخافُ عليه، ولا سعادة بدون هٰذا الأمَنِ النفسي. قيل لحكيم: ما السرورِ؟ قال: الأمنُ، فإني وَجَدْتُ الخائفَ لا عَيْشَ له.

ولا عَجَبَ أن جَعَلَ اللّهُ الجنّةَ دارَ أَمْنٍ وسَلام كامِلَيْن، فأهْلُها في الغُرُفاتِ آمِنُونَ، لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون، وتتلقّاهُمُ الملائكةُ منذُ اللحظةِ الأولى ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: 46].

إن الإنسان يخاف من أشياء كثيرة، وأمورٍ شتّى، ولكن المؤمنَ سَدَّ أبواب الخوف كلَّها، فلم يَعُدْ يخافُ إلّا اللّهَ تعالى وَحْدَهُ، يخاف أن يكونَ فَرَّط في حَقّه أو اعتدى على خَلْقِهِ، أما الناسُ فلا يخافهم؛ لأنهم لا يملكون له ضَرّاً ولا نفعاً، ولا مَوْتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً.

دعا أبو الأنبياء إبراهيمُ عليه السلام إلى توحيد الله، وتحطيمِ الأصنام، فَخَوَّفَهُ قومُه مِن آلهتهم التي دَعَا إلى نَبْذِها، فقالَ إبراهيمُ مُتَعَجِّباً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 81]. وقد عقَّبَ الله تعالى على ذلك حاكماً بين الفريقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، فبيّن لنا أن الإيمان والتوحيد هما من أعظم أسباب الأمن والطمأنينة، وأن الجُحُودَ باللّهِ أو الشّكّ فيه، أو الشركَ به، أَعْظَمُ أسبابِ الخوفِ والاضطراب والرعب، وصَدَقَ اللّهُ حين قال: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: 151].

مخاوف الكفّار والملحدين والشاكّين

الكفّارُ والملحدون الجاحدون هم أكثر الناسِ مخاوِف ـ وإن كتموها عن الناس ـ إنّهم يَخافون الزَمَنَ والمستقبل، والكوارِثَ، والفقرَ، والمَرَضَ، والناسَ، وأشدُّ ما يُخيفهم الموتُ، فهم ينظرون إليه نظرتهم إلى سَبُعٍ فاتِك، وعَدُوٍّ مُتَرَبِّصٍ، ونهايةٍ مجهولةٍ، ومَصير مُخَوِّف.

يقول الفيلسوف ابن مَسْكُوَيْه: «إن الخوف من الموت ليسَ يَعْرِضُ إلّا لمن لا يدري الموتَ على الحقيقة، ولا يعلم إلى أين تصيرُ نفسه؛ أو لأنه يظنُّ أن بَدَنَهُ إذا انْحَلَّ وبَطَلَ تَرْكِيبُه، فقد انْحَلَّتْ ذاتُه، وبَطَلَتْ نَفْسُه بُطلانَ عَدَمٍ ودُثورٍ، وأنّ العالَمَ سَيَبْقَى مَوْجُوداً، وليس هو بِمَوْجُودٍ فيه، كما يَظُنُّهُ من يَجْهَلُ بَقَاءَ النفسِ وكيفيَّة المعادِ؛ أو لأنّه يَظُن أن للموتِ ألماً عظيماً، غير أَلَم الأَمْرَاضِ التي رُبَّما تَقَدَّمَتْهُ وأدَّت إليه، وكانت سبب حُلُولِهِ؛ أو لأنه يعتقد أن عُقوبَةً سَتَحلُّ به بعد الموت؛ أو لأنه مُتَحَيِّرٌ لا يدري على أي شيء يَقْدُمُ بَعْد الموتِ؛ أو لأنه يأسَفُ على ما يُخلِّفُه من المال والمُقْتَنياتِ، وهٰذه كلُّها ظنُونٌ باطِلةٌ لا حقيقة لها».

ولكن الكفّار والمنكرين والشاكّينَ يعيشون هٰذه الظنون، ويموتون على هٰذه الأباطيل، وهم بين الموت والحياة في قلق وخوف واضطراب، على حين نَجِدُ المُؤْمِنَ أَقَلَّ الناسِ خوفاً وأشدَّهم أمناً؛ لأنه آمن أن له ربّاً يؤمِّنُه من الخوف في الدنيا، وعند الموت، وبعد الموت، فهو آمِنٌ على نفسه؛ لأنه اتَّقى ربه ولم يَعْصِه، وآمِنٌ على رزقه؛ لأنه يعلم أن الرزّاقَ هو اللّهِ، بهٰذه الضمانات يعيشُ المؤمنُ حياته آمناً مطمئناً، ولا يخاف المستقبل؛ لأن اللّهَ وَعَدَهُ جَنَّةً ونعيماً إذا هو آمن في الدنيا وأطاع.

19 ـــ المُهَيْمِن

معنى هذا الاسم: المهيمن أي: المُسَيطرُ، القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقِهم وآجالهم، الحافظ لهم، فهو الشهيد الرقيب على عباده. وهو مأخوذ من قولهم: هَيْمَنَ الطائِرُ، إذا نَشَرَ جناحَيْه على فرخه صيانَة له، فمعنى المهيمن على

هٰذا: البالِغُ درجة النهاية في المراقبة والحفظ، وإلقاء الطمأنينة في قلب مَن يَرْعَاهُ ويحفظه. ويعود إلى صفة العلم إذا كان من الهيمنة بمعنى الرقابة والمشاهدة.

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في موضع واحد، وهو في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23].

أقوال العلماء في تفسيره

جاء في تهذيب اللغة للأزهري: قال ابن عباس: المهَيمنُ: المُؤْتَمَنُ. وقال الكِسَائيُّ المُهَيْمِنُ: الشهيد، وقال غيرُه: هو الرقيبُ، يُقالُ: هَيْمَنَ يُهَيْمِنُ هَيْمَنَةً: إذا كان رقيباً على الشيء. وقال الجوهريُّ في الصحاح: المُهَيْمِنُ: الشاهِدُ، وهو مَن آمَن غَيْرَهُ من الخَوْفِ، وأَصْلُهُ (أَأْمَنَ) فهُو مُؤَأْمِنٌ ـ بهمزتين ـ قُلِبَت الهَمْزَةُ الثانيةُ ياءً كراهَةً لاجتماعهما، فصار: مُأَيْمِن، ثم صُيِّرَت الأولى هاءً، كما قالوا هِيَّاكَ وإيَّاكَ، وهَرَقْتُ الماءَ، وأصلُه: أَرَقْتُ، وهذا على قياس العربيَّة صَحِيحٌ إن شاءَ اللّهُ تعالى، مع ما جاء في التفسير أنه بمعنى الأمين، وقيل بمعنى مُؤْتَمَن. وقال ابن الأنباريّ: المُهَيْمِنُ: القائِم على خَلْقِهِ.

وقال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي (ت 505 هـ) في كتابه: «المَقْصِدِ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (المُهَيْمِنُ: معناهُ في حقّ اللّهِ تعالى: أنه القائِم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالِهم. وإنما قيامُه عليهم باطّلاعِهِ واستيلائه وحفظه. وكلُّ مُشْرِفٍ على كُنْهِ الأمْرِ مَسْؤولٌ عليه، حافظ له، فهو مهَيمنٌ عليه. والإشراف يَرْجِعُ إلى العلم، والاسْتِيلاء إلى كمال القُدْرَةِ، والحِفْظُ إلى العَقْل).

فالجامِعُ بَيْن هٰذه المعاني اسمُه: المُهَيْمِن. ولَن يجمع ذلك على الإطلاقِ والكمالِ إلّا اللّهُ تعالى، ولذلك قيل: إنه من أسماءِ اللّهِ تعالى في الكتب القديمة.

أثر هٰذه الأسماء على العبد:

بعد أن استعرضنا أسماء الله الحُسْنَى التي تدخل في باب الخلق والتكوين

العام، نلاحظ ما تدلّ عليه هذه الأسماء الجليلة من معان، وهذه الأسماء هي: (الحكيم، الرشيد، الخالق، البارىء، البديع، المُصَوِّر، الهادي، المُبْدِىء، المعيد، الباعث، المحيي، المميت، الجبّار، القهّار، القيّومُ، الحفيظ، المؤمِنُ، المُهَيْمِن)، لا بُدّ أن تدفعه باستمرار إلى التبَصُّر والإمعان في جميع المخلوقات، صغيرها وكبيرها، باحثاً عن أدلّة وُجودِ اللّٰهِ تعالى في كونه، من خِلال إشارات هذه الأسماء.

فيلفته اسْمَا الله «الحكيم والرشيد» إلى عظيم حكمةِ اللّٰهِ ورشاده في مخلوقاته، وعظيم حكمته ورشاده في شرائعه المنزلة على رسله، فيجد فيها ما لا يُحْصَى من دقائق الحكمة والرشاد، التي لا تصدر إلّا عن حكيم رشيد عليم، وهو الربُّ العظيم، فيؤمِن به مِلْءَ فكره وقلبه، بل مِلْءَ كل ذرَّة مِن ذرّاته.

وهكذا تلفته أسماءُ اللّٰهِ «الخالق البارىء البديع المُصَوِّر الهادي» إلى الدلائل العظيمة على الربّ الأعلى، المُنْبَثَّة في المخلوقات، وتنتقل به من تصميم أجزاء هٰذه المخلوقات في مقاديرها المحكمة، إلى تبرئتها من النقص في تكوينها، ثم إلى إبداعها على غير مثال سبق، ثم إلى تصويرها بأجمل صورة وأكملها بِحَسَب الغاية التي أُعِدَّ لها كلُّ مَخْلوق، ثم إلى هداية هٰذه المخلوقات إلى غايات تكوينها ونمائها، بالفطرة والغريزة، أو بالعلم والعقل، فيقرأ هذه الأدلة الكثيرة في مخلوقات الله، قراءة التأمُّل والتفكُّر والتَدَبُّر، قراءة البحث العلمي الدقيق، فيزداد إيماناً بالله كلّما ازداد تأمُّلاً وتفكُراً.

وكذلك تلفته أسماء الله «المبدىء المعيد الباعث المحيي المميت» إلى كمال قدرة الله تعالى في التصرُّف بالأشياء بَدءاً وإعادة، وحياةً ومَوْتاً وبعثاً، وأنّ ناصية كلِّ شيء في يده تعالى. فيخضع خضوع العبد المملوك، الذي لا حول ولا قوة إلّا بربّه الذي منحه الوجودَ، وكتب عليه الموتَ، ووعده البعث.

ثم يلفته اسما الله «الجبار القهّار» إلى معنى أن تَصَرُّفَ اللّٰهِ بعبيده تصرُّف الإلزام والقهر، دون أن يكون لهم رأي في أنفسهم أو في الكون مِن حولهم، فيُسَلِّم لقضاء الله وتصرّفه في كونه؛ لأنه خالقه ومالكه، وخير للعبد، وأهدأ نفساً، وأسعد قلباً، وأكمل إيماناً له، أن يستسلم لله الجبّار القهّار، ويفوّض له

الأمرَ، ويُسَلِّمَ له تسليماً، سواء في خلقه، أو في حُكمه، أو في قضائه.

ثم تلفته أسماء اللَّهِ: «القيومُ الحفيظُ المؤمنُ المهيمن» إلى حاجة الموجودات بعد وُجودِها إلى ربّها في بقائها وقيامها في الوجود، بِقيُّوميّة الله لها، وحفظه إيّاها، وتأمين قلوب ذوي القلوب منها، وإفراغ الطمأنينة والسكينة عليها، بهيمنته جلَّ وعَلَا. فيعود إلى ربّه مُلتجئاً إليه، طالباً عونَه ومَدَدَهُ، وحِفْظَهُ وأمْنَهُ، ولا يلتمس أيَّ شيء مِن ذلك عند غيره سبحانه، فهو الذي بيده كلُّ شيء، وهو القادرُ على كل شيء.

وبعد أن ذكرنا أسماءَ اللَّه المتعلّقة بالخلق والتكوين العام، نأتي على ذكر مجموعة من الأسماء الحسنى تدخل في باب رزق المخلوقات الحيَّة، وهي: الرزّاق والمُقيت والمغني والقابض والباسط.

مجموعة الأسماء الحسنى الدالة على الرزق

مقدّمة

لما كان من جملة مخلوقات الله تعالى مخلوقاتٌ حَيَّةٌ، قد ربط اللَّهُ بحكمته أسباب حياتها المقدَّرَةِ إلى حين بأسباب الرزق، كان تقديرُ الرِزْقِ وخَلْقُه مِمّا يَهُمُّ هٰذه المخلوقات الحيَّة، وخصوصاً منها هٰذا المخلوق الذي وهبه الخالقُ العقلَ، وجُزْءاً مِنَ الإرادةِ والقدرةِ على الكسب، وأوْدَعَ في نفسه الحِرْصَ على الحياة.

ولذا كان لا بُدَّ من إبراز حقيقة تَكَفُّلِ الخالقِ برزقِ المخلوق الحيّ، تطميناً للعباد، فكما أنّه القَيُّومُ والحَفِيظُ، هو الرزّاقُ.

ومن ناحية ثانية: لما كان كسبُ الرزقِ في الصُّورَةِ الظاهرةِ مَنوطاً بالسَعْي، كان لا بُدَّ مِنْ بَيانِ حقيقةٍ من حقائِقِ الخلق والتكوين في الرزق، وذلك بِكَشْفِ صِفَةٍ من صفاتِ أفعال الخلق، وهي أنه هو الرزّاقُ الحقيقي، وما الكسب إلا صُورَةً مِن صُوَر جَلْبِ الرِّزْقِ المُقَدَّر بِخَلْقِ اللَّهِ وتكوينه ومَشيئَتِهِ.

وهنا تبرزُ لنا من أسماء اللَّهِ الحسنى أسماءٌ تعودُ إلى صِفَةٍ من صِفاتِ أفعال الله، وتدخلُ في بابٍ كبير مِمّا يَهُمُّ العِباد، وهو بابُ الرِزْقِ، وهي مختلفة باختلاف مظاهر الرزق.

فبالنظر إلى جميع المخلوقات الحَيَّة، نَرَى أنّ الله قَدَّرَ لها أرْزَاقها التي تَكَفَّلَ لها إمْدادَ حياتها إلى آجالها المُقَدَّرَة لها، ومِن هنا جاء في المأثور من أسماءِ اللَّهِ الحسنى: (الرزّاق).

20 ـــ الرزّاق

معنى الاسم: (الرزّاق): مُبالَغَةٌ في الرازق، ومعناه: الذي خلق الأرزاقَ،

وجعَلَ في الأحياء الباعِث على اكتسابها، وخلق فيهم أسبابَ التمتُّع بها. والرزقُ: يَشمَلُ المأكولَ والمشروبَ والمَلْبُوسَ، وكلَّ ما ينتفع بهِ الحيوانُ، ويَشْمَلُ الأرزاق المعنوية كالعِلمِ والهداية والمعارفِ، فلا رزَّاق إلّا اللّٰهُ تعالى.

وقد ورد هذا الاسم الكريم بهٰذه الصيغة في مَوْضِع واحِدٍ من القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: 58].

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد الغزالي الشافعي (ت 505 هـ) في تفسير هٰذا الاسم في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الرزاقُ: هو الذي خَلَقَ الأرزاقَ والمرزوقين، وأوْصَلَها إليهم، وخلق لهم أسبابَ التمتُّع بها. والرِزْقُ رِزْقان: رِزقٌ ظاهِرٌ؛ وهي الأقواتُ والأطعِمَةُ، وذلك للظواهِرِ وهي الأبدانُ، ورزقٌ باطِنٌ؛ وهي المعارفُ والمكاشَفاتُ، وذلك للقلوب والأسْرَار، وهٰذا أشرفُ الرزقَيْن، فإن ثمرتَه حياةُ الأَبَدِ، وثمرةُ الرزقِ الظاهِرَةُ قُوَّةُ الجَسَدِ إلى مُدَّةٍ قريبةِ الأمَدِ.

واللّٰهُ تعالى هو المُتَوَلِّي لِخَلْقِ الرِزْقَيْنِ، المُتَفَضِّلُ بالإيصال إلى كلٍّ من الفريقين، ولكنه: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: 26].

غايةُ حَظِّ العَبْدِ من هٰذا الوصفِ أمران: **أحدُهما**: أن يعرفَ حقيقةَ هٰذا الوصفِ، وأنه لا يَسْتَحِقُّهُ إلّا اللّٰهُ تعالى، فلا ينتظرُ الرِّزقَ إلّا منه، ولا يتوكَّلُ فيه إلّا عَلَيه.

الثاني: أن يرزقَهُ عِلْماً هادياً، ولساناً مرشِداً مُعَلِّماً، ويَداً مُنْفِقَةً مُتَصَدِّقَةً. ويكونَ سبباً لوصولِ الأرزاقِ الشريفةِ إلى القلوبِ بأقوالِهِ وأعمالِهِ. وإذا أحبَّ اللّٰهُ تعالى عبداً أكثَرَ حوائجَ الخَلْقِ إليه. ومهما كان واسِطةً بينَ اللّٰهِ وبينَ العبادِ في وُصُولِ الأرزاقِ إليهم، فقد نالَ حَظّاً مِن هٰذه الصِفَةِ. أخرج البخاري في صحيحه، في كتاب الزكاة، بسنده إلى أبي موسى الأشعري قال النبي ﷺ: **«الخازنُ المسلمُ الأمينُ الذي يُعطي ما أُمِرَ به كامِلاً مُوَفَّراً طَيِّباً به نفسه، فيدفَعُهُ إلى**

الذي أمِرَ له به أحَدُ المُتَصَدِّقَيْنَ».

وأيْدِي العِبادِ خزائِنُ اللَّهِ تعالى، فمن جُعِلَتْ يَدُهُ خِزانَةُ أرزاق الأبدانِ، ولسانُهُ خِزانَةَ أرزاقِ القُلوبِ، أُكْرِمَ بثوابٍ مِن هٰذه الصِفَةِ). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي (ت 606 هـ) في كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر» في شرح هٰذا الاسم: (الرزّاق: هو الذي خَلَقَ الأرْزاقَ، وأَعْطَى الخلائِقَ أرزاقها، وأوصلها إليهم. و(فعّال): من أبنِيَةِ المبالَغَةَ. والأرزاقُ نوعان: ظاهِرَةٌ للأبدان كالأقْواتِ، وباطِنَةٌ للقلوبِ والنفوس كالمعارفِ والعلوم).

أثر هذا الاسم على المؤمن

المؤمن آمِنٌ على رزقه أن يفوتَ، فإنّ الأرزاقَ في ضمانِ اللّهِ الذي لا يُخلِفُ وعْدَهُ، ولا يُضيِّعُ عَبْدَهُ، وقد خَلَقَ الأرضَ مِهاداً وفِراشاً وبِساطاً، وبارَكَ فيها، وقدَّرَ فيها أقْواتَها، وجَعَلَ فيها مَعايِشَ، ووعَدَ عِبادَه فيها بكفالِةِ الأرزاق وعداً كرَّرَهُ وأكَّدَهُ وأقْسَمَ عليه، وعْدَ كَريم لا يَبْخَلُ، قديرٍ لا يَعْجَزُ، حَكيم لا يَعْبَثُ: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98]، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم: 6]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 58]، ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذاريات: 22، 23]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾ [العنكبوت: 60].

بهٰذه الضمانات يَعيشُ المؤمِنُ حياتَه آمِناً على رزقه، مُطْمئِنّاً إلى أنَّ اللَّهَ لَن يُهلِكَهُ جوعاً، وهو الذي يُطْعِمُ الطيرَ في الوكنات، والسِباعَ في الفَلَوات، والأسماكَ في البحارِ، والديدانَ في الصُخُورِ. ولقد كان المؤمنُ يذهبُ إلى ميدان الجهاد حاملاً رأسهُ على كفّه، متمنّياً الموتَ في سَبيلِ عقيدته، ومِن خَلْفِهِ ذُرِيَّةٌ ضِعَافٌ، ولكنه كان يوقن أنه يتركهم في رعاية ربٍّ كريم، هو أَبَرُّ بهم وأحْنَى عليهم منه.

21 ـــ المُقِيت

معنى هذا الاسم: مأخوذ من القُوتِ، وهو الغِذاءُ، أي: هو خالق الأَقْوات كلّها، ومُوصِلُها إلى مُقْتاتيها.

أقوال المفسّرين

وقد ورد هٰذا الاسم في موضع واحد من القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: 85] قال ابن عباس، وعطاء، وعطيّة وقتادة، ومطر الورّاق من المفسّرين ﴿مُقِيتاً﴾ أي: حفيظاً. وقال مجاهد: شهيداً، وفي روايةٍ عنه: حَسِيباً. وقال سعيد بن جبير والسُّدِّي، وابن زيد: قديراً. وقال عبد الله بن كثير من القُرّاء: المُقِيت: المُواظِب. وقال الضحّاك: المُقِيتُ: الرزّاق.

وقال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: 9، 10]، هٰذا إنكارٌ مِنَ اللّٰهِ تعالى على الكافرين الذين جَحَدوه، والمشركينَ الذي عَبَدُوا معه غيره وهو الخالق لكلّ شيء، القاهِرُ لِكلِ شيء، المُقْتَدِرُ على كُلِّ شيءٍ فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي نُظَراءَ وأمثالاً تَعْبُدُونها معه، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الخالقُ وهو ربُّ العالَمين كلِّهم. وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يعني: يومَ الأَحدِ ويومَ الاثنين، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وهو ما يحتاجُ أهلُها إليه من الأرزاقِ والأماكِنِ التي تُزْرَعُ وتُغْرَسُ يعني: يومَ الثلاثاءِ والأَربُعَاءِ، فهما مع اليَومَيْن السابِقَيْن أَرْبَعَةٌ، ولهٰذا قال تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لِمَنْ أرادَ السُؤالَ عن ذلك ليعلمه. وقال عِكْرِمَةُ ومجاهِدُ في قوله عَزّ وجلّ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وجَعَلَ في كلِّ أرضٍ ما لا يَصْلُحُ في غيرها. وقال ابن زيد: معنا ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: على وُفْقِ مُرادِ مَن له حاجَةٌ إلى رِزْقٍ أو حَاجَةٍ، فإنَّ اللّٰهَ قَدَّرَ له ما هو مُحتاجٌ إليه، وهٰذا القَوْلُ يُشبه ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34].

أقوال العلماء في تفسير هٰذا الاسم

قال حُجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي (ت 505 هـ) في كتابه «المَقْصِد الأسْنى في شرح أسماء اللّٰهِ الحُسْنَى» في شرح هٰذا الاسم: (المُقيتُ معناه: خالِقُ الأقواتِ ومُوصِلُها إلى الأَبْدَانِ وهي الأطعمة، وإلى القلوبِ وهي المعرفة.

فيكون بمعنى الرَّازِق، إلا أنه أَخَصُّ منه، إذ الرزقُ يتناوَلُ القوتَ وغيرَ القوتِ، والقُوتُ ما يُكتَفَى به في قوام البَدَنِ.

وإما أن يكونَ بمعنى المُسْتَوْلِي على الشيءِ القادِرِ عليه، والاستيلاءُ يَتِمُّ بالقُدْرَةِ والعِلمِ، وعليه يدلُّ قولُه تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: 85]، أي: مُطَّلِعاً قادراً. فيكونُ معناهُ راجعاً إلى القُدرةِ والعِلْم. ويكون بهٰذا المعنى وَصْفُهُ بالمُقيتِ أتمَّ مِن وَصْفِهِ بالقادِرِ وحْده، وبالعالم وَحْدِه؛ لأنَّه دالٌّ على اجتماع المَعْنَيَيْن، وبذلك يَخْرُج هٰذا الاسمُ عن الترادُفِ). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجَزَرِيُّ الشافعي (ت 606 هـ) في تفسير هٰذا الاسم في كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر»: (في أسماءِ اللّٰهِ تعالى «المُقِيتُ»: هو الحَفيظُ. وقِيلَ: المُقْتَدِرُ. وقيلَ: الذي يُعْطِي أقواتَ الخلائِقِ. وهو مِنْ أَقَاتَهُ يُقيتُهُ، إذا أعْطاهُ قُوتَهُ، وهي لُغَةٌ في: قاتَهُ يَقُوتُه، وأَقَاتَهُ أيضاً إذا حَفِظَهُ، ومنه الحديثُ الذي أخرجه البخاريّ في صحيحه في كتاب الرِقاقِ: «**اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً**» أي: بِقَدْرِ ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ من المَطْعَمِ.

والحديثُ الذي أخرجه أبو داود في «سننه» وأحمد في «مسنده»: «**كَفَى بالمَرْءِ إثماً أن يُضَيِّع مَنْ يَقُوتُ**» أي: مَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتَهُ مِن أهلِهِ وعيالِهِ). انتهى كلام ابن الأثير.

أثر هذا الاسم على العباد

إن مَن يَعْلَم أنّ قوتَهُ بيَدِ خالِقِهِ الذي عنده خزائن كل شيء، لا يَجْزَع ولا يَقْلَق لرزقه، بل يطمئن ويرتاح، وتغشاه سكينة وهُدوء أعصاب، مع اطمئنانٍ وبَرْدِ يقين، بأنّ قوته وقوتَ عِياله مَضْمُونٌ، بيد خالقه وبارئه ومولاه الذي لا يُضَيِّعُ أحداً ولا ينسى من فِضله أحداً، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: 19 ـ 22]. يقول الإمام محمود بن عبد الله الآلوسي البغدادي المفسِّر المُتوفَّى سنة 1270 هـ في تفسيره «روح المعاني» في تفسير هذه الآيات: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ أي: بَسَطْناها، والظاهِرُ أن المرادَ: بَسْطُها وتَوْسِعَتُها لِيَحْصُلَ بها الانتِفاعُ لِمَنْ حَلَّها، ولا يلزَمُ مِنْ ذلك نَفْيُ كُرَوِيَّتها، كما أن الكرة العَظيمة لِعَظمِها تُرَى كالسَّطح المُسْتَوي ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابت جمع راسِيَة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ والمَيْدُ الاضطرابُ، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: مُقَدَّرٍ بِمقدارٍ مُعَيَّنٍ تقتضيه الحكمةُ، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ ما تَعيشُونَ به مِنَ المطاعِمِ والمَشارِبِ والمَلابِسِ وغيرِها ممّا يتعلَّقُ به البَقاءُ ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي: وجعلنا لكم معايش ولمن لستم برازقين، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ والخزائِنُ جمع خِزانَة، وهي اسم للمكان الذي يُحفظ فيه نفائسُ الأموالِ لا غيرَ، شُبِّهَت مَقْدُوراتُهُ تعالى الغائبةُ المندرجةُ تحت قدرته الشاملة، في كونها مَسْتُورَة عن عُيون العالمين، ومصونةً عن وُصولِ أيْديهم مع وُفورِ رَغْبَتِهِم فيها، وكونِها متهيّأة متأتِّيَة لإيجاده وتكوينه بحيث متى تعلّقت الإرادة بوجودها وُجدت بلا تأخر بنفائس الأموال المخزونة في الخزانة السلطانية، فَذَكَرَ الخزائِنَ على طريقة الاستعارة التَخْييلية ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: إلّا مُلْتَبساً بمقدارٍ مُعَيَّن تقتضيه الحكمةُ، وتستدعِيه المشيئةُ التابعةُ لها مِن بين المقدورات غير المتناهية، فإن تخصيص كل شيء بصفة مُعَيَّنة، بقَدَرٍ مُعيَّن، وَوَقتٍ مَحْدُودٍ، وما عدا ذلك مع استواءِ الكُلِّ في الأشكالِ، وصحَّةِ تعلُّقِ القُدْرةِ به، لا بُدَّ له من حكمة تقتضي اختصاصَ كلٍّ من ذلك بما اختصّ به.

22 ــ المُغْنِي

يَطْمَعُ الإنسانُ بالغنى والكفاية في الرزق، وإذْ كان الخالقُ هو المُغْنِي الذي لا مُغْني ولا كافي سِواه، كان لا بُدَّ من إبراز صِفَة أنّه المُغْنِي من صِفات أفعاله سبحانه ومن هنا جاء في المأثور مِن أسماءِ اللّهِ الحُسْنَى: (المُغْنِي).

معناه

مأخوذٌ من الغِنَى والغِنَى: الاكْتِفَاءُ. فاللّهُ سُبْحَانَهُ هو المُمِدُّ بالغِنَى مَنْ شاءَ مِن عِبادِه، على وَفقِ حِكمتِهِ، ومَن عَرَفَ أنَّ اللّهَ هُوَ المُغْنِي اسْتَغْنَى بالافتقارِ إليه عَمّا سِواهُ. قالَ اللّهُ تعالى في معنى أنه المُغْنِي في محكم كتابه الكريم: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: 32]، اشتملت هٰذه الآية على جُمَلٍ مِنَ الأحكام المُحْكَمةِ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ هٰذا أَمْرٌ بالتزويج، وقد ذهب طائفةٌ مِنَ العُلماء إلى وُجُوبِهِ على كُلِّ مَن قَدَرَ عليه، واحْتَجُوا بِظاهِرِ قَوْلِهِ ﷺ في الحديث المُتَّفَقِ عليه عند الشيخين البخاريِّ ومسلم، عن ابن مَسْعُودٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا مَعْشَرَ الشَبابِ مَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمُ الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنَّهُ أَغَضّ لِلبَصَرِ، وأَحْصَنُ لِلفَرْجِ، ومَن لم يَسْتَطِعْ فعليه بالصَوْم، فإنه له وِجَاءٌ**». وقوله تعالى ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ جمعُ: أَيِّم، ويُقالُ ذلكَ للمرأة التي لا زَوْجَ لها، وللرَّجُل الذي لا زَوْجَةَ له، وسَواءٌ كان قد تزوَّج ثم فارق أو لم يَتَزَوَّجْ واحِدٌ منهما؛ حكاهُ الجوهَريُّ عن أهل اللغة، يُقالُ: رَجُلٌ أَيِّمٌ، وامرأةٌ أَيِّمٌ. وقولُه تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾. قال عليُّ بن أبي طلحةَ عن ابن عبّاسٍ ﷺ: رغّبَهُمُ اللّهُ تعالى في التزويج وَوَعَدَهُمْ عليه بالغِنَى فقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾. وأخرج ابن أبي حاتمٍ في تفسيره بسنده إلى أبي بكر الصِدِّيقِ رضي الله عنه قال: أَطِيعُوا اللّهَ فيما أَمَرَكُمْ به مِنَ النِكاح يُنْجِزْ لكم ما وَعَدَكُم مِنَ الغِنَى، قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾. وأخرجه ابن جرير الطبري عن ابن مسعود ﷺ قال: الْتَمِسُوا الغِنَى في النكاح، يقولُ اللّهُ تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ وذكر البغويُّ في تفسيره عن عمرَ بن الخطاب ﷺ نحوه. وأخرجَ الإمامُ أحمدُ في مسنده، والترمذيُّ في جامعه، والنسائيُّ في سننه، وابن

ماجه في سننه، عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ثلاثةٌ حَقٌّ على اللَّهِ عونُهُمْ: الناكِحُ يُريدُ العَفافَ، والمكاتَبُ يُريدُ الأداءَ، والغازي في سبيل الله**». وقد زَوَّجَ النبيُّ ﷺ رجلاً لم يجد عليه إلّا إزاره، ولم يقدر على خاتَم مِنْ حَديدٍ، وجعل صَدَاقَه أن يُعَلِّمَها ما معه من القرآن، والمعهودُ مِن كرم اللَّهِ تعالى ولطفه أن يَرزُقَهُ ما فيه كفايةٌ لها وله.

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)﴾ [محمد: 33 ـ 38] يقولُ تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصِلُها ذلك، إلّا ما كان منها لِلَّهِ ﷻ، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: هو غنِيٌّ عنكم لا يَطْلُبُ منكم شيئاً، وإنما فرضَ عليكم الصدقاتِ من الأموالِ مواساةً لإخوانكم الفقراءِ، ليعودَ نَفْعُ ذلكَ عليكم، ويرجِعَ ثوابُه إليكم. ثم قال جلَّ جلالُه: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي: يُحْرِجْكُمْ تَبْخَلُوا، ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ قال قَتَادَةُ: قد عَلِمَ اللَّهُ تعالى أَنَّ في إخراج الأموالِ إخراجَ الأضغانِ. وصدق قتادَة، فإنَّ المالَ مَحْبُوبٌ، ولا يُصْرَفُ إلّا فيما هو أحبُّ إلى الشَخْصِ منه. وقوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: لا يُجيبُ إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: إنما نَقَصَ نفسه من الأجرِ، وإنما يعودُ وبالُ ذلك عليه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كُلِّ ما سِواهُ، وكُلُّ شيءٍ فَقيرٌ إليه دائماً، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه، فَوَصْفُهُ بالغِنَى وَصْفٌ لازِمٌ له، ووصفُ الخَلْقِ بالفَقْرِ وَصْفٌ لازِمٌ لهم لا يَنْفَكُّونَ عنه. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن طاعته واتّباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ أي: ولكن يكونون سامِعينَ مُطيعين له ولأوامره.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمام الغزالي: مَنْ تَعَلَّقَ ذاتُهُ أو صِفاتُ ذاتِهِ بأَمْرٍ خارج من ذاته، يتوقف عليه وُجودُهُ أوْ كَمالُهُ، فهو فقيرٌ مُحتاجٌ إلى الكَسْبِ، واللَّهُ هو المُغني، ولكن الذي أغناه لا يَتَصَوَّر أن يَصيرَ بإغنائِهِ غَنيّاً مُطلقاً، فإنّ أقلّ أموره أنه يحتاجُ إلى المغني، فلا يكون غنياً بل يَسْتغني عن غير الله بأن يمده بما يحتاج إليه، لا بأن يقطع عنه أصل الحاجةِ.

والغنيُّ الحقيقيُّ هو الذي لا حاجَة له إلى أحَدٍ أصلاً، والذي يحتاجُ ومعه ما يحتاج إليه فهو غنيٌّ بالمجاز، وهو غايَةُ ما يدخُلُ في الإمكان في حقّ غير اللَّهِ تعالى، فأمّا فقدُ الحاجَةِ فلا، ولكن إذا لم يبق حاجَةٌ إلّا إلى الله تعالى سُمّيَ غنيّاً، ولو لم يَبْقَ له أصلُ الحاجَةِ لما صحّ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: 38]، ولو أنه يتصوّر أن يستغني عن كل شيء سِوَى اللَّهِ عزّ وجلّ لما صحّ لله تعالى وصفُ المغني.

الغِنَى والفَقْر

تعريف الغنى والفقر:

ذكر أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370 هـ) في كتابه «تهذيب اللغة» قال اللَّيْثُ: الفَقْرُ: الحاجَةُ، وفِعْلُهُ: الافْتِقَارُ، والنَعْتُ: فَقيرٌ. وقال الأَصْمَعِيُّ: المِسْكينُ أَحْسَنُ حالاً من الفقير؛ لأن الله تعالى قال في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [التوبة: 60]، وقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: 79]، وهي تُساوِي جُمْلَةً. وعن ابن الأعْرابيّ قال: الفقيرُ: المكسورُ الفَقَار، يُضرَبُ مثلاً لِكلّ ضَعيفٍ لا يَنفُذُ في الأُمور. انتهى ما ذكره الأزهري. والغِنَى ـ بكسر أوّله ـ هو: الكِفايَةُ، كما فسّره الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

الغنى والفقر في القرآن الكريم

يقول الله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ

ٱلْحَمِيدُ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15]. يُخْبر تعالى بغنائِه عمّا سِوَاهُ، وبافْتِقَارِ المخلوقات كُلِّها إليه، وتَذَلُّلِها بين يديه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: هم مُحتاجُون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغنيُّ عنهم بالذاتِ، ولهٰذا قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: هو المُنْفَرِدُ بالغِنَى وحدَه لا شريك له، وهو الحَمِيدُ في جميع ما يفعله ويقولُه ويقدّره ويُشَرِّعُه.

ويقولُ تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: 53 ـ 56] أي: الأُمَم التي بُعِثت إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرَحونِ بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنّهم مُهْتَدون، ولهٰذا قال مُتهدِّداً لهم ومتوعّداً: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في غَيِّهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حينهم وهلاكهم كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴿١٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴿٣﴾﴾، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴿٥٦﴾﴾ يعني: أَيَظُنُّ هٰؤلاء المغرورُون أن ما نُعْطيهم مِنَ الأَموالِ والأولاد لِكرامَتِهم علينا ومَعَزَّتِهم عندنا؟ كلّا! ليس الأَمْرُ كما يزعمُون في قولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لقد أخْطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، إنما نفعل ذلك بهم استدراجاً وإنْظاراً وإمْهالاً وإملاءً، ولهٰذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: 55] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا﴿١٦﴾﴾ [المدثر: 12 ـ 16] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ [سبأ: 37]، والآيات في هذا كثيرة. قال قَتادةُ في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴿٥٦﴾﴾ قال: مُكِرَ واللّهِ بالقَوْم في أَموالهم وأولادِهم، يا ابنَ آدم فلا تعتبر الناسَ بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

الغنى والفقر في السُّنَّة

أخرج الإمامُ أحمد في مسنده عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكم أَخلاقَكُم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدنيا مَن يُحِبُّ ومَن لا يُحِبُّ، ولا يُعْطِي الدينَ إلاّ لِمَنْ أَحَبَّ، فمن أعطاهُ الدينَ فقد أحَبَّهُ**».

وأخرج البخاريُّ في «صحيحه»، في كتاب الرِقَاقِ عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ الغِنَى عن كَثرةِ العَرَضِ، ولكِنّ الغِنَى غِنَى النفس**». قال القُرطبيُّ: معنى الحديث: أن الغنى النافعَ المَمْدُوحَ هو غِنَى النَفسِ، وبيانُه أنّه إذا اسْتَغْنَت نفْسُه كَفَّتْ عن المطامِعِ، فَعَزت وعَظُمَتْ وحَصَلَ لها مِن الحُظوَة والنزاهَةِ والشَرَفِ والمَدْحِ أكثرَ منَ الغِنَى الذي يَنالُه مَنْ يكونُ فقيرَ النفسِ لِحِرْصِهِ؛ فإنَّه يُوَرِّطه في رذائِلَ الأمورِ وخَسَائِسِ الأفعالِ، لِدَناءَةِ هِمَّتِهِ وبُخْلِهِ، ويَكْثُرُ مَن يَذُمُّه مِنَ الناسِ، ويَصْغُرُ قَدْرُهُ عِنْدَهم فيكونُ أحْقَرَ مِن كُلِّ حَقِيرٍ، وأذلَّ مِن كلِّ ذليلٍ. والحاصِلُ أنَّ المُتَّصِفَ بغِنَى النَفْسِ يكونُ قانِعاً بما رَزَقَهُ اللَّهُ، لا يَحْرِصُ على الازْدِيَادِ لغير حاجَةٍ، ولا يُلِحُّ في الطَّلَبِ ولا يُلْحِفُ في السُّؤَال، بل يرضَى بما قَسَمَ اللَّهُ له، فكأنه واجِدٌ أبداً، والمُتَّصِفُ بِفَقْرِ النفس على الضدِّ منه، لكونه لا يَقْنَعُ بما أُعْطِيَ، بَل هو أبداً في طلب الازْيادِ مِن أي وجهٍ أمْكَنَهُ، ثم إذا فاتَهُ المَطلوبُ حَزِنَ وأَسِفَ، فكأَنَّهُ فَقِيرٌ مِنَ المال؛ لأنه لم يَسْتَغْنِ بما أُعْطِيَ، فكأنه ليس بِغِنِيّ، ثم غِنَى النَفْسِ إنّما يَنْشَأُ عن الرِضَا بقضاءِ اللَّهِ تعالى والتسليم لأَمْرِهِ، عِلْماً بأنّ الذي عند اللَّهِ خيرٌ وأَبْقَى، فَهُوَ مُعْرِضٌ عَنِ الحِرْصِ والطَّلَبِ.

وقال الطِيبِيُّ: يمكنُ أن يُرادَ بِغِنَى النَفسِ: حُصُولُ الكمالات العلمية والعملية، وإلى ذلك أشار القائل:

ومَنْ يُنفِقِ الساعاتِ في جَمعِ مالِهِ   مَخافَةَ فَقْرٍ فالذي فَعَلَ الفَقْرُ

أي: ينبغي أن يُنْفِقَ أوقاته في الغِنَى الحقيقيِّ وهو تحصيلُ الكمالاتِ، لا في جَمْعِ المالِ، فإنه لا يزدادُ بذلك إلّا فَقراً. قال الحافظ ابن حجر: وإن كان يمكنُ أنَ يُرادَ، لكن الذي تَقَدَّمَ أَظْهَرُ في المُرادِ، وإنما يَحْصَلُ غِنَى النفسِ بِغِنَى

القَلْبِ بأن يَفْتَقِرَ إلى ربِّه في جميع أموره فيَتَحَقَّقَ أنه المُعْطِي المانِعُ، فيَرْضَى بِقَضائِهِ، وَيَشْكُرُهُ على نَعْمائِهِ، وَيْفَزعُ إليه في كَشْفِ ضرّائِه، فيَنْشَأُ عَنِ افتقارِ القَلبِ لِرَبِّه غِنَى نفسِهِ عَنْ غيرِ رَبِّه تعالى، والغِنَى الوارِدُ في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ يَتَنَزَّلُ على غِنَى النفس.

وأَخْرَجَ الإمام مسلمُ في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ أن رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ مَنِ المُفْلِسُ؟**» قالوا: المُفْلِسُ فينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتَاعَ، فقال: «**إن المُفلِسَ مِن أُمَّتِي مَنْ يأتي يوم القِيَامَةِ بصلاةٍ وصِيام وزكاة، ويَأتي وقد شتم هذا، وقذف هٰذا، وأكل مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هٰذا، وضَرَّبَ هٰذا، فيُعْطَى هٰذا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وهٰذا مِن حَسَناتِهِ، فإن فَنِيَتْ حَسَناتُه قبل أن يُقضَى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَت عليه، ثم طُرِحَ في النار**».

23 ـــ القَابِضُ

لما كانت حكمة الخالق جلّ وعلا تقضي بأن يمتحنِ عبادَهُ بِنَوْعَيْنِ من الامْتِحان والابْتِلاء:

١ ـ **الأول**: بتَقْتِير الرزق على بَعْضِهم لِيَمْتَحِنَ صَبْرَهُم على الفاقَةِ، وإيمانهم بأنّ بَسْطَ الرزْقِ بِيَدِ اللّهِ، وأنه لو شاءَ بَسَطَهُ، ولو شاء قَبَضَهُ.

٢ ـ **الثاني**: بَسْطِ الرِزْقِ على آخَرين، لِيَمْتَحِنَ إيمانهم بأَنَّهُ هو الذي بَسَطَ لهم الرِزْقَ، فَهَلْ يَشْكُرُون نِعْمَةَ اللّهِ، ويَعْرِفُونَ حَقَّ اللّهِ في المال فَيُنْفِقُونه للفقراء والمَساكِين؟ أم يَبْخَلُونَ ويُمْسِكُونَ ويَقْبِضُون أَيْدِيَهُمْ ويَشِحُّونَ؟.

فكان ممّا جاء في المأثورِ من أسماء اللّهِ الحُسْنَى: القابِضُ والباسِطُ.

معنى هٰذا الاسم: القَابِضُ مَأْخوذٌ من القَبْضِ، وهو لُغَةً: الأَخْذُ. والمراد: التَضْييقُ، فمعنى القابِضِ: المُضَيِّق لرزْقِ مَنْ أرادَ مِنْ عِبادِهِ. قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة: 245].

أقوال المُفسِّرين في معناه

يحثُّ اللَّهُ تعالى عِبَادَهُ على الإنفاق في سَبيلِ اللَّهِ، وقد كرَّر تعالى هٰذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث النزول أنه يقول: «**مَن يُقْرِضُ غيرَ عَدِيم ولا ظَلُوم**». وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لمَّا نزلتْ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسولَ اللَّهِ! وإنَّ اللَّهَ عَزّ وَجَلَّ ليُرِيدُ مِنّا القَرْضَ؟ قال: «**نعم يا أبا الدَّحْدَاح**»، قال: أَرِني يَدَكَ يا رَسُولَ اللَّهِ! قال: فناوَلَهُ يَدَهُ. قال: فإنّي قد أقْرَضْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ حائِطي - أي: بُسْتانِي ومزرعتي - قال: وحائطٌ له في ستمائة نَخْلَةٍ، وأم الدَحْدَاح فيه وعيالها، قال: فجاءَ أبو الدَحْدَاح فناداها: يا أُمَّ الدَحْدَاح! قالت: لَبَّيْكَ، قال: اخْرُجِي فقد أَقْرَضْتُه رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ». ورويَ عن عمر وغيره من السلف، أن إقراضَ الله عزّ وجلّ هو النفقةُ في سَبيلِ اللَّهِ، وقيل: هو النَفَقَةُ على العِيالِ، وقيلَ: هو التَسْبيحُ والتَّقْدِيسُ. وقولُه: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261] وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عمر قال: لما نزلَتِ هٰذه الآية قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ربِّ زِدْ أُمَّتِي**»، فنزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال: «**ربِّ زِدْ أُمَّتِي**»، فنزلَتْ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

وأخرج الترمذيُّ في «جامعه» عن عمرَ ﷺ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَن دَخَلَ سُوقاً مِنَ الأسواقِ فقال: لا إِلٰهَ إِلّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، لهُ المُلْكُ وله الحَمْدُ وهو على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ، كَتَبَ اللَّهُ له أَلْفَ أَلْفَ حَسَنَةٍ ومَحا عَنْهُ أَلْف أَلْف سَيِّئَةٍ ورَفَعَ له ألفَ ألفِ درَجة**». فالكثيرُ مِنَ اللَّهِ لا يُحْصَى، وقولُه ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ أي: أَنْفِقُوا ولا تُبالُوا، فاللَّهُ هو الرَّزَّاقُ، يُضَيِّقُ على مَنْ يَشَاءُ مِن عباده في الرِزْقِ، ويُوَسِّعُهُ على آخَرِينَ، له الحِكْمَةُ البالِغَة في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يومَ القيامَةِ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ حُجَّةُ الإسلامِ الإمامِ أبو حامد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (القابِضُ الباسِطُ: هو الذي يَقْبِضُ الأَرْوَاحَ عن الأشْباحِ عِنْدَ المماتِ، ويَبْسُطُ الأرواحَ في الأجسادِ عند الحياة، ويَقْبِضُ الصدقاتِ مِن الأغنياء، ويَبْسُطُ الأرزاقَ للضعفاءِ، ويَبْسُطُ الرِزْقَ على الأغنياء حتى لا يبقَى فاقَةٌ، ويَقْبضُهُ على الفقراء حَتَّى لا يَبْقَى طاقَةٌ، ويَقْبِضُ القُلوبَ فيُضَيِّقُها بما يَكْشُفُ لها من جَلَالِهِ، ويَبْسُطُها بما يَتقرَّبُ إليها من بِرِّه ولطفه وجَمالِهِ.

القابِضُ الباسِطُ مِنَ العِبادِ: مَنْ أُلْهِمَ بَدائِعَ الحِكَم، وَأُوتي جوامِعَ الكَلم؛ فَتارَةً يَبْسُطُ قلوبَ العِباد بما يُذكِّرُهُمْ مِن آلاءِ اللَّهِ ونَعْمائِهِ، وتارَةً يَقْبِضها بما يُنْذِرُهُمْ مِنْ جَلالِ اللَّهِ وكِبرِيَائِهِ وفُنونِ عَذابِهِ، وبلائه، وانتقامِهِ من أعْدائِهِ، كما فَعَلَ رسول اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَبَضَ قُلوبَ الصَحابَةِ عَنِ الحِرْصِ على العِبَادَةِ، حيثُ ذكَرَ لهم «**أن اللَّهَ تعالى يَقُولُ لآدَمَ يَوْمَ القِيامَةِ: ابْعَثْ بَعْثَ النارِ من ذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: كَم؟ فَيَقُولُ: مِنْ كلِّ ألفٍ تِسْعَمائَةٍ وتِسْعَةٍ وتِسْعِين**» (أخرجه أحمد في المسند) فانْكَسَرَت قلوبُهم، حتّى فَتَروا عَن العِبادَةِ، فلمّا أصْبَحَ ورآهُمْ على ما هم عَلَيْهِ مِنَ القَبْضِ والفُتُورِ، رَوَّحَ قُلوبَهم وبَسَطَهُمْ، فقالَ: «**اعْمَلوا وأبْشِرُوا، فوالذي نَفْسُ محمدٍ بيده ما أنتم في الناسِ يَوْمَ القيامَةِ إلّا كالشامَةِ في جَنْبِ البَعْير أو كالرَّقَمَةِ في ذراع الدابة**». انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (القابض في أسماء الله تعالى: هو الذي يُمسِكُ الرِّزْقَ وغيرَه مِنَ الأشياء عن العِبادِ بِلُطْفِهِ وحِكْمَتِه، ويَقْبِضُ الأرْوَاحَ عند المماتِ، ومنه الحديث الذي أخرجه البخاري في «صحيحه»: «**يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ ويَقْبِضُ السماءَ**» أي: يجمعها).

أثر هذا الاسم على العبد

المؤمِن الذي يعلمُ أنَّ اللَّهَ هو القابضُ الباسِطُ سَلَّمَ أمره لله، وعلم أن رِزْقَهُ

ورُوحَهُ وأُمورَه بيد خالقه، فيطمئن ويرتاحُ، ويسألُ اللَّهَ رَحْمَته، ويَعملُ في الدنيا متوكلاً على ربه.

24 ـــ البَاسِطُ

معناه مأخوذ من البَسْطِ، وهو لغة التوسِعَةُ: فمعنى الباسِطُ: الموسِعُ لرزق مَن يَشاءُ مِن عِبادِه. قال الله تعالى في معنى أنه الباسط في سورة البقرة: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245].

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: 26]. يَذْكُرُ تعالى أنّه هو الذي يُوَسِّعُ الرزْقَ على مَن يَشَاءُ، ويُقَتِّرُ على مَنْ يَشاءُ، لما له في ذلك مِن الحِكْمَةِ والعَدْلِ، وفَرِحُ هٰؤلاء الكُفَّار بما أُوتوا مِنَ الحياةِ الدنيا اسْتِدْرَاجٌ لهم وإمْهالٌ، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: 55، 56]، ثم حَقَّر الحياةَ الدنيا بالنِسْبَة إلى ما ادّخره تعالى لِعِبادِهِ المُؤمنين في الدار الآخِرَةِ فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ كما قال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: 77]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: 16، 17].

أخرج الإمام مسلم في «صحيحه» عن المستوردِ أخي بني فهر قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما الدنيا في الآخِرَة إلاّ كما يَجعَلُ أَحَدُكُمْ أصْبُعَهُ هٰذه في اليَمّ، فلْيَنْظر بم ترْجِع»** وأشار بالسبَّابَة ثم قال: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: 28، 29]، أي: تَطِيبُ وتركن إلى جَانِب اللَّهِ وتَسْكُنُ عِندَ ذِكْرِهِ وتَرْضَى به مَوْلًى ونَصيراً، ولهٰذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: هو حَقِيقٌ بذلك، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فَرَحٌ وقُرَّةُ عَيْنٍ،

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ قال: هي أرضُ الجنّة بالحَبَشِيَّةِ. وأخرج ابن وهب، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**طُوبَى شَجَرَةٌ في الجَنَّةِ مَسِيرَةَ مائة سنة، ثيابُ أهل الجَنَّة تخرُجُ مِن أكمامها**».

وقال الله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: 27] أي: لو أَعْطاهم فَوْقَ حاجَتِهِم مِنَ الرِزْقِ لَحملَهُم ذلكَ عَلَى البَغْي والطُغْيَانِ مِن بَعْضِهم على بعْضٍ أشَراً وبَطَراً، قال قتادةُ ـ من المفسّرين ـ كان يُقال: خَيْرُ العَيْشِ ما لا يُلْهِيكَ ولا يُطْغِيكَ، وذكر حديث رسولِ اللَّهِ ﷺ: «**إنّما أخشى عليكم مِن بَعْدِي ما يُفْتح عليكم مِنْ بَركات الأرض**» (أخرجه البخاري) وقولهُ عزَّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: ولكن يَرْزُقُهُمْ من الرزْقِ ما يختارُهُ ممّا فيه صَلَاحُهُمْ، وهو أعْلَمُ بذلك، فَيُغْنِي مَنْ يَسْتَحقُّ الغِنَى، ويُفْقِرُ مَن يَسْتَحِقُّ الفَقْرَ، كما جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» وأبو نُعَيْم في «حلية الأولياء»: «**إنَّ مِن عبادي مَن لا يُصْلِحُهُ إلّا الغِنَى ولو أفْقَرْتُه لأَفْسَدْتُ عليه دِينَهُ، وإنّ مِن عِبادِي مَنْ لا يُصْلِحُهُ إلا الفَقْرُ، ولو أغْنَيْتُهُ لأَفْسَدتُ عليه دينه**».

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: 64]. يُخْبِرُ تعالى عَنِ اليَهود عَلَيْهِم لعائِنُ اللَّهِ المُتَتابِعَةِ إلى يَوْم القِيامَةِ بأنَّهُمْ وصَفُوهُ ـ تعالى عَنْ قَوْلِهِم عُلُوّاً كبيراً ـ بأنه بَخِيلٌ، كما وَصَفُوهُ بأنَّهُ فقيرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، وعَبَّرُوا عَنِ البُخْلِ بأن قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال عكرمة بن عباس: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ أي: بَخِيلَة، وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا يَعْنُونَ بذلك أنَّ يَدَ اللَّهِ مُوثَقَةٌ، ولكن يقولون: بَخيلٌ أَمْسَكَ ما عِنْدَهُ بُخْلاً، تعالى الله عن قولهم عُلُوّاً كبيراً. قال عكرمة: نزلت هٰذه الآية في فنحاص اليهودي عليه لعنَةُ الله أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ فَضَرَبَهُ أبو بكر الصدّيق ﷺ. وأخرجه محمد بن إسحاق، عن ابن عباس: قال رجلٌ من اليهود يُقالُ له شاس بن قَيْس: إنَّ رَبَّك بَخِيلٌ لا يُنْفِقُ، فأنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ

يَشَآءُ﴾، وقد ردَّ اللَّهُ ﷻ عليهم ما قالوه وقابَلَهُم بما اختَلَقُوه وافتروه وائتفكوه فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، وهكذا وَقَعَ لَهُم، فإنّ عندهم مِن البُخْلِ والحَسَدِ والجُبْنِ والذِلَّةِ أَمْرٌ عَظيم، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: بل هو الواسِعُ الفَضْل، الجزيلُ العَطاءِ الذي ما مِن شيء إلّا عنده خزائنه، وهو الذي ما بِخَلْقِهِ مِنْ نِعْمَةٍ فمِنْهُ وَحدَهُ لا شريكَ له، الذي خلق لنا كلَّ شيء ممّا نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحَضرِنا وسفرنا، وفي جميع أحوالِنا، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34] وأخرجَ الشيخان البخاريُّ ومسلمٌ في صَحِيحَيْهما عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنّ يمينَ اللَّهِ مَلأى لا يَغيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ الليلِ والنهارِ، أرَأَيْتُم ما أَنْفَقَ منذ خلق السماواتِ والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يمينه، قال: وعَرْشُه على الماء وفي يَدِهِ الأخرى الفَيْض، يَرْفَعُ ويَخْفِضُ، وقال: يقول الله تعالى: أَنْفِقْ، أُنْفِقْ عليكَ**».

القناعَةُ والرضا

أثر الأسماء التي تدلّ على الرزق

إنّ مَن يُلاحِظ بتحقّق ما تدلُّ عليه أسماءُ اللَّهِ «الرزاق، المُقِيت، الغَنِيّ، المُغْنِي، القابض، الباسط» ويَتَبَصَّرُ بها بإمعان، فإنّه لا بد أن يَأوِيَ مع التَفَكُّر فيها إلى ظلال الرِضى والتسليم للَّهِ، ويَطمئن على رِزْقِهِ المكتوب له، ويَقْنع بما يؤتيه اللَّهُ مِن دُنياه، ولا يلجأُ إلّا إليه في طَلَبِ الرِّزْقِ، ولا يَسْعَى في جَلْبِهِ إلّا مِنْ حيث أَمَرَهُ اللَّه مِن أبوابٍ أَحَلَّها؛ لأنّه يَعْلَمُ أنّ رِزْقَهُ مَحْتومٌ، وخَيْرٌ له أن يجنيَ رزقَهُ المَحْتُومَ له، المأمورَ بالسَعْي لِكَسْبِهِ، مِنْ طُرُقٍ كريمة يؤجَرُ عَلَيْها ويُثابُ، لا أن يَجْنِيَهُ مِنْ طُرُقٍ خَبيثَة يُؤْزَرُ عليها ويُعاقَبُ، وهٰذه هي سَبيلُ المؤمنين العارفين برَبِّهم.

كما يُعْلِنُ في عقيدته في باب الرزق، ما أعلنه سَيّدُنا إبراهيمُ ﵇ فيما يحكيه اللَّهُ تعالى عنه، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ

يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: 75 ـ 82].

معنى القَناعةِ والرِّضا

إنّ القناعَة والرِضا بما قَسَمَ اللَّهُ تَعْنِي أَمْرَين:

أَوَّلُهما: أن الإنسان بطبيعته شديدُ الطَمَعِ والحِرْصِ على الدنيا، لا يُكادُ يشبع منها أو يرتوي، وقد صَوَّر ذلك الحديثُ النَبوي الذي أخرجه الإمامُ البخاري في صحيحه: «**لو كان لابن آدَمَ واديان مِن ذهب لابتَغى ثالثاً، ولا يملأُ عينَ ابنِ آدمَ إلاّ التراب**».

لقد أنزَل اللَّهُ دينَه وَدَعَا الناسَ إلى الاعتدالِ في السَّعْي للغِنَى، والإجمالِ في طلب الرِزْقِ، وبذلك يُقيمُ التوازُنَ في نفسه وفي حياته، ويَمْنَحُه السكينة التي هي سِرُّ السعادة ويُجنِّبُه الإفراطَ والغُلُوَّ الذي يُرهِقُ النفسَ والبَدَنَ معاً، ومِن ثَم قالَ ﷺ: «**إنَّ روحَ القُدُسِ نَفَثَ في رَوْعِيَ أَنَّ نفساً لَنْ تَموتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَها، فاتَّقُوا اللَّهَ وأَجْمِلُوا في الطَلَبِ**» (أخرجه العسكري في الأمثال عن ابن مسعود).

ولو تُرِكَ الإنسانُ يَسْتَسْلِمُ لِنزَعَاتِ حِرْصِهِ وطَمَعِهِ، لأَصْبَحَ خَطَراً على نَفْسِهِ وعلى مجتمعه، فكان من رحمة اللَّهِ أنْ وَجَّه طُموحَهُ إلى قِيَم أَرْفَعَ، وَمَعانٍ أَسْمَى، ورزقٍ أَبْقَى، وذلك بتَرْبيَتِهِ وتهذيب نفسه، يقول الله تعالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: 131]. ويقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ، 15].

إن الإيمان باللَّهِ يَحُدُّ من ثَوْرَةِ الحِرْصِ والطَمَعِ، وطُغْيان الشراهَةِ والجَشَعِ على النفس البَشَرية، فلا تَسْتَبِدُّ بها، وتَجْعَلُها تحيا في قَلَقٍ دائِمٍ لا تَكْتَفِي بقليل،

ولا تشْبَعُ مِن كثير، لا يُطْفِىءُ غُلَّةَ طَمَعِها ما عندَها، فَتَمْتَدُّ عَيْنُها إلى ما عِنْدَ غَيْرِها، ولا يُشْبِعُهَا الحلالُ، فَيَسِيلُ لُعابُها إلى الحرام، مِثْلُ هٰذه النفسِ لا تَرْضَى ولا تَسْتَرِيحُ، إنها شَرِهَةٌ تَلْتَهِمُ الملايينَ وتَطْمَعُ بالمزيدِ.

إنَّ الإيمانَ باللَّهِ تعالى يوجِّهُ النُفوسَ إلى القِيَمِ المَعْنَوِيةِ العالِيَةِ، إلى رِضْوَانِ اللَّهِ الحيّ الذي لا يموتُ، وما أعَدَّهُ في الآخِرَةِ الباقِيَةِ من ثوابٍ عَظِيمٍ، ونَعِيمٍ مُقِيمٍ دَائِمٍ لَا يَنْقَطِع، ويُصَحِّحُ مَفْهُومَ الغِنَى والفَقْرِ عنده، فَيَعْلَمُ أَنَّ الغِنَى لَيْسَ في وَفْرَةِ المالِ وكَثْرَةِ المَتَاعِ. وإنما هو في داخلِ النَّفْسِ أصلاً، كما جاء في الحديث المُتَّفَقِ عليه عند الشيخَينِ البخاريِّ ومُسْلِمٍ عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: «**لَيسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَضِ، إِنَّما الغِنَى غِنَى النَفْسِ**».

والأمرُ الثاني: الذي تعنيه القَناعَةُ والرضى بما قَسَمَ اللَّهُ: أَنَّ تَفاضُلَ الناسِ في الأَرزاقِ كَتَفاضُلِهِم في المواهِبِ والمَلَكاتِ، سُنَّةٌ مُطَّرِدَةٌ، خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ عليها في هٰذه الحياةِ الدنيا، اختِباراً وابتلاءً، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: 71] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: 30] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: 165]. فكما أنّ في الناس القَصيرَ والطويلَ، والدَميمَ والجميلَ، والغَبِيَّ والذَّكيَّ، والضَعيفَ والقَوِيَّ، كذلك يوجد المُوَسَّعُ له والمُضَيَّقُ عليه، هٰذه سُنَّةُ اللَّهِ التي خَلَقَ اللَّهُ الخَلقَ عَلَيْها اختباراً وابتلاءً، ولا يَستطيعُ الإنسان تغييرها مهما سَنّ من قوانين وأنظمة وتشريعات، إن الإيمان بالله يجعلُ الإنسانَ المؤمنَ واقعياً يفهم طبيعة الحياة، فلا يَعيشُ حياتَه في هَمٍّ ناصِبٍ، وتَعَبٍ واصِبٍ، جَرْياً وراء الثَّرْوَةِ والمالِ؛ فيصبحُ هٰذا المال هَدَفاً يَسْعَى إليه الإنسان، ويُضَحِّي للوصولِ إليه بِقِيَمِهِ ودينِهِ وأخلاقِهِ، ويذكّره دائماً أنه خُلِقَ في هٰذه الدنيا لِهَدَفٍ أَسْمَى وغايةٍ أنبل وأرفع، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]، وقد جَعَلَ اللَّهُ المالَ وَسِيلةً لِلْعَيْشِ الكريمِ، يَبْلُغُ بها الإنسانُ هَدَفَهُ في الحياة، وليس هدفاً بذاتِهِ يَسْعَى إليه.

إن الإيمانَ باللَّهِ يُرَبِّي الإنسانَ على القناعَةِ، فلا يكونُ أكبرَ همّه النظرُ إلى ما

أُوتيهِ الآخَرونَ مِن نعمة، نظْرةَ الحاسِدِ الذي يشتَعِلُ قَلْبُه، ويَغْلِي صدرُه بالبغضاء، وتموجُ نفسه بالطمع، فيعيشُ في نكدٍ وشَقاء، وإنما يَنْظُر إلى ما أَنْعَمَ اللَّهُ به عليه مِن نِعَم كثيرة، ويَنظر إلى مَن دُونَه مِمَّن حُرِمَ مِثلَ هٰذه النِعَم، فيطمئن ويَسْعَدِ ويرضى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: 32]، وقال ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفلَ منكم ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم فهو أجدَرُ ألّا تزدَرُوا نعمةَ اللّهِ عليكم**» (أخرجه أحمد في المسند).

المجموعة الثالثة من أسماء الله الحسنى الداخلة في باب الهبة والعطاء

25 ـــ الوهاب

مقدمة

نَنْتَقِلُ إلى الصنف الثالث من أسماء اللَّه الحُسْنَى، وهو ما يَدْخُلُ في باب الهِبَةِ والعَطَاءِ، إنّنا إذا أمْعنّا النظر في نفس هٰذا الإنسان المخلوق العَجيب، وَجدْنَاهُ مُزَوَّداً بطبائِعَ كثيرة منها: الطَمَعُ الشديدُ بِتَحْصِيلِ كثيرٍ مما يَرَى فيهِ تحقيقَ حاجَةٍ في النَفْسِ، أو مَطْلَبٍ مِنْ مَطَالِبِ الحَياةِ، مِنَ الأُمُورِ المادِّيَّة أو المَعْنَوِيَّة، العاجِلَةِ أو الآجِلَةِ.

ولـمّا كان تحقيق ما يَرْجُوهُ هٰذا الإنسان مرتبِطاً في الواقع بقضاء الله وقَدَرِه، ومَرْهوناً بإرادة الله وقدرته وخلقه، ولا يتمُّ إلّا بعطائه وهِبَتِه، وَجب أن يَتَوَجَّه طَمَعُ العاقِلِ المؤمِنِ باللَّهِ، في تحقيق ما يُريدُ مِن خَيْرٍ لِنَفْسِهِ أو لِمَنْ يُحِبُّ، إلى مَن بيده القُدْرَةُ على تحقيق مطالِبِهِ وحاجاته، وهو اللَّهُ تعالى.

ومِن هنا جاء في المأثور من أسماء اللَّهِ الحُسْنَى: (الوَهَّابُ، البَرُّ، الكريمُ، الواسِعُ).

معناه: الوَهَّابُ: مَأْخُوذٌ مِن الهِبَةِ، وهي العَطِيَّةُ الخالِيَةُ مِنَ العِوَضِ والغَرَضِ، والوَهَّابُ: صِيغَةُ مُبالَغَةٍ للواهِب. ولا تكونُ الهِبَةُ حقيقةً إلّا إذا كانت مِنَ اللَّهِ تعالى، إذْ لا مالِكَ في الواقِع سِوَاهُ.

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول

وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ۝٨﴾ [آل عمران: 8]. أي: لا تُمِلْها عن الهُدَى بَعْدَ إذْ أَقَمْتَها عليه، ولا

تَجْعَلْنا كالذين في قُلوبِهم زَيْغٌ، الذين يَتَّبِعُونَ ما تشابَهَ مِنَ القُرآن، ولكن ثَبِّتْنا على صِراطِكَ المُسْتَقِيم وَدِينِكَ القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تثبّتُ بها قُلوبَنا، وتَجْمَعُ بها شَمْلَنا، وتَزيدُنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾. أخرج ابنُ أبي حاتم، عن أمِّ سَلَمَة ﵂ أنَّ النبي ﷺ كان يَقُولُ: «**يا مُقلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قَلْبي على دِينك**» ثم قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

الموضعُ الثاني

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص: 9 ـ 11]. يقولُ تعالى مُخْبراً عن المشركين في تَعَجُّبِهِمْ من بعثة الرسول ﷺ بَشيراً ونذيراً، ومُبَيِّناً أنّه المُتَصَرِّفُ في مُلكِهِ الفَعَّالُ لما يَشاءُ، الذي يُعطِي من يَشاءُ، ويُعِزُّ مَنْ يَشاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويَهدِيَ مَنْ يَشاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويُنزلُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ، ويَخْتِمُ عَلَى قَلْبِ مَن يَشاءُ فلا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللّهِ، وأَنَّ العِبادَ لا يَمْلِكُونَ شيئاً مِنَ الأَمْر، وليسَ إِلَيْهِم من التَصَرُّفِ في الملك، ولا مثقالَ ذَرَّةٍ وما يَمْلِكون من قِطْمير، ولهٰذا قال تعالى مُنكِراً عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ أي: العزيزُ الذي لا يُرامُ جنابُهُ، الوَهَّابُ الذي يُعْطِي ما يُريدُ لِمَن يُريدُ، وهٰذه الآيةُ الكريمةُ شبيهَةٌ بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: 53 ـ 55] وقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: 100]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنّهم أنكرُوا بِعْثَةَ الرَّسُولِ البَشَرِيّ ﷺ، وكما أَخْبَرَ عزّ وجَلّ عن قَوْم صَالح ﵇ حين قالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: 26] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ أي: إن كانَ لهم ذلك فَلْيَصْعَدُوا في الأسباب، قال ابن عباس: يعني: طُرُقَ السماءِ، ثم قال ﷻ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ أي: هؤلاء الجنْدُ

المُكَذِّبونَ الذين هم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ سَيُهْزَمُون ويُغْلَبُون ويُكبَتُون كما كُبِتَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِم مِن الأحْزابِ المُكَذِّبين.

الموضع الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [صَ: 34، 35] أي: اختبَرْنا سليمانَ بأن سَلَبْناهُ المُلْكَ ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قال ابن عبّاس: شيطاناً ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رَجَعَ إلى مُلكه وسلطانه﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ فسألَ مِنَ اللّهِ تعالى مُلْكاً لا يكونُ لأَحَدٍ مِن بَعْدِهِ من البَشَرِ مِثْلُهُ، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طُرُقٍ عن رسولِ الله ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

قال مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي (ت 606 هـ) في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (الوهّابُ في أسماءِ اللّهِ تعالى: من أبنية المبالغة، أصله: الواهِبُ، والهِبَةُ: هي العطيَّة الخالِيَةُ عن الأَعْواضِ والأغراض، فإذا كثُرَتْ سُمِّيَ صاحِبُهَا: وهَّاباً، وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: **«لقد هَمَمْتُ ألاّ أتّهِبَ إلاّ مِن قُرَشِيٍّ أو أنْصارِيٍّ أو ثَقَفِيٍّ»** أي: لا أقبلُ هَدِيَّةً إلاّ مِن هٰؤلاء؛ لأنّهم أصحابُ مُدُنٍ وقُرَى، وهم أعْرَفُ بمكارِمِ الأخلاقِ؛ ولأن في أخلاقِ البادِيَةِ جَفاءً وذهاباً عن المُروءَةِ، وطلباً للزيادة). انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسّرين

يقول الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 49، 50]. يُخبر تعالى أنه خالقُ السمَواتِ والأرضِ ومالِكُهما والمُتَصَرِّفُ فيهما، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يُعطي من

يَشاءُ ويَمنَعُ مَن يشاءُ، ولا مانِعَ لما أعطى، ولا معطي لما مَنَعَ، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ أي: يرزقه البنات فقط، قال الإمام البغويّ: ومنهم: لوطُ عليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي: يرزقه البنينَ فقط، قال البغوي: كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يولد له أنثى ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ أي: ويُعطي لمن يشاء من الناسِ الزوجين الذكر والأُنثى، أي: مِن هٰذا وهٰذا كمحمَّد ﷺ ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي: لا يولدُ له، قال البغويّ: كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فجعل الناسَ أربعة أقسام﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ﴾ : بمن يستحقّ كل قِسم من هٰذه الأقسام ﴿قَدِيرٞ﴾ أي: على ما يشاء من تفاوت الناس في ذلك.

26 ــ البَرُّ

معناه

البَرُّ ـ بفتح الباءِ ـ هو فاعِلُ البرِّ ـ بكسر الباء ـ والبِرُّ هو الإحسانُ. فاللّٰهُ سبحانه وتعالى هو ذو الإحسانِ الحقيقيِّ، الذي يَمْنَحُ عطاءَه جميعَ الناسِ، مُحْسِنَهُمْ ومُسِيئَهُم. قال الله سبحانَه وتعالى حكايةً لِقَوْلِ أهل الجنَّة في الجنَّة في محكم كتابه الكريم ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور: 28]، وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في القرآن في موضع واحد لا غير.

أقوال المفسّرين في تفسيره

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ

هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: 17 ـ 28]. يُخْبِرُ اللَّه تعالى في هٰذه الآيات عن حال السُعَدَاءِ فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴿١٧﴾﴾، وذلك بِضِدِّ ما فيه الكُفّارِ من العذاب والنَكال ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: يَتفكهون بما آتاهم اللَّهُ مِنَ النَعيم مِن أصنافِ الملاذّ من مآكلٍ ومشاربَ، وملابِسَ ومَساكِن ومراكب وغيرِ ذلك ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجّاهم مِن عذابِ النَّارِ، وتِلكَ نِعمةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بذاتها على حِدَتها، مع ما أضِيفَ إليها مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ، التي فيها مِنَ السُّرورِ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ. وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿١٩﴾﴾ أي: هذا بذاك تَفَضُّلاً منه وإحساناً، وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾، أخرج ابن أبي حاتم، عن الهيثم بن مالك الطائي، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إن الرَجُلَ لَيتّكيءُ المُتَّكأَ مِقْدارَ أربعينَ سَنَةً ما يتحوَّلُ عنه ولا يَمَلُّهُ، يأْتِيهِ ما اشْتَهت نَفْسُهُ ولذَّتْ عَيْنُه**». ومعنى ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: وُجُوهُ بَعْضِهم إلى بعض كقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: 74] ومعنى ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: وجعلنا لهم قريناتٍ صالحاتٍ وزوجات حِسَانٍ مِنَ الحُورِ العِينِ، ثم يُخْبِرُ تعالى عن فضله وكرمه وامتنانِهِ ولُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وإحسانِه، إن المؤمنين إذا اتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَّتُهُمْ في الإيمان يُلحِقُهُم بآبائهم في المَنزلةِ، وإن لم يَبْلُغُوا عملهم، لِتَقَرَّ أعْيُنُ الآباءِ بالأبناءِ عندهم في مَنازلهم فيجمع بينهم فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ ـ بفتح اللام ـ أي: نَقَصْناهُمْ ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أي: مِنَ عَمَلِ الآباءِ ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ يُزَادُ في عمل الأولاد ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، لمَّا أَخْبَرَ عن مكان الفَضْلِ، وهو رفع دَرَجَةِ الذُرِّيَّة إلى مَنْزِلَةِ الآباء من غير عَملٍ يَقْتضي ذلك، أَخْبَرَ عن مَقام العَدْلِ، وهو أنّه لا يُؤاخِذُ أحداً بِذَنْبِ أَحدٍ، و ﴿رَهِينٌ﴾ أي: مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ يؤاخذ بالشر ويجازي بالخير، لا يُحمَلُ عليه ذنبُ غيره مِن الناسِ سَواءً كان أباً أو ابناً، ثم قال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴿٢٢﴾﴾ أي: وألحقناهم بفواكِهَ ولحوم من أنواع شتّى ممّا يُسْتَطاب ويُشْتَهى، وقوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يَتَعَاطَوْن فيها كأساً أي: من الخَمْرِ، قاله الضَّحَّاكُ ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يَتكلّمون فيها بكلام لاغ أي: هَذَيانٍ ولا إثم أي: فُحْشٍ، كما يَتَكَلَّمُ به الشَرَبَةُ مِن أَهْلِ الدُنيا. وقوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴿٢٤﴾﴾ إخبارٌ عن خَدَمِهِم وحَشَمِهِمْ في الجَنَّة،

كأَنَّهم اللؤلؤ الرطْبُ المَكْنون مِن حُسْنِهم وبَهائِهم، ونظافَتِهم، وحُسْنِ مَلابِسِهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴿٢٧﴾﴾ أي: أقبلوا يتحادَثون ويَتساءلون عن أعْمالهم وأحْوالهم في الدنيا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴿٢٦﴾﴾ أي: كنّا في الدار الدنيا ونحنُ بين أهْلِينا خائِفينَ من رَبِّنا مُشْفِقينَ مِن عَذابِهِ وعِقابه ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾: بالمغفرة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: النار، وسمّاها: سَمُوم لِدُخولِها في المَسَامّ، أي: فَتَصَدَّقَ علينا وأجارنا ممّا نَخافُ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ أي: نعبده موحدين أي: ونتضرّعُ إليه: فاسْتَجابَ لنا وأعطانا سُؤْلنا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المُحْسِنُ الصادِقُ في وَعْدِهِ، العَظيمُ الرَحْمَةِ.

أقوال العُلماء في تفسيره

يقول الإمام حُجَّةُ الإسلام أبو حامد الغَزَالي الشافعي (ت 505 هـ) في تفسير هٰذا الاسم في كتابه: «المَقْصِدُ الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى»: (البَرُّ: هو المُحْسِن، والبَرُّ المُطْلَقُ هو الذي منه كلُّ مَبَرَّةٍ وإحسانٍ. والعَبْدُ إنّما يكونُ بَرّاً بِقَدْرِ ما يتعاطاهُ من البِرِّ، لا سِيَّما بوالِدَيْه وأستاذِهِ وشُيُوخِهِ). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمامُ مجد الدين أبو السعادات المُبارَك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (البَرُّ في أسماء الله تعالى: هو العَطُوفُ على عِبادِهِ بِبِرِّه ولُطْفِهِ. والبَرُّ والبَارُّ بمعنًى واحد. وإنما جاء في أسماء اللَّهِ تعالى: البَرُّ دون البارِّ. والبِرُّ: ـ بالكسر ـ الإحسانُ، ومنه الحديث المتفق عليه الذي أخرجه البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه، ومسلم في الإيمان من صحيحه ـ في بِرّ الوالدين ـ عن عبد الله بن مسعود قال: سألتُ رسول اللَّهِ ﷺ أيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قال: «**الصلاةُ لِوقْتِها**»، قال: قلتُ ثمَّ أَيٌّ؟ قال: «**برُّ الوالدين**»، قال: قلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: «**الجهادُ في سبيل اللَّهِ**» أي: البر حقُّهما وحق الأقربين من الأهل ضِدُّ العُقُوقِ، وهو الإساءَةُ إليهم والتضييع لِحَقِّهم. يُقالُ: بَرَّ يَبَرُّ فهو بَارٌّ، وجمعُهُ بَرَرَة، وجمع البَرِّ أَبْرارٌ، وهو كثيراً ما يُخصُّ بالأَولياء والزُّهَّادِ والعُبَّادِ). انتهى كلام ابن الأثير.

أثره على العَبْد

إن من يَعْلَمُ أن البَرَّ مِن أسماء اللَّهِ الحُسْنَى، تَيَقَّنَ مِنْ إحْسانِهِ وعطائِهِ

وفَضْلِهِ، فلا يَقلق على رِزْقِهِ ومُسْتَقْبلِهِ وأولاده وعِياله، فالجميع في كَفالَة مُحْسِنٍ بَرٍّ كَريم، وكذلكَ على المؤمن أن يتمثّل هٰذا الخُلُقَ الكريم في نفسه، فيكون بارّاً بوالِدَيْهً ومشايخه، يُحسِنُ إليهم ولا يُسيءُ، واللّٰهُ تعالى أخبر عن نبيّه يحيى عليه السلام فقال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ [مريم: 14].

بِرّ الوالِدَيْن

مفهوم برّ الوالدين

ممّا لا ريب فيه أن الإسلام يدعو بتعاليمه إلى تقوية الروابط الاجتماعية، فالمؤمنون في المجتمع الإسلامي كلّهم أُخْوَة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات: 10]. ففي المجتع الإسلامي يشعر كلّ فَرْدٍ بأُخُوَّة سائر المسلمين، فيتناصح معهم، ويُحِبُّهم ويَوَادُّهم، ويقدّم لهم يَدَ العَوْن والخير والبِرّ، ولو لم يكونوا أقاربه، ولو كانوا مِن جنسيات مختلفة، وبلاد شتّى.

ثم تأتي رابطة الأُسْرَة بعد رابطة العَقيدة في اللّٰهِ تعالى، ومع بداهة التسليم بقوة هذه الرابطة، ورسوخها وانفرادها بالسُمُوّ والحُنُوّ بين جميع العلاقات الإنسانية، فهي محتاجة أبداً إلى التذكير بحقوقها، والتحذير من عقوقها.

ومعظم الأوامر والتوجيهات في القرآن الكريم والسُنّة الشريفة تَتَّجه إلى توصية الذُرِّيَّة بالوالِدَيْن، وإن كانت لم تغفل توجيه الوالدين إلى الذرِّيَّة، فقد كان اللّٰهُ أرحمَ بالأولادِ مِن آبائهم وأُمَّهاتهم في كلِّ حَالٍ، وهو الذي لا يَنْسَى والداً ولا ولداً، والبَرُّ الذي يُعَلِّمُ عِبادَهُ الرَّحمَةَ بَعْضَهُم بِبَعْض، ولو كانوا أولاداً أو والدَيْن.

والسَّبَبُ في توجيه الاهتمام إلى الوَصِيَّةِ بالوالِدَيْن، وقِلَّة توصية الوالِدَيْن بالأَوْلاد، أنَّ الوالِدَيْن يَنْدَفِعانِ بالفِطْرَةِ إلى رعايَةِ أولادهم، وإلى التَضحِيَةِ بِكُلِّ شيءٍ حتى بالذاتِ في سبيل رعاية الولد.

إن الوالدين في الحقيقة يبذلان لولدهما من أجسادهما وأعصابهما وأعمارهما ومِنْ كل ما يَمْلكان من عَزيزٍ وغَالٍ، من غير تأَفُّفٍ ولا شكوَى، ومن

غَيْرِ مَنٍّ أو انتظار عِوَضٍ، بل مِن غير انتباه ولا شعور بما يبذلان، بل في نَشاطٍ وسُرُورٍ وَفَرَحٍ، كأنهما هما اللذان يأخذان.

فالفِطْرَةُ وحدها كَفِيلةٌ بتوصِيَةِ الوالدين دُونَ وَصِيَّة، أمّا الأولادُ فَسُرْعَانَ ما يَنْسُونَ هٰذا كُلَّه، ويَتَوَجَّهون في الغالب بكينونَتهم كلِّها، وبعواطِفِهم ومَشاعرهم واهتماماتِهم إلى الزَوْجَةِ والولد والذرّيّة، فهم في حاجَةٍ إلى الوَصِيَّةِ المكرَّرة ليلتفتوا إلى والِدَيْهِم المُدْبِرين المُولِّين، بعدما سَكبا عُصارَةَ عُمْرِهما وروحهما وصحّتهما وأعصابهما لهم.

تشريع برّ الوالدين

لقد شرع الله البرّ بالوالدين في جميع الشرائع السابقة المُنْزَلَةِ على الأنبياءِ والرُسُلِ. يقولُ اللَّهُ في محكم كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83]، وأثنى سبحانه على يحيى عليه السلام فقال في حَقِّه: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: 14]، وقال على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: 32].

ولما أنزل الله القرآن على نبيِّه محمد ﷺ، وجَّه اهتماماً خاصاً، وحِرْصاً شديداً، واهتماماً كبيراً لبرّ الوالدين والإحسان إليهما، بما لا نظير له في أي نظام تشريعي وَضْعِيٍ أو مِلّةٍ، أو تشريع سابق، قال اللَّهُ عزّ وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: 14] ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: 23، 24]. فاللَّهُ تعالى يوجب الاهتمامَ بالوَالِدَيْن والإحسانَ إليهما وُجوباً مُؤكّداً، وخاصَّةً عند بُلوغِهما مَبْلَغ الكِبَرِ والضَعْفِ. ذلك أن الكِبَرَ مَرْحَلَةٌ حَسَّاسَةٌ من عُمُرِ الإنسانِ تقتضي تقديراً واهتماماً زائدين، والإنسانُ مَتَى كَبُرَتْ سِنُّهُ وأَدْرَكَهُ العَجْزُ، كَثُرَتْ مَطالِبُه، وزادَت عنده حِدَّةُ الشعور بالحاجَةِ، والرِعَاية، والاهتمام، والحنان.

مراتب بر الوالدين

وأول مَرْتَبة مِن مراتب الرعاية والأدب أن لا يصدُرَ من الولد شيءٌ يَدُلُّ على الضَجَرِ وَالضِيقِ وما يَنُمُّ عن الإهانَةِ وسُوءِ الأَدَبِ مَعَ وَالدَيْهِ، مَهْمَا قَلَّ أو هان إلى الدَرَجَة التي يُشَدِّدُ فيها على كلمة ﴿أف﴾ وهي أدنى ما يَتَفَوَّهُ به الإنسانُ عند الضَجَر، ومِن بابِ أَوْلَى ما هو أكبر وأشدُّ في الإساءَةِ والأَذَى. قال الإمام عَلِيٌّ بن أبي طالب ﷺ: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنَ العُقوقِ شيئاً أَدْنَى من كلمة ﴿أف﴾ لذكره، فلْيَعْمَلِ البارُّ ما شاء أن يعملَ فلن يَدْخُلِ النارَ، ولْيَعْمَلِ العاقُّ ما شاءَ أن يَعْمَلَ فلن يَدْخلَ الجَنَّة.

والمرتبة الأعلى أن يكون كلامُه لوالديه يَنُمُّ عن الإكرام والاحترام ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وأن يخضَعَ لهما ويلينَ، ويَتَذَلَّلَ تَذَلُّلَ الراحِم، لَا تَذَلُّلَ الضَعيفِ المَهين، وأن يَتَوَجَّهَ إلى الله أن يرحمهما، فَرَحْمَةُ اللَّهِ أَوْسَعُ، ورِعايَةُ اللَّهِ أَشْمَلُ، وجَناتُ اللَّهِ أَرْحَبُ، وهو أَقْدَرُ على جَزائِهما، بما بذلا مِن دمهما وقلبهما مما لا يَقدرُ على جزائه الأولادُ.

برّ الوالدين في السُنّة

وفي السُّنّةِ النبويَّة المُطهَّرة أحاديثُ كثيرة تحضُّ على طاعَةِ الوالدين، وتأمُر بتكريمهما وبذل كل ما في الوسع والطاقة من البرّ والإحسانِ إليهما، أخرج الإمامُ مُسْلِمٌ في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«لا يَجْزِي ولدٌ والِداً إلا أن يَجِدَهُ مَمْلوكاً فيَشتريَهُ فيُعْتِقَه»**.

وأخرج عنه أيضاً قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«رغِمَ أَنْفُه، ثم رغِمَ أَنْفُهُ، ثم رغِمَ أَنْفُه»**، قيل: مَن يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: **«مَن أدرَكَ أَبَوَيْه عِندَ الكِبَرِ أَحَدَهُمَا أو كِلَيْهِما فلم يَدْخُلِ الجَنَّة»**.

وأخرَج عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أقبل رجلٌ إلى نبيّ الله ﷺ فقال: أُبايِعُكَ على الهجرة والجهادِ، أَبتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللَّهِ، قال: **«فَهَل مِن والدَيكَ أَحَدٌ حَيٌّ»**؟ قال: نعم بل كلاهما، قال: **«فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِن الله»**؟ قال: نعم قال: **«فارجع إلى والديكَ فأحسن صُحْبَتهما»**.

وأخرج البخاريّ في كتاب الأدب من «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: «جاء رَجُلٌ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فقال: مَن أَحقُّ الناسِ بحُسْنِ صَحَابَتي؟ قال: **«أُمُّك»**، قال: ثُمَّ مَن قال: **«أُمُّك»**، قال: ثمَّ مَن؟ قال: **«أُمُّكَ»**، قال ثمَّ مَن؟ قال: **«ثمّ أبوك»**.

27 ــ الكَريمُ

معنى هٰذا الاسم

يأتي بمعنى: كَرمِ الذاتِ والصِفات، وهو شرَفُها ومِقْدارُها العظيمُ.

ويأتي بمعنى: كَرَمِ أفعالِ اللَّهِ سبحانه، فهو بمعنى: البادِىءُ بالنَّوال ـ أي: العَطَاء ـ قَبْلَ السُّؤَالِ.

وقد وردَ في القرآن الكريم في موضعٍ واحد وهو قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: 6].

أقوالُ العُلماء فيه

يقول الإمامُ أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (الكريمُ: هو الذي إذا قَدَرَ عفَا، وإذا وَعَدَ وَفَى، وإذا أَعطى زاد على مُنْتَهَى الرجاء، ولا يُبالي كم أعطِى ولِمَن أَعْطَى، وإن وقَعَت حاجَةٌ إلى غيره لا يَرْضَى، وإذا جَفَا عاتَبَ وما اسْتَقْصَى، ولا يَضيعُ مَنْ لاذَ به والْتَجا، ويُغْنيهِ عن الوسائِلِ والشفعاء، فَمَنِ اجتمع له جميع ذلك لا بالتكَلُّف، فهو الكريمُ المُطلقُ، وذلكَ هو اللَّهُ تعالى فقط.

هٰذه الخِصَالُ قد يَتَجَمّلُ العَبْدُ باكتِسابها، ولكن في بَعضِ الأمور، ومع نوع مِنَ التَكَلُّف، فلذلكَ قد يوصَفُ بالكريم، ولكنه ناقِصٌ بالإضافَةِ إلى الكريم المُطْلَقِ، وكَيْفَ لا يوصَفُ به العَبْدُ، وقد قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لا تقولوا لشجرة العنب الكَرْمَ، فإن الكَرْمَ هو الرجُلُ المسلمُ**»؟ (أخرجه مسلم). وقيل: إنما وُصِفَ شَجَرُ العِنَبِ بالكرْم؛ لأنه لَطيفُ الشجرة، طيِّبُ الثَمَرة، سَهْلُ القِطَافِ، قَريبُ التناوُلِ، سَليمٌ عنِ الشَوْكِ والأسبابِ المُؤذِيَة، بِخِلاَفِ النَخْلِ).

ويقول الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى الكريمُ: هو الجوادُ المُعْطِي الذي لا يَنْفُدُ عطاؤُه، وهو الكريمُ المُطْلَقُ، والكَريمُ الجامعُ لأَنْواعِ الخَيْرِ والشَرَفِ والفضَائِلِ. ومنه الحديث: «**إنَّ الكريمَ ابنَ الكريم ابن الكريم ابنَ الكريم، يوسفُ بنُ يعقوبَ**»؛ لأنه اجتمع له شَرَفُ النُبُوَّةِ والعِلْمُ، والجمالُ، والعِفّةُ، وكَرَمُ الأخلاق، والعَدْلُ، ورئاسة الدنيا والدينِ، فهو نبيٌّ ابنُ نبيٍّ ابنِ نبيٍ ابن نبي، رابعُ أَرْبَعَةٍ في النُبُوَّة.

والكريمُ: الذي كرَّم نفسه عن التَدَنُّسِ بشيءٍ مِن مخَالَفَةِ رَبِّه).

أقوال المفسّرين

يقول اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: 6 ـ 12].

هٰذا تهديد مِنَ اللَّهِ تعالى للإنسان، لا كما يتوهَّمُه بعضُ الناسِ من أنه إرشادٌ إلى الجواب، حيث قال: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ حتى يَقُولَ قائِلُهُمْ: غَرَّهُ كَرَمُه، بل المعنى في هٰذه الآية: ما غَرَّكَ يا ابنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الكَريم ـ أي: العظيم ـ حتّى أَقْدَمْتَ على مَعْصِيَتِهِ، وقَابَلْتَهُ بما لا يَليقُ؟ كما جاء في الحديث: «**يقولُ اللّهُ تعالى يَوْمَ القِيَامَةِ: يا ابنَ آدَمَ! ما غرَّكَ بي؟ يا ابنَ آدم! ماذا أَجَبْتَ المُرْسَلِينَ؟**».

أخرج ابنُ أَبي حاتم أن عُمَرَ بنَ الخطّابِ سمع رجلاً يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ فقال عُمَرُ: الجَهْلُ. وقال الفُضَيْلُ بنُ عياضٍ: لو قال لي ما غَرَّكَ بي؟ لقُلْتُ: سُتُورُكَ المُرْخَاةُ. وقال أبو بكرٍ الورَّاق: لو قال لي ما غَرَّكَ بربِّكَ الكريم؟ لقلتُ: غَرَّني كَرَمُ الكَريم. وقال بعضُ أهلِ الإشارَة: إنما قال: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ دون سائِرِ أسمائِه وصِفَاتِه، كأنَّه لَقَّنَهُ الإجابَةَ، وهٰذا الذي تخيَّلَهُ هذا القائل ليس بطائل؛ لأنه إنما أتى باسمه ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ لِيُنَبِّهَ على أنه لا ينبغي أن يُقابَلَ الكَريمُ بالأفعالِ القبيحة وأعمال الفُجورِ. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ أي: ما غَرَّك بربِّكَ الكريمِ الذي خَلَقَكَ سَوِيّاً مستقيماً معتدلَ القامة

مُنْتَصِبها في أحسنِ الهيئاتِ والأشكالِ؟ أخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن بِشْر القُرَشِيّ ﷺ أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ بَصَقَ يوماً في كَفِّهِ، فوضَعَ عليها إصْبَعَهُ ثم قال: «**قال اللّهُ** ﷻ: يا ابنَ آدمَ! أنّى تُعْجِزُني وقد خَلَقْتُكَ مِن مِثلِ هٰذهِ؟ حتّى إذا سَوَّيْتُكَ وعَدَلْتُكَ، مشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وللأرضِ مِنْكَ وئيدٌ، فَجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتّى إذا بَلَغتِ التراقِيَ قلتَ: أتصدَّق، وأنّى أوَانُ الصَدَقَةِ؟» وقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ أي: هو قادِرٌ على خَلْقِ النطفَةِ على شكل قَبيحٍ مِنَ الحيوانات المنكرة الخَلْقِ كالكلب والحمارِ والخنزير، كما قال أبو صالح، وقتادة، وعكرمة، ولكن بقُدْرَتِهِ ولُطْفِهِ وحِلمِهِ يَخْلُقُه على شكل حسن مستقيم معتدلٍ تامٍّ، حَسَنِ المَنْظَرِ والهيئة. وقولُه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ أي: إنما يَحْمِلُكُمْ على مواجهةِ الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيبٌ في قلوبكم بالمعَادِ والحساب والجَزاءِ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ يعني: وإن عليكم لَمَلائكةً حَفَظَةً كِراماً، فلا تُقابِلوهُم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميعَ أعمالكم. أخرجه الحافظُ أبو بكر البَزَّار في مسنده عن ابن عباس قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**إنّ اللّهَ ينهاكم عَنِ التعرّي، فاسْتَحْيُوا مِن ملائكةِ اللّهِ الذين معكم، الكرام الكاتبين الذين لا يُفارقونكم إلّا عند إحدَى حالات ثلاث: الغائِطِ، والجنابَةِ، والغُسَلِ، فإذا اغتسل أحدُكم بالعراء فَلْيَسْتَتِر بثوبه، أو بِجُرمِ حائِطٍ، أو ببعيره**».

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن من علم أن ربَّهُ كريمٌ لم يخش من الفقر على نفسه وعياله، وتمثّل بهٰذه الصفة الكريمة، فكان كريماً على أهله وعياله ومجتمعه، ولم يكن بخيلاً؛ لأن اللّهَ كريمٌ يحبُّ الكرم والجود.

إن أكرمكم عند الله أتقاكم

يقولُ الله تبارك وتعالى في مُحكَم كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: 13].

يُخبِرُ اللّهُ تعالى الناسَ أنه خَلَقَهُم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ، وَجَعَلَ منها زَوْجها،

وهما: آدَمُ وحَوَّاءُ، وجَعَلَهُم شعوباً، وهي أعَمُّ مِنَ القَبَائِلِ، وبَعْدَ القبائِلِ مَراتِبُ أُخَرُ كالفَصائِلِ، والعَشَائِرِ، والعَمائِرِ، والأفخاذ، وغيرِ ذلك. وقيل: المُرادُ بالشُعوبِ: بُطونُ العَجَمِ، وبالقبائِلَ: بُطونُ العرب، كما أنّ الأسباطَ بُطونُ بَني إسرائيل. فجَميعُ الناسِ في الشَرَفِ بالنِسبَةِ الطينيّة إلى آدَمَ وحَواءَ عليهما السلام سواءٌ، وإنما يتفاضلونَ في الأمور الدينية، وهي طاعةُ اللَّهِ، ومُتابَعَةُ رَسولِهِ ﷺ؛ ولهٰذا قال تعالى بعد النَهْيِ عن الغِيبَةِ واحتِقارِ بَعضِ الناسِ بَعْضاً، مُنَبِّهاً على تَساويهم في البشَرِيَّةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: لِيَحْصُلَ التعارُفُ بينهم، كلٌّ يَرْجِع إلى قبيلته. وقال مجاهِد في قوله ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ كما يقالُ: فلانُ ابن فلان، من كذا وكذا، أي: مِن قبيلة كذا وكذا. أخرج الإمام الترمذيُّ في «جامعه» عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**تعَلَّمُوا مِن أنْسَابِكُمْ ما تَصِلُونَ به أرْحَامكم، فإنَّ صِلَةَ الرَّحِم مَحبَّةٌ في الأَهْلِ، مَثْراةٌ في المالِ، مَنْسَأَةٌ في الأَثَرِ**» ثم قال الترمذي: (غريبٌ لا نعرفه إلاّ من هٰذا الوَجْهِ).

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضَلُونَ عند اللَّهِ تعالى بالتَقْوَى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديثُ بذلك عن رسول الله ﷺ. أخرج البخاريُّ في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: سُئِلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: أيُّ الناس أكرَمُ؟ قال: «**أكْرَمُهُمْ عِندَ اللَّهِ أتقاهُمْ**»، قالوا: ليس عن هٰذا نَسْأَلُكَ، قالَ: «**فأكرَمُ الناسِ يوسفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابنُ نبيِّ اللَّهِ، ابن نبيِّ اللَّه ابنِ خليلِ اللَّهِ**»، قالوا: ليس عن هٰذا نَسْأَلُكَ، قال: «**فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُوني؟**» قالوا: نعم، قال: «**فَخِيارُكُم في الجاهِلِيَّةِ خِيارُكُم في الإسلامِ إذا فَقُهُوا**».

وأخرجَ الإمامُ مُسْلِمٌ في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُورِكُمْ وأَموالِكُم، ولكن يَنْظر إلى قُلوبِكُم وأَعْمالِكم**».

وأخرجَ الإمامُ أحمدُ في «مسنده» عن أبي ذَرّ ﷺ قال: إن النبي ﷺ قال له: «**انظر فإنك لست بخَيْرٍ مِن أحْمَرَ ولا أسْوَدَ، إلاّ أن تَفْضُلَه بتقْوَى اللَّه**».

وأخرجَ الحافظ أبو القاسم الطبراني في «معجمه الكبير»، عن حبيب بن

خِراشٍ العَصْرِي أنه سمع رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**المؤمِنون إخْوَةٌ، لا فضلَ لأَحَدٍ على أَحَدٍ إلّا بالتقوى**».

وأخرج أبو بكر البزّار في «مسنده»، عن حذيْفَة بن اليَمانِ ﷺ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**كُلُّكُمْ بنو آدَمَ، وآدَمُ خُلِقَ مِن تُرابٍ، ولَيَنْتَهِيَنَّ قومٌ يَفْخَرون بآبائِهم أو لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ على اللَّهِ تعالى مِن الجُعْلانِ**».

وأخرج ابنُ أبي حاتم في «تفسيره»، عن ابن عُمَرَ ﷺ قال: طاف رسولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فتح مكة على ناقته القَصْوَاءَ، يَسْتَلِمُ الأَرْكانَ بمحجنٍ في يَدِهِ، فما وَجَدَ لها مَناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أَيْدِي الرجالِ، فخرج بها إلى بَطْنِ المَسِيلِ، فَأُنِيخَت، ثم إنّ رسولَ اللَّهِ ﷺ خطَبَهُمْ على راحِلَتِه، فَحَمِدَ اللَّهَ تعالى وأثْنَى عليه بما هو لهُ أَهْلٌ ثم قال: «**يا أيُّها الناسُ! إنَّ اللَّهَ تعالى قد أَذْهَبَ عَنْكُم عَيْبَةَ الجاهِلية، وتعظّمها بآبائها، فالناسُ رَجُلانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كريمٌ على اللَّهِ تعالى، ورَجُلٌ فاجرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ على اللَّهِ تعالى، إنَّ اللَّهَ** ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ ثم قال ﷺ: «**أقولُ قولي هٰذا وأستغفرُ اللَّهَ لي ولكم**».

وأخرجَ الإمامُ أحمد في «مُسْنَدِهِ» عن عُقْبَةَ بن عامِرٍ رضي اللَّهُ عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ أنسابَكم هٰذه ليست بِمَسَبَّةٍ على أحد، كُلُّكم بنو آدَمَ، طَفَّ الصاعُ لم يَمْلَؤوهُ، ليس لأحد على أحَدٍ فضلٌ إلّا بدينٍ وتَقْوَى، وكَفَى بالرجُلِ أن يكونَ بَذِيّاً بخيلًا فاحِشاً**».

وأخرج ابن جرير الطبري في «تفسيره» بلفظ: «**الناسُ لآدَمَ وحوّاء، طَفَّ الصَّاعُ لم يَمْلؤوه، إن اللَّهَ لا يسألُكم عن أحْسَابِكم ولا عَن أنْسابِكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾».

وأخرج الإمامُ أحمد في مسنده، عن دُرَّة بنت أبي لهب ﵂ قالت: قامَ رجلٌ إلى النبي ﷺ وهو على المِنْبَر فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ! أيُّ الناسِ خيرٌ؟ قال ﷺ: «**خير الناس أقرأهم، وأتقاهم للَّهِ عزّ وجلّ، وآمَرُهُمْ بالمَعْرُوفِ وأنهاهُمْ عَنِ المُنكَرِ، وأَوْصَلُهُمْ للرَّحِمِ**».

وأخرج عن عائشةَ أمِّ المؤمنين ﵂ قالت: «ما أَعْجَبَ رسولَ اللّهِ ﷺ شيءٌ من الدُنيا، ولا أَعْجَبَهُ أَحَدٌ قط إلا ذو تُقَى».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليمٌ بكم، خبيرٌ بأُمورِكم فيَهدِي مَن يَشاءُ، ويَرْحَمُ مَن يشاءُ، ويُعَذِّبُ مَن يشاءُ، ويُفَضِّلُ مَن يَشاء على مَن يَشاءُ وهو الحكيم العليمُ الخبير في ذلك كلِّه.

إن هٰذه الآية وهٰذه الأحاديث تضع الميزانَ الصحيح لتفاضُل الناس، فليس الجاهُ ولا المناصِبُ، ولا شرف النَسَبِ والأسرة، ولا المالُ، ولا القوة الدنيوية، ولا امتلاكِ السلطة والأسلحةِ هي التي ترفع قدرَ الناسِ عند اللّهِ، بل التفاضل عنده بالتَقْوَى والإيمان والخوفِ من اللّهِ عزّ وجلّ، والتزام طاعته ودينه وشرعه، وهكذا أرادَ اللّهُ لعباده أن يزنوا الناسَ بهٰذا الميزان، فلا يعظّمون الناسَ لاعتبارات دنيوية، بل لدينهم وورعهم وتقواهم، وهذا هو الشرف، والكرم، والحسب، والنسب.

28 ــ الواسع

معناه

مشتق من السَعَةِ، فإذا كان بمعنى: السَعَةِ في العَطاءِ، فمعناه: الكريم الجَوادُ الذي عَمَّت نِعَمُه، وشَمَلَتْ رحْمَتُه جميع خَلْقِهِ، فَفَواضِلُهُ شامِلَةٌ، ومِنَحُهُ كاملةٌ. وقد يأتي بمعنى: الواسع في العلم. وقد ورد هٰذا الاسم في سَبْعَةِ مواضع مِن القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: 115]. كما ورد في حديث أسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي (ت 505 هـ) في كتابه «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللّهِ الحُسْنَى» في تفسير هٰذا الاسم: (الوَاسِعُ: مُشْتَقٌّ مِنَ السَّعَةِ، والسَعَةُ: تُضافُ مَرَّة إلى العِلم إذا اتّسَعَ وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتُضافُ أخرى إلى الإحسان وبَسْطِ النِعَمِ،

وكيفما قُدِّرَ وعلى أي شيء نزل، فالواسِعُ المُطْلَقُ هو اللَّهُ تعالى؛ لأنّه إن نُظِرَ إلى علمه، فلا ساحِل لبحر معلوماته، بل تَنْفَدُ البِحَارُ لو كانت مِدَاداً لكلماته، وإنْ نُظِرَ إلى إحْسَانِهِ ونِعَمِهِ، فلا نهاية لِمَقْدُوراتِهِ، بل وكلُّ سَعَةٍ ـ وإن عَظُمَت ـ فتنتهي إلى طَرَفٍ، فهو أحَقُّ باسم السَّعَةِ، واللَّهُ تعالى هو الواسِعُ المُطْلَقُ؛ لأن كلَّ واسِعٍ بالإضافةِ إلى ما هو أَوْسَعُ مِنْه ضَيِّقٌ، وكُلُّ سَعَةِ عِلْم تنتهي إلى طَرَفٍ، فالزيادَةُ عليها مُتصوَّرَةٌ، وما لا نهايَةَ له ولا طرفَ، فلا يُتَصَوَّرُ عليه زيادَة.

وبالنسبة للعبد، فإن سعته في معارفه وأخلاقه، فإن كَثُرَت علومُهُ فهو واسِعٌ بقدر سَعَةِ عِلْمِهِ، وإن اتَّسَعَتْ أخْلاقُه حَتَّى لم يُضَيِّقْها خوفُ الفَقْرِ، وغَيْظُ الحَسُودِ، وغَلَبَةُ الحِرْصِ، وسائِرُ الصِفات، فهو واسِعٌ، وكلُّ ذلك فهو إلى نهاية، وإنّما الواسِعُ الحَقُّ هو اللَّهُ تعالى). انتهى كلام الغزالي.

ويَقولُ الإمامُ مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر»: (في أسماء الله تعالى: الواسِعُ: هو الذي وسِعَ غِناهُ كلَّ فَقِيرٍ، ورَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، والوُسْعُ والسَعَةُ: الجِدَةُ والطاقَةُ. ومنه الحديث: «**إنَّكم لن تَسعُوا الناسَ بأمْوالِكُم فَسَعُوهُمْ بأخلاقِكُمْ**». (أخرجه البزّار في مسنده عن أبي هريرة وحسّنه ابن حجر في الفتح) أي: لا تَتَّسِعُ أمْوالُكُمْ لِعَطائِهِم فَوَسِّعُوا أخْلاقَكُم لِصُحْبَتِهِم). انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسِّرين

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: 267 ـ 269]، يأمُرُ اللَّهُ تعالى عِبادَهُ المؤمنين بالإنفاقِ، والمُرادُ به: الصَدَقَةُ هُهُنَا؛ قاله ابن عباس: من طيّبات ما رزقهم من الأموالِ التي اكتسبوها. قال مجاهد: يعني: التجارة بِتَيْسِيرِهِ إياها لهم. وقال عليُّ بن أبي

طلحة والسُّدّيّ: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعني: الذَهَبَ والفِضةَ، ومِنَ الثمارِ والزُّرُوعِ التي أنبتها لهم من الأرض. قال ابنُ عبَّاس: أمَرَهُم بالإنفاق مِن أَطْيَبِ المالِ وأَجْوَدِه وأَنْفَسِهِ، ونهاهم عن التَصدُّقِ برذالة المالِ وَدَنِيئِه، وهو خَبيثُه؛ فإنَّ اللّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلّا طيِّباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: تَقْصِدُوا الخَبيثَ ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: لو أُعْطِيتُمُوهُ ما أخذتموه إلّا أن تتغاضَوْا فيه فاللّهُ أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تَكْرَهُونَ. وقيل معنا: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: لا تَعْدلوا عن المالِ الحلالِ وتَقْصِدُوا إلى الحَرامِ فتَجْعَلوا نَفَقَتكُم منه.

خرج الإمامُ أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن مسعود، قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**إنَّ اللّهَ قَسَمَ بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإنَّ اللّهَ يُعطي الدنيا مَن يُحِبُّ ومَن لا يُحِبُّ، ولا يُعْطِي الدينَ إلّا لِمَن أَحَبَّ، فمن أعطاهُ اللّهُ الدينَ فقد أَحَبَّه، والذي نفسي بيده، لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُه ولسانُه، ولا يُؤمِنُ حَتَّى يأمَنَ جارُهُ بوائِقَه**»، قالوا: وما بَوَائِقُه يا رسولَ اللّهِ؟ قال: «**غِشُّه وظلمه، ولا يَكسِبُ عبدٌ مالاً مِن حرام فيُنْفِقُ منه فيبارَكُ له فيه، ولا يَتصَدّقُ به، فيُقْبَلُ منه ولا يتركه خلف ظهره إلّا كان زادَه إلى النار، إنّ اللّهَ لا يمحو السَّيِّءَ بالسَّيِّءِ ولكن يمحو السَّيِّءَ بالحَسَنِ، إن الخَبيثَ لا يمحو الخبيثَ**».

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: وإن أمَرَكم بالصدقات وبالطيِّبِ منها فهو غَنِيٌّ عنها، وما ذاك إلّا أن يُسَاوِي الغِنِيَّ والفَقيرَ، فهو غنيٌّ عن جميع خلقه، وجميعُ خَلْقِهِ فُقراءُ إليه، وهو واسِعُ الفَضْلِ، لا يَنْفُدُ ما لديه، فَمَنْ تَصدَّقَ بصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طيِّبٍ فليعلم أنَّ اللّهَ غَنِيٌّ واسِعُ العطاءِ كريمٌ جوادٌ، وسيجزيه بها ويضاعِفُها له أضعافاً كثيرة، مَن يُقرضُ غَيْرَ عَديم ولا ظلوم ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقَدَرِهِ لا إله إلّا هو، ولا ربَّ سِواهُ.

وقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾. أخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن عبد الله بن مسعود: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**إن للشيطان لَمَّةً بابنِ آدم، وللمَلَكِ لَمَّة، فأمّا لَمَّةُ الشيطان فإيعادٌ بالشرِّ، وتكذيبٌ بالحق، وأما لَمَّةُ المَلَك فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ**

بالحقّ، فمنَ وَجدَ ذلك فليعلم أنه من اللّهِ فليحمد الله، ومَن وَجدَ الأخْرَى فليتعوّذ من الشيطان».

ومعنى ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ أي: يُخَوِّفُكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تُنفقوهُ في مرضاةِ اللّهِ ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والآثام، والمَحارم، ومخالفة الخلّاق، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ﴾ أي: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضۡلٗاۗ﴾ أي: في مقابلة ما خوَّفكم الشيطان من الفقر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي: يَسَعُ بعطائه جميع مخلوقاته عليم بحالهم.

نِعَمُ اللّه تعالى

تذكير الإنسان بنِعَمِ اللّهِ الكثيرة

يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١)﴾ [لقمان: 20 ـ 21]. يَقولُ تعالى مُنَبِّهاً خَلْقَهُ على نِعَمِهِ عليهم في الدنيا والآخِرَة بأنّه سَخَّرَ لَهُمْ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِن نجوم يَسْتَضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يَخْلُقُ فيها مِن سَحابٍ وأمْطارٍ وَثَلْجٍ وَبرَدٍ، وَجَعْلِهِ إياها لهم سَقْفاً مَحفوظاً، وما خلق لهم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قَرارٍ، وأنهارٍ، وأشجار، وزُرُوعٍ، وثِمارٍ، وأسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ الظاهِرَةَ والباطِنَةَ مِنْ إرْسَالِ الرُّسُل وإنزالِ الكتُبِ، وإزاحةِ الشُبَهِ والعِلَلِ، ثم مع هٰذا كلِّهِ ما آمَنَ الناسُ كُلُّهم، بل مِنْهُم ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في وجوده وتوحيده، وإرساله الرُسُلَ، ومجادَلَتُه في ذلك ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ ولا مُسْتَنَدٍ من حُجَّةٍ صَحيحةٍ ولا ﴿كِتَٰبٞ﴾ مَأثورٍ صحيح. ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ (٨)﴾ أي: مُبين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لِهٰؤلاءِ المجادلين في اللّهِ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: على رَسُولِهِ مِنَ الشرائع المُطهَّرة ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ أي: لم يكن لهم حُجَّةٌ إلا

اتّباعَ الآباءِ الأقدمين والتقليدَ الأعمى، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: فما ظَنّكم أيُها المُحْتَجُون بصنيع آبائِهم أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خَلَفٌ لَهُم فيما كانوا فيه، ولهٰذا قال تعالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وفي أوائل سورة النحل يُذَكّرُ اللَّه عبادَهُ بنعمه المبثوثة أَنَّى كانوا، والظاهرة لعيونهم، والدالّة على العناية الإلٰهية بالإنسان وتكريمه، وتسخير ما في الكون لخدمته ومصلحته، يقول تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾ [النحل: 5 ـ 18].

أخرج الإمام البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سَأَلَ رسولَ اللَّهِ ﷺ عن معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فقال ﷺ: **«أما الظاهِرَة فما سَوَّى مِن خَلْقِكَ، وأما الباطِنَةَ فما سَتَرَ مِن عَوْرَتِك وَلَوْ أَبْدَاها لَقَلاكَ أَهْلُكَ فَمَن سِواهُم»**.

والحقيقة أن الإنسان مَغْمُورٌ بِنِعَمِ اللَّه تعالى في كلِّ لحظة من لحظاتِ الليل

والنهار، وفي كل نَفَس يَتَنَفَّسُهُ، وكلِّ خفقةٍ يخفقها قلبُه، وكلِّ مَنظرٍ تشاهده عينُه، وكلِّ صَوْت تَسْمَعُه أُذنُه، وكل هاجِسٍ يخطر في ضميره، وكلِّ فِكْرَةٍ يتدبَّرُها عقلُه؛ بل إنّ وُجودَ الإنسانِ ابتداءً نعمةٌ مِن اللَّهِ وفضلٌ.

وإنّ مما يُسْخِطُ الإنسان، ويَحْرِمُه لَذَّةَ الرضا، غَفْلَتُه عن ربه، وأنه يَتَقَلَّبُ في نعمائه، وإِلْفَتُهُ للنِعَم، وتعوُّدُه عليها، مما يُفْقِدُها قيمتها عنده، وذلك بسبب سُهولَة الحصول عليها، ونسمعه دائماً يقول: يَنقُصني كذا، وأريد كذا، ولا يقول: عِنْدِي كذا وكذا.

بينما العَبْدُ المؤمِنُ بخلاف ذلك يشعر دائماً بإحساسٍ عميق بفضل اللَّهِ عليه وإحسانه العظيم، ونعمه التي تحيط به عن يمينه وشماله، ومن بين يديه ومِن خلفه، ومن فوقه ومِن تحته. إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان في المهد صبياً، بل منذ كان في بَطن أُمِّه جنيناً، كان صَبيّاً وليداً لا سِنَّ له تقطع، ولا يَدَ له تبطش، ولا قَدَمَ له تَسْعَى، فأجْرَى اللَّهُ له عِرْقَيْن رَقيقَين في صدر أُمِّه يجريان لَبَناً خالِصاً، كامِلَ الغِذاء، دافئاً في الشتاء، بارداً في الصيف، وألقى اللَّهُ محبّته في قلب أبوَيْه، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب، ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش، حتى يَكفِيَاهُ ما أهَمَّه، ويدفعا عنه كلَّ سُوء.

وكان في بطن أمه جَنيناً، فَجَعَلَ اللَّهُ له قراراً مَكيناً، هَيَّأ له فيهِ أسبابَ الغِذاء والدفء، والتنفُّس، ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: 20 ـ 23]. المؤمِن يشعر بنعمة الله عليه في كل شيءٍ حوله، ويرى في كل ذَرَّةٍ في الأرض أو في السماء مِنْحَةً مِن اللَّه له، تيسِّر له معيشته، وتُعينه على القيام برسالته في الحياة.

آثار الكرم تدلُّ على الكريم

مقدمة

إن مَن يُلاحِظُ باستمرار ـ ملاحظة تحقُّق وتَبَصُّر ـ ما تدلُّ عليه أسماءُ اللَّهِ الحُسْنَى: (الوَهَّابُ، البَرُّ، الكريم، الواسِعُ)، ويلاحِظ مع ذلك أن اللَّهَ تعالى هو القادر الذي لا يُعجزه شيء، فإنه لا بُدَّ أن يكون قلبه مُعَلَّقُ المَطامِع بِهِباتِ اللَّهِ

وبِرِّه، وكَرَمِهِ، وسِعَةِ عطائه، مُنْصَرِفاً عمّا سِوَاهُ مِن ذوي الحاجات، فَذَوُو الحاجاتِ مهما سَخَتْ نفوسُهم، فإنّهم بُخلاءُ مُمْسِكُونَ أمامَ كثير مما يَدْخُلُ في حُدود مَطامِعِهِم، أو في حُدود ما يحتاجونه ـ ولو احتمالاً وبعد حين ـ إلّا أن يَقهَرُوا نفُوسهم بتكليفها العطاءَ والبَذْل. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: 100].

حظ المسلم من هٰذه الأسماء

وحظ المسلم المؤمن باللّهِ مِن هذه الأسماء، أَنْ يَتَخَلَّقَ بِشَيْءٍ مِمّا تَدلُّ عليه قَدْرَ الاستطاعَة، في الحُدودِ والمقاييسِ البَشَرِيَّة، فيكونَ وهّاباً برّاً كريماً، واسِعَ العَطَاءِ ممّا تَفَضَّلَ اللّهُ به عليه مِن مالٍ أو جاه أو نفس، وذلك بالبَذْلِ السخِيِّ في أبوابِ البِرّ التي حَضَّتْهُ على البَذْلِ فيها شريعَةُ اللّهِ.

آثار الكريم في خلق الإنسان

يقولُ الدكتور محمد علي البار في كتابه «خَلْقُ الإنسان بين الطبّ والقرآن»: (إن المُتَبَصِّرَ بِخَلْقِ الإنسانِ يرى آثار نعمة اللّهِ عليه، فَالمُخُّ مثلاً: يحتوي على ألف مليون خليَّة عصبيّةَ، وتسري الشرارة الكَهْرَبيَّةُ العَصَبِيّة بسرعة تعادلُ ثمانين ميلاً في الساعَة الواحدة. والمُخُّ يَنقَسِمُ إلى نِصْفَيْن كُرَوِيَّيْن، النِصفُ الكُرَوِيُّ الأيمن يُمثّلُ النِصْفَ الأيسرَ مِن الجِسْمِ، والنِصفُ الكُرَوِيُّ الأَيسَرُ يمثّلُ الشِقَّ الأَيْمَنَ مِنَ الجسم).

ثم ينتقل للكلام عن العَيْن فيقول: (في كُلِّ شبكة عشرُ طبقات من العُقَدِ والخلايا العَصَبِيَّةِ الحَسَّاسَةِ للضَّوْءِ، مُتَّصِلَة بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، ويتركَّبُ العَصَبُ البَصَرِيُّ من مليون لِيفَة عَصبيَّة، وهو لا يزيد سَمْكُهُ عن بضعة مليمترات).

ويقول الدكتور السيد الجميلي في كتابه: «الإعجاز الطبي في القرآن الكريم»: (مركز حاسّة البصر في العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مُسْتَقْبِلات الضوء، وهي أطراف الأعصاب، يقومُ بحمايتها الجفنُ ذو الأهْدَاب الذي يَقيها ليلاً ونهاراً، والذي تُعَدُّ حركته لا إراديَّة، وهو الذي يمنع عنها الأَتْرِبَةَ، والذرّات، والأجسَام الغريبة، كما يَكسِرُ من حِدَّة الشمس بما تُلْقِي

الأهْدابُ على العَيْنِ من ظِلال، وحَرَكَةُ الجِفْنِ عِلَاوَةً على هٰذه الوِقايَةِ، تَمْنَعُ جَفَافَ العين، أما السائلُ المحيطُ بالعين، والذيَ يُعْرَفُ باسم الدُّمُوع، فهو أقوى مُطَهِّر).

أما عن الأُذُن فيقول الدكتور البار: (يوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، ومن خلال نظام مُعَقّد تتِمُّ عملية حفظ التوازن بطريقة ديناميكية فسيولوجية في منتهى التطوّر والروعة، بواسطة القنوات نصف الهلالية. وإن جزءاً من أذن الإنسان (الأذن الوُسْطَى) هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقّدة، متدرّجَة بنظام بالغ، في الحجم والشكل، ويمكنُ القولُ بأن هٰذه الحنيات تُشبِهُ آلةً موسيقية. ويبدو أنها معقّدة، بحيث تلتقط وتنقل إلى المخّ بشكلٍ ما، كلّما وَقَعَ صَوْتٌ أو ضَجَّةٌ، مِنْ قَصْفِ الرَعْدِ، إلى حفيف الشَجَرِ، فضلاً عن المزيج الرائع من الأصوات.

ويقول الدكتور خالص شلبي في كتابه «الطبُّ مِحرابِ الإيمان»:

* يحتوي الجسمُ البشري أكثر من (600) عضلة، وأكثر من (200) عظم، وتحوي العَضَلَةُ المتوسِّطةُ الحجم على 10 ملايين ليف عضَلِيّ، وتحوي عَظْمَةُ الفَخِذ أكثر من 30 ألف عمود كِلْسِي خاص.

* وفي كل يوم يَتَنَفَّسُ الإنسان 25 ألف مَرَّة، يَسْحَبُ فيها 180 متراً مكعباً من الهواء، يتسَرَّبُ منها 6,5 متر مكعّب من الأوكسجين إلى الدم.

* وفي المعدة (35) مليون غُدَّة للإفراز، وفي العفج والصائم (الأمعاء) (3600) زغابة معوية للامتصاص في كل 1 سنتم^2، وفي الدقاق (2500)، مع العلم أن طول الأمعاء حوالي ثمانية أمتار.

* وفي الدماغ (12) مليار خليَّة عَصَبِيَّة، و(100) مليار خلية وبقيّة استنادية تشكّل سَدّاً مارداً لحراسة الخلايا العَصَبِيّة مِن التأثّر بأيَّة مادَّة.

* وفي الدم الكامل (25) مليون كُرَيَّة حمراء لنقل الأوكسجين، و(25) مليار كَرَيَّة بيضاء لمقاومة الجراثيم ومناعَة البَدَن، وهي بخمسة أشكال، ومليون مليون صفيحة دموية لحفظ الدم ضِدّ النزف، ولإيجاد التخثّر في أي عِرْقٍ نازِفٍ.

* ويُعتبر الكبد أكبر غُدَد الإنسان، إذْ يَزِنُ (1,5) كليو غرام، ويحوي (300) مليار خلية يمكن أن تتجدَّد كلِّياً خلال أربعة أشهر، فخلاياه أسرع من خلايا الجنين المعروفة بسُرعَةِ الانقِسامِ، وللكبد وظائف كثيرة.

إن هٰذا الكمَّ الهائِلَ من النِعَم، والكَرَم الفَريدِ هو مِن عطاءِ كريم، هو اللَّهُ جَلَّ جلالُه، وقد لَفَت نظرَ الإنسانَ إلى التَأمُّلِ في نفسه، ليَرَى آثار كرم الكريم وقدرته، فقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: 21] وهٰذه النِعَم وهذا العطاء في أرقامه الهائلة هو مُحَدَّدٌ مُقَدَّرٌ في كلِّ إنسان، بل ومُتَسَاوٍ في أكثره بين إنسان وإنسان، ممّا يُدلُّ على الخالق الواحد الذي خلق الإنسان فَقَدَّرَهُ وأكرمه، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: 2] وفي سورة الرحمٰن التي هي عَروس القرآن يذكِّرنا اللَّهُ سبحانه بالعديد من نِعَمِهِ فيقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴿١٤﴾﴾، وتذكيراً بهٰذه النِعَم تكرَّرت هٰذه الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مَرَّة في هٰذه السورة، إنه كرم اللَّهِ، إنه عطاؤه لهٰذا الإنسان في الحياة الدنيا، وعطاؤه في الآخرة أكبر لمن خاف مقام ربّه جلّ جلاله.

شُكرُ النِعَم

معنى الشكر

الشكرُ لُغةً: الثناء على المُحسِن بما أولاه من المعروف، وفي الاصطلاح الشرعيّ: هو ظهورُ أثر نعمة الله على لسان عَبدِهِ، وعلى قلبه، وعلى جَوَارِحِه؛ أما ظهورُه على لسانه فَثَناؤه واعترافُه، وأما على قلبه فشهوده ومَحَبَّتُه، وأما على جوارحه فانقياده وطاعته. ومِن هنا قيل: لا يكونُ العبد شكوراً لربّه إلّا باجتماع ثلاثة أركان: الأول: اعترافه بنعمة الله عليه، والثاني: الثناء عليه بها، والثالث:

الاستعانة بها على مرضاته، وقيل: الشكرُ هو استفراغ الطاقَةِ في الطاعَةِ. وقيل: الشكر استعمال نعم اللَّهِ تعالى فيما يُحِبّ، وقيل: شكر النعمة هي مشاهَدَة المِنَّة، وحفظ الحُرْمَة، والقيام بالخدمة.

أهمية الشكر

الشكرُ خُلُقٌ مِن أخلاق الرُّبُوبِيَّة، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17] وقد أمرَ اللَّهُ سُبْحانه عباده به، ونهى عن ضِدِّه، وأثنى على أهله، ووصف به خَواصَّ خَلْقِهِ، وجعله مفتاح كلام أهلِ الجنَّة ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: 74] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: 10].

والشكرُ مَقامُ الأنبياءِ ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13] وهو مأمورٌ به مُقابل نِعَم اللَّهِ الكثيرة وأهمّها نعمة الهداية ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: 151، 152].

إن شُكرَ النِعَم دليل على سَلامة المقاييس في النفس البشرية، فالخَيْرُ يُشْكَرُ؛ لأن الشُكرَ هو جزاؤه الطبيعي في الفِطْرَةِ السليمة. والنفس التي تشكرُ اللَّهَ على نِعَمِهِ تراقِبُه في التَصرُّف بهٰذه النِعَم، بلا بَطَرٍ ولا اسْتِعلاءٍ، وبلا استِخدام للنِعَم في الأذَى والشَرِّ. والشكرُ لِلَّهِ على نِعَمِهِ يُزكي النفس البشريّة ويُطهّرها، ويُقَرِّبُ صاحِبَها مِن الله تعالى، ويدفعه للعمل الصالح، ويزيد مِنَ النِعَم ويُنمِّيها ويباركها ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]. وبالشكر تقوى الروابط الاجتماعية بين المسلمين.

الكفر ضد الشكر

ولعلوّ منزلة الشكر ومقامِه الرفيع، فقد بذل عَدُوُّ اللَّهِ إبليسُ اللَعِينُ جهده لِصَرْفِ الناس عنه، وإيقاعهم في الجحُودِ والكفر، قال تعالى مخبراً عنه حين أقسم على إغواء بني آدم: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن

شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: 17].

والكفر بنِعَم اللَّهِ يكون بِعَدَم شكرِها، أو بإنكار واهِبِها، ونِسْبَتِها إلى النَفْسِ وعلمها وخبرتها وحذْقِهَا ومهارتها، وإلى الكدِّ والسعي الشخصي. كما قال قارُون حين أُمِر بشكر اللَّهِ على ما آتاه مِن غِنًى وفضل: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ [القصص: 78] وقد يكون الكفران بسوء استخدام النِعَم، وبالبَطَرِ والكِبْرِ على الناسِ فيها، واستخدامِها في الملذات، والشهوات، والفساد، كما هو حاصِلٌ في غالبية الناس في زماننا هٰذا.

جزاء كفران النعمة

وقد توعّد اللَّهُ من لا يَشْكرُ نِعَمَهُ بالعذاب الشديد فقال: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: 7]، والعَذابُ الشديد قد يكون بِمَحْقِ النِعمةِ عَيْناً بذهابها، أو سَحْقِ آثارِها في الشعور، فكم من نِعْمةٍ تكونُ نِعْمَةً يشقى بها صاحبها كالمال والجمال، بل وربما يَحْسُدُ الخالين منها. وقد يكون عذاباً مؤجّلاً إلى أَجَلٍ مُسَمّى في الدنيا أو الآخرة، ولكنه واقِعٌ لا مَحالَة بسبب الكفر والجحودِ لأنعُم اللَّهِ عز وجل. قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [النحل: 112].

فوائد الشكر

والشكر لا تعود عائدته على اللهِ تعالى، وإنما تعود فوائده على الإنسان الشاكِر، وكذلك الكفر، فإنما يرجع على صاحبه بالبوار والخَسارَة؛ لأن اللَّهَ غَنِيٌّ عن العالمين، لا يزيده شكر شاكر، ولا يُنْقِصُهُ كُفْرُ كافِر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ [لقمان: 12].

ولُبُّ الأمر وغايته: اعْتِرَافُ العَبْدِ بأن جميعَ النِعَمِ ابتَدأَتْ منه سبحانَهُ

وتعالى، وأنها مَحصُورَةٌ فيه، ليس لأَحَدٍ معه يَدٌ في شيءٍ منها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 53]، والاستعانَةُ به سبحانه على شكرها: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [النمل: 19].

أخرج الإمام أبو داود السجستاني في «سننه»، عن مُعاذ بن جبل ﷺ قال لي رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**يا معاذُ! واللَّهِ إني لأُحِبُّك، واللَّهِ إنّي لأُحِبُّكَ**»، فقال: «**أوصيكَ يا مُعاذُ: لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللهمَّ أعِنّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحسن عبادَتِك**».

أنواع الشكر وكَيفيَّتُه

الشكرُ يكون على أنواع ثلاثة: بالجنان، واللسان، والأركان.

أما شكر الجنان

فيكون بالاعتراف بالنِعْمَةِ باطناً للَّهِ، وعدم إضافتها لغيره، ومن ثَمَّ الثناء عليه ومحبَّتِهِ، والرضا والامتنان القلبي بما أعطاه. ومن آدابها أن يستكثر قليلها، ويعلم أنها وصلت إليه منّةً وفضلاً بغير استحقاق منه لها، فلا تزيده إلا تواضعاً وحُبّاً للمنعم وطاعة له.

وأما شكر اللسان

فيكون بحمد اللَّهِ والثناء عليه، بوصفه بالجود، والتحدّث بالنعمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 11] وأن يُرَى أثرها عليه، أخرج الترمذي: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**».

وأما شكر الجوارح

فهو الترجمة العملية لشكر اللسان والقلب، ويكون بإكرام النعمة وعدم الاستخفاف بها، واستعمالها في مرضاته وطاعته سبحانه وتعالى، فلا ينظر إلى ما حرّم الله، ويكون أيضاً بالاجتهاد بالطاعة والعبادة وذكر الله عز وجل وترك المعاصي.

الصنف الرابع من الأسماء الحسنى وهو ما يعود إلى الرحمة

مقدمة

بعد أن فرغنا من استعراض أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب الهبة والعطاء، نأتي على ذكر مجموعة أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب الرأفة والرحمة.

فالإنسانُ في جميع أطوار حياته بأشدّ الحاجة إلى مَنْ يَرْحَمُه وَيرْأفُ به، ولا يملِكُ الرحمةَ الحقيقية به في دَفْعِ الضُرِّ عنه، وجَلْبِ الخَيرُ له، وإفاضَةِ النِعَم عليه، ظاهِرها وباطِنها، جَليلها ودَقيقها، مادِّيها ومَعْنَويِّها، عاجِلها وآجِلِها إلّا خالِقُهُ، وَخالِقُ كلِّ شيءٍ في السمٰوات والأرض، وَمَن بِيَدِهِ ملكوتُهما.

من هنا جاء في المأثور من أسماء اللّٰه الحُسْنَى: (الرحمٰن، الرَّحِيم، الفَتّاحُ، اللطيف، الرؤوفُ، الودود).

29 ــ الرحمن

معنى اسم الله «الرحمٰن»

هو في اللغة العربية: صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مأْخُوذَةٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، ومعنى الرَّحْمَةِ في المَخْلُوقِ: رِقَّةٌ في القَلْبِ، ولٰكِنّ هٰذا المعنى لا يَليقُ بالخالِقِ سبحانه، وإنما المُرادُ منها بالنسبة له: الإنْعامُ، فمعنى الرَّحمٰنِ: المُنْعِمُ بجلائل النِعَم على مُسْتَحِقِّها وغير مستحقها. قال اللّٰهُ تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: 110].

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في سبعة وخمسين موضعاً في سور وآيات متفرّقة. وهناك سورة في القرآن تسمَّى: بالرحمٰن، وهي السورة الخامسة والخمسون، وهي تبدأ بهٰذا الاسم الجليل. كما ورد هٰذا الاسم في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه، وهو الاسم الثاني فيه بعد اسم الجلالة: (الله).

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: (الرحمٰن: مُشْتَقٌّ من الرَّحْمَةِ، والرَّحْمَةُ تَسْتَدْعي مَرْحُوماً، ولا مَرْحُومَ إلّا وهو مُحْتاجٌ، وهو الذي تَنْقَضِي به حاجَةُ المُحتاج من غيْرِ قَصْدٍ وإرادَةٍ وعنايةٍ، فالمُحتاجُ لا يُسَمَّى رحيماً. والذي يريد قضاءَ حَاجَةٍ ولا يَقضيها: فإن كان قادِراً على قضائها لا يسمى رَحيماً، إذْ لو تَمَّتِ الإرادَةُ لَوَفَّى بها، وإنْ كان عاجزاً، فقد يُسَمَّى رحيماً باعتبار ما اعْتَوَرَهُ مِنَ الرِقَّةِ، ولكنه ناقِصٌ. وإنما الرحْمَةُ التامَّةُ:] إفاضَةُ الخَيْر على المحتاجين، وإرادته لهُم، عِنايَةً بهم. والرَّحمَةُ العامَّةُ هي التي تَنَاوَلُ المُسْتَحِقَّ وغيرَ المُسْتَحِقِّ، ورَحمةُ اللَّهِ تامَّةٌ عامَّةٌ. أما تَمامُها، فَمِنْ حيثُ أراد قضاءَ حاجاتِ المُحتاجِينَ وقضاها. وأمَّا عُمومُها فمِنْ حيثُ شُمولُها المُسْتَحِقَّ وغَيْرَ المُسْتَحِقِّ، وعَمَّ الدنيا والآخِرَةِ، وتناوَلَ الضَّروراتِ والحاجاتِ والمَزايا الخارجية عنها، فهو الرَّحيمُ المُطلقُ حقاً.

والرحمة عند المخلوقات لا تخلو من رِقَّةٍ مُؤْلِمَةٍ تعتري الرحيمَ، فَتُحَرِّكُهُ إلى قضاءِ حاجة المَرحوم، والربُّ تعالى مُنَزَّهٌ عنها. فلعلَّكَ تَظُنّ أن ذلك نُقْصَانٌ في معنى الرَّحْمَةِ، فاعْلَمْ أنَّ ذَلِكَ كَمالٌ، وليس بنُقْصانٍ في معنى الرَّحْمَةِ. أَمَّا أنه ليس بنُقْصَانٍ، فمِنْ حيث إن كمال الرحمة بكمال ثَمَرَتِها، ومهما قُضِيتْ حاجَةُ المَحتاج بكمالها، لم يكن للمرحوم حَظٌ في تَأَلُّم الراحِم وتَفَجُّعِهِ، وإنما تأَلُّمُ الراحِمِ لِضَعْفِ نَفْسِهِ ونقصانها، ولا يزيدُ ضعفُها في غَرَضِ المحتاجِ شيئاً بعد أن قُضِيَتْ كَمالُ حاجَتِهِ.

وأما أنه كمالٌ في معنى الرَّحمَةِ، فهو أن الرَّحيمَ مِن رقةٍ وَتَأَلُّمٍ يكادُ يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ دَفْعَ الرِقَّةِ عن نفسه، فيكونُ قد نظر لنفسه، وسَعَى في غَرَضِ نَفسه، وذلك

يَنْقُصُ عن كمالِ معنى الرَّحْمَةِ. بل كمالُ الرَّحمةِ أن يكونَ نظرَ إلَى مَرْحُومٍ لأَجلِ المَرْحُومِ، لا لأَجْلِ الاسْتِرَاحَةِ من أَلَمِ الرِقَّةِ.

والرَّحمٰنُ أَخَصُّ مِنَ الرَّحيم، لذلكَ لا يُسَمَّى به غيرُ اللَّهِ، و(الرَّحِيمُ) قد يُطلقُ على غيره، فهو من هذا الوجه (أي: اسم الرحمٰن) قريبٌ من اسم (الله) الجارِي مَجْرَى العَلَم، وإن كان هٰذا مُشْتَقّاً مِنِ الرحمةِ قطعاً، ولذلك جمعَ اللَّهُ بينهما فقالَ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: 110].

فلزمَ مِن هٰذا الوجْهِ، ومِن حيثُ منعنا الترادُف في الأَسْماءِ المُحْصَاةِ، أَنْ يُفَرَّقَ بين معنى الاسمَيْن. فَبالحَرِيّ أن يكونَ المَفْهُومُ من الرحمٰنِ نوعاً مِنَ الرَّحمةِ هي أَبْعَدُ مِنْ مَقْدُوراتِ العِبادِ، وهي ما يتعلّقُ بالسعادةِ الأُخْرَوِيَّةِ، فالرحمٰنُ: هو العَطُوفُ على العِبادِ بالإيجادِ أوّلاً، وبالهداية إلى الإيمانِ وأسباب السعادة ثانياً، والإِسْعادِ في الآخِرَةِ ثالثاً، وبالإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعاً). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمامُ مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر» في تفسير الرحمٰن: (اسم مشتقٌّ من الرحْمَةِ، وهو مِن أبنية المُبالَغَةِ و(رحمٰنُ) أَبْلَغُ مِن (رحيم)، و(الرحمٰنُ) خاصٌّ لِلَّهِ، لا يُسَمَّى به غيْرُهُ، ولا يوصَفُ. و(الرَّحيمُ) يُوصَفُ به غيرُ اللَّهِ تعالى، فَيُقالُ: رَجُلٌ رحيمٌ، ولا يُقالُ: رحمٰن.

وذو الرحم والأرحامُ هم: الأقارِبُ، ويَقَعُ على كل من يجمعُ بَيْنَكَ وبينه نَسَبٌ) انتهى كلام ابن الأثير.

أثر هٰذا الاسم على العبد

حَظُّ العبد من اسم الرحمٰنِ: أَنْ يَرْحَمَ عِبادَ اللَّهِ تعالى الغافِلينَ، فَيَصْرِفَهُمْ عن طريقِ الغَفْلَةِ إلى اللَّهِ بالوَعْظِ والنُصْحِ، بطريق اللُطفِ دونَ العنْفِ، وأن يَنظُرَ إلى العُصَاةِ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ لا بِعَينِ الإيذاءِ، وأن تكون كلُّ مَعْصِيَةٍ تَجْري في العالم كَمَعْصِيَةٍ له في نَفْسِهِ، فلا يألو جُهْداً في إزالتها بقدر وُسْعه رَحْمةً لذلك العاصي

أن يَتَعَرَّضَ لِسَخَطِ اللَّهِ تعالى ويَسْتَحِقَّ البُعْدَ عن جوارِهِ.

وأيضاً، فاللَّهُ يحبُّ أن يرى الرَّحْمَة تسودُ بين عبادِهِ المؤمنين، وأن يكون المجتمع المسلمُ مُتراحِماً لا تَعَالٍ فيه، ولا تكبُّر، ولا تَجَبُّر، ولا يظلم أحدٌ أحداً، بل يحنو الغنيُّ على الفقير، والقويُّ على الضعيف، ويأخُذ كل مسلم بيد أخيه إلى الخير، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**الراحِمُونَ يرحمهم الرحمٰن تباركَ وتعالى، ارْحَمُوا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**» (أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد) وقال: «**مَن لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم**» (أخرجه أحمد).

الإسلام دين الرحْمَة

تعريفها

الرحمة صِفَةٌ كريمة، وخُلُقٌ حَسَنٌ، وعاطِفَةٌ إنسانية نبيلة، تَجْعَلُ المَرْءَ يَشْعُر مع الآخرين، ويَرِقُّ لآلآمِهم، ويَسْعَى لإزالتها، ويأسَى عليهم، فَيَتَمَنَّى لهم الهُدَى، ويَعْفُو ويَصْفَحُ عن أخطائهم وزلّاتهم.

رحمة الله تعالى

والرَحْمَةُ صِفَةٌ لِلَّهِ جلَّ وعلا، فإنَّ رَحْمَتَه شَمِلَتْ الوُجُودَ بأَسْرِهِ، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]. ولذلك يقوم الملائكة بالثناء على الله تعالى بصفة شمولية الرحمة وسَعَتِها قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: 7].

وأخرج الإمامُ البخاريُّ في «صحيحه» في كتاب الأدب، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قَدِمَ على النبي ﷺ سَبْيٌ، فإذا امرأةٌ من السَبْيِ قد تَحْلُبُ ثَدْيها تَسْقِي، إذْ وَجَدَتْ صَبِيّاً في السَبْيِ أَخَذَتْهُ فأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِها وأرضَعَتْهُ، فقالَ لنا النبي ﷺ: «**أتَرَوْنَ هٰذه طارِحَةً وَلَدَها في النار؟**» قلنا: لا، وهي تَقْدِرُ على أن لا تَطْرَحَهُ، فقال: «**اللهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هٰذهِ بِوَلَدِها**».

وكثير من أسماء الله الحسنى يتضمَّن معاني الرحمة والفضل والعفو، وقد جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب التوحيد: «**إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبي**» أي: إنَّ تَجاوُزَهُ عن خطايا البَشَرِ يَسْبِقُ اقْتِصَاصَهُ منهم، وسَخَطَه عليهم، وبذلك كان أفْضَلَ الرُحَماءِ، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 118].

رحمة النبي ﷺ

وعلى قدرِ حظ الإنسان من هذا الخُلُقِ الكريم تكون عَظَمَتُه، ومِن هنا كان الأنبياءُ أَرْحَمَ الناسِ، وكان خاتَمُهُم مُحَمَّدٌ ﷺ أَوْفَرَهم نَصيباً مِن هٰذا الخُلُقِ العالي، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: 128]. ولا شكَّ أن رحْمَتَهُ الغامِرَة هي التي جعلته يألَفُ طِباعَ الخَلْقِ، ويُقَرِّبُ بَعيدَهُمْ، ولَوْلا بَشاشَتُهُ التي لا تَنْطَفِىءُ، ورحمَتُهُ التي لا تَغيضُ، ما اسْتَطاعَ أن يُؤَلِّفَ الجُموع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، فهو عليه الصلاة والسلام أَزْكى عِبادِ اللَّهِ رَحمةً، وأَوْسَعُهم عاطِفَةً، وأرْحَبُهُم صَدْراً. أخرج الإمام الدارمي في «سننه» عنه ﷺ أنه قال: «**أنا رَحمةٌ مُهْداةٌ**».

وقد لازَمَهُ خُلُقُ الرَّحْمَةِ الرفيعُ حتى في أعصب الساعات، عندما ذهب إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الإسلام، فآذَوه حتى رَشَقُوهُ بالحجارَةِ وأدمَوْا قَدَمَيْه، فَخَيَّرَهُ اللَّهُ أن يُعاقِبَهُمْ فَيُطبِقَ عَلَيْهِم الجبالَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**بل أرجو أن يُخرِجَ اللَّهُ مِن أَصْلابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لا يُشرِكُ به شيئاً**». وأخرجه الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود قال: تكلّم رجلٌ من الأنصار كلمة فيها مَوْجِدَة على النبي ﷺ، فلم تُقِرَّني نفسي أنْ أَخبَرْتُ بها النبي ﷺ، فَلَوَدِدْتُ أني افتَدَيْتُ منها بِكلِّ أهْلٍ ومالٍ، فقال: «**قد آذَوا موسى عليه الصلاة والسلام أكثرَ من ذلك فصَبَرَ**» ثم أخبر أن نبياً كذَّبه قومُه، وشَجُّوه حين جاءَهم بأمْرِ اللَّهِ، فقال وهو يمسَحُ الدمَ عن وجهه: «**اللهمّ اغفِرْ لِقَوْمِي فإنهم لا يعلمون**».

الرحمة المطلوبة من المؤمنين

إن الرحمة التي يأمُرُ بها الإسلامُ، ليست رَحْمَةً خاصَّةً تَقْتَصِرُ على الأقاربِ والأصحابِ، ولكنها رحمةٌ عامَّةٌ تَشْمُلُ الأَباعِدَ، بل كلُّ مَن في الأرضَ، وقد أوْصَى رسولُ اللَّهِ ﷺ بها، وجعلها من كمال الإيمان، قال ﷺ: «**لَنْ تُؤمِنُوا حتى تَراحَمُوا**» قالوا: يا رسولَ اللَّهِ! كُلّنا رحيم، قال: «**إنه لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُم صَاحِبَهُ، ولكنّها رَحْمَةُ الناسِ، رَحْمَةُ العامَّة**» (أخرجه الحاكم في المستدرك والطبراني عن أبي موسى).

فالمؤمن يلقى الناسَ جميعاً وفي قَلْبه لهم عَطْفٌ وبرٌّ، ورَحْمَةٌ وحَنانٌ، فهو يوسِّعُ لهم، ويُخفِّفُ عنهم جهد ما يستطيع، ولا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلّا مِنْ شَقِيٍّ مَقْطُوعِ الصِلَةِ باللَّهِ، وأَبْعَدُ القلوبِ مِن اللَّهِ القَلْبُ القاسِي، ولذلك حذَّرَ الإسلامُ مِن القَسْوَةِ، واعتبرها سِرَّ الشُّرودِ عن أمرِ اللَّهِ وصِراطِهِ المُسْتَقيم، قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: 16].

وقد وردت أحاديثُ كثيرة تحثُّ على الرحمة العامَّة، فمن ذلك ما أخرجه البخاريّ، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَاسَ**». وأخرج أبو داود السجستاني في «سننه» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الراحِمُونَ يَرْحَمَهُمُ الرحمٰنُ، ارحموا أَهلَ الأرضِ يَرْحَمُكم من في السماء**».

إلى مَن تتوجه الرحمة؟

وأولى الناس بالرحمة هم ذَوُو رَحِم الإنسان، أخرج الترمذي في سننه: «**الرحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحمٰنِ، فَمَنْ وَصَلَها وَصَلَهُ اللَّهُ، ومَن قَطَعَها قطعه اللَّهُ**».
وأَحَقُّهم بِبِرِّه منهم أَمَنُّهم عليه وأولاهم به، وهم والداه، قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: 24] ثم أولادُه، وممّن تجب الرحمة بهم الأيتام والأرامِل، فَهُم بحاجَةٍ إلى يَدٍ رَحِيمةٍ تَمْسَحُ

آلامَهم وتُواسِي جِراحَهُم، وكذلك المَرْضَى وأصحابُ العاهات الذين هم في حاجَةٍ إلى الرفقِ والرعايَةِ، لم يَنْسَهُم الإسلامُ مِن رحمته، ومِن الرحْمَةِ: الرِفْقُ بالحيوان، والإحسانُ إليه، ونهى عن إرهاقه بالعمل وإجاعته، وحَذَّر من قَتْلِهِ عبثاً واتِخاذه هَدَفاً للرمْي، وحذّر من فجع الطيور بأولادها، ومن حرق الحيوان ووسْمه، وكان مِن مظاهر الرفق والرحمة عند المسلمين أن أقاموا أوقافاً خيرية لإطعام الجائعين، وكَسْوَةِ العُراة، وإيواء الغرباء وعلاج المرضى، وكفالة الأيتام.

30 ــ الرحيم

معناه: الرحيم مأخوذ من الرحمة أيضاً كالرحمٰن، والرحمٰن أَخَصُّ من الرحيم، والمُراد من الرَّحيم: المُنْعِمُ بدقائِقِ النِعَم وصِغَارِهَا، على مستحقّها وغير مستحقّها، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: 163].

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في مائة وخمسة عشر موضعاً، وورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في معناه

يقولُ الإمام الغزاليُّ في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى» في شرح هٰذا الاسم: (الرَّحمٰن أخصُّ من الرَحيم، ولذلك لا يُسمَّى بالرحمٰن غيرُ اللَّهِ تعالى، والرحيمُ قد يُطلَقُ على غيره، وحَظّ العبد من اسم الله الرحيم: أن لا يَدَعَ فاقَةً لمُحتاجٍ إلّا يَسُدُّها بقَدْرِ طاقَتِهِ، ولا يَتْرُكُ فقيراً في جواره وبلده إلّا ويَقومُ بتعهّده، ودفعِ فَقْرِهِ، إما بمالِهِ أو جاهه، أو السَعْي في حَقّهِ بالشفَاعَةِ إلى غيره، فإن عجزَ عن جميع ذلك، فيُعينُهُ بالدُعَاء، وإظهارِ الحُزْنِ لَسَبِبِ حاجَتِهِ رِقَّةً عليه وعَطْفاً، حتّى كأنه مُساهِمٌ له في ضُرِّه وحاجته.

امتحان الرحيم عباده

ولعلك تقولُ: ما معنى كونه تعالى رحيماً، وكونه تعالى أرحمَ الراحمين، والرحيمُ لا يَرَى مُبْتَلى ولا مَضْرُوراً ولا مُعَذَّباً ومَريضاً، وهو يقدر على إماطَةِ ما

بهم إلا ويُبادِرُ إلى إماطَتِهِ، والربُّ تعالى قادِرٌ على كفايَةِ كُلِّ بَلِيَّةٍ، ودَفْعِ كُلِّ فَقْرٍ، وإماطَةِ كلِّ مَرَضٍ، وإزالَةِ كلِّ ضَرَرٍ، والدُنيا طافِحَةٌ بالأمراض والمِحَنِ والبلايا، وهو قادِرٌ على إزالتها جميعها، وتارِكٌ عِبادَه مُمْتَحَنِينَ بالرَّزايا والمِحَنِ؟

فجوابكَ أن الطِفْلَ الصَغِيرَ، قد تَرِقُّ لَهُ أُمُّهُ فتمنَعَهُ من العملية الجراحية، والأبُ العاقِلُ يَحمِلُهُ عليها قَهْراً، والجاهِلُ يَظُنّ أنَّ الرَّحِيمَ هي الأمُّ دُونَ الأب، والعاقِلُ يَعْلَمُ أن إيلامَ الأب إياه بالعملية من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقته، وأن الألَمَ القليل، إذا كان سبباً لِلَّذَّة الكثيرة لم يكن شَرّاً، بل كان خيراً.

والرَّحِيمُ يُريدُ الخيرَ للمرحوم لا مَحالَة، وليس في الوجودِ شَرٌّ إلّا وفي ضمنِهِ خَيْرٌ، ولو رُفِعَ ذلكَ الشَرُّ لبَطُلَ الخَيْرُ الذي في ضمنه، وحصل بِبُطْلانِهِ شَرٌّ أعْظَم من الشَّرِّ الذي يَتَضَمَّنُهُ، فاليَدُ المتآكِلَةُ قَطْعُها شَرٌّ في الظَاهر، وفي ضمنها خَيْرٌ جَزِيلٌ، وهو سَلامَةُ البَدَن، ولو تُرِكَ قطعُ اليَدِ لَحَصَلَ هلاكُ البَدَن، ولكان الشّرُّ أَعْظَمُ، وقَطْعُ اليَدِ لأَجْلِ سَلامَةِ البَدَن شَرٌّ في ضِمْنِهِ خَيْرٌ. ولكن المرادَ الأولَ السابقَ إلى نظر القاطع السلامَة التي هي خيرٌ محضٌ، ثم لما كان السبيلُ قطع اليَدِ لأَجْلِهِ، وكانتِ السلامَةُ مطلوبَةً لذاتِها أوّلاً، والقطعُ مَطلوباً لِغَيْرِهِ ثانياً لا لِذاته، فهما داخلان تحت الإرادة. ولكن أحدَهما مُرادٌ لذاتِه، والآخَرُ مُرادٌ لغيره، والمُرادُ لِذاتِهِ قَبْلَ المُرادِ لغيره، ولأَجْلِهِ قال تعالى في الحديث القُدْسي الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «**رَحمَتِي سَبقَتْ غَضبي**»، فَغَضَبُهُ إرادَتُه للشرِّ، والشَرُّ بإرادته، وَرَحْمتُهُ إرادَتُه للخَيْرِ، والخيرُ بإرادته، ولكن أرادَ الخَيْرَ للخَيْرِ نفسِهِ، وأرادَ الشَّرَّ لا لذاته، ولكن لِمَا في ضِمْنِهِ من الخير، والخَيْرُ مُقْتَضىً بالذات، والشَّرُّ مُقْتَضًى لِغَيْرِهِ، وكُلٌّ مُقَدَّرٌ، وليس في ذلك ما يُنافي الرحمةَ أصلاً.

فالآن إن خَطَر لك نَوْعٌ منَ الشَّرِّ لا ترى تحتَه خيراً، أو خَطَرَ لكَ أنّه كان تَحصيلُ ذلك الخَيرِ مُمْكِناً لا في ضِمْنِ الشَّرِّ، فاتَّهِم عَقْلَكَ القاصِرَ في أحَدِ الخاطِرَيْنِ:

أما في قولك: إن هٰذا الشَرِّ لا خَيْرَ تَحْتَهُ، فإنّ هٰذا مما تَقْصُرُ العُقُولُ عن مَعْرِفَتِهِ، ولَعَلَّكَ فيه مِثْلُ الصَبِيِّ الذي يرى العَمَلِيَّةِ الجراحية شَرّاً مَحْضاً، أو مِثْلَ

الغَبيِّ الذي يَرَى القَتْلَ قِصاصاً شرّاً محضاً؛ لأنه يَنْظُرُ إلى خُصوص المَقْتُولِ؛ لأنه في حَقِّه شَرٌّ مَحْضٌ، ويَذْهَلُ عَنِ الخَيْرِ العام الحاصِلِ للناسِ كافَّةً، ولا يَدْرِي أنَّ التوصُّلَ بالشَّرِّ الخاصّ إلى الخَيْرِ العام خَيْرٌ مَحْضٌ، ولا ينبغي للخير أن يُهْمِلَهُ.

أوْ اتَّهِمْ عَقلَكَ في الخاطِرِ الثاني: وهو قولُكَ إنَّ تَحصيلَ ذلك لا في ضمن ذلك الشرِّ مُمكِنٌ؛ فإنّ هٰذا أيضاً دقيقٌ غامِضٌ، فَلَيْسَ كلُّ مُحالٍ وممكن ممّا يُدرَكُ إمكانُه واسْتِحَالَتُه بالبَديهَةِ، ولا بالنَّظرِ القَريبِ، بل عُرِفَ ذلك بنظرٍ غامضٍ دَقيقٍ يَقْصُر عنه الأكثرون.

فاتَّهِم عَقْلَكَ في هٰذين الطَرَفَيْن، ولا تَشُكَّنَّ أَصْلاً في أَنَّه أرحمُ الراحمينَ، وأَنَّهُ سَبَقَتْ رحْمَتُه غَضَبَهُ، ولا تَسْتَرِب في أنّ مُريدَ الشّرِّ للشَّرِّ لا للخَيْر غَيْرَ مُسْتَحِقّ لاسْمِ الرَحْمَةِ). انتهى كلام الغزالي.

الفرق بين الرحمٰن والرحيم

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: الرحمٰن الرحيم: اسمان مشتقان من الرحمة عَلَى وجه المبالغة، (ورحمان) أشدّ مبالغة من (رحيم)، وفي الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال: (الرحمٰن) رَحمٰن الدنيا والآخرة، و(الرحيم) رحيم الآخرة. وقال أبو علي الفارسي: الرحمٰن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختصُّ به اللَّهُ تعالى، والرحيمُ إنما هو مِن جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: 43] وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخَر، أي أكثر رحمة. وقال الخطّابي: الرحيم لعلّه أرفق، كما في الحديث: «**إن الله رفيق يحبّ الرفْقَ في الأمر كلّه، وإنه يُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف**» (أخرجه البخاري). وقال ابن المبارك: الرحمٰن إذا سُئِلَ أَعْطَى، والرَحيمُ: إذا لم يُسْأَل يغضب، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي في رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن لم يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عليه**» وقال الشاعر يَعِظُ ابنَه:

لا تسألنّ بنيّ آدم حاجةً ... وسَلِ الذي أرزاقه لا تَنضَبُ

اللّٰهُ يغضبُ إن تركتَ سؤالَه وترى ابنَ آدم حين يُسْأل يغضب

بين الرحمةِ والشِدَّةُ

مُقدَّمَة

إن الإسلامَ دينُ اللّٰهِ، وهو يدعو إلى الرحمة والصَفْح والعَفْوِ، ولكنه لا يُريدُ أن تكونَ هٰذه الرحمةُ مَرْتعاً للمُفْسِدينَ والمجرمين والظالمين، يَسْرَحُونَ ويمرحون في رحابها، ولا يسمحُ أن يَكون العَفْوُ ضَعْفاً يَسْتَغِلُّه أعداءُ الإسلام فيطمعون فيه وفي أهله، أو حِصْناً يستغِلُّه المجرمون والمفسدون يحميهم مِن حُكم العدالة فيهم، وهؤلاء يكون من رعاية المصلحة العامَّة أن يُحْجَزُوا عن الظلم والفساد، وأن يُعامَلوا المعاملة المناسِبَةَ لهم من الشِدَّة حتى لا يَتمادَوا في غَيِّهم وإفسادِهم، فإن لكل مَقامٍ مقالٌ.

مواضعُ الرحمة ومواضع الشِدَّة

واللّٰهُ ﷻ بَيّن للمؤمنين مَواضِعَ الرحمة ومواضع الشِدَّة فقال في محكم كتابه المُبين: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٢٨ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ۝٢٩﴾ [الفتح: 28، 29].

ومعنى هٰذه الآيات: أن اللّٰهَ أرسلَ رسولَهُ محمداً ﷺ خاتَم النَبِّيين بدِين الإسلام الناسِخ لجميعِ الشرائِع قَبله، وأنزل عليه خاتم كتبه: القرآنَ الكَريم، وتَكَفَّلَ بحفظه من التحريف والتَبديل والتلاعُب من البَشَر بالزِيادة أو النقصان إلى آخر الزمان، وأراد أن يكونَ الإسلامُ هو الدينُ العالَمِيُّ الذي يَسُودُ البشريةَ، لأنه دينُ اللّٰهِ وليس فِكرَةً قوميةً أو عصبيَّة أو مِن صُنْع البشر كالرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والديموقراطية، ولا يدعو لتغليب فئة على فئة، وليس له هدفٌ في

إخضاع الشعوب لنزواتِ أحد أو مَطامِع أَحَد، وإنما هو دَعْوَةٌ إلى عبادة الله ولمساواة العِبادِ جميعاً، فالكل لآدمَ وآدمُ مِن ترابٍ، وتفاضلهم إنما يكون بالتقوى، ولا فضل فيه لعربي على أعجمي، لجنس، أو عِرْقٍ، أو قومية، أو لَوْنٍ، أو غني، أو فقير، كما هو شائِعٌ اليوم في العالَم، فالكلُّ عِبادُ اللّه مُتَساوون، وما داموا قد آمَنوا، فهم في شَرْعِهِ كأسنان المِشْطِ الواحِدِ، أُمَّةٌ واحِدَةٌ متماسِكَةٌ مترابِطَةٌ، فالإسلامُ يَسْعَى لِيَسُودَ جميعَ بلادِ العالَم؛ لأنه دينُ اللّهِ الذي ارتضاه لعباده، ويأمُرُ أهْلَه أن يُجاهِدُوا من أجله وليُوصلوا هٰذه الدعوة إلى جميع شعوب الأرض دونما توقُّف، وإذا وَقَفَتْ في وجهه أية قُوَّة أرضيَّة بشرية تمنع وصوله إلى سائر البشر وجب إزالَتُها، وعلى هٰذا بعث اللّهُ رسولَهُ محمداً ﷺ، وكفى بشهادة اللّهِ له أنه رسولُه، فلا يضره تكذيبُ جاحد أو شاكٍ أو مُرْتَاب في نُبُوَّته ورسالته إلى جميع الخلق، وكَفى بتصديق اللّهِ له أنَّه رسولُه بقوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهو أصْدَقُ القائلين، ثمَّ أثنى عليه وعلى أصحابه الذين آمنوا به واتّبَعُوه ونصروا دينه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾. فهٰذه ينبغي أن تكون صِفاتُ المُؤمنين، لا كما نُشاهِدُه اليوم مِمَّن يَدَّعونَ الإسلام زوراً وبُهتاناً، فيُوالُون أعداءَ اللّهِ والدين، وينتمون لمحافلهم، ويَتَلَقَّوْنَ منهم التعليمات والأوامر بحرب المسلمين ومكافحتهم، بِحُجَجِ مكافحة الإرهاب، وفرض الأمن العالمي، ويصوِّرون لهم أن المسلمين وحدهم هم الخطرُ الوحيد في العالم على الأمن العالمي، وسلامة الناس، ويرتكبون المجازر، ويفتعلون التفجيرات التي تقتل الأبرياء، ثم يُلصِقون ذلك كُلِّه بالمسلمين، لِيَسْتَعْدُوا عليهم الرأي العام العالمي، ويُبَرِّروا حَرْبَهُم على اللّهِ ورسوله ودينه والمؤمنين، فينقلون على شاشات التلفزيون يومياً أخباراً من هٰذا النوع.

ولئن كانت هٰذه الأمور ظاهِرَةً لبعض المسلمين، فإنها خافية على السواد الأعظم منهم، ذلك أن معظم وسائِلَ الإعلام العالمية تديرها شركات يهودية معادية للمسلمين، تعمل جاهدة يومياً على تشويه صورة الإسلام، بنشر الكتب والأخبار والدعايات، والمجلات، وجميع ما أوتوا من طاقات، وليس للمسلمين مقابل ذلك وسيلة إعلامية واحِدَة تجلّي الحقائق، وتبيّن الأمور الصحيحة من الكاذبة.

وهكذا فإن أعداء الإسلام يحاربونه بواسطة بعض أهله الذين انسلخوا من دينهم وجعلوا وَلاءهُم لأعداء اللّه، وانتموا لأحزابهم ومؤسساتهم وجمعياتهم ومحافلهم وأسّسوا في بلاد المسلمين جيوشاً أمنيّة، متعدّدة الأشكال والتدريبات، السريَّة والعلنية، ليس هدفها الدفاع عن الأوطان ضد العدو المحتل الغاشم، وإنما قمع الشعوب المسلمة التي تعادي واتهامها بالإرهاب وإثارة الفوضى والإخلال بالأمن.

وهٰذا خلاف ما أراده الله مِن عباده المؤمنين، فهو يدعو المسلمين إلى التراحم فيما بينهم، واستخدام الشِدَّة والغِلظة على الكافرين، وإن لم يكونوا كذلك استبدلهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: 54]. فهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدُهم شديداً على الكفار، رحيماً بَرّاً بالأخيار، غضوباً عَبُوساً في وجه الكافر، ضَحُوكاً بَشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: 123] وقال ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنين في توادّهِم وتراحُمِهم كَمثل الجَسَدِ الواحِد إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعَى له سائر الجَسَدِ بالحُمَّى وَالسَهَرِ**» (أخرجه الإمام مسلم) وقال ﷺ: «**المؤمِنُ للمؤمن كالبُنْيَان يَشدُّ بعضُه بعضاً**» (أخرجه البخاري).

31 ــ الفَتَّاح

معناه: صيغة الفتاح: مبالغة للفاتح، ومعناه: الذي يفتح خزائن رحمته للناس فيفتح لهم برحمته أبواب النصر، ومنه قوله تعالى في سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ وهو ما فتح اللّهُ على رسوله بالنصر على أعدائه، كما فتح له أبواب الأرض، ويفتح لهم برحمته أبواب المعارف والعلوم النافعة، كما يفتح لهم أبواب كُلِّ خَير، قال الله تعالى في سورة فاطر: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2]. ويفتح لهم رَحمته بالحكم بالحقّ، ومنه قوله تعالى حكاية لقولِ شعيب عليه السلام

والذين آمَنُوا معه في سورة الأعراف: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]. أي: احكم بيننا وبينهم بالحق. وقد جاء في القرآن الكريم اسم الله الفتّاح في موضع واحد، قال الله تعالى في سورة سبإ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾، كما جاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يَقول حجّة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» في شرح هٰذا الاسم: (الفتاح: هو الذي بعنايته يَنفَتِحُ كل مُنْغَلِقٍ، وبهدايته ينكشف كل مُشْكِلٍ، فَتارَةً يَفْتَحُ الممالِكَ لأَنْبيائه، ويُخرجُها مِنْ أيدي أعدائه، يقول تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: 1، 2].

وتارة يرفَعُ الحِجابَ عن قُلوب أوليائه، ويَفْتَحُ لهمُ الأبوابَ إلى ملكوت سَمائِهِ وجمال كِبْريائه، يقولُ تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ومن بيده مفاتيحُ الغَيْب ومَفاتيحُ الرِزْقِ فبالحَرِيّ أنْ يكونَ فَتّاحاً.

ينبغي أن يتعطّشَ العَبْدُ إلى أن يَصيرَ بحيث يَنْفَتِح بلسانه مغاليقُ المُشكلات الإلٰهيَّة، وأن يتيسَّر بمعرفته ما تعسَّر على الخلق من الأمور الدينيّة والدنيوية، ليكون له حظٌّ من اسم الفَتّاحِ). انتهى كلام الغزالي.

ويَقولُ الإمام أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في شرح هٰذا الاسم: (في أسماء الله تعالى: الفَتّاحُ، هو الذي يفتح أبوابَ الرِزْقِ والرحْمَةِ لعبادِهِ، وقيل: معناهُ: الحاكِم بينهم، يُقال: فتح الحاكِمُ بين الخَصْمَيْن إذا فَصَلَ بينهما، والفاتِحُ: الحاكِمُ، والفَتّاح: مِن أبنية المبالَغة.

معناه في السنة

وفيه الحديث ـ الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن

عمرو بن العاصِ، قال: خرج علينا رسولُ اللّهِ ﷺ يوماً كالمُوَدِّعِ فقال: «**أنا محمد النبي الأُمِّيّ**» ـ قاله ثلاثَ مرّات «**ولا نبيَّ بَعْدِي، أُوتيتُ فَواتِحَ الكَلِمِ وخواتِمَهُ وجوامِعَهُ، وعَلِمْتُ كم خَزَنَةُ النارِ وَحَمَلَةُ العَرْشِ، وتُجُوِّزَ بي، وعُوفيتُ، وعُوفِيَتْ أُمَّتِي، فاسْمَعوا وأطيعوا ما دُمْتُ فيكم، فإذا ذُهِبَ بي، فعليكم بكتاب اللّهِ، أَحِلُّوا حَلالَه وحَرِّمُوا حَرَامَهُ**» ومعنى قوله: «**أُوتيتُ فواتِحَ الكَلِمِ وخواتِمَهُ**»: أي: أُعْطيتُ ما يَليقُ به ابتِداءَ الكلام وخَتْمَهُ مِنَ الحَمْدِ والثناء ونحوهما، ومعنى قوله: «**وجَوامِعَهُ**» أي: ما هو أجْمَعُ للمعاني، وقال ابنُ الأثير: يعني: القُرآنَ، جَمَعَ اللّهُ بلُطفِهِ في الألفاظ اليَسِيرَةِ منه معاني كثيرة، واحدها جامِعَةٌ، أي: كَلِمَةٌ جامِعَةٌ.

وفي الحديث الذي أخرجه الإمامُ مُسْلِمٌ في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال رسولُ اللّهِ ﷺ: قال: «**بُعِثْتُ بجوامع الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُعْب، وبَيْنا أنا نائِمٌ أُتيتُ بِمَفاتيح خَزائِنَ الأَرْضِ فوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ**» أراد: ما سَهَّلَ اللّهُ له ولأُمَّتِهِ مِن افتتاح البلاد المُتَعذِّرات، واستخراج الكُنوز الممتنعات.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: 2].

يُخبرُ اللّهُ تعالى عبادَهُ أنّه ما شاءَ كانَ، وما لم يَشَأ لم يَكُنْ، وأنه لا مانِعَ لِما أَعْطَى، ولا مُعْطِيَ لِما مَنَعَ، أخرج الشيخان والإمامُ أحمد في مسنده، عن وَرّاد مولى المغيرة بن شعبة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يَقولُ إذا انصرف من الصَّلاةِ: «**لا إلٰه إلّا اللّهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، له المُلكُ ولهُ الحمدُ وهو على كلّ شيء قديرٌ، اللهمَّ لا مانِعَ لِما أعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**»، وسمعتُهُ يَنْهَى عن قِيلٍ وقالَ، وكَثْرَةِ السُؤالِ، وإضاعَةِ المالِ، وعن وَأدِ البَناتِ، وعُقوقِ الأُمّهات ومَنعٍ وهاتِ. وهٰذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس: 107] ولها نظائرُ كثيرة، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ

يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾﴾. يُنَبِّهُ سبحانَه وتعالى عبادَهُ ويُرشِدُهم إلى الاسْتِدْلالِ على توحيده في إفرادِ العِبادَة له، كما أنّه المُسْتَقِلُّ بالخَلْقِ والرِزقِ، فكذلكَ فَلْيُفْرَدْ بالعِبادَةِ ولا يُشْرَك به غَيْرُهُ مِن الآلهة والأنداد، ولهٰذا قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: فكيف تؤفكون بعد هٰذا البيان، وَوُضوحِ هٰذا البُرهان، وأنتمُ بَعْدَ هٰذا تَعْبُدونَ الأنداد والأوثان؟.

حَظّ العَبْدِ من هٰذا الاسم

إذا عَلِمَ العَبْدُ أن مفاتيح خزائن السمٰوات والأرض بيد اللّهِ وحده لا شريكَ له، التجأ إليه وحده، وطلب منه الرزق والفتح، ولم يلتجىء لسواه ولم يطرق أبواب غيره من المخلوقين الضعفاء العاجزين.

32 ـــ اللطيف

معناه: أي خالق اللُّطفِ بعباده، وهو الرِفْقُ، فهو سبحانه يَلْطُفُ بهم من حيث لا يشعرون، ويَرْفُقُ بهم فيما تجري بِه المقادير. قال الله تعالى حكايةً عن قول سيدنا يوسف ﷺ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100].

وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في سبعة مواضع من القرآن الكريم، وورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللّهِ الحُسْنَى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِدُ الأسنى في شرح أسماءِ اللّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: (اللطيفُ: إنما يستحقّ هٰذا الاسمَ مَن يَعْلَمُ دقائق المَصالِح وغَوامِضَها، وما دَقَّ منها وما لَطُفَ، ثم يَسْلُكُ في إيصالها إلى المُسْتَحِقّ سَبيلَ الرِفْقِ دُونَ العُنْف.

فإذا اجتمع الرِفْقُ في الفِعْلِ، واللُطْفِ في العلم، تَمَّ مَعْنَى اللُّطْفِ. ولا يُتَصَوَّرُ كمال ذلك في العِلم والفِعْل إلّا لِلّهِ تعالى.

فأمَّا إحاطتُهُ بالدقائِق والخَفايا، فلا يمكنُ تفصيلُ ذلك، بل الخَفِيُّ مَكْشُوفٌ في علمه، كالجَلِيّ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ.

وأما رِفْقُهُ في الأفعالِ ولُطْفُهُ فيها، فلا يدخُلُ أيضاً تَحْتَ الحَصْرِ، إذْ لا يَعرفُ اللُطفَ في الفِعْلِ إلّا مَنْ عَرَفَ تفاصيل أفعاله، وعَرَفَ دقائِقَ الرِفقَ فيها، وبقَدْرِ اتِّسَاعِ المَعْرِفَةِ فيها تَتَّسِعُ المَعْرِفَةُ بمعنى اسْم اللَّطيفِ. وشَرْحُ ذلك يستَدعي تطويلاً، ثم لا يُتَصَوَّرُ أن يفي بِعُشْرِهِ عَشْرُ مُجَلَّدَاتٍ كبيرة، وإنما يمكن التنبيه على بعض جُمَلِهِ.

فَمِنْ لُطْفِهِ خَلْقُ الجَنينِ في بطَن الأُمِّ في ظُلُماتٍ ثلاث، وحِفْظُه فيها، وتَغْذِيَتُه بواسِطَةُ السُرَّةِ إلى أن يَنْفَصِلَ فَيَسْتَقِلَّ بالتناوُلِ بالفَم، ثمَّ إلهامُه إيَّاهُ عِنْدَ الانْفِصَالِ التِقَامَ الثَدْي وامْتِصَاصَهُ، ولو في ظلام الليلِ مِن غير تعليمٍ ومشاهدة، بل فَلقَ البَيْضَةَ عن الفَرْخِ وقد أَلْهَمَهُ التقاطَ الحَبِّ في الحال.

ثم تأخِيرُ السِنّ عن أَوَّلِ الخِلقَةِ إلى وَقْتِ الحاجَةِ للاستغنَاءِ في الاغْتِذاءِ باللَبَنِ عن السنّ، ثم إنْباتُهُ السِنَّ بعد ذلك عند الحاجَةِ إلى طَحْنِ الطعام، ثم تَقْسِيمُ الأَسْنانِ إلى عَريضَةٍ لِلطَحْن والكسر، وإلى أنيابٍ لتمزيق اللحم، وإلى ثنايا حادَّةِ الأطرافِ للقَطْعِ، ثم اسْتِعْمالُ اللسانِ ـ الذي الغَرَضُ الأَظْهَرُ منه النُطْقُ ـ في ردِّ الطعام إلى المِطْحَنِ كالمِجْرَفَةِ.

ولو ذكرنا لُطْفَهُ في تَيْسِيرِ لُقْمَةٍ يتناوَلُها العَبْدُ مِنْ غير كُلْفَةٍ يَتَجشَّمُها، وقد تعاوَنَ على إصلاحها خَلْقٌ لا يُحْصَى عَدَدُهم؛ مِنْ مُصلِح الأرضِ، وزارِعِها، وساقِيها وحاصِدِها، ومُنَقِّيها، وطاحنها، وعاجِنِها، وخابِزِها، إلى غيرِ ذلك لكان لا يُسْتَوْفَى شرحُه.

وعلى الجملة فهو مِن حيث دَبَّرَ الأُمُورَ حَكَمٌ. ومِن حَيث أَوْجَدَهَا: جَوَادٌ، ومِن حَيْثُ رتَّبَها: مُصَوِّرٌ، ومِنْ حَيْثُ وَضَعَ كلَّ شيء في مَوْضِعِهِ: عَدْلٌ، ومن حيثُ لم يترك فيها دقائِقَ وُجُوهِ الرِفْقِ: لَطيفٌ، ولن يَعرِفَ حقيقةَ هٰذه الأسامي، مَن لم يَعْرِفْ حقيقةَ هذه الأفعالِ.

ومِن لُطْفِهِ بعباده أنه أعطاهُم فوق الكفايَةِ، وكَلَّفُهم دُونَ الطاقَةِ.

ومن لُطْفِهِ أنه يَسَّرَ لهم الوُصُولَ إلى سَعَادَةِ الأَبَدِ بِسَعْيٍ خفيفٍ في مُدَّةٍ قصيرةٍ وهي: العُمُرُ، فإنَّه لا نِسْبَةَ لها بالإضافَةِ إلى الأَبَدِ.

ومن لُطْفِهِ إخراجُ اللَبَنِ الصَافِي مِن بَيْنِ الفَرْثِ والدَم، وإخراجُ الجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ مِنَ الأَحجار الصَّلْبَةِ، وإخراج العَسَلِ مِن النَحْلِ، والحرير من الدُودِ، والدُّرِّ مِنَ الصَدَفِ، وأَعْجَبُ من ذلك كلِّه خَلْقُهُ الإنسانَ مِنَ النُطْفَةِ القَذِرَةِ وَجَعْلُهُ مُسْتَوْدَعاً لِمَعْرِفَتِهِ، وحاملاً لأمانته، ومُشاهِداً لِمَلَكوت سماواته، وهٰذا أيضاً رِفْقٌ لا يُمْكِنُ إحْصَاؤه.

حَظُّ العَبْدِ مِن هٰذا الاسم

حَظُّ العَبْدِ مِن هٰذا الوصف: الرِفْقُ بِعِبادِ اللّهِ تعالى، والتَلَطُّفُ بهم في الدَعْوَةِ إلى اللّهِ، والهِدَايَةِ إلى سَعادَةِ الآخِرَةِ من غيرِ ازْدِراءٍ وعُنْفٍ، ومِن غير خِصَامٍ وتَعَصُّبٍ. وأَحْسَنُ وُجوهِ اللُّطْفِ فيه الجَذْبُ إلى قبول الحق بالشمائل والسِيَرَةِ المرْضِيَّةِ، والأعمالِ الصالحة، فإنها أَوْقَعُ وأَلْطَفُ من الأَلْفَاظِ المُزَيَّنَةِ) انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (اللطيفُ في أسماء الله تعالى: هو الذي اجْتَمَعَ له الرِفْقُ في الفِعْل، والعِلْمُ بِدَقائِقِ المَصَالِحِ، وإيصالُها إلى مَن قَدَّرَهَا لَهُ مِن خَلْقِهِ، يُقالُ: لَطَفَ به، ولَهُ - بالفتح - يَلْطُفُ لُطفاً: إذا رَفَقَ به، فأمَّا لَطُفَ - بالضمّ - يَلْطُفُ فمعناهُ: صَغُرَ وَدَقَّ، وفي حديث الإفكِ الذي أخرجَهُ البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات عن السيدة عائشةَ أمِّ المؤمنين: «ولا أَرَى مِنْهُ اللُّطفَ الذي كُنْتُ أَعْرِفُه» أي: الرِّفقُ والبرُّ.

33 ـ الرؤوف

معناه

مأخوذ من الرَّأْفة، وهي شِدَّةُ الرَّحْمَةِ، فالمُرادُ مِن الرّؤوفِ: أنه سبحانَه هو المُنْعِمُ بجَلَائِلِ النِعَمِ ودقائقها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ

﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 2/ 143]. وقد وَرَدَ في القرآن الكريم في أَحَدَ عَشر مَوْضِعاً، لكنّه في مَوْضِعٍ واحِدٍ جاءَ صِفَةً للنبي محمد ﷺ، وهو قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: 9/ 128]. كما وَرَدَ اسمُ الله الرؤوفُ في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى، الذي أخرجه الترمذي وابن ماجَه.

أقوال اللغويين في تفسيره

قال الفرَّاء: الرَّأْفَةُ: الرَّحْمَةُ، وقال الزجّاجُ: مَعْنَى ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي: لا تَرْحَمُوهُما، فَتُسْقِطُوا عنهما ما أَمَرَ اللَّهُ به مِنَ الحَدِّ. وقال الأزهري: ومِن صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ: الرَّؤوفُ، وهو: الرَّحيمُ، والرَّأْفَةُ أَخصُّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَأَرَقُّ. وفيه لُغَتانِ قُرِىء بهما معاً: رَؤُوفٌ على وزن (فَعُول)، ورَؤُفٌ على وزن (فَعُلَ)، وقد رَأَفَ يَرْأَفُ إذا رَحِمَ. وقال أبو زيد: يُقالُ: رَؤُفْتُ بالرجُلِ أَرْؤُفُ به، ورَأَفْتُ أَرْأَفُ به، كُلٌّ مِنْ كَلَامِ العرب. وقال أبو بكر ابن الأنباري: ويُقال: رَأْفٌ ـ بسكون الهمزة ـ وأنشد:

فَآمِنُوا بِنَبِيٍّ لا أَباً لَكُمُ ... ذِي خاتَمٍ صَاغَهُ الرَّحمٰنُ مَخْتُومُ
رَأْفٌ رَحِيمٌ بِأَهْلِ البِرِّ يَرْحَمُهُمْ ... مُقَرَّبٌ عِنْدَ ذي الكُرْسِيّ مَرْحُومٌ

أقوال العلماء في تفسيره

قال حجّةُ الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه: «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى» في تفسير هٰذا الاسم: (الرؤوفُ: ذو الرَّأْفَةِ، والرَّأْفَةُ: شِدَّةُ الرَّحْمَةِ، فهو بمعنى: الرَّحيمِ مع المبالَغَةِ).

وقال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر» في تفسير هذا الاسم: (الرؤوف في أسماء الله تعالى: هو الرحيم بعباده، العَطُوفُ عليهم بأَلْطافِهِ، والرَّأْفَةُ أَرَقُّ مِنَ الرَّحْمَةِ، ولا تكادُ تَقَعُ في الكَراهَةِ، والرحمةُ قَدْ تَقَعُ في الكَراهَةِ للمَصْلَحَةِ، وقد رَأَفْتُ به أَرْأَفُ، ورَؤُفْتُ أَرْؤُفُ، فأنا رَؤُوفٌ).

أقوال المفسّرين في تفسيره

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: 29، 30].

يُخْبِرُ تبارَكَ وتعالى عِبادَهُ أنه يَعْلَمُ السرائِرَ والضمائِرَ والظواهِرَ، وأنه لا يَخْفَى عليه منهم خافِيَةٌ، بل عِلمُهُ مُحيطٌ بهم في سائر الأحوال، والأزمانِ، والأيّام، واللحظات، وجميعِ الأوقات، وجميعُ ما في الأرض والسمٰوات، لا يغيبُ عنه مِثقالُ ذَرّةٍ ولا أَصْغَرُ مِنْ ذلك في جميع أَقْطارِ الأرضِ والبحارِ والجبال.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وقُدْرَتُهُ نافِذَةٌ في جميع ذلك، وهٰذا تنبيهٌ منه لِعبادِهِ على خَوْفِهِ وخَشْيَتِهِ لِئَلّا يرتكِبُوا ما نَهى عنه، وما يُبْغِضُهُ منهم، فإنه عالم بجميع أُمُورِهم، وهو قادِرٌ على معالجتهم بالعُقوبَةِ، وإن أَنْظَر ـ أي: أَخَّر وأَجَّلَ وأَمْهَلَ ـ من أَنْظَر منهم، فإنه يُمْهِلُ ثم يَأْخُذُ أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ، ولهٰذا قال بعد هٰذا:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية، يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير أو شرٍّ كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] فما رأى من أعمالِهِ حسناً سَرَّهُ ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغَصَّهُ، ووَدَّ لو أنّه تبرّأ منه، وأن يكون بينهما أمدٌ بعيدٌ، كما يقولُ لشيطانه الذي كان مَقروناً به في الدنيا وهو الذي جرَّأه على فعل السوء ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: 38].

ثم قال تعالى مؤكّداً ومهدِّداً ومُتَوَعِّداً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: يُخَوِّفُكُمْ عقابَهُ، ثم قال جَلَّ جَلالُه مُرَجِّياً عِبادَه لِئَلّا ييأسُوا مِن رحمته، ويَقْنَطُوا من لُطْفِهِ: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال الحسن البصريُّ: من رأْفَتِهِ بهم حَذَّرَهم نَفْسَهُ. وقال غيره: أي: رحيمٌ بخلقه يحبّ لهم أن يستقيموا على صِراطِه المستقيم ودينه القويم وأن يَتَّبِعُوا رسوله الكريم.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: 31]، هٰذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل مَن ادَّعى مَحبَّةَ اللَّهِ مِن عِبادِهِ يهوديّاً كان أو نصرانياً أو مسلماً، وليس هو مُتَّبعٌ للنَّبيِّ محمدٍ ﷺ فيما أُنْزِلَ عليه من ربه من القرآنِ والوحي والشرعِ، وليس هو على الطريقة المحمّديّة، فإنه كاذِبٌ في دعواه في نفس الأمر حتّى يؤمِنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ أنه نبيٌّ وأنّه رسولُ اللَّهِ، جاء بالحقّ والصدقِ من عند الله، ويَتَّبِعَ الشرعَ المحمَّديَّ والدينَ النبويَّ في جميع أقوالِهِ وأفعالِهِ، ولهٰذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ﴾، أي: يَحْصَلُ لكم فَوقَ ما طلبتم مِن مَحَبّتِكم إياه، وَهُوَ مَحبَّتُه إياكَمُ، وهو أعظمُ مِنَ الأوَّل. قال بَعْضُ الحكماءِ: لَيْسَ الشأْنُ أن تُحِبَّ، وإنّما الشأْنُ أن تُحَبَّ.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي باتّباعكم الرسولَ ﷺ يحصل لكم هٰذا مِن بركةِ سَفارَتِهِ، ثم قال تعالى آمِراً لكلِّ أحَدٍ من خاصّ وعامّ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تخالِفُوا عن أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدلَّ على أن مخالفته كُفْرٌ، واللَّهُ لا يحبُّ مَن اتَّصَفَ بذلك، وإن ادَّعى وزعم في نفسه أنّه محبٌّ لله وَيتقرّب إليه حتّى يُتابعَ الرسولَ النبيَّ الأُمّيَّ محمداً ﷺ خاتمَ الرُسُلِ ورسول اللَّهِ إلى جميع الثقلين الجنّ والإنس، الذي لو كان الأنبياءُ بل المُرْسَلُونَ أولوا العَزْمَ منهم في زمانِه ما وسعَهُم إلّا اتباعُه والدخولُ في طاعته، واتباعُ شريعته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: 81، 82].

34 ـــ الودود

معناه

مأخُوذ من الوُدِّ، وهو الحُبّ. ومحبّةُ اللَّهِ خاصّةٌ بِصِنْفٍ مِن عباده، وهم

المؤمنون الطائعون، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 54] والمُراد مِن مَحَبَّةِ الله لعبده: زيادَةُ إنعامِهِ عليه، بِجَعْلِهِ مِن أهل القُرْبَى عنده.

ويتضمَّن معنى الوُدِّ مِن الإنعام ما لا يتضَمَّنُهُ معنى الرحمةِ أو الرأفةِ، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج: 14].

وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في موضعين فقط من القرآن الكريم، أوّلهما في سورة البروج المُتقدِّم، والثاني في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود: 90]، كما ورد بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: 96]، وورد أيضاً في الحديث عن أبي هريرة ﷺ المتضمنِ أسماءَ الله الحُسْنى، الذي أخرجه الإمامان الترمذي وابن ماجه.

معناه في اللغة

قال الليثُ: (الوُدُّ): مَصْدَرٌ للمَوَدَّةِ، وكذلك الوِداد. وقال الفَرَّاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: 96] قال: في صُدور المُؤمنين. وقال ابنُ الأنباري: الوَدُودُ: مِن أسماءِ اللّٰهِ عزّ وجلّ: المُحِبُّ لِعِبادِهِ، مِنْ قَوْلِكَ: وَدِدْتُ الرَجُلَ أَوَدُّهُ وِدّاً وَوِدَاداً. نقله الأزهري في تهذيب اللغة.

أقوال العلماء

قال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي في كتابه «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى» في تفسير الودود: (هو الذي يحبُّ الخَيْر لجميع الخلقِ، فيُحْسِنُ إليهم، ويُثْنِي عليهم. وهو قريب مِن معنى: الرحيم، لكنّ الرحمةَ إضافةٌ إلى مَرْحُوم، والمَرْحُومُ: هو المحتاجُ والمُضْطَر، وأفعالُ الرحيم تَسْتَدعي مَرْحوماً ضعيفاً، وأفعالُ الوَدودِ لا تَسْتَدعي ذلك، بل الإنعامُ على سَبيلِ الابتداءِ مِنْ نتائج الوُدِّ.

وكما أَنَّ معنى رَحْمَتِهِ تعالى إرادَتُهُ الخَيْرَ للمَرْحومِ، وكفايَته له، وهو مُنَزَّهٌ

عَنْ رِقَّةِ الرَّحْمَةِ، فكذلك وُدُّه إرادَتُهُ الكرامَةَ والنِعْمَةَ، وهو مُنَزَّهٌ عن مَيْلِ المَوَدَّةِ، فالمَوَدَّةُ والرَّحْمَةُ لا تُراداِنِ في حقِّ المَرْحُوم والمَوْدُودِ إلّا لِثَمَرَتِهما وفائِدَتِهما، لا للرِقَّةِ والمَيْلِ. فالفائدةُ هي لُبابُ الرحْمَةِ والمَوَدَّةِ. وذلكَ هو المُتَصَوَّرُ في حقِّ اللَّهِ تعالى دون ما هو مُقارَنٌ لهما وغيرُ مَشْرُوطٍ في الإفادَةِ.

والوَدُودُ مِن عِبادِ اللَّهِ مَنْ يُريدُ لخَلْقِ اللَّهِ كلَّ ما يُرِيدُهُ لنفسه، وأعلى مِن ذلك مَنْ يُؤثِرُهُم على نفسه، وكَمالُ ذلكَ أن لا يَمْنَعُه عن الإيثار والإحسان: الغَضَبُ والحِقدُ، وما نالَهُ مِن الأذى، كما قال رسولُ اللَّهِ ﷺ لمّا أكثرت قُرَيْشٌ إيذاءَهُ وضَرْبَهُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُون**» (أخرجه البخاري) فلم يمنعه سُوءُ صَنيعهم عن إرادتِه الخَيْرَ لَهُم، وكما أَمَرَ ﷺ عَلِيّاً حيثُ قالَ: «**إنْ أرَدْتَ أن تَسْبِقَ المُقَرَّبِينَ فَصِلْ مَن قَطَعَكَ، وأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**») انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري في كتابه: «النهاية في غريب الحديث والأثر» في تفسير اسم الله الودود: (هو فَعُولٌ بمعنى مَفْعُولٌ، مِن الوُدِّ وهي: المَحَبَّة. يُقالُ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ أَوَدُّهُ وُدّاً: إذا أَحْبَبْتُهُ، فاللَّهُ تعالى مَوْدُودٌ، أي: مَحبُوبٌ في قُلوبِ أَوْليائِهِ، أو هو فَعُولٌ بمعنى: فاعِل أي: إنه يُحِبُّ عِبادَهُ الصالحين، بمعنى: أنه يَرْضَى عنهم). انتهى كلام ابن الأثير.

وفيه حديث ابن عمر ﷺ الذي أخرجه الإمامُ مسلمٌ في صحيحه، في كتاب البرّ والصِلةِ عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ أَبَرَّ البِرِّ صِلَةُ الوَلد أهلَ وُدِّ أَبيه**». قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: (وفي هذا فَضْلُ صِلَةِ أصدِقَاءِ الأب، والإحسانِ إليهم، وإكرامِهِم، وهو مُتَضَمِّنٌ لبرّ الأب وإكرامِهِ؛ لكونه بِسَبَبِهِ، ويَلتحق به أصدقاء الأم، والأجْدَادِ، والمشايخ، والزوج، والزوجة، وفي الحديث أن رسولَ الله ﷺ كان يكرمُ خلائِلَ خديجَةَ ﷺ).

أثر أسماء الله المتعلّقة بالرحمة على العبد

مَن يلاحِظُ باستمرار ـ ملاحَظَة تَحقُّقٍ وتَبَصُّرٍ ـ ما تدلُّ عليه أسماءُ اللَّهِ

(الرحمٰنُ، الرحيمُ، الفتاحُ، اللطيفُ، الرؤوفُ، الوَدودُ). ويُلاحِظُ مع ذلك أنَّ اللَّهَ تعالى هو القادِرُ الذي لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فإنَّهُ لَا بُدَّ أن يكونَ دائِمَ الالتماسِ لِرَحَمَاتِ اللَّهِ بالدُعاءِ لهُ، والتَوسُّلِ إليه بمُخْتَلِفِ الأعمالِ الصالِحة. ليكونَ أهلاً لرحماتِ اللَّهِ وفتوحاتِهِ، وألْطافِهِ ورأفتِهِ به، ثم ليكون أهلاً لِحُبِّ اللَّهِ ووُدِّه له، وبذلك يَرْقَى إلى غاياتِ درجات القرب والمعرفةِ والاصطفاء.

وحَظُّ العبدِ المسلم المؤمِن باللَّهِ مِن هٰذه الأسماء: أن يتخلَّقَ بشيءٍ ممّا تَدُلُّ عليه، قدر الاستطاعَةِ البشرية، فيكونَ رحيماً بخَلقِ اللَّهِ، مؤيِّداً لأهل الحق، ناصِراً لأَوْلِياءِ اللَّهِ، لطيفاً في مُعاملاته لِخَلْقِ اللَّهِ، رَفيقاً بهم، مملوءَ القَلْبِ بالرأفَةِ والرَّحمَة، مُحبّاً للَّهِ، ومُحِبّاً لِكُلِّ مَنْ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، ولكل ما يُحِبُّهُ اللَّهُ، فلا يُوالي أعداءَ اللَّهِ وأهل المعاصي ويحبّهم ولا يُجالسهم ولا يجانِسُهم، فإنّ مَن أحبَّ قوماً حُشِرَ معهم، بل يُوادِدُ أحْبابَ اللَّهِ وأولياءَه وأهل طاعته، ويُواليهم، ويعتصم بهم ويتقوّى بهم. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1 ـ 3].

المَحبَّة والإيثار

لمن تكون المحبَّة؟

الأصلُ في المحبةِ محبَّةُ الإنسانِ رَبَّهُ خالِقَهُ ورازِقَهُ. وبقدر درجته في المعرفة تكون درجته في المَحَبَّة، ولِهٰذا كان رسولُ اللَّهِ ﷺ أشَدَّ الناس حُبّاً لِلَّهِ؛ لأنه كان أَعْرَفَهُم به تعالى. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ [المائدة: 54].

ومِن تمام المحبَّة للَّهِ تعالى عند المسلم مَحبّةُ النبي ﷺ، فليْسَ أحَدٌ بَعْدَ اللَّهِ تعالى أَمَنَّ على المسلمين في هدايَتِهم وسعادتهم منه ﷺ، لذلك قُرِنَتْ مَحبَّةُ الرسولِ ﷺ بمحَبَّةِ اللَّهِ في كثيرٍ من آياتِ القرآنِ الكريم، ونصوصِ الحديثِ النبويِّ الشريفِ، وقد وَرَدَ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمامُ الترمذي

في «سننه» أنه قال: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لما يَغْذُوكُم مِن نِعَمِهِ، وأَحِبُّوني بِحُبِّ اللَّهِ**». وقال ﷺ: «**لا يؤمِنُ أَحَدُكم حتى أكونَ أَحَبَّ إليه من نفسه وولده ومالِهِ**» (أخرجه البخاري ومسلم).

ومِن فروعِ مَحبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: مَحَبَّةُ أصحابه الذين عَزَّرُوهُ ونَصَرُوه، واتَّبَعُوا النورَ الذي أُنْزِلَ معه، والذين بَذَلُوا أرواحهم وأولادهم وكلَّ غالٍ وَنفيسٍ في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الحق والدين، حتى وصل إلينا هٰذا الدينُ عزيزاً في الأرض، قال رسول الله ﷺ: «**الله الله في أصحابي** ـ أي أوصيكم الله فيهم ـ **لا تتَّخِذوهم غَرَضاً بعدي** ـ مَنَعَ من قذفهم وشتمهم وسبّهم ـ «**فَمَن أَحَبَّهم فبِحُبّي أَحَبَّهم، ومَن أَبْغَضَهُم فبِبُغْضي أَبْغَضَهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذَى اللَّهَ، ومَن آذى اللَّهَ يوشِك أن يأخُذَه**».

ومِن فُروعِ مَحَبَّةِ اللَّهِ ورسولِه أيضاً: مَحَبَّةُ المُؤمنينَ في اللَّه تعالى، تلك المَحبَّةُ التي تُؤَلِّفُ القُلُوبَ، وتوحِّدُ الصُفُوفَ، وقد شَبَّه النبيُّ ﷺ المُؤمنين في تَوادِّهم وتَعَاطُفِهِم وتراحُمِهم بالجَسَدِ الواحِد، إذا اشتكى منه عُضُوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَهَرِ والحُمَّى، وهم بَعْضُهم لِبَعْضٍ نَصَحَةٌ مُتَوادُّونَ، ولو ابتَعَدَتْ مَنازِلُهم، بينما المنافِقون بعضُهم لبعض غَشَشَةٌ مُتحاسِدُون، ولو اقْتَرَبَت مَنازِلُهم.

المحبة علامة الإيمان

وقد جعل رسولُ اللَّهِ ﷺ مَحَبَّةَ المؤمنين في اللَّهِ تعالى علامَةً على صِحَّةِ الإيمان، بل شرطاً له، أخرج الإمامُ مسلم في «صحيحه» عن رسولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال: «**والذي نَفْسِي بيده، لا تَدْخُلُونَ الجنَّة حتى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤمِنُوا حتى تَحابُّوا**». وأخرج عنه أيضاً: «**لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبُّ لأَخِيه** ـ أو قالَ لجارِهِ ـ **ما يُحبُّ لنفسه**». وأخرج الحاكم في «المستدرك» عنه أنه قال: «**أَوْثَقُ عُرَى الإيمان: المُوالاةُ في اللَّهِ والمُعادَاةُ في اللَّهِ، والحُبُّ في اللَّهِ، والبُغْضُ في الله عزّ وجَلَّ**». وأخرج الترمذي في «سننه» عنه أنه قال: «**كان من دعاء داود يقولُ: اللَّهُمَّ إني أسألكَ حُبَّكَ، وحبَّ مَن يُحِبُّكَ، والعَمَلَ الذي يُبَلِّغُنِي حُبَّك، اللهمَّ اجعل حُبَّكَ إليَّ أحبَّ إليَّ مِنْ نَفْسِي وأَهْلِي، ومِنَ الماءِ البارد**».

ثمار المحبة

ومِن ثمارِ المَحَبَّةِ بين المؤمنين: التَراحُمُ والتكافُلُ وتَنْفِيسُ الكُرُوبِ والمُوَاساةُ والتعاوُنُ على صَلاحِ الدُنيا والآخِرَة، أخرج الإمام أحمد في «مسنده» قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُنيا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيامَةِ، ومَن سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُنيا، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَليهِ في الدنيا والآخرة، واللَّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخِيهِ»**.

وأَعظمُ ثَمراتِ المَحَبَّةِ في اللَّهِ تعالى وأعلاها مَرْتَبَةً، الإيثارُ والتَضْحِيَةُ في سبيلِ إسْعَادِ الآخَرِينَ، والحَقُّ أَنَّ أواصِرَ المَحَبَّة في اللَّهِ، والإيثار هي التي جَمَعَتْ بين المسلمين أَوَّلَ مَرَّة وعليها اعْتَمَدَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في تأسيسِ أُمَّةٍ رَفيعةِ العِمَادِ وَطِيدَةِ الأركان.

كانت المدينةُ المُنوَّرة مُهاجَرَ المسلمينَ الأوائِلِ، وقد احْتَضَنَتْ أهلها الأنصارَ، والمهاجرين إليها من مكة على تبادُلِ الحُبِّ والاحترام والإيثار عن سماحة رائعة. وقد سَجَّلَ اللَّهُ تعالى في القرآن الكريم الثناءَ على الأنصار الذي ضَرَبُوا مِثالاً رائعاً في المَحَبَّةِ والإيثارِ، إذْ قاسَمُوا إخوانَهم المهاجِرين الذين تركوا أهاليهم ووطنهم وبيوتهم وتجاراتهم في سبيلِ اللَّهِ، قاسَمُوهُم بُيُوتَهم ومَزارِعَهُم وأموالهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴿٩﴾﴾ [الحشر: 9]. وأخرج الإمامُ البخاري في «صحيحه» عن عبد الرحمٰن بن عوفٍ ﷺ أنه قال: «لمّا قَدِمْنَا المدينةَ آخى رَسولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وبين سعد بن الرَّبيع، فقال سَعْدُ بنُ الرَّبيع: إنّي أكثرُ الأنصارِ مالاً فَأَقْسِمُ لك نصْفَ مالي، وانظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَويتَ نَزَلتُ لك عنها، فإذا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَها، فقال: بارك اللَّهُ لك في أهلِكَ ومالِكَ، دُلُّوني على السُّوقِ». فقد قابَلَ عبد الرحمٰن هذا الإيثار بعفافٍ كريم.

إنّ الدنيا لم تشهد حُبّاً كريماً يَعْلُو على الشَّهْوَةِ والمصلحة والمنفعة، كالحبِّ الذي أَرْسَى الإسلامُ ركائِزَهُ بين المسلمين، حتى كان الرجُل منهم يُحِبُّ

لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه، ويَبْذُلُ له من ذاتِ يَدِه، ومِن جُهْدِهِ ووقته ما يَبْذُله لأَعَزِّ بنيه عليه، وأحبِّ أهله إليه وقد يَرْتَقِي الحبُّ بأحَدِهم، فَيُؤْثِرُ أخاهُ على نفسه، فيجودُ له بالشيء وهو أحْوَجُ ما يكون إليه.

رُوِيَ عن أم المُؤمنين عائِشة ﵂ أن مِسْكيناً سألها وهي صائمةٌ، وليس في بيتها إلّا رَغيفٌ، فأمرت جارية لها أن تُعْطِيَهُ الرغيفَ، فقالَت الجاريَةُ: لَيْسَ لكِ ما تُفْطِرين عليه! فقالَتْ: أعْطِهِ إيّاهُ، ففعلت.

وبَعَثَ الخليفة الجليل معاوِيَةُ بن أبي سُفْيان ﵁ بثمانين ألفَ دِرْهَم إلى السيدةِ عائشةَ أم المؤمنين ﵂، وكانت صائمةً، وعليها ثوبٌ خَلقٌ ـ أي: قد بَلِيَ ـ فوزّعتْ هٰذا المالَ من ساعَتِها على الفقراءِ والمساكينِ، ولم تُبْقِ منه شيئاً، فقالت لها خادمتها: يا أم المؤمنين! ما اسْتَطَعْتِ أن تَشْتَري لنا لحماً بِدِرْهَمٍ تُفْطِرينَ عليها؟ فقالَتْ: يا بُنَيَّة! لو ذكَّرتِني لفعلتُ.

وضدُّ الإيثار خُلُقٌ ذميمٌ وهو: الأنانية (الأثرة)، تلك الغريزة التي تدعو إلى الاستئثار بالخير، والتَنَكُّر للغير، وتدفَعُ البَشَرَ إلى التنافُس على الدنيا ومَتاعِها، وبالتالي تدفَعُهم إلى الخِصامِ والتنازُع، وجُحُودِ ما عليهم من حَقٍّ، وأكل أمْوالِ الناسِ بالباطل، لذلك فقد حارَبَها الإسلامُ، ودعا إلى الحُبِّ والإيثار، وعني بتَنمِيَتِهما في المجتمع؛ لأنهما أساسه المتين، وسبب قوّته وتماسكه وترابطه وتكافُلِه.

المجموعة الرابعة من الأسماء الحسنى التي تدخل في باب الولاية والنصر

مقدمة

بعد أن استعرضنا أسماءَ اللّٰهِ تعالى التي تدخل في باب الرَأْفَةِ والرَّحْمَةِ، نذكر مجموعَةً أخرى تدخل في باب الولاية والنصر.

لما كان الإنسانُ عاجزاً عن كمال التدبير لأمره، ضعيفاً عن تنفيذ ما يريدُه، وهو بحاجَةٍ إلى قادِرٍ عظيم، يتولّى تَدْبِيرَ أمْرِهِ، وتنفيذ مُراداتِهِ، ونَصْرَه على عَدُوِّه، ومساعَدَتَه في التغلُّبِ على كل عَقَبَةٍ يقف في طريق نَجاحِهِ ـ خاصَّةً في هذا الزمانِ العصيب الذي تَمُرُّ به الإنسانية عامَّةً، والشعوبُ الإسلاميَّة خاصَّةً ـ فهو بحاجَةٍ إلى وَليٍّ يَتَولّاه، ووكيلٍ يتوكَّل عليه فَيَرْعَاهُ، وكافٍ يَكفيه، وصَمَدٍ يرجعُ إليه في أمره كُلِّه، وناصِرٍ يَفْتَحُ عليه بالنَصْرِ، يَسْتَجِيب له إذا دَعَاهُ، ويُسْعِفُهُ إذا تَوَسَّلَ إليه.

ولا يملكُ ذلك كلَّه في الحقيقة إلّا اللّٰهُ الخالقُ القادِرُ، الذي بِيدِهِ ملكوتُ السمٰواتِ والأرضِ، مِن هنا جاءَ في المأثور من أسماءِ اللّٰهِ الحُسْنى: (الوالي، الولي، الوكيل، الحَسيبُ، الصَمَدُ، الفتّاح، المجيب).

35 ــ الوالي

معنى الوالي: مأخوذٌ من الوِلاية، وهي المِلكُ للأشياء، والتصَرُّف فيها بِحَسَبِ المَشِيئَةِ، ومالِكُ الشيء يُدافِعُ عنه ويَنْصُرُهُ، فاللّٰهُ هو الوالي لنا، أي: مالِكُنا والمُتَصَرِّفُ بتدبير أمورنا، وإذا استنصرناه مؤمنين به مخلصين له، مدافعين عن دينه، نَصَرَنا وأيَّدنا، ومَن عَرَفَ أنَّ اللّٰهَ تعالى هو الوالي الحق، اكتفى بولايته ونصره، وسكن إليه في جميع أحواله ومهمّاته. قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: 11]، كما وَرَدَ في حديث أبي هريرة الجامع لأسماء الله الحسنى، الذي أخرجه الإمامان الترمذي وابن ماجه، وهو مُجْمَعٌ عليه بين العلماء.

أقوال أئمة اللغة

قال أبو عُبَيْد: الوَلْيُ: القُرْبُ. وقال الزجّاج في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: 8/ 72] يُقْرَأُ ﴿وَلايَتِهِم﴾ و﴿وِلايَتِهِم﴾ بفتح الواو وكسرها، فَمَنْ فتحها جعَلَها مِنَ النُصْرَةِ والنَسَبِ، قال: والوِلايَة التي بِمَنْزِلَةِ الإمارَة مَكسُورَةٌ، قال: والوِلَاية على الإيمان واجِبَةٌ، المُؤْمِنُون بَعْضُهم أولياءُ بَعْضٍ. نقول: وَلِيٌّ بَيِّنُ الوَلايَة، ووالٍ بَيِّنُ الوِلايَة). انتهى كلام الزجّاج. وقال الأزهري: تَوَلَّيتُ فلاناً: اتَّبَعْتَهُ وَرَضِيتَ به، والتولِيَةُ مصدَرٌ، كقَوْلِكَ: وَلَّيْتُ فلاناً عَمَلَ ناحِيَتَهُ: إذا قَلَّدْتَهُ ولَايَتَها. والتولِّي يكون بمعنى: الإعْراضِ، ويكون بمعنى: الاتّباع، قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: 38] أي: تُعْرِضُوا عَن الإسلام، وأما قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: 23]، معناه: يَتَّبِعُهم وَيَنْصُرُهُمْ، والمُوالاةُ: المُتابَعَةُ.

أقوال العلماء

قال الإمام الغزالي في كتابه «المَقْصدُ الأَسْنَى في شرح أسماء اللّهِ الحسنى»: (الوالِ هو الذي دبَّر أُمُورَ الخَلْقِ وَوَلِيَها، أي: تَوَلّاها، وكان مَليّاً بولايتها.

وكأن الولاية تُشْعِرُ بالتَدْبير والقُدْرَةِ والفِعْلِ، وما لم يَجْتَمِع جميعُ ذلك له لم يُطْلِق اسمُ الوالي عليه، ولا والي للأُمُورِ إلّا اللّهُ تعالى، فإنّه المُنْفَرِدُ بتدبيرها أولاً والمُتَكَفِّلُ والمُنَفِّذُ للتدبير بالتحقيق ثانياً، والقائمُ عليها بالإدامةِ والإبقاء ثالثاً).

وقال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر» في تفسير هٰذا الاسم: (الوالي: هو مالك الأشياء جميعها المُتصرف فيها، وكأن الوِلاية تُشْعِرُ بالتَّدْبيرِ والقُدْرَةِ والفِعْلِ، وما لم يَجْتَمِعْ ذلك فيها لم يَنْطَلِقْ عليه اسمُ الوَالِي. وكلُّ مَن وَلِيَ أمراً أو قامَ به فهو مَوْلاهُ وَوَلِيُّهُ، وقد تختلفُ مصادرُ هٰذه الأسْماءِ؛ فالوَلَايَةُ - بالفتح - في النَسَبِ والنُصْرَةِ، والوِلَايَةُ - بالكسر - في الإمارَةِ. والوَلاءُ المُعْتَقُ والمُوَالاةُ مِنْ وَالَى القَوْمَ. ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والترمذي: «**مَن كُنْتُ مولاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ**». قال الشافعي ﷺ: يعني: بذلك وَلَاءَ الإسلام، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: 11] وقال عمر لعليٍّ ﷺ بعد قول الرسول ﷺ «**أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ**» أيْ: وليَّ كل مؤمنٍ. وقيل: سبب الحديث أن أسامَةَ مولى النبي ﷺ قال لعلي وقد أَمَرَهُ بشيءٍ: لَسْتَ مَوْلايَ فَتأمُرُنِي، إنما مَوْلَايَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَن كنتُ مولاهُ فعَلِيٌّ مَوْلاَهُ**».

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والدارمي: «**أيُّما امْرَأَةٍ نكحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ مولاها فنكاحُها باطِلٌ**». وفي رواية «وَليُّها» أي: مُتَوَلّي أمْرِها كأبيها ونحوه. ومنه الحديث الذي أخرجه البخاريُّ في صحيحه: «**مُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وأَسْلَمُ وغِفَارُ مَوالِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ**».

أثره على العبد

فمن عَلِمَ أنَّ اللَّهَ مَوْلاه توكَّلَ عليه، وفوَّض أموره إليه، واستعان به في كل أمر، واستمدَّ منه العون والنصر، ولم يعتمد على أحدٍ سِواه، ووالى أولياءه، وعادى أعداءهُ وأُحبَّ مَن يُحِبُّه، وأَبْغَضَ مَن يُبْغِضُه.

36 ـــ الوليُّ

معناه

الوَليُّ: مأخوذٌ من الوِلَايةِ أيضاً، ولكنه أبلغ مِنَ الوالي، فمعنى كونِ اللَّهِ وَلِيّاً: أي: أنه المُتَكَفِّلُ بِأُمُورِ الخَلَائِقِ كُلِّها، والناصِرُ لأَوْلِيَائِهِ على أعْدَائِهِ؛ لأنه يَتولَّاهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ. ومَنْ عَرَفَ أنَّ اللَّهَ هو وَلِيُّ المؤمنين لم يَتَّخِذْ وَلِيّاً غيرَه، وإنّما يُرْجِعُ أمْرَهُ كُلَّهُ إليه. قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ [الشورى: 9]. وقد ورد في القرآن الكريم في (38) موضعاً، كما جاء في حديث أبي هريرة الجامع لأسماء الله الحسنى الذي أخرجه الترمذي.

أقوال العلماء في تفسيره

قال حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي الشافعي في كتابه «المَقْصِدُ الأَسْنَى في شرح أسماء اللَّه الحُسْنَى» في تفسير هٰذا الاسم: (الولي: هو المحبُّ الناصِر، ومعنى وُدِّه ومحبَّته قد سبق. ومعنى نُصْرَتِهِ ظاهر، فإنَّه يقمعُ أعداءَ الدين ويَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 257] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد ﷺ: 11] أي: لا ناصر لهم وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: 21].

الولِيُّ مِن العِبادِ مَن يُحِبُّ اللَّهَ، ويُحِبُّ أَوْلِيَاءَه، ويَنْصُرُه، ويَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ ويُعَادِي أَعْدَاءَهُ، ومِن أعدائه: النَّفْسُ، والشَّيْطَانُ، فَمَنْ خَذَلَهُما، ونَصَرَ أَمْرَ اللَّهِ تعالى، ووالى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، وعادَى أَعْدَاءَهُ فهو الوَلِيُّ مِنَ العِبَادِ). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (الوَلِيُّ: هو الناصِرُ، وقيل: المُتَوَلِّي لأُمُورِ العالَم والخَلائِقِ، القائِمُ بها. وقد تكرر ذكرُ المَوْلَى في الحديث، وهو اسْمٌ يَقَعُ علَى جماعَةٍ كثيرة: فهو الرَّبُّ، والمالِكُ،

وَالسَيِّدُ، والمُنْعِمُ، والمُعْتِقُ، والنَّاصِرُ، والمُحِبُّ، والتابعُ، والجارُ، وابنُ العَمّ، والحَليفُ، والعَقِيدُ، والصِهْرُ، والعَبْدُ، والمُعْتَقُ، والمُنْعَمُ عليه. وأكثرُها قد جاءت في الحديث، فيُضَافُ كلُّ واحِدٍ إلى ما يقتضيه الحديثُ الواردُ فيه. وكلُّ مَن وَلِيَ أمْراً أوْ قَام به فَهُوَ مَوْلاهُ ووليُّهُ. ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والدارمي: «**أيُّما امرأة نكحَتْ بِغَيْرِ إذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكاحُهَا باطِلٌ**» أي: مُتَوَلِّي أمْرِهَا).

أقوال المُفَسِّرين

يقولُ الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: 256، 257] يقولُ تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دِينِ الإسلام، فإنَّهُ بَيِّنٌ واضِحٌ جَلِيٌّ دلائِلُهُ وبراهِينُهُ، لا يَحتاجُ إلى أن يُكرَهَ أَحدٌ على الدُخول فيه، بل مَن هَداهُ اللَّهُ للإسلام وَشَرَحَ صَدرَهُ ونَوَّرَ بَصيرَتَهُ دَخَلَ فيه على بَيِّنَةٍ، ومَنْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ وخَتَمَ على سَمْعِهِ وبَصَرِه، فإنه لا يُفيدُهُ الدُخولُ في الدين مُكرَهاً مَقْسُوراً.

وقولُه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: مَن خَلَع عِبادَة غَيْرِ اللَّهِ من الأندادِ والأوثانِ وما يَدْعُو إليه الشيطانُ مِن عِبادَةِ كلّ ما يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللَّهِ، ووحَّدَ اللَّهِ، فَعَبَدَهُ وَحْدَهُ وشَهِدَ أن لا إِلَهَ إلّا هُوَ ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد ثَبَتَ في أَمْرِهِ واسْتَقَامَ على الطريقة المُثْلَى، والصِراطِ المُسْتَقِيم. أخرج ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وأبو القاسم البغوي، عن عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ﷺ قال: إن ﴿الْجِبْتِ﴾: السِّحْرُ و ﴿الطَّاغوتِ﴾: الشيطان». ومعنى قوله في ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ إنه الشيطان قويٌّ جداً، فإنه يَشمَلُ كلَّ شَرٍّ كان عليه أَهْلُ الجاهلية؛ من عِبادَةِ الأوثان، والتحاكُم إليها، والاستنصارِ بها.

وقولُه ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: فقد اسْتَمْسَكَ مِنَ الدين بِأَقْوَى سَبَبٍ، وشَبَّهَ ذلك بالعُرْوَةِ الوُثقى ـ أي: عُقدة الحَبْلِ ـ التي لا تَنْفَصِمُ

هي في نفسها مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قويَّةٌ، وربطها قَوِيٌّ شديدٌ، ولهٰذا قال: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ قال مُجاهِد: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يعني: الإيمانَ. وقال السُّدِّي: هو الإسلامُ. وقال سعيد بن جُبَير والضَحَّاك: يعني لا إلٰه إلّا اللَّه، وعن أنسٍ بن مالك: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ القُرآنُ. وقال معاذ بن جبل: في قوله ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ دونَ دُخولِ الجَنَّة.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يُخْبِرُ تعالى أنه: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فيُخْرِجُ عبادَهُ المُؤمِنين من ظُلُماتِ الكُفرِ والشَّكِّ والرِّيب إلى نورِ الحَقِّ الواضِح الجلي المبين، السهل المنير، وأنَّ الكافرينَ إنّما وَليُّهُم الشيطان يُزَيِّنُ لهم ما هم فيه مِن الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويَحيدُونَ بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ولهٰذا وحَّدَ اللَّهُ تعالى لفظَ النور، وجَمَعَ الظُّلُمات؛ لأن الحقَّ واحِدٌ والكُفْرُ أجناسٌ كثيرة، وكلُّها باطِلَةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153] ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ناصِرُهُمْ ومُحِبُّهم ومُجيبُهم ومُعِينِهم، فهو وليُّهم حينما أَوْضَحَ لهم الأَدِلَّةَ على الإيمان ولم يتركهم يبحثون عنها، وهو وليهم عندما آمَنُوا، والاهم بالمَعُونَة، وحينما يجاهِدُون في سبيله يكون معهم بنصره، وتستمر ولايته لهم إلى أنْ يموتوا فيرحَمَهُم في قبورهم، ويخَفِّف عنهم يومَ الموقف والحِساب والجزاء في الآخرة، إذن فهو وليّ المؤمنين في جميع المراحل التي يمرُّون بها، فولايَتُه لا تنقطِع ولا تنتهي.

ولاء المسلم

تعريف الولاء

قال الإمام الأزهري: تَوَلَّيْتُ فُلاناً: أي: تَبِعْتُهُ وَرَضِيتُ بِهِ، والتَوَلِّي: أي: الاتِّباع والنُصْرَة والمُتابَعَةُ.

لمن يكون ولاء المسلم؟

المسلم مأمور بموالاة اللّهِ ورسولِهِ والمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]، وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: 55]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: 71].

وقد نهى اللّهُ عبادَهُ المؤمنين أن يَتَوَلَّوْا غيرَ اللّهِ ورسولِهِ والمؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: 3]، وقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ [آل عمران: 28] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: 144]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِىۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: 1].

الانتماء لأمَّةِ الإسلام

لقد أرسلَ اللّهُ نَبِيَّهُ محمَّداً ﷺ بالهُدَى ودين الحقِّ وهو: الإسلام لكي يَبْنِيَ أُمَّةً، بِكُلِّ ما تحمل هٰذه الكَلِمَةِ من معنى، فجاهَدَ ﷺ طيلة أربعةٍ وعشرين عاماً لهٰذا الهدف، واستطاع خلال هٰذه المدة أن يَبْنِيَ أُمَّةً مُتكامِلَةً، لها عَقِيدَةٌ خاصَّةٌ، ولها شريعة ربّانية متكاملة لجميع شؤون الحياة، ولها سلوك خاصٌّ مُتَمَيِّزٌ، ولها عبادات مُتَمَيِّزَة، ولها أخلاقٌ مُتَمَيِّزَة عن غيرها من الأمم، وقد امْتَدَحَ اللّهُ تعالى في مُحْكَم كتابه الكريم هٰذه الأُمَّةِ فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: 110]. وقد سَادَتْ هٰذه الأُمَّةُ الدنيا وانتصرت على قوى الباطِل والكفرِ والشَّرِّ، وحَكَمَتِ الدنيا زهاء ثلاثة عشر قرناً من الزَمَنِ، كانت خلالها أمة قوية متماسكة، كان فيها ولاءُ المؤمن الفَرْد

للَّهِ، ولِرَسُولِهِ، وللخلفاءِ مِن بعده، ولإِخْوانِهِ المُؤمنين، فكان كل مسلم يَشْعُرُ بانتمائه لأُمَّةِ الإسلام، ويَفْخَرُ بهٰذا الانتماءِ، ويَرْتَبِط بِرباط الطاعَةِ والولاء لله ولرسوله ولخليفَةِ المَسلمين، وبرباط الأخوَّةِ والولاءِ لإخوانه المؤمنين في هٰذه الأُمَّة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا (٥٩)﴾ [النساء: 59]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10]. وكانت هٰذه الأمةُ تحمل دوراً مهمّاً في الأرض أناطَهُ اللَّه بها، وكلّفها بحمله، وهو هداية البشرية إلى ربّها وتطبيق شرعه، وتحمل رسالة الإسلام إلى الناس كافّة.

إزالة دولة الإسلام

ظَلَّتْ أُمَّةُ الإسلام على هٰذه الصفة طوال ثلاثة عشر قرناً من الزَمَن، كانت خلالها تَغِيظُ أعْدَاءَها الذين يَتَرَبَّصُون بها الدَّوائِر، ويَنْتَظِرون الفُرْصَةَ المؤاتية لِضَعْفِها والانقضاضِ عليها، وإزالتها من الوجود، وما إن حلّ القرنُ العشرين حتى انقضّ هٰؤلاء الأعداء على الأمّة الإسلامية، فأزالوا دولتها السياسية الحاكمة بشرع اللَّه والمطبِّقة له من الوجود، وعقدوا مؤتمر «سايكس بيكو» الذي تقاسَمُوا فيه دول العالم الإسلامي، ودخلوه بجيوشهم العسكرية المُسَلَّحة، وأعطوا اليهود وعداً بإقامة دولةٍ لهم في فلسطين هو: «وعد بلفور»، وهكذا انتهى دَوْر المسلمين على الساحة العالمية، وأُزيلت دولتهم من الوجود، وتعطّلت شريعة الله في الأرض، وقامت دولة لليهود في فلسطين، ونصب هؤلاء المستعمرون في كل بلد إسلامي حُكّاماً موالين لهم، وحكومات عَلمانية، لم تَتَرَبَّ تربيةً إسلامية صالحة، وإنما تربّت على أيديهم، وفي مدارسهم ومحافلهم، ولا تمتُّ للإسلام والمسلمين بصلة، وإنما ولاؤُها لأعداء الإسلام والمسلمين، لا يشعر أحدهم أنه عُضوٌ في الأمة الإسلامية المفكّكة، بل يفخر بكونه عضواً في المحافل المحَلِّيّة والدُوَلِيَّة، يأتمر بأمر أعداء الإسلام وينتهي بنهيهم، أَعْطَاهم الولاء كامِلاً، وانسَلخ مِن دينه وأُمَّتِه، وأصبح أداةً طيّعَةً بأيديهم.

العمل على تغريب الإسلام

بعد القضاء على دولة الإسلام السياسية الجامعة لشعوب العالم الإسلامي،

بقيت الشعوب الإسلامية المفككة المتفرقة التي لا يجمع شَمْلَها دولَةٌ تُشَكِّلُ عَقَبَةً كبيرة في وجه مخططاتهم ومؤامراتهم، فعملوا على حرب الإسلام وإبعاد أهله عنه، وجَعْلِهِم أُناساً لا دينيين، عَلمانيين، وذلك بتشكيكهم بدينهم، وضرب ولائهم له في نفوسهم، وزرعوا في أذهانهم عبر وسائل الإعلام، ومناهج التعليم، وعبر الجمعيات والأحزاب والمحافل التي أوجدوها فيما بينهم، أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين عن ركب الحضارة، وأن السبيل الوحيد لنهضة الشعوب الإسلامية هو بترك هذا الدين، والأخذ بالحضارة الغربية، وتقليد الغرب بتركه للدين وأخذه بالعَلمانية، ووصفوا الإسلام بالرجعية والتأخّر، وأنه أفيون الشعوب، وقام بترويج هٰذه الأفكار بين المسلمين جيوشٌ مِن العَلمانيين المستغربين الذي تَرَبَّوْا على أيدي أعداء الإسلام، وفي مدارسهم ومحافلهم، وجمعياتهم السِرِّيَّة والعلنية، وأحزابهم السياسية والاجتماعية، أعطوا هؤلاء الأعداء وَلاءَهم الكامل، وناصَبوا الإسلامَ وأَهْلَهُ العَداوةَ المَريرة، وتَسَمَّوْا بالبنّاءِين تارة، وبالمُصْلِحين تارة أخرى، وبالمُتَنَوِّرين، والتَقَدُّمِيِّين، والمُتَحرّرين، والعقلانيين، وما إلى ذلك من الألقاب البَرّاقَة التي ظاهِرُها البِناءُ، وباطِنُها الهَدْمُ، واستخدم أعداءُ الإسلام هؤلاء «المُسْتَغْرِبينَ» كمعاوِلَ هَدْمٍ لتهديم أمّة الإسلام، وإزالة الحضارة الإسلامية نهائياً من الوجود كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ۝٨﴾ [الصف: 8]، ولكنّ هؤلاء نَسَوْا أن هذا الدين دينُ اللّهِ، وأنهم أعلنوا حَرْبَهم على الله، وأن اللّهَ حافِظُ دينه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ۝٩﴾ [الحجر: 9]، فهل سيعود هؤلاء إلى رشدِهِم ويَتوبون إلى رَبِّهم قبل فوات الأوان ويعلمون أن الغَلَبَة في النهاية لله رب العالمين؟ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

37 ــ الوكيل

معناه

أي: القائم بأمور عباده، وبتحصيل ما يحتاجون إليه، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفاهُ، ومَن اسْتَغْنَى به أغناه عَمّا سِوَاهُ. ومَن عَرَف أنَّ اللّهَ هُوَ الوكيلُ الحَقُّ في تَدْبير ما

غابَ عَنْ عِبادِهِ، وما حَضَر لديهم مِنْ أمْرٍ، اكْتَفَى بالالتجاءِ إليه، ولم يتوكَّل إلّا عليه، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: 23]. وقال الله تعالى، في حكاية قولِ الصالحين مِن أصحاب محمدٍ ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: 173] وقال أيضاً: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: 65].

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المَقْصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنَى» في تفسير اسم الله الوكيل: (هو الموكول إليه الأمورُ؛ لكن الموكول إليه يَنقسمُ إلى: مَن يوكَلُ إليه بعضُ الأمور، وذلك ناقص، ومَن وُكِلَ إليه الكُلُّ، وليس ذلك إلّا لِلَّهِ تعالى.

والمَوْكُولُ إليه ينقسم إلى: مَن يَسْتَحِقُّ أن يكون موكولاً إليه لا بذاته، ولكن بالتَّوْكيلِ والتفويضِ. وهذا ناقِصٌ؛ لأنه فقير إلى التفويض والتَّوْلِيَة. ومَن يَسْتَحِقّ بذاته أن تكونَ الأمورُ مَوْكُولَةً إليه، والقلوبُ مُتَوَكِلةً عليه إلا بِتَوْلِيَةٍ، وتفويض مِن جِهَةِ غيره، وذلك هو الوكيلُ المُطْلَقُ.

والوكيلُ أيضاً ينقَسِمُ إلى: مَن يَفِي بما يوكَلُ إليه وَفاءً تاماً مِن غَيْر قُصُورٍ، ومَن لا يَفِي بالجميع، والوَكيلُ المُطْلَقُ هو الذي الأُمُورُ مَوْكُولَةٌ إليه، وهو مَليٌّ بالقِيامِ بها، وَفِيٌّ بِإتْمامِها، وذلك هو الله تعالى فقط). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام اللغويُّ مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارَكُ بن محمد بن الأثير الجَزرِيّ الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير اسم الله الوكيل: (هو: القَيِّمُ الكَفِيلُ بأرزاقِ العِباد، وحَقيقَتُهُ أنه يَسْتَقِلُّ بأمر الموكول إليه، وقد تكرَّر ذكر التوكُّلِ في الحديث، يُقالُ: توكَّلَ بالأمر: إذا ضَمِنَ القِيامَ به، ووكَّلْتُ أمْري إلى فلان: أي: ألجأته إليه واعتمدتُ فيه عليه، ووكَّلَ فلانٌ فلاناً

إذا اسْتَكْفاهُ أَمْرَهُ ثِقَةً بكفايته، أو عَجْزاً عن القِيام بأمرِ نفسه.

ومنه حديث الدُعَاءِ: «**لاَ تكِلْنِي إلى نفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ فَأَهْلِكَ**».

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: «**مَن تَوَكَّل بما بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ توكَّلْتُ له بالجَنَّة**» وقيل: هو بمعنى تكفَّل.

وفيه: «أنه نَهَى عن المُوَاكَلَة» قيلَ: هو من الاتِّكال في الأمور، وأن يَتَّكِلَ كُلُّ واحِدٍ منهما على الآخَرِ، يُقالُ: رَجُلٌ وُكَلَةٌ، إذا كثر مِنه الاتِّكالُ على غيره، فَنَهَى عنه، لما فيه من التنافُرِ والتقاطُعِ، وأن يَكِلَ صاحِبَهُ إلى نَفْسِه، ولا يُعينُه فيما ينوبُهُ).

أثر هٰذا الاسم على العبد: (التوكُّل على الله)

التوكُّل هو طَرْحُ البَدَنِ في العُبُودِيَّة، وتعلُّقُ القَلْبِ بالرُّبُوبِيَّةِ، والطُمأنِينَة إلى الكِفايَة، فإن أُعْطِيَ المُتَوَكِّلُ شَكَرَ، وإنْ مُنِعَ صَبَر. وعرَّفَهُ ذو النون المِصْري فقالَ: التَوَكُّلُ: تَرْكُ تَدْبِير النَفْسِ، والانْخِلاَعُ من الحَوْلِ والقُوَّةِ، بأن لا يَرَى المتوكِّلُ لأَحَدٍ حِيلَةً ولا قُوَّةً إلّا بِاللَّهِ.

التوكُّل في القرآن

وقد أمَرَ اللَّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بالتَوَكُّل على الله فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: 58]. كما أمر عباده المؤمنين بالتَوكُّلِ على الله فقال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: 51]، وقال: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: 23] وبَيَّنَ أنَّ مَنْ يتوكَّلَ على اللَّهِ كَفَاهُ أَمْرَه وحقّق غايَتَهُ ورغْبَتَه فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 2]. وأمر عباده بتفويض جميع أمورهم لمَنْ هو قادِرٌ على تحقيقها ومَن بيَدِهِ مَلَكُوتُ السمٰوات والأرضِ، ومَن هو بَصِيرٌ بالعباد، عالمٌ بأحوالهم، قال تعالى:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: 44].

التوكُّلُ في السُّنَّةِ

أخرج الإمام أحمد في «مسنده» والنسائيُّ، والترمذي في سننهما، والحاكم في «المستدرك»، وصحّحه عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ على اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كما يَرْزُقُ الطَيْرَ، تَغْدُو خِماصاً** ـ أي: خاوية البطون ـ **وتَرُوحُ بِطاناً** ـ أي: ترجع إلى أوكارها آخر النهار ممتلئة البطون» وأخرج الطبرانيُّ في «المعجم الكبير» وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «**مَن سَرَّهُ أن يكونَ أقوى الناسِ فَلْيَتَوَكَّل على الله**». وأخرج الطبرانيّ في «معجمه الكبير»، والبَيْهَقيُّ في «سننه» وصحَّحه أن النبيَّ ﷺ كان إذا نزل بأهْلِهِ الضيقُ أمَرَهُم بالصلاة، ثم قرأ هذه الآية يعني: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: 132]. وأخرج أحمد في «الزُهْد» وابنُ أبي حاتِم في «تفسيره»، والبَيْهَقِيُّ في «شُعَبِ الإيمان» عن ثابت قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أصابَت أهلَهُ خَصَاصَةٌ نادَى أهلَهُ بالصلاةِ: «**صَلُّوا صَلُّوا**» قال ثابت: كانت الأنبياءُ إذا نزلَ بهم أمْرٌ فَزَعُوا إلى الصلاة. وأخرج الشيخان البخاريّ ومسلمٌ أنّه ﷺ لما ذكر الذين يدخلون الجنة بغير حساب قيلَ له: مَنْ هُمْ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال ﷺ: «**هُمُ الذينَ لا يَرْقُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَّيرُونَ، ولا يَكتَوُون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون**» يعني: هم الذين كملَ إيمانُهم ولم يَبْقَ فيهم شيء من أمور الجاهلية كالرُّقَى والاسترقاء، وهو التعويذ بما فيه من الشرك، وكالتشاؤم بالطير أو غيره، وكإفراطِ الاعتقادِ في الكيّ.

فالتوكُّل من لوازم كمال الإيمان؛ لأنه الاعتمادُ على الخالق دون رؤية الخلائق، فَمَنْ تَوَكَّل على اللَّهِ كَفاهُ، ومَنِ انقطع إليه آواه، قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: 36]. أوْحَى اللَّهُ إلى نبيّه داودَ ﷺ: «**يا داود مَن دَعاني أَجَبْتُه، ومَن استغاثني أَغَثْتُه، ومَن استَنْصَرَني نَصَرْتُه، ومَن توكَّلَ عليَّ كَفَيْتُه**».

38 ــ الحسيب

معناه

الحَسِيبُ: من الحَسْبِ، وهو الاكتفاءُ، فيكون معنىٰ اسم الله الحسيب أي: الكافي، فَمَنْ توكَّل على اللَّهِ فهو حَسْبُهُ، ولا يوجَدُ كافٍ في الحقيقة إلّا الله تعالى. وهٰذا المعنى هو أحدُ معاني هٰذا الاسم، وقد يأتي بمعنى: العليم بالأعْدادِ والحساب. قال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: 6].

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمامُ حجَّةُ الإسلام أبو حامِدٍ محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المَقْصِدَ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: (الحَسِيبُ: هو الكافي، وهو الذي مَن كان له كان حَسْبُه، واللَّهُ تعالَى حَسِيبُ كلِّ أَحَدٍ وكافيه.

وهٰذا وَصْفٌ لا يُتَصَوَّرُ حقيقته لغيره، فإن الكفايَة إنما يحتاج إليها المَكْفِي لِوجودِه، ولِدَوام وجوده، ولكمالِ وُجودِه. وليسَ في الوُجُودِ شيء هو وَحْدُهُ كافٍ لشيء إلا الله تعالى، فإنه وحْدَهُ كافٍ كُلِّ شيء، لا لِبَعْضِ الأَشْياءِ، أي: هو وحدُه كاف يَتحصَّلُ به وجودُ الأَشياءِ، ويَدومُ به وُجودُها، ويكمل به وُجودُها.

ولا تَظُنَّنَّ أَنَّكَ إذا احْتَجْتَ إلى طعامٍ، وشرابٍ، وأرضٍ، وسَماءٍ، وشَمْسٍ وغير ذلك، فقد احْتَجْتَ إلى غيره، ولم يكن هو حَسْبُك، فإنه هو الذي كفاكَ بخلْقِ الطعام والشراب والأرض والسماءِ، فهو حَسْبُكَ.

ولا تَظُنَّنَّ أنّ الطِفْلَ الذي يحتاجُ إلى أُمِّه تُرْضِعُه وتَتَعهَّدُه، فَلَيْسَ اللَّهُ حَسِيبَه وكافِيهِ، بل اللَّهُ كَفَاهُ إذْ خَلَقَ أُمَّهُ، وخَلَقَ اللبَنَ في ثَدْيها، وخَلَقَ لهُ الهِدَايَةَ إلى التقامِهِ، وخَلَقَ الشَفَقَةَ والمَوَدَّةَ في قَلْبِ الأُمِّ حتّى مَكَّنَتْهُ مِنَ الالْتِقَام، وَدَعَتْهُ إليه وحَمَلَتْه عليه. فالكفايَةُ إنما حَصَلَتْ بهٰذه الأسبابُ، واللَّهُ وحْدَهَ هوَ المُنْفَرِدُ بِخَلْقِها لأَجْلِهِ.

ولو قيلَ لكَ: إنَّ الأُمَّ وحدَها كافِيَةٌ للطِفْلِ، وهي حَسْبُهُ، لَصَدَّقْتَ به ولم

تَقُل: إنها لا تكفيهِ؛ لأنه يَحْتاجُ إلى اللَّبَنِ، فمِنْ أينَ تكفِيه إذا لم يكن لَبَنْ؟ ولكنَّكَ تقولُ: نَعَمْ يَحْتاجُ إلى اللَّبَنِ، ولكنَّ اللَّبَنَ أيضاً من الأُمّ فليسَ مُحتَاجاً إلى غَيْرِ الأم، فاعْلَمْ أن اللَّبَنَ لَيْسَ مِنَ الأمّ، بَلْ هُوَ والأُمُّ مِنَ اللَّهِ ومِنْ فَضْلِهِ وَجُودِهِ.

فَهُوَ وحْدَهُ حَسيبُ كُلِّ أحدٍ، وليسَ في الوُجود شيءٌ وحدُه هو حَسِيب شيءٍ سِوَاه، بلِ الأشياءُ يتعلَّقُ بعْضُها بِبَعْضٍ، وكلُّها تتعلَّق بقُدْرَةِ اللَّهِ تعالى.

ليس للعبد مَدْخَلٌ في هٰذا الوَصْفِ إلّا بنوعٍ مِنَ المَجاز بعيد، وبالإضافةِ إلى بادِىء الرأي: وسابق الظنّ العامّيّ.

أمَّا كونُه مَجازاً: فَهُوَ أنَّه إن كان كافياً لطفله في القيام بِتَعَهُّدِه، أو لتلميذه في تَعْلِيمِه حتى لم يفتقر إلى الاستِعَانَةِ بغيْرِهِ، كان واسِطَةً في الكِفايَة ولم يكن كافِياً؛ لأن اللَّهَ تعالى هو الكافِي، إذْ لا قِوَامَ له بنفسه، ولا كِفايَةَ له بِنَفْسِهِ، فكيف يكونُ هو كفايةً غيره؟

وأما كونُه بالإضافَةِ إلى سابِقِ الظَّنِّ. فهو أنَّهُ وإنْ قُدِّرَ أنَّهُ مُسْتَقِلٌّ بالكِفَايَةِ، وليسَ بواسِطَةٍ، فهو وحْدَه لا يكفي إذْ يَحتاجُ إلى مَحَلٍّ قابلٍ لفعله وكِفايَتِه، هٰذا أقلّ الأمور. فالقَلْبُ الذي هو مَحَلُّ العِلْم، لا بُدَّ منه أوَّلاً ليكونَ هو كافياً في التعليم. والمَعِدَةُ التي هي مُسْتَقَرُّ الطعامَ، لا بُدَّ منها ليكونَ هو كافياً بإيصالِ الطعام إلى بَدَنِهِ، هٰذا مع ما يَحتاجُ إليه مِن أُمُورٍ كثيرة لا يُحصيها ولا يدخُل شيءٌ منها في اختياره. وأقَلّ درجات الفعل حاجته إلى فاعِل وقابل، فالفاعِل لا يكون دون القابل أصلاً، وإنما صَحَّ هٰذا في حَقِّ اللَّهِ تعالى؛ لأنّه خالقُ الفعل، وخالِقُ المَحَلِّ القابِلِ، وخالقُ شرائِط قَبُولِهِ وما يَكتَنِفُهُ.

ولكن بادىء الرأي: رُبَّما سَبَقَ إلى الفاعِل، ويَخْطر بالبابل غَيْرُهُ، فيُنْظَرُ أنَّ الفاعِلَ حَسْبُهُ وحْدَه وليس كذلك.

نَعَمْ الحظّ الذي منه للعبد أن يكونَ اللَّهُ وَحْدَهُ حسبه بالإضافَةِ إلى هِمَّتِهِ وإرادته، وهو أنّه لا يُريدُ إلّا اللّه، ولا يُريدُ إلّا الجنَّةَ، ولا يَشْغَلُ قَلبه بالنار لِيَحْذَرَ منها بل يكونُ مستغرقَ الهمِّ باللَّهِ وحْدَه. وإذا كاشفه بجلاله قال: ذلك حَسْبي، فَلَسْتُ أريدُ غيْرَه ولا أبالي). انتهى ما ذكره الغزالي.

ويقول الإمام مجدُ الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر» في شرح هٰذا الاسم: (الحَسِيبُ: هو الكافي، فعيلٌ بمَعْنَى: مُفْعِلٌ، مِن أَحْسَبَنِي الشَّيءُ إذا كَفانِي، وأَحْسَبْتُه وحَسَّبْتُه ـ بالتشديد ـ أَعْطَيْتُه ما يُرضيه حتى يقولَ حَسْبي ـ أي: اكتفيت ـ ومنه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال له النبي ﷺ: «**بِحَسْبِكَ أن تَصُومَ من كل شَهْرٍ ثلاثَةَ أيَّام**» أي: كِفايَتكَ أو كافِيكَ، وقد قال له النبي ﷺ ذلك؛ لأنّ الحَسَنَةَ بعشرة أمثالها، فمن صام ثلاثة أيام من كل شهر فكأنه صام ثلاثين يوماً وهو الشهر كاملاً، ومَن داوَم على ذلك كلَّ شهر، فكأنه صام دهره كلّه من حيث الأجر والثواب. وقد بيّن النبي ﷺ في حديث آخر أنه أوصى بصيام ثلاثة أيام مِن أوسط كل شهر عربي هلالي، وهي: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، ويسمّيها بعضهم: بالأيام البيض؛ لأن القمر يكون فيها بدراً مكتمل النور، وقد أثبتت دراسة أمريكية أن تأثير جاذبية القمر تكون قوية في هٰذه الأيام، وينتج عنها المَدُّ في مياه البحار والأنهار والمُحيطات، وكذلك فإن لها تأثيراً على ضغط الإنسان، حيث يرتفع وتزداد عصبيّته وتوتّرُ أعصابُه، ولذلك فقد سَجَّل إحصاءٌ في مكاتب الأمن الأمريكي ارتفاع نسبة الجرائم في هٰذه الأيام الثلاثة في جميع الولايات الأمريكية، ومِن المعلوم أن الصيامَ يُخفّف من غلواء الإنسان، ويُهدِّىء أعصابَه، فقد قدَّم النبي ﷺ للبشرية الدواء النافع والبلسم الشافي قبل أربعة عشر قرناً من الزمن.

39 ــ الصمد

معناه

هو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، أي يُقْصَدُ فيها، إذْ لا كافي في الحقيقة إلّا هو، والرجوعُ إلى اللّهِ في كُلِّ أمْرٍ إنما يكونُ بِوَصْفِ أنه سبحانه هو الوَهّاب بقُدْرَتِهِ، والمُدَبِّر بحكمته، وهٰذا المعنى هو أحد معاني هذا الإسم الكريم، ومَن عَرَفَ أنّ اللّهَ هو الصَّمَدُ لم يرجع في كلّ أمره لغيره، بل كان به غَنيّاً، وبقضائه رضيّاً. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: 1، 2].

أقوال اللغويين في تفسيره

أخرج الأزهريُّ في «تهذيب اللغة» عن الأعمش، عن أبي وائل أنه قال: (الصَمَدُ: السَّيِّدُ الذي قد انتهى سُؤْدُدُهُ). قال الأزهريُّ: (أمَّا اللَّهُ تبارك وتعالى فلا نهايَةَ لسُؤْدُدِهِ؛ لأن سُؤْدُدَهُ غيرُ مَحْدُود). وقال أبو عبد الرحمٰن السُلَمِيُّ: (الصَمَدُ: الذي يُصْمَدُ إليه الأَمْرُ فلا يُقْضَى دُونَهُ، وهو مِنَ الرِجَالِ: الذي ليسَ فَوقَهُ أَحَدٌ). وقال الحَسَنُ: (الصَمَدُ: الدائِمُ) وقال مَيْسَرَةُ: (المُصْمَدُ والمُصْمَت: الذي لا جَوْفَ له). وقيل: الصَمَدُ الذي صَمَدَ إليه كلُّ شيء، أي الذي خَلَقَ الأشياءَ كُلَّها، لا يَسْتَغْنِي عنه شَيْءٌ، وكلُّها دالٌّ على وحدانيّتِهِ. وقيل: الصَمَدُ: الدائِمُ الباقي بعد فَناءِ خلقه. وهٰذه الصفاتُ كلّها يَجوزُ أن تكون لله ﷻ: وقال الليثُ: (صَمَدْتُ صَمْدَ هٰذا الأمر: أي قَصَدْتُ قَصْدَهُ واعْتَمَدْتُه). وقال أبو زيد: (إني على صَمَادَةٍ مِن أَمْرٍ: إذَا أشْرَفَ عليه وحَفِلَ به). وقال الأصمعيُّ: (الصَّمْدُ: المكانُ المُرْتَفِعُ الغليظُ، والمُصَمَّدُ: الصُلْبُ الذي ليس فيه خدد) وقال أبو عمرو بن العلاء: (الصَّمْدُ: الشديدُ مِن الأرض). وقال أبو عبيدة: (الصمَدُ السيِّدُ الذي يُصْمَدُ إليه، ليس فوقه أحَدٌ فعلى هٰذا هو (فَعَلٌ) بمعنى: (مَفْعُول).

أقوال العلماء

يَقولُ حجَّة الإسلام الإمامُ أبو حامِد محمد بن محمد الغزاليُّ الشافعي في كتابه: «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: (الصَّمَدُ هو الذي يُصمَدُ إليه في الحوائج، ويُقصَدُ إليه في الرغائب، إذْ يَنْتَهِي إليه مُنْتَهى السُّؤْدُدِ، ومَن جعله الله تعالى مَقْصِدَ عِبادِه في مُهمّاتِ دينهم ودُنياهم، وأجرى على لسانِهِ ويدِه حوائج خلقه، فقد أنعم عليه بِحَظٍّ مِن معنى هٰذا الوصف، لكن الصَمَدَ المطلقَ هو الذي يُصْمَدُ إليه في جميع الحوائِج، وهو اللَّهُ تعالى).

ويقول الإمام المحدّث مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسيره: (قال ابن مسعود: الصمَدُ هو السَّيِّدُ الذي انْتَهَى إليه السُّؤْدُد. وقيل: هو الدائِمُ الباقي، وقيل: هو الذي لا جَوْفَ له. وقيل: هو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائِج، أي يُقْصَدُ. ومنه حديث معاذ بن الجَمُوح في قتل أبي جَهْل: «فَصَمَدْتُ له حتّى

أَمْكَنَتْنِي منه غِرَّةٌ» أي ثَبَتُّ له وقَصَدْتُهُ وانتظرتُ غَفْلَتَهُ» ومنه حديث عَلِيٍّ: «فَصَمْداً صَمْداً حتى يَنجلِيَ لكم عَمُودُ الحَقِّ». قال البخاريُّ: والعرب تُسَمِّي أشرافها الصَمَدُ.

أثر هٰذا الاسم على الإنسان

إنّ مَن عَلِمَ أن اللّهَ هو السَّيِّدُ الصَمَدُ الذي يُرْجَعُ إليه في كل أمر، فإنه يَلْجَأُ إليه في قضاء حوائجه، ولا يلجأ لِسِواه، ويتوكَّلُ عليه ولا يَعْتَمِدُ على أحدٍ سِواه، ويُفوِّضُ أمورَه له، ولا يعودُ يَرَى للأسباب تأثيراً، بل يَعْلَمُ أنّ خالِقَ الخَلْقِ ومالكَهُم ومُوجِدَهم مِنَ العَدَمِ، هو وحده القادِرُ على تحقيق مرادِه، وهٰذا له أثَرٌ بالغٌ على نفس الإنسان، يتمثَّل بالطمأنينة والسكينة، والثِقَة القَوِيَّة المطلقة بالله والأَمَلِ الواسِع به، وهو قوة دافعة تشرح الصَّدْرَ لِلعَمَلِ، وتَبْعَثُ النشاط في الروحِ والبَدَنِ، وتَدفع عن النفسِ اليأسَ الذي يُحَطِّمُ فيها بواعِثَ العمل، ويُوهي في الجَسَدِ دواعي القُوّةِ والنشاط.

إن المؤمِنَ باللّهِ، هو أوسَعُ الناسِ أملاً، وأكْثَرُهُمْ تفاؤلاً واسْتِبْشَاراً، وأبْعَدُهُمْ عَنِ التَشاؤُمِ والتَبَرُّمِ والتَضَجُّرِ، ذلك لأنه يَعْتَصِمُ بِرَبِّه، الإلٰهِ البَرِّ الرحيم، العزيزِ الكريم، الغفورِ الوَدودِ، الفعّالِ لِمَا يُريد، يَجدُ فيه الملاذَ في الشِدَّة، والأنيسَ في الوَحْشَةِ، والنَّصِيرَ في القِلَّةِ، فيعيشُ على أملٍ لا حَدَّ له، وَرَجَاءٍ لا تَنْفَصِمُ عُراهُ، إنه دَائماً مُتفائِلٌ مُسْتَبْشِرٌ، يَنظُرُ إلى الحياةِ بِوَجْهٍ ضاحِكٍ، ويَسْتَقبِلُ أحداثها بِثَغْرٍ باسِمٍ، لا بِوَجْهٍ عَبُوس قمطرير.

فهو إذا مَرِض لم ينقطع أملُه في العافِيَة، قال اللّهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: 78 - 80].

وإذا اقترف ذنباً لم ييْأسْ مِنَ المَغْفِرَة، لأنه يعلم أنه مَهما يكن ذَنْبُهُ عَظيماً فإنَّ عَفْوَ اللّهِ أَعْظَمُ، قال اللّهُ تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: 53].

وهو إذا أعْسَرَ لم يَزَلْ يُؤَمِّل في اليُسْرِ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: 5، 6] وهو إذا انْتَابَتْهُ كارِثَةٌ مِن كَوارِثِ الزَمَنِ كان على رجاءٍ مِنَ اللَّهِ أن يُؤجِرَهُ على مُصيبَتِهِ، ويُخلِفَه خيراً منها: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: 156، 157].

وهو إذا عادى في الله أو كَرِهَ، كان قريباً إلى الصُلْح، راجياً في الصَفَاءِ والوِئام، مُؤمناً بأن اللَّهَ يُحوِّلُ القُلوب ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: 7].

أما الماديُّون فإنَّهم يَقِفُون عند السُنَن المُعتادَةِ والأسْبَابِ الظاهِرَة، لا يَطْمَعُونَ في شيء غيرها، ولا ينفذون مِن ورائها إلى سِرّ الوجود، إلى اللَّهِ خَالِقِ الأسباب والمُسَبِّبات، الذي عنده من الأسباب الباطِنَة ما يَخفى على إدراك العِباد، لذلك فإنّ أكثر ما نجدُ اليأسَ في صُفوفِ هؤلاءِ الذينَ قطعوا صِلَتَهم بخالِقِهِمْ وخالِقِ الكون، وهناك ارتباطٌ بين اليَأس والكفر، كِلَاهما سَبَبٌ للآخَرِ، وثمرةٌ له، اليأسُ يَلِدُ الكُفْرَ، والكفر ولِيدٌ لليأس ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: 87].

40 ـــ المُجِيبُ

معناه

مأخوذ من الإجابة، وهي تلبية الطلب، وكَوْنُ اللَّهِ مُجيباً: أي مُلَبِّياً دَعْوَة الدَّاعِي إذا دَعَاهُ، ومُسْعِفاً السائِل إذا ما التجأ إليه واستدعاه، قال الله تعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: 62]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: 186]. وقال تعالى في حكاية قول النبي صالح عليه السلام لقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61] ومَن عَرَفَ أنّ اللَّهَ وَحْدَهُ هو المُجيبُ لِدُعَاءِ المُضْطَرّ، القادِرِ على كَشْفِ السُوءِ عنه، فإنَّهُ لا يَدْعُو غَيْرَه، ولا يَلْتَجِىء إلّا إليه.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام الغزالي في كتابه: «المَقْصد الأسنى في شرح أسماء اللّهِ الحُسْنَى» في تفسير هٰذا الاسم: (المجيبُ هو الذي يُقابل مسألة السائلين بالإسعاف، ودُعاء الدَّاعِين بالإجابة، وضرورة المضطرين بالكفاية، بل يُنْعِم قبل النداء، ويتفضّل قبل الدعاء. وليس ذلك إلا الله تعالى، فإنه يعلم حاجة المُحتاجين قبل سُؤالهم، وقد علمها في الأزل فدبّر أسباب كفاية الحاجات، بخَلْقِ الأطعمة، والأقوات، وتَيْسير الأسْباب والآلات الموصلة إلى جميع المهمّات.

العَبْدُ ينبغي أن يكون مُجيباً أوّلاً لِرَبِّه تعالى فيما أمره به، ونهاه عنه، وفيما نَدَبَهُ إليه ودَعاه، ثم لعباده فيما أنعم اللّهُ عليه بالاقتدار عليه، وفي إسْعَادِ كلِ سائل بما يَسْأَلُهُ إنْ قَدِرَ عليه، وفي لُطْفِ الجَوابِ إن عَجزَ عنه، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: 10] وقال رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة عند «البخاري» في النكاح: «**لَوْ دُعِيتُ إلى كراع لأَجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إلَيَّ ذِراعٌ لَقَبِلْتُ**» وكان حضورُه الدَعَواتِ وقَبُولُه الهَدايا غَايَةَ الإكرام والإيجابِ منه. فكَمْ مِن خَسِيسٍ مُتَكَبِّر، يَتَرَفَّعُ عن قَبُولِ كلِ هديَّة، ولا يَتَبَذَّلُ في حُضورِهِ كلَّ دَعْوَة، بل يَصونُ جاهَهُ وكِبْرَه، ولا يُبالِي تَقَلُّبَ السائِلِ المُسْتَدْعي، وإنْ تَأَذَّى بسببه، فلا حَظَّ لمثله في معنى هٰذا الاسم).

ويقول الإمام المُحدِّث مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذا الاسم في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (المُجيب هو الذي يُقَابِلُ الدُعَاءَ والسُؤَالَ بالقَبُولِ والعَطاء، وهو اسمُ فاعِلِ مِن أجابَ يُجيبُ. وفي حديث أبي ذر الغفار الغفاري عند أحمد في «المسند»: «أنَّ رَجلاً قال: يا رسولَ اللّهِ! أيُّ الليل أَجْوَبُ دَعْوَةً؟ قال: جَوْفُ الليلِ الغابِرِ» ومعنى أجْوَبُ: أي أسْرَعُ إجابة، وأمضى دعوة وأنفذ إلى مَظانِّ الإجابة والقبول).

أثر هٰذا الاسم على العَبْد

إن مَن عَلِمَ أنّ اللّهَ مُجيبٌ يُجيب عبادَه إذا دَعُوه، حاول أن يكون له حَظٌّ

من هٰذا الاسم الكَريم، وحَظُّ العَبْدِ مِن هٰذا الاسم أن يُجيبَ ربَّهُ إذا دَعاهُ لطاعته، ونهاه عن مَعْصيته، وذلك عن طِيب نَفْسٍ، ومَحَبَّةٍ وإيمان، ورَجاءٍ برضوان الله ورحمته، وخوفٍ من غضبه وعِقابه، وإيثارٍ لما عنده على شهوات نفسه وملذّاتها.

وحظّ العَبْد مِن هٰذا الاسم أيضاً أن يُجيبَ عبادَ اللّه إذا سألوه فيما يقدر عليه، ولا يبخلُ عليهم فيما يَملِك وأَنْعَمَ اللَّهُ به عليه، فاللَّهُ يُحِبُّ العَبْدَ الكريمَ السَّخِيِّ الجواد، ولا يحبُّ البخيلَ الشحيحَ المُقَتِّر. إنَّ الكرمَ والسَخاءَ خُلُقٌ نبيلٌ حَسَنٌ وعاطِفَةٌ إنسانية سامية، وغايَةٌ رفيعة، وهو أعْظَم أساسٍ يُبْنَى عليه المجتمع الإسلامي لما فيه من تقوية الإلْفة والوَحْدَةِ والمَحَبَّةِ والمَجْد بين المسلمين، وهو أفضل سبيل يَسيرُ فيه المجتمعُ الصالحُ لإيجاد التوازن الاجتماعي بين طبقات المجتمع، ومكافحة الفقر والحرمان ومُواساة المَنْكُوبِين.

إن الدول العظمى في الغرب اليوم لم تجد حَلًّا لمشكلة الفقر لديها، وهناك مناطق كبيرة فيها لتجمُّع الفقراء، وذلك لأن النظام الرأسمالي يفرز الناسَ إلى طَبقتين: أغنياء فاحشي الغِنَى والثراء، وفُقَراء مُعْدَمين، ولكي تتوازن أمور الدولة فإنها تفرض الضرائب الباهظة على الأغنياء الذين يدفعونها كُرْهاً عنهم، ويحاولون التَهَرُّب منها بالوسائل غير المشروعة والمخالِفَة للقوانين، وتُطالِعُنَا الصحفُ الغربيَّة يَوْمياً عَن أخبار شركات عملاقة وأشخاص ذوي ثروات هائلة يتهرّبون من الضرائب، ولا تزال مشكلة الفقر عندهم تشكّل عِبْئاً على دولها، وهي تتفاقم وتَزْداد يوماً بعد يوم، بما يُنذِرُ بانفجار اجتماعي خطير وثورةٍ للجياع في العالم، بينما أظهرت دراسات إحصائية أن الثروة في العالم تنحصر بيدِ فئة قليلة من الجشعين الطامعين، وأن تسعة أشخاص أثرياء في العالم يملكون ما يملكه سائر سكّان الكرة الأرضية، وأن الثروة في العالم تتجّه إلى أن تنحصر في يد فئة قليلة، بينما سيعيش معظم سكان العالم تحت خط الفقر، وبعضهم في حالة العدم والمجاعات والكوارث البيئية، ومع ذلك لا يفكّر أغنياؤهم بفقرائهم ويعيشون في عُزلة نفسية، وأنانية حيوانية، وكأن الأمر لا يعنيهم!! وذلك لأنهم فقدوا إحساسهم الإنساني النبيل، وتحوّلت نفوسهم إلى غول بشع يريد ابتلاع كل ما حوله.

لقد أوجد الإسلام الحل للبشرية قبل أربعة عشر قرناً من الزمَن، وذلك

بتربية الضمير والوازع الأخلاقي لدى الأغنياء، فأعلمهم أن المال مال الله، وأنه هو الواهب الرازق، وأن له حَقّاً في هذا المال يُدفع للفقراء بنسبة معيّنة هي 2,5٪ وهي الزكاة عَلاوةً على ما تجود به نفوسهم من الخير والتطوُّع بالصدقات وفعل الخيرات، والمسلم الغني يُخرِج من يده ماله للفقراء وهو يشعر بأنه يؤدّي عبادَة لرَبِّه يثابُ عليها رضوانه ومثوبته وعفوه وغفرانه، مع شعور أَخَوِي كريم بإخوته الفقراء في المجتمع، فيُسرعُ إلى معاونتهم وإخراجهم من فقرهم وبؤسهم مع شعور بالمحبّة فياض، وليس عن كره، وكذلك فإنّ من نتيجة ذلك أن يزول البغضُ والشحناء والحقد من الفقراء على الأغنياء، وتكون نتيجة ذلك سلامة المجتمع من الأحقاد والأضغان، والتكافل والتوازن الاجتماعي.

أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب علاقة المُكلَّفين بخالقهم

بعد أن استعرضنا أسماءَ الله تعالى التي تدخل في باب الولاية والنصر للمؤمنين، نأتي على ذكر الصنف السادس من أسماء الله الحسنى، وهو ما يدخل في باب علاقة المُكَلَّفين بخالقهم.

إن اللَّهَ جلّ وعَلا خلق مخلوقات كثيرة، وجعل مِن هٰذه المخلوقات أصنافاً حَيَّةً، ووهب بعض هؤلاء الأَحْياءِ بالإضافة إلى القدرة على السعي والحركة، وهَبَهُم العَقلَ والإرادَةَ في حُدُودٍ ضَيِّقَةٍ، وحيثُ وهَبَهُم العقلَ والإرادة وجَّه إليهم التكليفَ بالأمر والنهي، أن يعرفوا خالِقَهم، ويسْلكُوا الصِراطَ المستقيمَ الذي يضمنُ لهم السَعادَة.

وبما أنّ الله وَحْدَهُ هو الذي له المِلْكُ الحقيقي التام على عباده، وهو الذي له الأمر والنهي، وعلى عباده معرفَتُه، والإيمانُ به وطاعَتُه، فقد أنزل بحكمته ورحمته للناس الشرائعَ لهدايتهم إلى معرفته وإرشادهم إلى صراط السعادة فأمرهم فيها بالصالحات، ونهاهم فيها عن السيئات، وكلَّفَهُم بالتزام الطاعَة، واجتناب المعصية، فإذا فعِلوا ذلك نالوا سعادَةَ الدُنيا والآخِرَة، ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله تعالى: (المَلِك، الهادي، الحَكَم، العَدْل، المُقْسِط، الحميد، الشكور، التوّاب، الغفور، الغفّار، العَفُوُّ، الحَليمُ، الصَّبُورُ، المُنْتَقِم)، ونشرح معاني هٰذه الأسماء الحسنى واحداً واحداً.

41 ــ المَلِكُ

معنى المَلِكُ

المَلِكُ ـ بكسر اللام ـ مِن المُلك ـ بضم الميم ـ أي المُتَصَرِّف بالأمر والنَهْي

في عباده قال الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: 114] وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في القرآن في خمسة مواضع، كما جاء في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى الذي أخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام حُجَّةُ الإسلام وفيلسوفه أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى» في تفسير هٰذا الاسم: (هو الذي يَسْتَغْنِي في ذاتِه وصِفاتِه عن كل مَوْجُود، بل لا يستَغْنِي عنه شيءٌ في شيء، لا في ذاته، ولا في صفاتِه، ولا في وُجُودِه، ولا في بَقَائه، بَلْ كُل شيء فوُجُودُه منه أو ممّا هو منه، وكلُّ شيء سِواه فهو مملوك له في ذاته وصفاته. وهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنْ كُلِّ شيءٍ، فهذا هو الملك المُطلَق.

العَبْدُ لا يُتَصوَّرُ أن يكون مَلِكاً مُطْلقاً، فإنه لا يَسْتَغْنِي عن كل شيءٍ، فإنَّه أبداً فقيرٌ إلى الله تعالى، وإن استغنى عمّا سِواه، ولا يُتصوَّرُ أن يحتاج إليه كلُّ شيءٍ، بَلْ يَسْتغني عنه أكثر المَوْجُودَات، ولكن لما تَصَوَّرَ أن يَسْتَغْنِي عنْ بَعْضِ الأشياء، ولا يَسْتَغْنِي عن بعضِ الأشياء كان له شَوْبٌ في المُلْكِ.

فالمَلِكُ مِن العبادِ هو الذي لا يُمَلِّكُ إلا الله، بل يَسْتَغْنِي عن كل شيء سوى الله. وهو مع ذلك يملك مَمْلَكَتَهُ بحيث يُطيعه فيها جُنودُه ورَعاياه. وإنّما مَمْلَكَتُهُ الخاصَّةُ به هي: قَلْبُه، وقالَبُهُ. وَجُنْدُه هم: شَهْوَتُه، وغَضَبُهُ، وهَواهُ. وَرَعِيَّتُه هم: لسانُه، وعَيْناهُ، ويَداهُ، وسائِرُ أعضائه، فإذا ملكها ولم تَمْلِكْهُ، وأطاعَتْهُ ولم يُطِعْهَا، فقد نالَ دَرَجَةَ المَلِكِ في عالَمِهِ.

فإن انْضَمَّ إليها اسْتِغْنَاؤه عن كلِّ الناس، واحتاجَ الناسُ كلُّهم إليه في حياتِهم العاجِلَةِ والآجِلَةِ، فهو المَلِكُ في العالم الأَرْضِي، وتِلْكَ رُتْبَةُ الأَنْبياءِ عليهم السلام، فإنَّهم استَغْنَوا في الهداية إلى الحياةِ الآخِرَة عن كل أَحدٍ إلّا عَن الله، واحْتاج إليهم كُلُّ أَحدٍ، يَليهم في هٰذا المُلْكِ العُلماءُ الذينَ هُمْ وَرَثَةُ الأنبياءُ، وإنّما مُلْكُهُمْ بِقَدْرِ قُدْرَتِهم على إرْشَادِ العِبَادِ، واسْتِغْنَائِهم عن الاسْتِرْشَادِ.

وبهٰذه الصفات يَقْرُبُ العَبْدُ مِن الملائكة في الصفات، ويَتَقَرَّب إلى الله

تعالى بها، وهٰذا المُلْكُ عَطِيَّةٌ للعَبْدِ مِنَ المَلِكِ الحَقِّ الذي لا مَثُوبَةَ في مُلْكِهِ.

ولقد صَدَقَ بعضُ العارِفين لمّا قالَ له بعضُ الأُمَراء: سَلْنِي حاجَتَكَ، قال: أَوَ لِي تقولُ هٰذا ولي عَبْدانِ هما سَيِّداك؟ قال: ومَن هُما؟ قال: الحِرْصُ، والهَوَى، فقد غَلَبْتُهما وغَلَباكَ، ومَلَكْتُهُمَا ومَلكاكَ.

وقال بَعْضُهم لشيخه: أَوْصِني، فقال له: كُن مَلِكاً في الدُنيا ومَلِكاً في الآخِرَةِ، فقالَ: وكيف؟ فقال: اقْطَعْ طَمعكَ وشَهْوَتَك عن الدُنيا، تكن مَلِكاً في الدنيا والآخرة، فإن المُلْكَ في الحُرِّيَّةِ والاسْتِغْنَاءِ). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام المُحدِّث مجد الدين أبو السعادات المبارك بنِ محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» (وفيه حديث سَعْدِ بن مُعَاذ عند الشيخين البخاريِّ ومسلم في صحيحيهما: «لَقَدْ حَكَمْتَ فيهم بِحُكْمِ المَلِكِ» يريدُ اللَّهَ تعالى.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إنّ مَن عَلِمَ أن الله تعالى هو المَلِكُ الحاكِمُ الآمِرُ الناهي، وأنه يَعيشُ في مَمْلَكَتِهِ، وعلى رزقه وفضله، وأنه لا يخرُجُ عن قُدْرَتِهِ وحكمه وسُلطانه ورَقابَتِه، وعِلْمِهِ وسمعه وبصره، فإنّه يُخْضِعُ إرادَته لِحُكْمِهِ، ويَتَّبع شرعه ودستورَه في مملكته، ويُطيع أوامِرَه، وينتهي عما نهاه عنه، ولم يخالف حُكمَه وأمره، ولم يَعْصِه في شيء لعِلمه بقدرته على عُقوبته ومُجازاته، وقدَّم للمَلِك كُلَّ طاعَةٍ واحترام وتوقيرٍ وتعظيم، وهٰذا شأن المُؤمن في الدنيا، وأما الكافِر فإنه الذي يجحدُ المَلِكَ ولا يُقِرُّ له بالحُكم والسلطان ولا يُقدّمُ له الطاعة، فإنه سيتعرّض لعقوبَةِ الملك وغضبه لخروجه عن سلطانه وأمره وحُكمه.

42 ـــ الحَكَمُ

معناه

الحَكَمُ ـ بِفَتْحَتَيْنِ ـ معناهُ: الحاكِمُ الذي لا مَرَدَّ لقضائِهِ، ولا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ؛ لأنه يَضَعُ الأَحْكَامَ في مواضِعِها، بِعِلمه وحِكمَتِهِ. قال اللَّهُ تعالى في

سورة الأنعام: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: 114] فالناسُ جميع بين يَدَيْ التكليفِ الرَّبّاني أمامَ الحَكَمِ العَدْلِ المُقْسِط. وقد وَرَدَ هٰذا الاسم في موضع واحدٍ من القرآن الكريم، كما جاءَ في الحديث النبوي الشريف الجامع للأسماء الحُسْنَى الذي أخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي من رواية أبي هريرة.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام وفيلسوفه الإمامُ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «المَقْصِدِ الأَسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى» في تفسير هذا الاسم: (الحَكَمُ هو الحاكمُ المُحَكَّمُ، والقاضي المُسَلَّم، الذي لا رادَّ لِحُكْمِهِ ولا مُعَقِّبَ لقضائه. ومِن حُكْمِهِ في حقِّ العِبادِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: 13 ـ 14].

ومعنى البَرِّ والفاجِرِ بالسعادةِ والشَقاوَةِ أن يَجْعَلَ البرَّ والفُجور سَبباً يَسُوقُ صاحِبَهُما إلى السعادَةِ والشَقاوَةَ، كما جَعَلَ الأدوِيَة والسُمومَ أسباباً تَسُوقُ مُتناولِها إلى الشقاءِ والهَلاكِ.

وإذا كان معنى الحِكْمَةِ ترتيبَ الأَسْبابِ وتَوْجيهَها إلى المُسَبِّبات كان حَكَماً مُطلقاً؛ لأنه مُسَبِّبُ كُلِّ الأسْباب جُمْلَتِها وتَفْصيلها.

ومن الحَكَم يَنْشَعِبُ القضاءُ والقَدَرُ. (فَقَضاؤُه): تَدْبيرُه أَصْلُ وَضْعِ الأَسْبابِ لِيَتَوَجَّهَ إلى المُسَبِّبات، حُكْمَهُ ونَصْبُهُ الأسبابَ الكُلِّيَّةَ، الأَصْلِيَّةَ الثابِتَةَ المُسْتَقِرَّة، التي لا تَزُولُ ولا تَحُولُ، كالأرض والسمٰواتِ السبع، والكواكِبِ والأَفلاك، وحركاتها المتناسِبَةِ الدائِمَةِ التي لا تتغيَّرُ ولا تَتَقَدَّمُ، إلى أن يَبْلُغَ الكتابُ أَجَلَهُ، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: 12].

(وقَدَرُهُ): توجيهُ هذه الأسباب: بتَحريكاتِها المتناسِبَة المَحْدُودَةِ المَقْدُورَةِ المَحْسُوبَةِ إلى المُسَبِّباتِ الحادِثَةِ منها لَحْظَةً بَعْدَ لَحْظَةٍ.

(فالحُكْمُ): هو التَدْبِيرُ الأَوَّلُ الكُلِّيُّ، والأَمْرُ الأَوَّلُ الذي هو كَلَمْحِ البَصَر.

(والقضاءُ): هو الوَضْعُ الكُلِّيُّ للأسْبابِ الكُلِّيَّة الدائمة.

(والقَدَرُ): هو تَوْجِيهُ الأَسبابِ الكُلِّيَّةِ بَحَرَكاتِهَا المُقَدَّرَةِ المَحْسُوبَةِ إلى مُسَبَّباتِها المَحْدُودَةِ المَعْدُودَةِ بِقدْرٍ مَعْلُومٍ لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ.

ولذلك لا يَخْرُجُ شَيْءٌ عن قَضاءِهِ وقَدَرِهِ، ولا يُفْهَمُ ذَلِكَ إلّا بِمِثالٍ: ولَعَلَّكَ شاهَدْتَ الساعات التي تُحدِثُ طنيناً والتي بها يُتَعَرَّفُ أوقات الصَّلاةِ، وما فيها من آلات وكيفية عملها، وكلُّ ذلك بتقدير مِقدار سببٍ لا يزيد ولا ينقص، فإذا تصوَّرتَ كيفية تشغيلها فاعلَمْ أن واضِعَها يحتاجُ إلى ثلاثة أمُور:

(**أولُها**): التَدْبِيرُ، وهو الحُكْمُ بأنه ما الذي يَنبغي أن يكونَ مِن الآلات والأسباب والحركات حتّى يُؤَدِّي إلى حُصولِ ما ينبغي أن يَحْصُلَ، وذلك هو الحَكَمُ.

(**والثاني**): اتّحاد هٰذه الآلات التي هي الأصول، وذلك هو القضاءُ.

(**والثالثُ**): نَصْبُ سَبَبٍ يوجِبُ حَرَكَةً مُقَدَّرَةً مَحْسُوبَةً مَحْدُودَةً وهو حدوث الطنين في وقتٍ مُعَيَّن لتنبيه الحاضرين وإسْماعِهم، وكل ذلك يكونُ بِقَدَرٍ ومِقْدَارٍ مُقَدَّرٍ.

فإذا فهمتَ أنّ الآلاتِ أُصولٌ لا بدّ للحركَةِ منها، وأنَّ الحَرَكَةَ لا بُدَّ مِن تقدُّرِها ليتقَدَّرَ ما يتولَّدُ مِنها، فكذلك فافهم حصولَ الحوادِث المُقَدَّرَةِ التي لا يَتَقَدَّمُ منها شَيْءٌ، ولا يَتَأَخَّرُ إذا جاءَ أجَلُها ـ أي حضر سَبَبُها ـ وكلُّ ذلك بِمِقْدَارٍ مَعْلُومٍ، وأَنَّ اللّهِ بالِغُ أمْرِهِ، إذ جَعَلَ اللّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً.

فَالسمٰواتُ، والأَفْلاكُ، والكَواكِبُ والأَرضُ والبَحْرُ، والهَواءُ، وهٰذه الأَجْسَامُ العِظامُ في العالَم كَتِلْكَ الآلات.

وهناك سَبَبٌ مُحَرِّكٌ للأفلاكِ والكواكِب والشمسِ والقمر بِحِسابٍ مَعْلُومٍ قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ۝٥﴾ [الرحمٰن: 5].

وإفضاءُ حَرَكَةِ الشمسِ والقَمَرِ والكواكبِ إلى حُصُولِ الحَوادِثِ في الأرض كإفضاء الآلات داخل الساعة إلى حصول الحركة المُفْضِيَةِ الى الطنين لمعرفة انقضاء الساعَة. ومِثالُ تداعِي حركات السماء إلى تغيّرات الأرض: هو أن الشمسَ بَرَكَاتُها إذا بَلَغَتْ إلى المَشرِقِ اسْتَضاءَ العالمُ وتَيَسَّرَ على الناسِ الإبصارُ، فَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِم الانتشارُ في الأشغال. وإذا بَلَغَت المَغْرِبَ تَعَذَّرَ عليهم ذلك، فَرَجَعُوا إلى المَسَاكِنِ، وإذا قَرُبَتْ مِن وَسْطِ السَماءِ، وسَمَت رؤوسَ أَهْلِ الأقاليم، حَمِيَ الهَواءُ، واشْتَدَّ القَيْظُ، وحَصَلَ نُضْجُ الفواكِه. وإذا بَعُدَت حَصَلَ الشِتاءَ، واشْتَدَّ البَرْد. وإذا توسَّطَتْ حَصَل الاعتِدالُ، وظَهَرَ الربيعُ، وأَنْبَتَتِ الأرضُ، وظهرت الخُضْرَة، فَقِسْ بهٰذِهِ المشهورات التي تعرفها الغرائبَ التي لا تعرِفُها، واختلافُ هٰذه الفُصولُ كَلُّها مُقَدَّرٌ مَعْلُومٌ؛ لأنَّها مَنُوطَةٌ بحركاتِ الشمسِ والقَمَرِ قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمٰن: 5] أي حركاتُهما بحُسْبَانٍ معلوم.

فهٰذا هو التقدير، ووضْع الأسْبابِ الكلِّيَّة هو القضاءُ. والتَدْبيرُ الأَوَّلُ، الذي هو كلمح البصر هو الحُكْمُ. واللَّهُ تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ باعتبار هٰذه الأمور. وكما أن حركة آلات الساعة ليست خارجة عن مشيئة واضع الآلة، بل ذلك هو الذي أَرادَه بِوَضْعِ الآلة، فكذلك كل ما يحدُث في العالم من الحوادِثِ سرِّها وخيرها، نفْعِها وضرِّها، غيرُ خارِجٍ عن مشيئة الله تعالى، بل ذلك مُرادُ اللَّهِ تعالى، ولأَجلِهِ دبَّر الأسباب، وهو المَعْنِيُّ بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119].

الرضا بِحُكْم الله

المؤمنُ مأمور باتخاذ الأسباب المادِّيَّةِ التي أَمَرَ اللَّهُ باتِّخاذِها لتحقيق النتائج المطلوبة التي تقع ضمن دائرة المسؤولية والتكليف، وبعد اتخاذِ الأسباب يتوكَّلُ على اللَّهِ ويعتمد عليه في تحقيق مُرادِهِ، بتيسير الأسباب الكفيلة بتحقيق هٰذا المُراد، ولكن الإنسان قد يَجهَلُ مصلحَتَهُ لعدم معرفته بالغيب واطلاعِهِ على ما قدَّره له منذ الأزل، فقد يتحقّق مُرادُه وقد لا يتحقّق، فإذا تحقّق ما أراده شكر اللَّهَ على توفيقه وتيسيره أسباب التوفيق والنجاح، وإذا لم يتحقّق مُرادُه فما هو الموقف الواجب عليه اتخاذه؟ يرشدُهُ اللَّه تعالى إلى حسن الظن والاعتقاد به بأنه

يعلم أين يكون خيره، ونفعه بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

حين لا تتحقق النتائج المرْجوَّة بعد اتخاذ الأسباب المُسْتطاعة، يلاحِظُ المؤمن أن اللّهَ قد قضى له ما هو خير، وادَّخَرَ له الأَفْضلَ والأحسن، فهو يَسْتَقْبِلُ عدمَ تحقيق النتائج بمِثْلِ استقباله لهما فيما لو تحقَّقَتْ، وهكذا يكون مُطمئِنَّ القَلْبِ راضِياً ويكون في أَعماله باذِلاً أقصى ما يستطيع، مُتفائلاً بأن اللّهَ لا يقضي له إلّا ما هو خير. فالتوكّلُ على اللّهِ، والاعتمادُ عليه، والاستعانةُ بِه أُمُورٌ مِن أعمالِ قلبِ المؤمِن، فإذا امتلأ بها قَلْبُ المُؤمِن وهو يباشِرُ الأسبابَ المادِّيَّة على مِقْدار استطاعته، ازدادَت قُوَّتُه المعنويةُ في الانْدِفاع لتحقيق النتائج المَرْجُوَّة، ثقةً منه بأنَّ اللّهَ يُسَدِّدُه ويُؤيِّدُه وسَيُحَقِّقُ له ما يرجو إذا عَلِمَ أنّ فيه الخير.

أثر اسْمِ اللّهِ الحَكَم على العَبْد

وهكذا فإن المؤمِنَ العاقِلَ متى صَحَّ فَهْمُه لحقيقة القضاءِ والقَدَرِ واستسلم لحُكم الله ورضي به، وامْتَلأَ قَلْبُه عقيدةً بأن كلَّ ما يَجْرِي له مِن نِعَم، وما ينزلُ عليه من مصائِب، أَمْرٌ مَحْتُومٌ مَرْسُومٌ، مُرادٌ لله تعالى، مَقْضِيٌّ بقضَائِه، مُحَدَّدٌ بتقديره، مُنَفَّذٌ بِقُدْرَتِهِ، وراقَبَ مَع ذلك صِفاتِ اللّهِ العظيمة التي منها: عِلْمُهُ وحِكْمَتُهُ، ورَحْمَتُه وعَدْلُهُ، ثم مَتى آمَن بهٰذا وفَهِمَهُ فَهْماً صحيحاً اطمأنَّ قلبُه لكل ما يَجري في الكون ممّا لا كسْبَ له فيه، ورضيَ بمُرادِ اللّهِ مَهْمَا كان ذلك الأمْرُ مُحْزِناً أو مُسِرّاً، وانتقل مِنَ الأسْبابِ إلى مُسَبِّبها، فارتَقَى في سُلَّم مَحبَّةِ اللّهِ والقُرْب منه.

وصَدَقَ القائل إذْ يقولُ لِمَمْدوحِهِ: «فما لِجُرْحٍ إذا أَرضاكُمُ أَلَمُ» إنَّ المُؤمنَ الصادِقَ، وهو في مَقام حُبِّهِ لِرَبِّه، حَرِيٌّ بأن يقولَ مُطمئِنَّ القَلْب: «رَضيتُ باللّهِ تعالى ربّاً، وبقضائِه حُكَماً، إنَّهُ وليِّي، وهو حَسْبي ونِعْمَ الوكيل» وبذلك يُفرغُ اللّهُ على قَلْبه مَعانٍ من السعادَةِ لا يَجدُها في شيءِ آخرَ مِن مَحابِّ الدُنيا ومَسَرَّاتِها.

ولمّا تَحلَّى المُسْلِمونَ الأَوَّلون بهٰذه العَقيدَةِ، كانوا سادَةً وقادَةً، وكانوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت للناسِ، وتحقّقَتْ لهم السَعادَةُ العُظْمَى في الدُنيا والآخِرَة.

ولما وَضَحَت هٰذه العقيدة في نفس عُمَرَ ﷺ قال: «لَا أُبالي على أيِّها أُصبِحُ أو أُمْسِي، على ما أُحِبُّ أو على ما أكرَهُ؛ لأنني لا أدري أيهما خيرٌ لي».

وصَدَقَ رسولُ اللّٰه ﷺ حين قَال فيما رواه عنه الإمام مسلم في الزهد من «صحيحه» عن صهيب الرُّوميّ ﷺ: **«عَجَباً لأمر المُؤمن، إن أَمْرَه كلَّه له خَيْرٌ، وليس ذلك إلا للمؤمن إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابَتْهُ ضرّاءُ صَبَرَ فكان خيراً له»**.

هٰذا من جهة ما يَدْخُلُ في دائِرة حُكْم اللّٰهِ وقضائه وقدره.

وأما ما يدخلُ ضمن دائرة كَسْبِ الإنسان، فإن المؤمِنَ الصَّادِقَ إنْ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ الاستِقَامَةَ والطاعَةَ وابتغاءَ مرضاةِ اللّٰهِ في أعمالِهِ، فإنه يَحْمَدُ اللّٰهَ على تَوْفيقه، ويَشْكُرُهُ على ما أنْعَمَ عليه مِن فضل. وإن وَجَدَ من نفسه غيرَ ذلك، عادَ عليها باللَّوْمِ والتثريبِ والنَدَم، والحُزنِ الشديدِ على ما فرَّط في جَنْبِ اللّٰهِ، ثم يُقْبِلُ على ربِّه تائباً مُنِيباً، مُسْتَغْفِراً مِنْ ذَنْبِهِ، ذاكِراً قولَ اللّٰهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

مسؤولية الإنسان عن أعماله

حين يَتِمُّ للمسلم التصوُّرُ الصحيح لمفهوم حُكْمِ اللّٰهِ بالقضاءِ والقَدَرِ، وَفْقَ ما جاء في كتاب اللّٰهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، ووَفْقَ الفَهْمِ الذي كان عليه السلفُ الصالِحُ وأدركه أهلُ السُّنَّةِ والجماعة فإنه لا يَخلِطُ بين مواقِعِ المسؤولية الإنسانية وما يَجْرِي بِمَحْضِ القضاء والقَدَرِ.

أما ما يَجْرِي بمَحْضِ القضاء والقَدَرِ فإنه يَسْتَقْبِلُهُ بالتسليم والرضَا، ويَعْلَمُ أنَّه عينُ الحِكْمَةَ التي اقتضتها إرادَةُ الحكيم العَلِيّ العَليم. وأما ما يقعُ في دائرة المَسْؤولية الإنسانية فإنه يباشِرُ فيه الأَسْبابَ التي اقتضتها سُنَّةُ اللّٰهِ في كونه، وأمر به الله فيما أنزل على رسوله من التشريع، ويحاسِبُ نفسه ويُحاسِبُ الآخَرين وَفْقَ حُدودِ المسؤولية التي ناطها اللّٰهُ بالمُكلَّفين منْ عِبادِهِ.

فلا يُلْقِي نَفْسَهُ في التَهلُكَةِ اعتماداً على ما تَقْضِي به المَقادِيرُ الرَّبَّانِيَّةِ؛ لأنّ هذا مِنْ حُدودِ المَسْؤلِيَّةِ الإنسانيةِ. ولا يتركُ أسبابَ الكسْبِ التي أمَرَ اللّٰهُ تعالى

بها، اعتماداً على ما تقضي به المَقادِيرُ الربَّانيَّةُ في الرزق؛ لأن مباشرة أسباب الكسب من حدود المسؤولية الإنسانية ولا يترك الجهاد في سبيل الله لنصر دين الله، ورد كيد أعداء الله، اعتماداً على ما تقضي به المقادير الربانية، مِنَ النصر والهزيمة؛ لأن القِيامَ بواجب الجهاد في سبيلِ اللَّهِ من حُدود المَسْؤولية الإنسانية، ولا يترك إعداد المُسْتطاع من القُوَّة، اعتماداً على قوَّةِ اللَّهِ القادر على نصر أوليائه على أعدائه؛ لأن إعداد المُسْتطاع من القوة العسكرية البشرية من حُدودِ مسؤولية المسلمين. وهكذا إلى سائر الأسباب التي تقع ضمن حدود المسؤولية الإنسانية.

بهٰذا الفهم السَّليم والعَمَل السَبَبِي الذي أوجبه اللَّهُ على الناس وَجَعَلَه مِن سُنَنِ كَوْنِهِ، ظَفَرَ المسلمون الأَوَّلون بالمجد العَظيم، واحتلّو مركز قيادَةِ الناس إلى الحق. قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُم مَسْؤولٌ عَن رَعِيَّتِهِ**»، وقال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: 24].

43 ــ العَدْلُ

معناه

هو في الأصل مَصْدَرٌ أُقيم مقامَ اسم الفاعِل الذي هو العادِلُ للمُبالَغَةِ، فمعنى اسم اللَّهِ العَدْلِ: أنه البالِغُ في العَدْلِ غايَتَه. فهو الذي لا يَظلِمُ أحداً في تقرير عِقابٍ عليهِ لا يَسْتَحِقُّهُ، أو بِحِرْمَانِهِ مِنْ أَجْرٍ هُوَ لَهُ، بِحَسَبِ وَعْدِهِ الصادِقِ.

وفي معنى أنه عادِلٌ لا يَظلِمُ أحداً، قال اللَّهُ تعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: 90].

ولم يَرد هٰذا الاسم بهٰذه الصيغة في القرآن الكريم، وإنما جاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ وأخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام حجّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المَقصِد الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: «العَدْلُ معناه العادِلُ، وهو الذي يصدُرُ منه فعل العَدْلِ المُضادّ للجور والظلم. ولَنْ يعرف العادِلَ مَن لم يَعْرِفْ عَدْلَه. ولا يعرِفُ عَدْلَهُ مَن لم يَعرِفْ فِعْلَه. فمن أرادَ أن يَفْهَمَ هٰذا الوصف فينبغي أن يُحيطَ عِلْماً بأفعال اللَّهِ تعالى مِن أعْلَى مَلكوت السمٰوات إلى منتهى الثرَى، حتّى إذا لم يَرَ في خلق الرحمٰن مِن تفاوِت، ثم رَجعَ البَصَر فما رأى مِن فُطور، ثم رَجعَ البَصَرَ مَرَّةً أخرى فانْقَلَبَ البَصَرُ إليه خاسِئاً وهو حَسِيرٌ، وقد بَهَرَهُ جمالُ الحضرة الرّبوبية وحَيَّرَهُ اعتدالها وانتظامُها، فعند ذلك يعشق بفهمه شيئاً من معاني عَدلِ اللَّهِ تعالى.

وقد خلق اللَّهُ أقسامَ المَوْجُودات: جِسمانِيِّها وروحانيِّها، كاملها وناقصها، وأعطى كلَّ شيء خلقه، وهو بذلك جواد، ورتّبه في موضعه اللائِق به، وهو بذلك عدلٌ.

فمن الأجسام العِظام في العالم: الأرض، والماء، والهواء، والسمٰوات والكواكب، وقد خلقها ورتّبها، فوضع الأرضَ في أَسْفَلِ السافِلين، وجَعَلَ الماءَ فوقها، والهواءَ فوقَ الماءِ، والسمٰوات فوق الهواء. ولَو عكس هٰذا الترتيبَ لَبَطَلَ النِظامُ.

ولعلّ شرح وجهِ استِحْقاق هذا الترتيب في العَدْلِ والنظام مما يَصْعُبُ على أكثر الأفهام. فلننزل إلى دَرَجَةِ العوامّ ونقولُ: لينظر الإنسانُ إلى بَدَنه، فإنه مركَّبٌ من أعضاء مُختَلِفَةٍ، كما أن بَدَنَ العالَم مُرَكَّبٌ مِن أَجْسَام مختلفة، فأوّل اختلافه أن ركَّبَهُ من العَظم واللحم والجلد، وجَعَلَ العظامَ عماداً مُسْتَبْطِناً، واللحمَ صِواناً له مُكْتنِفاً إياه، والجِلْدَ صِواناً لِلَّحْم. فلو عكس هٰذا الترتيب، وأظهر ما أبطَن لَبَطَلَ النظام.

وإن خَفِيَ عليكَ هٰذا، فقد خَلَقَ للإنسان أعضاءً مختلفة مثل: اليَد، والرِجْل، والعَيْن، والأنف، والأُذن. فهو بخلق هٰذه الأعضاء جوادٌ. وبوضعها في مواضعها الخاصّة عَدْلٌ؛ لأنه وضع العَيْن في أولى المواضِع بها من البَدَن، إذ لو خَلَقَها على القفا، أو على الرِجْل، أو على اليد، أو على قِمّة الرأس، لم يَخْفَ ما يتطرّق إليها من النقصان والتعرض للآفَة. وكذلك علّقَ اليدين من

المنكبين، ولو علقهما من الرأس، أو من الحقو، أو مِن الركبتين، لم يَخْفَ ما يَتَوَلّدُ منه مِن الخَلَلِ. وكذلك وضعُ جميع الحواسّ على الرأس، فإنّها مداخل المعرفة لتكون مشرفة على جميع البدن، فلو وضعها على الرِجْلِ اختَلَّ نِظامُها قطعاً، وشرح ذلك في كل عُضْوٍ يَطول.

وبالجملة فينبغي أن تَعْلَم أنه لم يخلُق شيئاً في موضعه إلّا لأنه مُتَعَيِّنٌ له. ولو تيامَن عنه، أو تياسَر، أو تَسَفَّل، أو تعالى لكان ناقصاً، أو باطِلاً، أو قبيحاً خارجاً عن التناسب كريهاً في المَنْظر. وكما أن الأنفَ خُلِقَ على وَسَطِ الوَجْهِ، ولو خُلِقَ على الجَبْهَةِ أو على الخَدِّ، لَتَطَرَّقَ نقصانٌ إلى فوائِدِه.

وإذا قوِيَ فهمك على إدراك حكمته فاعلم أن الشَمسَ أيضاً لم يخلقها في السماء إلّا بالحق، وما وضعها إلّا موضِعَها المُسْتَحِقّ لها بحصول ما قَصَدَهُ منها. إلا إنك ربّما عجزت عن دَرْكِ الحكمة فيه؛ لأنّك قليل التفكير في ملكوت السمٰوات والأرض وعجائبها، ولو نظرتَ فيها لرأيتَ من عجائبها ما تَستحقِرُ فيها عجائبَ بَدَنِكَ، وكيفَ لا وخَلْقُ السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس؟!

وليتَكَ وفّيتَ بمعرفة عجائب نفسك، وتفرّغتَ للتأمُّل فيها، وفيما يكتنفها من الأَجْسام، فتكون ممَّن قال اللّهُ فيهم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53] ومن أينَ لك أن تكونَ مِمَّن قال اللّهُ فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75] وأنى تُفتَّح أبواب السماء لمن اسْتَغْرَقه همُّ الدنيا واستعبده الحرصُ والهَوَى؟!

فهٰذا هو الرمْزُ إلى تفهيم مبدإ الطريق إلى معرفة هٰذا الاسم الواحِد. وشرحه يفتقر إلى مجلدات، وكذلك شرح معنى كل اسم. فإن الأسامي مشتقّة من الأفعال لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال. وكل ما في الوجود من أفعال الله، ولن تحيطَ عِلماً بتفصيلها، فإنه لا نهاية لها. وأما الجملة، فللعبد طريق إلى معرفتها، وبقدر اتِّساع معرفته فيها يكون حظّه من معرفة الأسماء. وذلك يَسْتغرقُ العلومَ كلَّها، وإنما غايتنا الإيماءَ إلى مفاتِحها ومعاقد جمّها فقط.

وحظّ العبد من العَدْل لا يخفى، وأول ما عليه من العدل من صفات نفسه، وهو أن يَجْعَلَ الشَهوَة والغَضَب أسِيرَيْن تحت إشارة العقل والدين، ومهما جعل

العقلَ خادِماً للشهوة والغضَب فقد ظلم. هٰذا جملة عدله في نفسه، وتفصيلُه مُراعَاةُ حُدودِ الشَّرْعِ كُلِّه. وعَدْلُه في كل عُضْوٍ أن يَسْتَعْمِلَهُ على الوَجْهِ الذي أَذِنَ الشرعُ فيه.

وأما عدْلُه في أهلِه وذُرِّيَّتِهِ، ثم في رَعِيَّتِهِ إن كان مِن أهل الحُكم فلا يَخْفَى. وربَّما ظنَّ أن الظُلْمَ هو الإيذاءُ، والعدلُ هو إيصالُ النفع إلى الناس، وليس كذلك، بل لو فتح الملِكُ خزائنه المشتملة على الأسلحة والكتب وصُنوفِ الأموال، ولكن فرّق الأموال على الأغنياء، ووهب الأسلحة إلى أهلِ العلم، ووهب الكتبَ إلى الأجناد فقد ظلم وعَدَل عن العدل إذ وضع كل شيء في غير موضعه اللائق.

44 ـ المُقْسِطُ

معناه

مأخوذ من أقْسَطَ: إذا انْتَصَفَ للمظلوم، وأزالَ الجَوْرَ عنه. فيكونُ معنى هٰذا الاسم: الذي يَعْدِلُ بين الخلائق فيما يجرِي بينهم من تظالُم.

أما القاسِطُ، المأخوذ من الفعل قَسَطَ ـ بدون همز ـ فهو الظالِمَ الجائر؛ لأن معنى قَسَط: جارَ.

فمِنَ المُقْسِط قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 43].

ومِن القاسِط، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴿١٥﴾﴾ [الجن: 15].

وفي معنى أنه عَدْلٌ مُقْسِطٌ قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: 18] ولم يَرِدْ هٰذا الاسم لله تعالى في القرآن الكريم، وإنما وَرَدَ في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى الذي رواه أبو هريرة ﷺ وأخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي، كما أجمع عليه العلماء.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام حُجّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي: رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هٰذا الاسم في كتابه «المَقْصِد الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى»: (المُقْسِطُ هو الذي يَنْتَصِفُ للمظلوم من الظالِم. وكماله في أن يُضيفَ إلى إرضاء المَظلوم إرضَاءَ الظالم. وذلك غايةُ العدل والإنصَاف، ولا يقدرُ عليه إلّا اللَّهُ تعالى. مثاله ما أخرج الحاكم النيسابوري في «المستدرك على الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ بينما هو جالس إذْ ضَحِكَ حتى بدت ثناياه، فقال عمر: بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ الله، ما الذي أضحكك؟ قال: **«رجُلان مِن أمّتي جثيا بين يدي ربّ العزّة، فقال أحدُهما: يا ربِّ خُذْ لي مَظلَمَتِي مِن هٰذا»**. فقال اللَّهُ ﷻ: **«رُدَّ على أخيكَ مظلمتَه، فقالَ: يا ربِّ! لم يَبْقَ مِنْ حَسَناتي شَيْءٌ»**، فقال ﷻ للطالب: **«كيف تَصْنَعُ بأخيك ولم يَبْقَ مِن حسناتِهِ شيءٌ؟ فقال: يا رَبِّ! فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِن أَوْزارِي»**، ثم فاضَت عينا رسولِ اللَّهِ ﷺ بالبكاء وقال: **«إنّ ذلك لَيومٌ عَظيمٌ، يَوْم يحتاجُ الناسُ إلى أن يُحملَ عنهم أوزارُهم»**، قال: **فيقولُ اللَّهُ** ﷻ ـ أي للمُتظلِّم ـ **ارفع بصرك فانظر في الجنان، فقال: يا رب! أرى مَدائِنَ مِن فِضَّة، وقصوراً من ذهب مُكلَّلة باللؤلؤ، لأيِّ صِدِّيقٍ أو لأيِّ شهيدٍ هٰذا؟ قالَ اللَّهُ** ﷻ: **لِمَنْ أَعْطى الثمن، فقال يا ربِّ! ومَن يَملِكُ ذلكَ؟ قال: أنتَ تملِكُه. قال: يا رب! بماذا؟ قال: بعفوك عَن أخيكَ. قال: يا رَبِّ! قد عفوتُ عنه. قال اللَّهُ**ﷻ: **خذ بيَد أخيكَ فأدْخِلْهُ الجنَّة**. قال ﷺ **«اتَّقُوا اللَّهَ وأصلِحُوا ذاتَ بَيْنِكم، فإنّ اللَّهَ تعالى يُصْلِحُ بَيْنَ المؤمنين يوم القيامة»**.

فهٰذا سبيل الانْتِصاف والإنصاف. ولا يقدر على مثله إلّا ربُّ الأرباب.

وأوْفر العَبيد حَظاً مِن هٰذا الاسم مَن يَنتصِفُ أوّلاً من نفسه، ثم لغيره من غيره، ولا ينتَصِفُ لنفسه من غيره.

ويقولُ المُحدِّث مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: المُقْسِطُ هو العادِلُ، يُقالُ: أَقْسَطَ يُقسِطُ فهو مُقسِطٌ: إذا عَدَلَ. وأمّا قَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسِطٌ؛ إذا جارَ. فكأنّ الهمزة في «أقْسَطَ» للسَّلْبِ، كما يُقالَ: شكا إليه فأشكاه.

وفيه الحديث الذي أخرجه الإمامُ مُسْلمٌ في «صحيحه» عن أبي موسى الأشعريّ ﷺ قال: قام فينا رسولُ اللَّهِ ﷺ بخمسِ كلمات؛ فقال: «**إنَّ اللَّهَ ﷻ لا ينامُ ولا ينْبَغِي له أنْ ينامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قَبْلَ عَمَلِ النهارِ، وعَمَلُ النهارِ قَبْلَ عَمَلِ الليلِ، حِجابُهُ النورُ، لو كَشَفَه لأحْرَقَت سُبحُات وَجْهِهِ ما انْتَهَى إليه بَصَرُهُ مِن خَلْقِهِ**» ومعنى القِسْطِ في الحديث: الميزان، سُمِّيَ به مِن القِسْطِ وهو العَدْلُ. أرادَ: أن اللَّهَ يَخْفِضُ ويرفع ميزانَ أعمال العباد المرتفعة إليه، وأرزاقَهُم النازلَةَ من عنده، كما يرفَعُ الوزَّانُ يَدهُ ويَخفِضُها عند الوزن، وهو تمثيل لما يقدِّره اللَّهُ ويُنْزِلُه. وقيل: أراد بالقِسْطِ: القِسْمَ منَ الرزقِ الذي يُصيبُ كُلَّ مخلوق، وخَفْضُه: تقليله، ورفْعُهُ تكثيرُه.

وفيه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام رسولُ الله ﷺ على باب بيتٍ فيه نفر من قريش، فقال ـ وأخذ بعَضادةِ البابِ، ثم قال: «**هل في البيتِ إلاَّ قُرَشِيٌّ**»؟ فقيل: يا رسولَ اللَّهِ، غيرَ فلان ابنُ اختِنا فقالَ: «**ابنُ أختِ القوم منهم**»، قال ثم قال: «**إن هذا الأمر في قريش ما داموا إذا اسْتُرحِمُوا رحِمُوا، وإذا حَكمُوا عَدَلوا، وإذا قَسمُوا أقْسَطُوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنَةُ اللَّهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يُقبَل منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ**» ومعنى أَقْسَطُوا: أي عَدَلوا.

أثر هذا الاسم على العبد

إنّ مَن عَلِمَ أن مِن أسماءِ اللَّهِ تعالى العَدْلُ والمُقْسِطُ اطمأنَّ أولاً إلى عَدْلِ اللَّهِ تعالى، وعَلِمَ أن له ربّاً عادِلاً في أحكامِه، لا يَظلِمُ أحداً ولا يَبْخسُه حقه، ولا يُضيِّعُ له عملاً، وأنه يأمُرُ الناسَ بالعَدْلِ وينهاهم عن الظلم، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ في الحديث القُدسِيّ الذي يرويه عن ربه تباركَ وتعالى فيما أخرجه البخارِي عنه في كتابه «الأدب المفرد» عن أبي ذر الغِفاريّ ﷺ قال: «**يا عِبادِي إني قد حرَّمْتُ الظلمَ على نَفسِي، وجعلتُه بينكم مُحرَّماً، فلا تظالَمُوا**» وأخرج عن جابر عنه ﷺ أنه قال: «**اتّقوا الظلمَ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

لقد أنزل اللَّهُ شريعة سَمْحاء عادِلَةً لا تُحابي أحداً مِن الناس على حساب أحد، ولا ترفَع أحداً على حساب أحد، فالقويّ والضعيفُ فيها سواء، والغنيّ

والفقير فيها سواء وأحكامُه مفروضَةٌ على الجميع، مَلِكِهم وعامَّتِهم، وذلك أنها مِن تنزيل اللَّهِ ربِّ العالمين، الحكيم العليم، الخبير بما خلق، الذي لا يجامِلُ أحداً ولا ينحاز لأحد، فالكلُّ عنده سواسِيَة كأسنان المشطِ الواحد، بينما كانت النظمُ الوضعيَّةُ التي سنَّها البشرُ وارتضوها لأنفسهم نُظَماً قاصِرَةً بقُصُور واضعيها، متأثِّرةً بعقولهم وأهوائهم وأغراضهم وغاياتهم فكانت بذلك أحكاماً ظالمة، وكم مِن قاتلٍ مُجرم يَسْرَح ويمرح في ظل هٰذه الأنظمة، وكم مِن شريف تقيّ نقيّ، مسجونٍ ومُعَذَّب، وكم من لِصٍّ كاذب يختل الناسَ ويسرق أموالهم باسم الحضارة، والعدلُ أساسُ الملك.

الإسلام دين العَدالة

العدالَةُ من المُثُلِ الأساسية التي جاء الإسلامُ ليقرِّرَها بين بَني الإنسان، وقد كان طَبيعياً مِنَ الإسلامِ الذي يحرص على كرامَةِ الإنسان، ووصولِ حقّه إليه أن يأمر بالعدالَةِ الضرُوريَّةِ لإقامَةِ الحَقّ، وضَمانِ العَدْلِ الذي يشيع الطمأنِينة وينشرُ الأمْنَ، ويَشُدُّ عِلاقات الأفراد بعضهم ببعض، ويجعل الروابِطَ بَيْنَهم قائِمةً على التوازنِ والانسجام والإخاء.

أهمية العدالة في الإسلام

مِن هنا نجدُ آيات القرآن، وأحاديث الرسول مَليئَةً بالدَّعْوَةِ للعَدالة وإحقاق الحَقِّ، مُحذِّرَةً من الظُلم والبَغْي، ومحرّمةً له تحريماً قاطِعاً، ومُتَوَعِّدَةً عليه بالعقابِ الغليظ. قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: 90] .

إنّ اللَّهَ تعالى عَدْلٌ مُقْسِطٌ، وقد أرسَل رُسُلَه، وأنزل كُتُبَه وكلّف الناسَ بالشرائع لإقامة العَدْلِ والحقّ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، والسمٰوات والأرضُ إنما قامَتا بالعَدْلِ، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمٰن: 7 ـ 9]. وقد أُمِرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالعَدْلِ بين الناسِ، قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن

كِتَٰبٍۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: 15] .

تحريم الإسلام للظلم

أما الظُلْمُ فإنّه أمْرٌ حرَّمَهُ اللّه تعالى على نفسه، وحرَّمَه على عِبادِه، يقول تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: 31] وأخرج الإمامُ البخاري في كتابه «الأدب المُفْرَد» عن أبي ذَرٍّ الغفارِيّ، عن النبي ﷺ، عن الله تبارك وتعالى قال: **«يا عِبادِي! إني قد حَرَّمت الظُلْمَ على نفسي، وجَعَلْتُه بَيْنكم مُحَرَّماً، فلا تظالَمُوا»** وقد نهى رسولُ اللّهِ ﷺ عن الظُلْم، وأخبرنا أنه يكون ظلماتٍ يوم القيامة، أخرج الإمام البخاريّ في «الأدب المفرد» عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: **«اتَّقوا الظُلْمَ، فإنَّ الظُلْمَ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَة»**.

عدم المَيْل في الحكم

والعَدْلُ الذي يُنادِي به الإسلامُ عَدْلٌ مُطْلَقٌ يُساوِي بين الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: 58] ولا تُعْتَبَرُ العَداوَةُ التي تقومُ بين الناسِ مُبَرِّراً لِقِيام الظُلْم، أو تَرْكِ العَدْلِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة] وحتَّى القَوْلَ أمرَ اللّهُ بالعَدْلِ فيه، ولو كان يتعلَّق بذوي القُربى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 152] .

وجوب العدالة على الفرد والمجتمع

والعدل في الإسلام مفروض على الأفراد، وعلى المجتمع، فالعدل في الأفراد هو إعطاءُ كلِّ ذي حَقٍّ حقَّه، ومِن آفاتِه التَحيُّزُ، والمجتمعُ العادِلُ هو المجتمعُ الذي له مِن نُظُمِهِ وقوانِينه ما يُسَهِّل لِكُلِّ فَرْدٍ أن يَصِلَ إلى حَقِّه، وأن يَرْقَى على قَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ، والتَحْدِيدُ الدَّقِيقُ لِعِلاقَةِ الفردِ بالمُجْتَمَعِ عَدْلٌ أيضاً، وأساسُ العَدْلِ التَجرُّدُ عن الهوى، وعَدَمُ التأثُّر بأيِّ شيءٍ إلّا الحقّ.

مبادئُ العَدْل

وللعَدْلِ مَبادئُ كثيرة. لذلك كان العَدْلُ مِن أُسُسِ الحكم ودِعَامَتُه القويَّةَ، يقولُ الخليفة الراشدُ الأول أبو بكر الصدِّيقُ ﷺ في خُطبته الأُولَى بَعْدَ أن وَلِيَ الخِلافَةَ، تِلكَ الخُطْبَةُ التي جعلها دُستورَ حُكْمِهِ: «الضعيفُ فيكم قويٌّ عِندي حتَّى آخُذَ الحَقَّ له، والقَوِيُّ فيكم ضَعِيفٌ عِندي حتى آخُذَ الحقَّ منه إنْ شاء اللَّهُ».

وكان الخليفةُ الراشِدُ عمر بن الخطاب ﷺ لِحِرْصِهِ على أن يَحْكُمَ عُمّالُه ووُلاتُه بالعَدْلِ، يَخْرُجُ مَعَ مَن يَسْتَعْمِلهم يُشَيِّعُهم ويذكُر لهم أنه لم يستعملهم على الناسِ لِيَنَالُوا مِن أَبْشَارِهِمْ ـ أي مدحهم وبشاراتِهم ـ وأَمْوالِهم وأعراضِهِمْ، وإِنَّما لِيُعَلِّمُوهُم كتابَ اللَّهِ وسُنَّةَ رَسُولِهِ، وليَقْضُوا بَيْنَهم بالحق، ويَقْسِمُوا بينهم بالعَدْلِ، وكان يقولُ للناس: «مَن ظَلَمَهُ عامِلُهُ بِظَلَامَةٍ فَلْيَرْفَعْها إليَّ حتى أَقُصَّه منه». وحين سأله عمرو بن العاص واليه على مصرَ قائِلاً: يا أمير المُؤمنين! أَرَأَيْتَ إنْ أَدَّبَ الأميرُ رجُلاً مِن رعيَّتِهِ، أَتَقُصُّهُ منه؟ فقال عمرُ: ما لي لا أَقُصُّه منهُ وقد رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَقُصُّ مِن نفسه».

مجالات العدل في الإسلام

والعَدْلُ الذي يَتَطَلبُه الإسلام عَدْلٌ في الحُكْم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النساء: 58] والإِمَامُ العادِلُ أحدُ سَبْعَةٍ يُظَلِّهُم اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه، وقد أخبر رسولُ اللَّهِ ﷺ أن سَيِّدَ الشهداء حمزة بن عبد المطلب. ورَجُلٌ قام إلى إمامٍ جائِرٍ فأمَرَه بالمعروف ونهاهُ عن المُنكر فقتله.

وهو عدلٌ في الضعفاءِ، وتسوِيَةٌ بين المتخاصِمَيْنِ مهما اختلفت منزلتهم أو تبايَنَتْ طبَقَتُهُم، كما أنه عَدْلٌ في توزيع الحقوق والواجباتِ، وعَدْلٌ في إقامَةِ الحُدُودِ بين الناسِ، وفي القِصاصِ، وعَدْلٌ في القولَ والشَهادة والكتابة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9].

45 ـــ الحميد

إن المُكَلَّفين في واقع حالهم بين يدي التكليف الرَّبَّاني أقسامٌ ثَلاثَةٌ:

(القسم الأول): السابقون في الخيرات: وهم المبالِغُون في طاعة الربِّ تعالى، والمُلْتَزمون حدودَ شرائعه، مع تفاوُتٍ فيما بينهم، وهؤلاء سيجدون أنفسهم أمام طائفة من أسماء الأفعال لله تعالى، والذي جاء في المأثور منها اسمان: (الحميد ـ في أحد معانيه ـ والشَّكور).

(القسم الثاني): المُقْتَصِدون: وهم الذين خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سَيِّئاً، فهم مُذْنبون لكنهم تائبون؛ ذلك أن الناسَ بوصف أنهم بَشَرٌ، تَغْلِبُهُمْ شَهَواتُهم، فَيَقَعُونَ في مخالَفته تعالى، وقد يكونون كارهين مِن أنفُسهم ذلك، ولكنّ سُلطانَ شهواتهم تغلُبُ على إرادَتِهم حتّى إذا قَضَوْا دوافِع الشَّهْوَةِ، ووقعوا بالمخالَفَةِ، ندِمُوا بعدها على ما اقْتَرَفُوا. وقد مَنَحَ اللَّهُ سُبحانَه لهؤلاء العاصين فُرْصَة التَوْبَةِ والندم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: 25] وأعْطَى المُذْنِبَ فُرْصَةً لإصْلَاحِ نفسِه، وغَسْلِ خَطاياه، وفَتَحَ له بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ بابَ التَوْبَةِ والغُفرانِ والعَفْوِ، ينَالُ منها نصيباً حَسَناً، إذا استَغْفَرَ وتابَ إلى بارئِهِ. ومِن هنا جاء في المأثور مِنْ أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى: (التوابُ، الغَفُورُ، الغَفَّارُ، العَفُوُّ).

(القِسْمُ الثالِثُ): الظالِمُون لأنفسهم، بالاستغراق في المعاصي والذُنوب، وعَدَم الرُّجُوعِ إلى اللَّهِ تعالى بِتَوْبَةٍ أو نَدَم. وإذْ يَحْمِلُ هٰؤلاء أوزارَهُم على ظُهورِهم مُكابِرِينَ مُعَانِدِينَ، غيرَ مُكتَرثين ولاَ وَجِلِين، سيجدون أنفسهم بين يَدَيْ (الحليم، الصَّبُورِ) ثم: (المُنْتَقِم) الذي يُعاقِبُ على السَّيِّئَةِ بمثلها.

اسمُ اللَّهِ الحَمِيد

الحَمِيدُ (فَعِيلٌ) بمعنى: (فاعِل) أي حامِد، فيكون معناه على هٰذا: الذي يَحْمد أهل طاعَتِه مِن عِباده، ويُثني عليهم بِما عَمِلُوا مِن خَيْر، ويُسَخِّرُ لهم مَنْ يُثنِي عليهم بين خَلْقِه، تَكريماً لقلوبِهِمُ الطاهِرَةِ، وأعمالِهِمُ الحَسَنَةِ، وهٰذا المعنى هو أحَدُ مَعاني هٰذا الاسمِ الكَريمِ. قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

﴿ٱلْأَرْضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: 64].

أقوال العُلَماء في تفسيره

يقول حجّة الإسلام وفيلسوفه الإمام الفقيه الأصولي أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابِهِ: «المقصد الأسنى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى» في تفسير هذا الاسم: (الحَميدُ هو المَحْمُودُ المُثْنَى عليه. واللَّهُ تعالى هو الحَميدُ، بِحَمْدِهِ لنفسه أزَلاً، وبِحَمْدِ عِبادِهِ له أبداً. ويرجعُ هٰذا إلى صِفاتِ الجَلال والعلوّ والكمال مَنْسُوباً إلى ذِكرِ الذاكِرين له، فإنَّ الحَمْدَ هو ذِكرُ أوصافِ الكمالِ من حيثُ هو كمال.

والحَميدُ من العِبادِ هُوَ مَن حَمِدَت عَقائِدُه وأخلاقُه وأعمالُه وأقوالُه كلُّها مِن غَيْرِ مشوبَة وذاكَ هو مُحَمدٌ ﷺ، ومَن يَقْرُبُ منه مِن الأنبياء، ومَنْ عَداهُم من الأولياءِ والعُلَماءِ، وكلُّ واحدٍ منهم حَميدٌ بِقَدْرِ ما يُحْمَدُ مِن عقائِده وأخلاقِه وأعماله وأقوالِه. وإذا كان لا يخلو أحَدٌ عَن مَذَمَّةٍ ونَقْصٍ وإن كَثُرَت محامِدُه، فالحميدُ المُطْلَق هو اللَّهُ تعالى). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المحدّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري رحمه الله في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (الحَميدُ أي المَحمودُ على كلِّ حَالٍ. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: 2] الحَمْدُ والشكرُ مُتقارِبان، والحَمْدُ أَعَمُّهما؛ لأنكَ تَحمَدُ الإنسانَ على صِفاتِهِ الذاتيَّة وعلى عطائه، ولا تشكرُه على صِفاتِه.

ومنه الحديث الشريف الذي أخرجه عبد الرزاق في «الجامع» والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ: **«الحَمْدُ رَأسُ الشُكْر، ما يَشْكُرُ اللَّهَ عَبْدٌ لا يَحْمَدُه»** كما أن كلمة الإخلاص رأسُ الإيمان، وإنما كان رأسَ الشُكر؛ لأن فيه إظهارَ النِعمة والإشادَةَ بها؛ ولأنه أَعَمُّ منه، فهو شكر وزيادَة.

وفي حديث الدُعَاء المتفق عليه الذي أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» ومسلم في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صَلّى النبي ﷺ صلاةً بعد أنْ نَزَلَتْ عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴿١﴾﴾ [النصر: 1] إلّا يَقُولُ فيها: **«سُبْحَانَك رَبَّنا**

وبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لي» يَتأوَّل القرآن، أي بحمدِكَ أبتدىء، وقيل: بِحَمْدِكَ سَبَّحتُ.

ومنه الحديث الذي أخرجه الأئمة الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد والدارمي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا سَيِّدُ وَلَد آدَمَ ولا فَخْرَ، وأنا أَوَّلُ مَن تَنْشَقُّ الأرضُ عنه يومَ القِيامَة ولا فَخْرَ، وأنا أَوَّلُ شافِعٍ ومُشَفَّعٍ ولا فَخْرَ، وَلِواءُ الحَمْدِ بِيَدِي يومَ القِيامَة ولا فَخْرَ**» يُريدُ بِلواء الحَمْدِ انفِرادَهُ بالحَمْدِ يومَ القِيامَةِ وشُهْرَتَه به على رؤوس الخَلْقِ، والعَرَبُ تَضَعُ اللواءَ مَوْضِعَ الشُهْرَةِ.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام البخاريُّ في «صحيحه» عن جابر بن عبد اللّهِ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مَن قال حِينَ يَسْمَعُ النِداءَ: اللّهُمَّ رَبَّ هٰذه الدَعْوَةِ التامَّةِ والصلاةِ القائِمَةِ آتِ محمداً الوَسِيلَةَ والفَضِيلَةَ، وابْعَثْهُ مَقاماً مَحموداً الذي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ له شفاعَتِي**» ومعنى المقام المَحْمودِ: أي الذي يَحْمَدُه فيه جميعُ الخلائق لتعجيل الحِسَابِ، والإراحَةِ مِن طُولِ الوُقُوفِ، وَقيل: هو الشفاعَةُ.

فائدة في اسم النبيّ ﷺ (محمّدٌ): أخرجَ الترمذي في «الشمائل» عن حذيفة ابن اليمان قال: لَقِيتُ النبيَّ ﷺ في بعضِ طُرُقِ المدينةِ فقالَ: «**أنا محمدُ وأنا أحمدُ، وأنا نبيُّ الرحمة، ونبي التوبة**» وأخرج ابن هشام في «سيرته» أن آمنةَ بنت وهب أمَّ رسولِ الله ﷺ كانت تحدِّث أنها أُتِيَتْ حين حَمَلَتْ برسولِ الله ﷺ فقيلَ لها: إنك قد حَمَلْتِ بِسَيِّد هٰذه الأُمَّة، فإذا وَقَعَ إلى الأرض فقولي: أُعِيذُه بالواحِد، مِن شَرِّ كلِّ حاسِد، ثم سَمِّيهِ مُحَمَّداً» ومحمّد اسم مفعول من التحميد للمبالغة، يقال: حَمِدَه إذا نسبه إلى كثرة المحامِد والفضائل، أو هو الذي حُمِدَ مَرَّةً بعد أخرى. ورسولنا ﷺ تكاملت فيه الخِصالُ المحمودةِ والأخلاق الفاضلة، ولا تزال الأمم تلهج بحمده والثناءِ عليه إلى وقتِنا هٰذا وإلى يوم القيامَة، ولم يكن هٰذا الاسمُ مَشهوراً في الجاهلية، ولا يُعرفُ مَن تسمَّى بهٰذا الاسم قبله إلا ثلاثة طَمِعَ آباؤهم لما سمعوا من الأحبار والرهبان أن نبياً سَيُبعث آخر الزمان يسمّى محمداً، وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن أحيحة، ومحمد بن حمران بن ربيعة.

46 ـــ الشَّكُور

معناه

صيغة مبالغة لشاكِر، والشُكرُ يأتي بمعنى: كثرة الثناء على الأفعال الحسنة، ومقابلة الحَسَنَة بمثلها، أو بأحسنِ منها. ومعنى كونِ اللّهِ سبحانَهُ شكوراً: أنّه كثيرُ الثناء على عبادِه في طاعاتهم، وأفعالهم الحَسَنة، والمُغْدِقُ عَليهم الثواب الجزيل، على العمل الضئيل، فضلاً منه ورحمة. قال اللّهُ تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17].

أقوال العُلماء في تفسيره

يقول الإمام الفيلسوف الأصولي الفقيه حُجَّةُ الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المقصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: (الشكور هو الذي يُجازِي بِيَسِير الطاعاتِ كثيرَ الدرجات، ويُعطي بالعملِ في أيَّام معدودة نعيماً في الآخرة غيرَ مَحدُودٍ، ومَن جازَى بالحسنةِ بأضعافها يقالُ: إنه شكر تلك الحسنة، ومَن أثنى على المُحسِن أيضاً يقال: إنه شَكَرَه.

فإن نظرتَ إلى معنى الزيادَة في المجازاةِ لم يكن الشكورُ المُطلَقُ إلّا اللّهُ تعالى؛ لأن زياداتِه في المُجازاة غيرُ مَحصورة ولا مَحْدودة، فإنّ نعيمَ الجنَّة لا آخِرَ له، واللّهُ تعالى يقولُ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24].

وإنْ نظرتَ إلى مَعْنَى الثناءِ فثناءُ كلِّ مُثْنٍ على غيرِه، والربُّ تعالى إذا أَثْنَى على أعمالِ عِبادِه فَقَد أثنى على فعل نفسه؛ لأن أعمالهم مِن خلقه، فإن كان الذي أَعْطَى فأثنَى شكوراً فالذي أَعْطَى وأَثْنَى على المُعْطِي فهو أحقّ بأنْ يكون شكوراً فثناءُ الله على عِبادِهِ كقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: 30] وكقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صَ: 44]. وما يجري مجراه، وكلُّ ذلك عطيَّةٌ منه.

العَبْدُ يُتصوَّرُ أن يكون شاكِراً في حق عَبْدٍ آخَرَ، مَرَّةً بالثناءِ عليه بإحسانه إليه، وأُخْرى بمجازاته أكثر مما صنعه إليه. وذلك من الخصال الحميدةِ، أخرج أبو داود السجستاني والترمذي في «سننهما» عن أبي هريرة ﷺ، عَن النبي ﷺ قال: «**لاَ يَشْكرُ اللَّهَ مَن لا يَشْكُرُ الناسَ**» وقال الترمذي: «حسن صحيح» معناه: أن اللَّهَ لا يَقبَلُ شُكْرَ العَبْدِ على إحسانه إليه إذا كان العَبْدُ لا يشكرُ إحسانَ الناسِ.

وأما شُكْرُهُ لِلَّهِ فلا يكونُ إلّا بِنَوْعٍ مِن المَجاز، فإنه إن أَثْنَى فَثَناؤه قاصِرٌ؛ لأنه لا يُحْصِي ثَناءً عليه، وإن أطاعَ فطَاعَتُه نِعْمَةٌ أخرى مِن اللَّهِ تعالى عليه، بل عينُ شُكرِه نِعْمَةٌ أخرى وراء النِعْمَةِ المَشْكورَة، وإنما أحسنُ وُجُوهِ الشكرِ لنعم اللَّهِ تعالى أن لا يستعملها في معاصيه، بل في طاعته، وذلك أيضاً بتوفيقِ اللَّهِ وتَيْسِيرِه في كونِ العبد شاكِراً لِربِّه. وتَصَوُّرُ ذلك كلامٌ دقيقٌ ذكرناه في كتاب الشكر مِن كتاب «إحياء علوم الدين»، فلْيُطْلَبْ منه). انتهى كلامُ الغزالي.

ويقول الإمامُ المُحدِّث اللُّغَوِيُّ مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزريُّ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في تفسير هٰذا الاسم في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (الشَكُورُ هو الذي يَزْكُو عِندَه القليلُ مِنَ أعمالِ العِبادِ فيُضاعِفُ لهمُ الجزاءَ، فَشُكْرُهُ لعباده مَغْفِرَتُه لهم، والشَّكُورُ مِنْ أَبْنِيَةِ المُبالَغَةِ. يقالُ: شَكَرْتُ لكَ، وشَكَرْتُكَ والأَوَّلُ أَفْصَحُ، أشكرُ شُكْراً وشُكوراً فأنا شاكِرٌ وشَكُورٌ، والشُكرُ مثلُ الحمدُ، إلّا أن الحمدَ أَعَمُّ مِنه، فإنّك تَحْمَدُ الإنسانَ على صِفاتِهِ الجَمِيلَةِ، وعلى معروفه، ولا تَشْكرُه إلا عَلَى معروفِه دون صفاتِه. والشكرُ هو مقابَلةُ النِعْمَةِ بالقَوْلِ والفِعْلِ والنِيَّة، فيُثْنِي على المُنعِمِ بلسانِه، ويُذيبُ نفسَه في طاعته، ويَعْتَقِدُ أنه مُوليها.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن المُؤمِن الذي يَعْلَمُ أنَّ اللَّهَ شَكورٌ يجازي عبادَه، وَجَب عليه أن يتخلَّق بهٰذا الخلق العظيم، وأن يكون له حظٌّ من هٰذا الاسم الكريم، والشكر درجات كثيرة، فإنّ حياءَ العبدِ مِن تتابُع نِعَم اللَّهِ عليهِ: شكرٌ، ومعرفَتَهُ بتقصِيره عن الشكرِ: شكرٌ، والاعتذارُ عن قلّةِ الشكَرِ: شكرٌ، والمَعْرِفَةُ بعظيم حِلْم اللَّهِ وكَنفِ سَتْرِهِ عليه: شُكرٌ، والاعتراف بأنّ النِعَمَ ابتداءٌ مِنَ اللَّهِ تعالى من غيرِ استحاقٍ:

شكرٌ، وحُسْنَ التواضُع للنِعَم والتَذَلُّلَ فيها: شُكرٌ، وشُكرَ الوسائِطِ: شُكرٌ، إذْ قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: «**من لَمْ يَشْكرِ الناسَ لم يَشْكُرِ اللَّهَ**» وقِلَّةَ الاعْتِرَاضِ وحُسْنَ الأَدَبِ بَيْنَ يَدَيْ المُنْعِمُ: شُكْرٌ، وتَلَقّي النِعَم بِحُسْنِ القَبُولِ واسْتِعْظَام صَغيرِها: شُكْرٌ، والشُكرُ على الشُكرِ هو أَتَمُّ الشُكرِ، بأن يَرَى التوفيقَ لشُكْرِ النِعْمَةِ بِحَدِّ ذاتها تَسْتَحِقُّ الشُكْرَ.

وقيلَ للشكرِ درجتان: (**الأولى**): الشكر على المَحابِّ. (**والثانية**): الشُكرُ على المَحابِّ والمَكارِه. وصاحبُ هٰذه الدرجة أَوَّلُ مَن يُدْعَى يَوْمَ القِيامَة إلى الجنة؛ لأنه يقابلُ المكارِهَ بالشكر، بينما يقابلها أكْثرُ الناسِ بالجزع والسُخْطِ، وأَوْسَاطُهُمْ بالصَبْرِ، وخاصَّتُهم بالرضى، فقابلها هو بأعلى مِن ذَلك: أخرج الطبراني في «معجمه الكبير» والحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «شُعَبِ الإيمان» عن ابن عباس ﷺ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**أَوّل مَن يُدعى إلى الجَنَّةِ الحَمّادُون، الذين يَحْمُدُونَ اللَّهَ في السَّرَّاءِ والضرَّاء**».

ثمرات الشكر

أولُ ثمراتِ الشكر: دوامُ النِعَم، أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» أن النبي ﷺ قال: «**إنّ النِعْمَةَ مَوْصُولَةٌ بالشكر**».

وثانيها: زيادة النِعَم، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

وثالثها: التواضُع، فالشكرُ يورثُ التواضُعَ؛ لأنّ فيه اعتِرافاً وإقراراً بالمِنّة، «وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا جاءه أَمْرٌ يَسُرُّهُ خَرَّ ساجِداً شاكِراً لله ﷻ» أخرجه الإمام أحمد في «مسنده».

ورابعها: مَحَبَّةُ اللَّهِ ﷻ، فشُكر النِعَم يورثُ محبَّة المُنعم، أخرج الترمذي في «سننه» عن رسولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِما يُغْذُوكم مِن نِعَمِهِ**».

وخامسها: الوقاية مِن عذاب الله، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: 147].

وسادسها: الفوزُ بِرِضَى اللَّهِ تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7].

47 ـ التوّاب

معناه

صيغة مبالغة للتائب، والتَوبةُ لغةً: الرجوع، يقال: تاب العَبْدُ إذا رَجَعَ إلى الندم والطاعةِ، ويُقالُ: تابَ اللَّهُ عليه: إذا رجع عليه بالقَبولِ والغفرانِ. فمعنى التوَّابِ بالنِسبة إلى اللَّهِ تعالى: أنه يَرْجِعُ على مَنْ تاب مِن عبادِه بقبول تَوْبَتِهم، وغفران سَيِّئاتهم. قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: 104] ويوجد في القرآن الكريم سورة تسمَّى: سورة التوبة، كما ورد هٰذا الاسمُ فيه في (11) موضعاً، وورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحُسنى، الذي أخرجه الترمذي والبيهقي عن أبي هُريرة ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجّةُ الإسلام وفيلسوفُه الإمام الأصولي الفقيه أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذا الاسم في كتابه: «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى»: (التَّوَّابُ هو الذي يَرْجِعُ إليه تيسيرُ التوبَةِ لِعِبَادِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، بما يَظهرُ لهم مِنْ آياتِهِ، ويَسُوقُ إليهم من تنبيهاته، ويُطلِعُهُمْ عليه مِن تَخْوِيفاتِه وتحذيراته، حتى إذا اطَّلَعُوا بتعريفه على غَوائِلِ الذنوب، استشْعَرُوا الخوفَ بِتَخْوِيفِهِ، فرجعوا إلى التوبَة، فَرَجَعَ إليهم فَضْلُ اللَّهِ تعالى بالقَبُولِ.

وبالنسبة للبَشَرِ، فَمَنْ قَبلَ مَعاذيرَ المُجْرِمينَ مِنْ رَعاياهُ وأَصدِقائِهِ ومعارفه وأقاربه مَرَّةً بعد أخرى فقد تخلَّقَ بهٰذا الخُلُقِ، وأخذ مِنه نَصِيباً). انتهى كلام الغزالي.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن مَنْ عَلِمَ أنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ يَقبَلُ التَوبَةَ مِن عبادِه مرّة بعد مرّة، أَقْبَلَ على اللَّهِ بالتَوْبَةِ مِن ذنوبه، وأَقْلَعَ عن المعاصي؛ لأَنَّ الإنسانَ كائِنٌ متفرِّدٌ في سائر الخَلْقِ، وهو مُرَكَّبٌ مِن عَقْلٍ وشَهْوَةٍ، فإن سَمَا عَقْلُه على شَهْوَتِهِ أَصْبَحَ فَوْقَ الملائكة. وإنْ طَغَتْ شَهْوَتُه على عَقْلِهِ أصْبَحَ دُونَ الحيوان، وقد جاءَ الإِسلامُ، وهو دينُ الفِطْرَةِ، لِيُقيمَ توازُناً دَقيقاً بَيْنَهما عن طريقِ المنهجِ الربَّانيِّ الذي رُسِمَ له مِن خِلالِ آياتِ القرآنِ الكريمِ وسُنَّةِ النبيِّ ﷺ.

وبما أنّ اللَّهَ قد أَلْهَمَ الإنسان طريقَ الطاعة وطريق العصيان، وأعطاهُ القُدْرَة على التمييز واختيار أحدهما والمضيّ فيه ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: 10] وبما أن الإنسان خُلِقَ ضعيفاً، فإنه قَدْ يَعْصِي ربّه، ويَنْحَرفُ عن المنهج الذي رسمه لهُ.

فالعِصْمَةُ ليست من سِمات هٰذا المخلوق، بل إنَّ مِن سِماتِهِ النِسْيَان ومُقارَفَة الإثم، بحكم ضَعْفِه وما رُكِّبَ في كيانِه مِن أهواءَ وشهوات، ولهٰذا شرعَ اللَّهُ له التَوبَةُ، وفي تشريع التوبة وقبولها صيانة لحركةِ الهدايةِ في الأَرْضِ.

إنَّ التوبةَ مَخْرَجُ الإنسان حينما تُحيط به خطيئاته، وهي صَمَّامُ الأمان حينما تضغط عليه سيئاته، وهي تصحيح للمَسَارِ حينما تُضِلُّه أَهْواؤُه، وإنها حَبْلُ اللَّهِ المَتِين الذي يُنقِذُ الإنسانَ حينما تُغْرِقُه زلّاتُه.

ولو لم تُشْرَع التَوبَةُ لهلكَ الناسُ، ولعمَّ الفَسادُ في الأرض؛ لأن الإنسانَ إذا طُرِدَ مِن رَحْمَةِ اللَّهِ لِمُجرَّد مَعْصِيةٍ أو مُخالَفَةٍ واحِدَةٍ فلن يَرْجِعَ إلى مَنْهَجِ رَبِّه لانْعِدَامِ أَمَلِهِ في القَبُول، وعندئذٍ سَيَتَمادَى في الفُجورِ والعِصْيان ويخرُجُ من الدين نهائياً.

وقد جَعَلَ اللَّهُ بابَ التوبَة مفتوحاً لا يُغْلَقُ حتى تَنْتَهيَ حياةُ الإنسانِ أو تَطْلُعَ الشمسُ مِن مَغْرِبها، أخرج الإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب التوبة قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ الله ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ ليتوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنهارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ الليلِ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربِها**».

إنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ لا يَطْرُدُ من يَلجأُ إلى رحمته بعد طول عِصْيان، قال تعالى:

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: 53] فالتوبَةُ دَعْوَةٌ مِنَ اللَّهِ تعالى لِعبادِهِ لِنَبْذِ اليَأسِ والقُنوطِ، دَعْوَةٌ لِوُلُوجِ بابِ الرَّحمةِ والانغماسِ في بَحْرِ كَرَمِ اللَّهِ وحِلْمِهِ وعَفْوه. فَهي إذن صِلَةُ وَصْلٍ لِمَا قَطَعَتْهُ الذُنوبُ، وَتَجْدِيدٌ لِعَهْدٍ قَصَّرَ بِوَفائِهِ الخَطأُ والزَلَلُ، وفُرْصَةٌ لِتَصْحيحِ المَسارِ والعَوْدَةِ إلى مَنْهَجِ اللَّهِ مِن جديد.

إن اللَّهَ توابٌ لا يجعَلُ المُذْنِبَ في آخِرِ القافِلَةِ بسبب ذَنْبِهِ الماضي، إذا ما تابَ واسْتَغْفَرَ ولم يُصِرَّ أو يَتَعَالَى على الأمر ابتداءاً. فخالِقُ هٰذا الإنسانِ يَعْلَمُ أنه ضَعِيفٌ، وسُرعانَ ما يَسْقُطُ إذا أفْلَتَ مِن يَدِهِ الحَبْلُ الذي يربُطه، والعُرْوَةُ التي تَشُدُّهُ، وأن ما رُكِّبَ في كيانه مِن أطماعٍ ومُيولٍ وشهواتٍ قد يَدْفَعُه إلى المخالَفَةِ والمَعْصِيَةِ أحياناً، ويَعْلَمُ أنَّ الشيطانَ يَقْعُدُ له كلَّ مَرْصَدٍ ويأخُذُ عليه كُلَّ طَريقٍ.

يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ عَنْ هٰذا الإنسانِ كلَّ ذلك، فلا يَقْسُو عَلَيْهِ ولا يَطْرُدُه مِن رَحْمَتِهِ حِينَ يُخْطِىءُ أو يَزِلُّ، ولا يُغْلِقُ في وجْهِهِ بابَ التَوْبَة، ولا يُلْقِيهِ مَنْبُوذاً حائِراً في ضَلالاتِه، بل يُوَسِّعُ له في الرحْمَةِ ويُطمِّعُهُ في المَغْفِرَة، ويُنيرُ له الطريقَ لِيَفيءَ إلى الحِمَى الآمِنَ ويَثُوبَ إلى الكَنَفِ الأمِين.

حتى بعد أنْ يَلِجَ في المَعْصِيَةِ ويُسْرِفَ في الذَنْبِ، ويَحْسِبُ أنه قَدْ طُرِدَ وانْتَهَى أَمْرُهُ، ولم يَعُدْ يُقْبَل ولا يُسْتَقْبَل، في هذه اللحظةِ، لحظةَ اليأسِ والقُنوط، يَسْمَعُ نِداءَ الرَّحْمَةِ النديِّ اللَّطِيف: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وليس بينَه وبَيْنَ الرَّحْمَةِ الرخِيَّةِ وظِلالِها السَّمْحَة المُحَبَّبة، لَيْسَ بَيْنَه وبَيْنَ هٰذا كُلِّه، وقَدْ لَجَّ في الذَنْبِ وأُبْعِدَ عَنِ الحِمَى وشَرَدَ عن الطريق إلا التوبَة، التوبَةُ وحْدُها الأَوبَةُ إلى البابِ المَفتوحِ الذي ليس عليه بوّابٌ يمنع، والذي لا يحتاج مَن يلج فيه إلى استئذان.

48 ـــ الغَفُور

معناه

صِيغَة مُبالَغَة لِغافِر، وهو مأخوذ مِن الغَفْر، وهو السَّتْر، فَمَعْنَى كَوْنِ اللَّهِ غَفوراً: كونُه كثير المَغفِرة، وهي سترُ ذنوب مَن شاءَ مِن عِبادِه، وتجاوُزُه عنها،

وصِيانَهُ المُذْنِب عما اسْتَحقَّهُ مِن العَذابِ، بعد أن استغفر وتابَ، فضلاً منه وكرماً. قال الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ [الإسراء: 27] وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في (91) موضعاً كما ورد في الحديث الشريف الجامع للأسماء الحسنى الذي أخرجه الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة.

أقوال عُلماء اللغة

قال الليثُ بن المظفَّر اللغوي: (يُقالُ: اللهمَّ اغْفِرْ لَنا مَغْفِرَةً وغَفْراً وغُفْراناً إِنَّكَ أَنتَ الغَفُورُ الغَفَّارُ يا أهلَ المَغْفِرَةِ. وفي حديث أنس عند الإمام أحمد في «المسند» قال: قرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ هٰذهِ الآية: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] وقال: «**قال ربُّكم أنا أَهْلٌ أن أُتَّقى فلا يُجْعَلَ معي إلٰهٌ، فَمَنِ اتَّقى أَنْ يَجْعَلَ معيَ إلٰهاً كان أهلاً أن أَغْفِرَ له**»).

وقال أبو منصور الأزهري في معجمه «تهذيب اللغة»: (أَصْلُ الغَفْرِ: السَّتْرُ والتَغْطِيَةُ، وغَفَرَ اللَّهُ ذُنوبَهُ أي سَتَرها ولم يَفْضَحْهُ بها على رؤوسِ المَلأ. وكلُّ شَيْءٍ سَتَرْتَهُ فَقَدْ غَفَرْتَه).

أقوال العُلماء في تفسيره

يقول حجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامِد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى»: (الغَفُورُ بمعنى: الغفَّار، ولكنه يُنْبِىءُ عن نوع مُبالَغَةٍ لا يُنْبىءُ عنه الغفَّار؛ فإنَّ الغَفَّارَ مُبالَغَةٌ في المَغْفِرَة بالإضافة إلى مَغْفِرَةٍ مُتَكَرِّرَة مَرَّةً بعد أُخْرَى. فـ (**الفَعّال**) يُنْبِىءُ عن كثرة الفِعل، و(**الفَعُولُ**) يُنبىءُ عن جُودَتِه وكَمالِه وشُمولِه. فهو غَفُورٌ بمعنى: أنه تامُّ الغُفْرَانِ كامِلُهُ حتّى يبلُغَ أقْصَى درجاتِ المَغْفِرَة). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المُحدِّث اللغوي أبو المجد المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: الغَفَّار والغَفُورُ، وهما مِن أبنية المبالغة، ومعناهما: الساترُ لِذُنُوبِ عبادِه وعُيوبِهم، المُتَجاوِزُ عن خطاياهم وذُنوبِهم،

وأَصْلُ الغَفْرِ: التَغْطِيَةُ. والمَغْفِرَةُ: إلباسُ اللَّهِ تعالى العَفْوَ للمُذنبين.

وفيه الحديثُ الذي أخرجه أبو داود في «سننه» والترمذي في «جامعه» وابن ماجه في «سننه» والدارمِيّ وأحمد عن رسولِ الله ﷺأنه كان إذا خرج من الخلاء قال: «**غُفْرَانك**». الغُفْرَان: مصدَرٌ، وهو منصوب بإضمار: أَطْلُبُ، أي أَطْلُبُ غُفرانَك، وفي تخصيصه بذلك قولان: **(أحدهما)** التوبة من تقصيره في شكر النِعْمَةِ التي أَنْعَمَ بها عليه مِن إطعامه وهضمه، وتسهيلِ مَخْرَجِه، فَلَجَأَ إلى الاسْتِغْفَارِ مِنَ التَقصير. **(والثاني)** أنه استغفر مِن تَرْكِهِ ذِكرَ اللَّهِ تعالى مُدَّة لُبْثِهِ على الخلاء، فإنه كان لا يترك ذكرَ اللَّهِ بِلِسانِهِ أو قَلْبِهِ إلاّ عِندَ قضاء الحاجَة، فكأنه رأى ذلك تقصيراً، فتدارَكَهُ بالاستغفار.

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي ذَرٍّ قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ! كَم الرُسُلُ؟ قال: «**ثلاثمائة وخمسةَ عَشَرَ جمَّ غَفِير**» أي جماعة كثيرة، ويقال للجمع الكثير: الجمّ الغفير).

أثر هٰذا الاسم على العبد

إنَّ مَنْ عَلِمَ أن اللَّه «**غَفُورٌ**» يعامِلُ عِبادَهُ المؤمنين بالتسامح وجب عليه التخلُّق بهٰذا الخلق، قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199] أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما عن أُبَيَّ ﷺ قال: لما أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ على نبيّه هٰذه الآية قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ما هذا يا جبريل؟**» قال: إنَّ اللَّهَ أَمرَكَ أَنْ تَعْفُوَ عمَّن ظَلَمَكَ، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَكَ، وتَصِلَ مَن قَطَعَكَ وقال البخاري: **(العُرْفُ)**: المعروف، وأخرج عن ابن عباس ﷺ قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بن حِصن بن حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ على ابن أخيه الحُرِّ بنِ قَيْس، وكان مِنَ النَفرِ الذين يُدْنيهمْ عُمَرُ، وكان القُرَّاءُ أَصْحابَ مَجالِسِ عُمَرَ ومُشَاوَرَتِهِ، كُهولاً كانوا أو شباباً، فقال عُيَيْنَةُ لابن أخيه: يا ابنَ أَخي! لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هٰذا الأمير فاسْتَأْذِنْ لي عليه، قالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فأذِنَ لهُ عُمَرُ، فَدَخَلَ عليه، قال: هِي يا ابنُ الخَطَّاب! فَوَاللَّهِ ما تُعْطِينا الجَزْلَ، ولا تَحْكُمُ بيننا بالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ به، فقالَ لهُ الحُرُّ: يا أَمِيرَ المؤمنين! إنَّ اللَّهَ قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199)﴾ وإنَّ هٰذا مِنَ الجاهِلينَ، واللَّهِ ما جاوزها عُمرُ حينَ تلاها عليه، وكان وقّافاً عندَ كتابِ اللَّهِ ﷻ. وقال بعضُ العُلماء: الناسُ رجُلان: فَرَجُلٌ مُحْسِنٌ، فَخُذْ ما عَفا لكَ مِن إحسانه، ولا تكلِّفُه فَوْقَ طاقتِهِ، ولا ما يُحْرِجُهُ، وإما مُسِيءٌ فمُرهُ بالمَعْرُوفِ، فإنْ تَمادَى على ضلالِه واسْتَعْصَى عليكَ، واسْتَمَرَّ في جَهْلِهِ فأعْرِضْ عنه، فَلَعَلَّ ذلكَ أن يَرُدَّ كيدَهُ، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97)﴾ [المؤمنون: 96] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)﴾ [فصلت: 34، 35] أي هٰذه الوَصِيَّة ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)﴾ فهٰذه الآياتُ الثلاث في الأعراف، والمؤمنون وحٰم السجدة لا رابع لَهُنّ، فإنه يُرْشِدُ فيهنّ إلى معاملة العاصي من الإنسِ بالمعروفِ بالتي هي أَحْسَنُ، فإن ذلك يَكفُّهُ عما هو فيه من التَمرُّدِ بإذنه تعالى، ولهٰذا قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

49 ـــ الغفّار

معناه

صِيغَة مبالغة لغافر، وقد تكون أبلغَ مِن (**غفُور**) لِزيادَة مبناها، والأصلُ في المعنى واحِدٌ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (82)﴾ [طه: 82] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66)﴾ [ص: 65، 66]. وقد ورد هٰذا الاسمُ في القرآن الكريم في خمسةَ مواضع لا غير، كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى الذي أخرجه الترمذي في «جامعه» والبيهقي في «الدعوات» عن أبي هريرة ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام وفيلسُوفُه الإمام الفقيه الأصولي أبو حامد محمد بن

محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: **(الغفّار)** هو الذي أظْهَرَ الجميلَ وسَتَرَ القبيحَ، والذُنُوبُ مِن جُملة القبائِح التي سَتَرَها بإرسالِ السِتْرِ عليها في الدنيا، والتجاوُزُ عن عُقوبتها في الآخرة، والغَفْرُ هو السَتْرُ.

(وأوَّلُ سَتْرِهِ) على العَبْد: أنْ جَعَلَ مَفاتِحَ بَدَنِهِ التي تَسْتَقْبِحُها الأَعْيُنُ مَسْتُورةً في باطِنِه، مُغَطَّاةً في جمالِ ظاهِرِه. وكم بَيْنَ باطِنِ العَبْدِ وظاهِرِه في النظافَةِ والقَذَارَةِ، وفي القُبْحِ والجمال، فانظر ما الذي أظهَرَهُ وما الذي سَتَرَهُ.

(وسَتْرُهُ الثاني): أنْ جعَلَ مُسْتَقَرَّ خَواطِرِه المَذْمُومَةِ وإرادته القبيحة سَتْرَ قَلْبِهِ حتّى لا يَطَّلِعَ أَحَدٌ على سَتْرِهِ، ولوِ انكَشَفَ للخَلْقِ ما يخطُرُ ببالِهِ في مجاري وَسَاوِسِه، وما ينطوِي عليه ضميرُه مِنَ الغِشّ والخيانَةِ وسوءِ الظَنِّ بالناسِ لَقَتلوه، فانظر كيف سَتَرَ عن غَيْرِه أَسْرَارَهُ وعوراتَه.

(وستره الثالث): مغفرته ذنوبَه التي كان يَسْتَحِقّ الافتضاحَ بها على ملإِ الخَلْقِ، وقد وعده أن يبدلَ سيّئاته حَسَناتٍ لِيَسْتُرَ مَقابِحَ ذُنوبِهُ بِثَوابِ حسناته مهما ثَبَتَ الإيمانُ.

حظ العبد من هٰذا الاسم

أن يَسْتُرَ مِن غيرِه ما يُحِبُّ أن يَسْتُرَ منه، فقد جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عبداً في الدنيا إلاّ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ**». والمُغتابُ، والمُتَجَسِّسُ، والمُنْتَقِمُ، والمُكافِيءُ على الإساءَةِ بِمَعْزِلٍ عن هٰذا الوصفِ، وإنما المُتَّصِفُ به مَن لا يُفْشِي من خَلْقِ اللَّهِ تعالى إلا أَحْسَنَ ما فيهم.

ولا يَنْفَكُّ مَخْلوقٌ عن كمالٍ ونَقْصٍ وعن قُبْحٍ وحُسْنٍ، فَمَن تغافل عن المقابيح وذكَرَ المحاسِنَ فهو ذو نَصِيب مِنَ هذا الاسم؛ كما رُوِيَ عن عيسَى عليه السلام: «أنه مرَّ مع الحواريّين على كَلْب مَيِّتٍ قد غَلَبَ نَتَنُه، فقالوا: ما أَنْتَنَ هٰذه الجيفة! فقال عيسى عليه السلام: ما أَحْسَنَ بَياضَ أسنانِه». تَنبيهاً على أن الذي يَنبغي أن يُذكَرَ مِن كُلِّ شيء ما هو أَحْسَنُ) انتهى كلام الغزالي.

في عظيم عَفْوِهِ وحِلْمِهِ ﷺ

قال الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13] وقال سبحانه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى﴾ [آل عمران: 159].

كان ﷺ عظيمَ الحِلْم، لا يقابِلُ السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَةِ، بل يعفو ويَغْفِرُ، وما انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ من شيءٍ قطّ، إلّا أنَ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّه، فينتقم لِلَّهِ تعالى.

أخرج الشيخان البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحيهما» عن عائشة أم المؤمنين ﵂ قالت: ما خُيِّرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلّا أخذ أيسَرَهُما ما لم يكُن إثماً، فإن كان إثماً كان أبْعَدَ الناس منه، وما انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِه إلّا أن تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ.

ولقد اتّسع حِلْمُه ﷺ لجميع خلقِ اللَّهِ تعالى، حتّى لأعدائه الذين آذوه. فلما كانت غزوَة أُحُد، وكُسِرَت رُباعِيَتُه ﷺ، وجُرِح في شفته السُفْلَى، وشُجَّ في جبهته الشريفة حتى سالَ منه الدَّمُ، فجعل يمسحه لِئَلّا يَنْزِلَ على الأرض ويَقولُ: «**لَو وَقَعَ منه شيءٌ على الأرضِ لَنَزَلَ عليهم العَذابُ مِنَ السماءِ**» وشَقَّ ذلكَ على الصحابَة فقالوا: لَوْ دَعَوْتَ عليهم، فقال: «**إنّما لم أُبعَثْ لَعّاناً، ولكن بُعِثْتُ داعياً ورحمةً، اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنّهم لا يعلمونَ**».

ومِن مظاهِرِ حِلْمِهِ وعَظيم عَفْوَهِ ﷺ ما أخرجه ابن حِبّان في «صحيحه» والحاكم في «مستدركه» بإسناد رجاله ثقات عن عبد الله بن سلام، عن زيد بن سَعْنَةَ أحدِ أَحْبارِ اليهود قال: لم يَبْقَ مِن عَلامات النُبُوَّةِ إلّا وقد عَرَفْتُه في وَجْهِ محمدٍ ﷺ حِينَ نظرتُ إليه إلّا اثْنَتَيْن لم أَخْبُرْهما فيه، يَسْبِقُ حِلْمُه جَهْلَهُ، ولا تَزيدُهُ شِدَّةُ الجهل عليه إلا حِلماً، فكنتُ أَتَلَطَّفُ له لأَنْ أُخالِطَهُ فأعرِفَ حِلْمَهُ وجَهْلَهُ، فابْتَعْتُ منه تَمْراً إلى أَجَلٍ، فأَعْطَيْتُهُ الثَمَنَ، فلما كان قَبْلَ مَجيءِ الأَجَلِ بيَوْمَيْن أو ثلاثة، أتيتُ محمداً ﷺ فأخذت بمجامع قَميصه، وردَاؤُه على عُنُقِهِ، ونَظَرْتُ إليه بوَجْهٍ غليظ، ثم قلتُ: ألا تَقْضِيَنَّ يا محمدُ حَقِّي؟ فواللَّهِ إنْكم يا بَنِي عبد المُطّلِبِ مُطُلٌ ـ أي تؤخّرُون عن أداء الحقّ ـ فقال عمر: أي عَدوَّ اللَّهِ! تقولُ

لرسولِ اللَّهِ ﷺ ما أسمعُ؟ فواللَّهِ لَوْلَا ما أحاذِرُ فَوْتَهُ - أي مِنْ بَقاءِ الصُلْحِ بين المسلمين واليهود - لضَرَبْتُ بِسَيْفِي رأسَكَ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ وهو ينظَرُ إلى عمر بسُكونٍ وتَبَسُّم: «**أنا وزَيْدٌ كُنّا أَحْوَجَ إلى غيرِ هٰذا منكَ يا عمرُ، أَنْ تأمُرَني بِحُسْنِ الأداءِ، وتأمُرَهُ بِحُسْنِ المُطالَبَةِ**». ثم قال: «**اذهَبْ يا عمرُ فاقْضِه حَقَّهُ وَزِدْهُ عِشْرين صَاعاً مَكانَ ما رُعْتَهُ**» - أي مُقابلَ فَزَعِهِ -. فَفَعَلَ ذلك عمرُ، قال زيدٌ: يا عمرُ! كلُّ عَلامات النبوة قد عرفتُها إلا اثنتين، فقد اخْتَبَرْتُه بهما، فاشهَدْ يا عُمَرُ أني قد رَضِيتُ باللَّهِ ربّاً وبالإِسْلامِ دِيناً، وبمُحَمَّدٍ ﷺ نبياً.

50 ــ العَفُوُّ

معناه

مأخوذٌ من العَفْوِ، وهو: المَحْوُ وإزالَةُ الأَثَرِ، ومنه قولُهُمْ: عَفَتِ الريحُ آثارَ الدِيَارِ، إذا أزالَتْها ومَحَتْها. فالعَفْوُ عَنِ الذَنْبِ: مَحْوُهُ وإِزالَةُ أثَرِهِ، وهو أَبْلَغُ مِنَ المَغْفِرَةِ؛ لأنها من الغَفْرِ، وهو السَتْرُ. فَاسْمُ اللَّهِ (العَفُوُّ) أي ذو العَفْوِ، وهو تَرْكُ المُؤَاخَذَةِ على ارتكابِ الذَنْبِ، وإزالَةُ أثره مِن صحائِفِ الأعمالِ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: 60]، وقد وَرَدَ هٰذا الاسم في خمسة مواضِعَ من القرآن الكريم، كما جاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ حُجّة الإسلام أبو حامد الغزالي الشافعي في كتابه: «المَقْصِد الأَسْنَى في شرْح أسماءِ اللَّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: (العَفُوُّ: هو الذي يمحو السَّيِّئات ويتجاوَزُ عن المعاصي. وهو قريبٌ مِنَ (الغَفُورِ) ولكنه أبلغُ منه، فإنّ الغُفْرَانَ يُنبِىءُ عَنِ السَتْرِ، والعَفْوُ يُنَبِىءُ عَنِ المَحْوِ، والمَحْوِ أَبْلَغُ مِنَ السَتْرِ.

حَظُّ العَبْدِ منْ ذلك لا يخفَى، وهو أن يَعْفُو عن كلِّ مَنْ ظَلَمَهُ، بل يُحْسِنُ إليه. كما يَرَى الله تعالى مُحْسِناً في الدنيا إلى العُصَاةِ والكَفَرَةِ غيرَ مُعاجِلٍ لهم بالعُقوبَةِ؛ بل رُبَّما يَعْفُو عنهم بأن يتوبَ عليهم، وإذا تابَ عليهم مَحَا سَيِّئاتِهِم، إذْ التائِبُ مِنَ الذَنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ له، وهٰذا غايَةُ المَحْوِ للجِنايَةِ). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمامُ المحدِّثُ اللغوي مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي، في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هذا الاسم: (العَفُوُّ هو **(فَعُولٌ)** مِنَ العَفْوِ، وهو التَجَاوُزُ عَن الذَّنْبِ وتَرْكُ العِقابِ عليه. وأصْلُهُ المَحْوُ والطَمْسُ، وهو مِن أبنيَةِ المُبالَغَةِ، يقال: عَفا يَعْفِو عَفْواً، فهوَ عافٍ وَعَفُوٌّ.

ومنه حديث أبي بكر الصديق ﷺ الذي أخرجه الترمذي في «جامعه»، وابنُ ماجه في «سننه»، والإمام أحمد في «مسنده»، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«سَلُوا اللَّهَ العفوَ والعافِيَةَ والمُعافاةَ»** فالعَفْوُ: مَحْوُ الذنوبِ، والعافيةُ: أن تَسْلَمَ مِن الأَسْقام والبَلايا، وهي الصِحَّة وضِدُّ المَرَضِ، والمُعافاةُ: هي أن يُعافِيَكَ اللَّهُ من الناسِ، ويُعافِيَهُم منك، أي يُغنيكَ عنهم ويغنيهم عنك، ويَصرِفُ أذاهُمْ عنك، وأذاكَ عنهم.

ومنه الحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي في «سننهما»، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص ﷺ، أن رَسولَ اللَّهِ ﷺ قال: **«تَعافَوُوا الحُدُودَ فيما بينكم، فما بَلَغَني مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ»** أي تَجاوَزُوا عنها، ولا ترفعوها إليَّ، فإنّي متى عَلِمتُها أَقَمْتُها.

ومنه الحديث الذي أخرجه البخاري في «صحيحه»، عن عبد الله بن الزبير ﷺ: **«أَمَرَ اللَّهُ نَبيَّهُ أن يأخُذَ العَفْوَ مِن أخلاقِ الناسِ»** وهو السَهْلُ المُتَيَسِّرُ، أيْ أَمَرَهُ أن يَحْتَمِلَ أخلاقَهم، وَيَقْبَلَ منها ما سَهُلَ وتَيَسَّر، ولا يَسْتَقْصِي عليهم).

الشقاء يَكْمُن في المعصية، والسعادة في الطاعة

قال اللَّهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 123، 124]، إن الشقاء ثَمَرَةُ الضَلالِ ومَعْصِيَةِ اللَّهِ ﷻ، والحياةُ المَقْطُوعَةُ الصِلَةِ باللَّهِ ورَحْمَتِهِ الواسِعَةِ ضَنْكٌ مهما يَكُن فيها مِن سَعَةٍ ومَتاع! إنه ضَنْكُ الانْقِطاعِ عَنِ الاتّصالِ باللَّهِ، والاطمِئنانِ إلى حِماهُ، ضَنْكُ الحِرْصِ على ما في اليَدِ والحَذَرِ مِنَ الفَوْتِ، ضَنْكُ الجَرْيِ وراءَ بارِقِ المَطامِعِ والحَسْرَةِ على كُلِّ ما يَفُوتُ، وما مِن مَتاعٍ حَرامٍ إلّا ولهُ

غَصَّةٌ تعْقُبُه، وعَقابيلُ تَتْبَعُهُ، وما يَضِلُّ الإنسانُ عَن هُدَى اللَّهِ إلا وَيَتَخَبَّطُ في القَلَقِ والحَيْرَةِ والانْدِفاعِ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ، لا يَسْتَقِرُّ ولا يتوازَنُ في خُطاهُ، ثم تأتي الشَّقْوَةُ الكبرَى في دارِ البَقاءِ والخُلودِ.

ومَنِ اتَّبَعَ هُدَى اللَّهِ وأطاعَهُ فهو في نَجْوَةٍ مِنَ الضَلالِ والشقاء، والحيرَةِ والقَلَقِ، فما يَشْعُرُ القلبُ بطُمَأْنِينَةِ الاسْتِقْرَارِ إلّا في رحابِ اللَّهِ، وما يُحِسُّ راحَةَ الثِقَةِ إلّا وهو مُسْتَمْسِكٌ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى التي لا انْفِصَامَ لها.

إنَّ نِعْمَةَ الإيمان والطاعةِ في كَنَفِ ربٍّ عَفُوٍّ غَفُور تُضاعِفُ الحياةَ طولاً وعَرْضاً وعُمقاً وسَعَةً، والحِرْمَانُ منها شَقْوَةٌ لا تَعْدِلُها شَقْوَةُ الفَقْرِ والحِرْمَانِ، إن الإيمانَ باللَّهِ وَحْدَهُ والقِيامَ بطاعَةِ أوامِره وامتثالِها هو مَنْهَجُ حَياةٍ كامِلٍ، لا مُجَرَّدَ عَقيدة تَغْمُرُ الضَميرَ وتَسْكُبُ فيه النورَ. وإنَّ في هٰذا المَنْهَج من المُواءَمَةِ مع الفِطْرَة البَشَرِيَّةِ ومع الحاجاتِ الحقيقية لهٰذه الفِطْرَةِ، ما يملأُ الحياةَ سَعادَةً ونوراً وطمأنينةً وراحَةً. كما أنّ فيه من الاسْتِقْرَارِ والثَّباتِ عاصِماً مِن الوقوع في القَلَقِ والحِيرَةِ والتَخَبُّطِ الذي تتعرّضُ له المجتمعاتُ المادِّيَّةُ التي شَرَدَت عن مَنهج اللَّهِ.

ومِن المُفيد هنا أن نذكُرَ شيئاً عن واقع تلك المجتمعات التي قطعت صِلَتها باللَّه وتَنَكَّرت لمنهجه وأطلقت لشهواتها العَنانَ، ففي هٰذه المجتمعات ينطلق الناسُ أفراداً وجماعات في سباقٍ رَهيب لإحرازِ أكبر حَظّ مُسْتَطاع مِن حُطامِ الدنيا، ولو على حساب صحّتهم النفسيّة، ويُسبِّبُ القَلَقُ الذي يعتصر المجتمعات الغربية خسائر تزيد على عشرة آلاف ضعف عمّا تُسَبِّبُه أخطرُ الأَوْبِئَةِ الفتّاكةِ، فهناك شخص من كل عشرةِ أشخاصٍ مُعَرّضٌ للإصابة بانهيارٍ عَصَبِيّ مرجعه إلى القلق، وهناك شخص من كل عشرين سَوف يقضي جانباً مِن حياته في مِصَحٍّ للأمراضِ العَقلية، بل إن ثلث رجال الأعمال الناجحين يُصابونَ بأمراض عُضالة أساسها التوتر العصبي. وفي هٰذه المجتمعات يرتفع ضغط الدم كلما ازداد الهَمّ، وترتفع نِسبة سُكرّ الدم كلّما هبطت أسعار الأسهم والسندات وصدق اللَّهُ القائل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: 59].

51 ــ الحَلِيمُ

ذكرنا أن الناسَ ثلاثة أنواع: سابقٌ بالخيرات، ومُقْتَصِدٌ، وظالِمٌ لنفسه مُسْتغرِقٌ في المعاصي والذنوب، وعدمِ الرجوعِ إلى اللّهِ تعالى بتوبةٍ أو نَدَم، وإذْ يحمِلُ هؤلاء أَوْزَارَهُم على ظهورهم، مُكابرين مُعانِدين، غيرَ مُكترثِين ولا وَجِلينَ، سَيَجِدُون أنفسَهم بين يَدَيْ (**الحَلِيمِ**) (**الصَّبُورِ**) أو (**المُنتقم**)، الذي يُعاقِب على السيئات بمثلها.

معنى الحليم

أي الذي لا يُعجِّلُ بالانتقام مِن عبادِه المُجرمين، لِيَفْسَحَ لهم مجالات التَوْبَةِ والنَّدَمِ، وليُقيمَ الحُجَّة عَليهم بأنهم لم يُصلِحوا قُلوبَهم وأعمالَهم، بَعْدَ الحِلْم الطَويلِ بهم على أنه لا يعجّل بتنفيذ العقاب مَن لا يَخافُ الفَوْت. كيف يخافُ الفوتَ ربُّنا سُبحانه، والأرضُ والسماوات جميعاً قَبضَتُه. وفي معنى أنه تبارك وتعالى حليم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: 61]، ووصفَ اللّهُ نفسه بأنه حليمٌ فقال في مُحكم كتابه الكريم: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾[الأحزاب: 51]، وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في (15) موضعاً.

أقوال العُلماء في تفسيره

قال الإمام أبو حامد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «المَقْصِد الأسْنَى في شرح أسماءِ اللّهِ الحُسنى» في تفسيره: (الحَليمُ هو الذي يُشاهِدُ مَعْصِيَةِ العُصَاةِ ويَرَى مُخالَفَةَ الأمْرِ، ثم لا يَسْتَفِزُّه غَضَبٌ ولا يَعْتَريه غَيْظٌ، ولا يَحْمِلُه على المُسَارَعَةِ إلى الانتِقام معَ غايَةِ الاقْتِدَارِ عَجلَةٌ ولا طَيْشٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45]. وحَظّ العَبْدِ مِن وَصْفِ الحَليم ظاهِرٌ. فَالحِلْمُ مِن مَحاسِنِ خِصَالِ العِبادِ).

وقال الإمامُ المُحدِّثُ اللغوي أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد ابن

الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (الحَلِيمُ في أسماءِ اللَّهِ تعالى هو الذي لا يَسْتَخِفُّه شَيْءٌ مِن عِصْيانِ العِبادِ، ولا يَسْتَفِزُّه الغَضَبُ عليهم، ولكنه جعل لكل شيءٍ مِقْداراً فهو مُنْتَهٍ إليه.

وفي حديث صلاةِ الجماعَة الذي أخرجه الإمام مُسْلِمٌ في «صحيحه»، عن أبي مَسْعُودٍ البَدْرِيّ ﷺ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ مَناكِبَنا في الصلاةِ ويَقولِ: «**اسْتَوُوا ولا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُم أولو الأَحْلامِ والنُّهَى، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم، ثُمَّ الذين يَلونَهُم**»، ومعنى أولو الأَحلام، أي: ذَوُوْ الأَلْبابِ والعُقولِ، واحِدُها: (**حِلْمٌ**) ـ بالكسر ـ وكأنه من الحِلْمِ، أي الأَنَاةِ والتَثَبُّتِ في الأمور، وذلك من شِعارِ العُقَلاءِ.

وفي حديث مُعاذٍ ﷺ، الذي أخرجه الأئمة أبو داود، والترمذي والنسائي في «سُننهم»، والإمام أحمد في «مسنده»: «أن رسولَ اللَّهِ ﷺ أمَرَهُ أن يأخُذَ مِن كُلِّ حالِمٍ ديناراً»، يعني: الجِزْيَةِ التي فرضها اللَّهُ على أهلِ الكتاب، اليَهودِ والنَصارَىٰ الذين يعيشون في بلاد المُسلمين وتحت حكمهم، مُقابل حِمايتهم، يدفعونها للمسلمين أَذِلّاءَ صاغِرِينَ؛ لأنهم لم يُؤمنوا باللَّهِ ورسوله، ولم يدخُلوا في دين الإسلام فَيَدْفَعوا حقّ الله في المالِ وهو الزكاة، وأرادَ بالحالِم في الحديث مَنْ بَلَغَ الحُلُمَ وجَرَى عليه حُكمُ الرجالِ.

ومنه الحديثُ الذي أخرجه الإمامُ البخاري في «صحيحه»، عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيّ ﷺ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ على كُلِّ مُحْتَلِمٍ**»، أي بالِغٍ يُدْرِكٍ.

ومنه الحديث الذي أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» في كتاب التعبير، عن أبي قتادَة ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال: «**الرُؤيا الصادِقَةُ مِنَ اللَّهِ والحُلْمُ مِنَ الشيطان**»، الرُؤيا والحُلْمُ: عِبارَةٌ عمّا يَراه النائمُ في نَوْمِه من الأشياء، لكن غَلَبَت الرُؤيا على ما يَراهُ مِنَ الخَيْر والشيءِ الحَسَن، وغَلَب الحُلْمُ على ما يَراهُ من الشَّرِّ والقَبيحِ). انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 235]، تَوعدَ اللَّهُ عِبادَهُ على ما يَقَعُ في ضمائِرِهم مِن أُمور، وأَرْشَدَهُم إلى إضْمارِ الخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ، ثمَّ لَمْ يُؤَيِّسْهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، ولم يُقَنِّطْهُم مِن عائدته فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إنَّ من عَلِمَ أنَّ الله حَلِيمٌ، لا يُعَجِّلُ عِبادَهُ بالعُقوبَةِ، بل يُمْهِلُهُم حتى يَتُوبُوا ويَرْجِعُوا إلى رُشْدِهم، وجب عليه أن لا يَغْتَرَّ بِحِلْمِ اللَّهِ وعَفْوِهِ، وأن لا يتمادَى في غَيِّهِ وطغيانه ومَعاصِيهِ، طَمَعاً بِعَفْوِ اللَّهِ ورحمته، فإنَّ ذَلك يورِثُ غَضَبَ الرَّبِّ سُبْحَانَه، والعَرَبُ تَقولُ: «اتَّقِ غَضْبَةَ الحَلِيم»، أي إن الحَليمَ الذي أَمْهَلَ بِعَفْوِهِ، ولم يُعَجِّل انتقامَه، إذا لَمَسَ مِمّن يُعامله طَيْشَاً واسْتِخفافاً فإنه يَغْضَبُ، وغَضَبُه حينئذٍ لا يكون سَهْلاً، فكما أن اللَّهَ رؤوفٌ رحيم، فإنه شَديدُ العِقابِ، وعَذابُه أَليمٌ، فهو رَحيمٌ بالتائبين الذين رَجَعُوا عن ضلالهم ومعاصيهم، ولكنه شديد العِقاب على مَن استرسل في ضلاله وتمادى في غيِّه ومعاصيه، ولم تنفعه مَوْعِظَةٌ ولا زَجْرٌ ولا تخويف.

وأيضاً وجب على العبد أن يكون متخلقاً بهٰذا الخلق الكريم، خُلُقُ الحِلْم والأناةِ فَيَصْبِرُ على جهل الجاهلين، وسَفَه السفهاء، فلا يُبادِرهم بالعقوبة، بل يَصْبِرُ على أَذَاهم ويُمْهِلُهم، مُمْتَثِلاً قولَ الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199].

53 ـ الصَّبُور

معناه

الصَبُورُ على وزن (**فَعُول**) من الصَبْر، والمُرادُ منه بالنسبة إلى الله تعالى: عَدَمُ الاستعجالِ في العِقابِ والمُؤاخَذَةِ، فَيكونُ بمعنى الحِلْم، فمعنى الصبور: الذي لا يَسْتَعْجِلُ في مُؤاخَذَةِ العُصاةِ، ومُعاقَبَةِ المُذْنِبينَ، أو بمعنى أَعَمّ: هو الذي لا تَحْمِلُهُ العَجَلَةُ على المُسَارَعَة إلى فِعْلِ الشيء قَبْلَ أوانِهِ.

وهٰذا الاسم لم يرد في القرآن الكريم بهٰذه الصيغة، وإنما هو مُجْمَعَ عليه،

وقد ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللّهِ الحسنى الذي أخرجه الترمذي والبيهقي في «الدعوات»، عن أبي هريرة ﷺ، وفي الحديث المتَّفق عليه عند الشيخين البخاريّ ومسلم في صحيحيهما، عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «**ما أَحَدٌ أَصبَرُ على أذًى سَمِعَهُ مِنَ اللّهِ، يَدَّعُونَ لهُ الوَلَد، ثم يُعافيهم ويرزقُهُم**»، أي ما أحد أَشَدُّ حِلماً عن فاعل ذلك وترك المعاقبة عليه.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّة الإسلام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللّهِ الحُسْنَى»: (الصَّبُورُ هو الذي لا تحملهُ العَجَلَةُ على المسارَعَةِ الى الفِعلِ قَبْلَ أوانِهِ، بل يُنَزِّلُ الأُمُورَ بِقَدَرٍ مَعْلوم، ويُجريها على سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ، لا يؤخّرُها عن آجالِها المُقَدَّرَةِ لها تأخِيرَ مُتكاسِلٍ، ولا يُقدِّمها على أوقاتها تقديمَ مُسْتَعْجِلٍ، بَلْ يُودِعُ كُلَّ شَيْءٍ في أوانِهِ على الوَجْهِ الذي يجِبُ أن يَكونَ كما يَنْبَغي، وكُلُّ ذلك مِن غَيْرِ مُقاساةِ دَاعٍ على مُضادَّةِ الإرادَة.

وأما صَبْرُ العَبْدِ، فلا يَخلو عن مُقاسَاةٍ؛ لأن معنى صَبْرِهِ هو ثبات داعي العَقْل أو الدين في مقابلَةِ داعي الشَّهْوَةِ أوِ الغَضَب، فإذا جاذَبَهُ داعِيَان مُتضادّان، فَدَفَعَ الدَّاعِي إلى الإقدام والمُبادَرَةِ، ومَالَ إلى باعِث التأخيرِ، سُمِّيَ: صَبُوراً، إذْ جَعَلَ باعِثَ العَجَلَةِ مَقْهوراً.

وباعِثُ العَجَلَةِ في حقّ اللّهِ تعالى مَعْدُومٌ، فهو أَبْعَدُ عَنِ العَجَلَةِ مِمَّنْ باعِثُهُ مَوْجُودٌ ولكنه مَقْهُورٌ، فهو أَحَقُّ بهٰذا الاسمِ بعد أن أُخرجت عن الاعتبار تناقُضَ البَواعِثِ ومُصابرَتها بِطَريقِ المجاهَدَةِ).

ويَقول الإمام اللغوي المُحدِّث مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الصَّبُورُ في أسماءِ اللّهِ تعالى هو الذي لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالانتقام، وهو مِن أَبْنِيَة المُبالَغَة، ومعناه قريبٌ مِن معنى الحليم، والفرق بينهما أن المُذْنِبَ لا يَأمَنُ العُقوبَة في صِفَةِ الصَّبُورِ، كما يأمَنُها في صِفَةِ الحَليم.

وفي حديث الصَّوْم الذي أخرجه أبو داود، وابنُ ماجه في سننهما، والإمامُ

أحمد في «مسنده»، عن مجيبة الباهلية، عن أبيها عبد الله بن الحارث الباهلي أنه أتى رسولَ اللَّهِ ﷺ ثم انطلق فأتاهُ بعد سنةٍ وقد تغيَّرَتْ حالُه وهيئتُه، فقال: يا رسولَ اللَّهِ! أما تعرِفُني؟ قالَ: «**ومَنْ أنتَ؟**» قال: أنا الباهِلِيُّ الذي جِئْتُكَ عامَ الأَوَّل، قال: «**فَما غيَّرك وقد كنتَ حَسَنَ الهيئةِ؟**» قال: ما أكلتُ طعاماً إلاّ بِلَيْلٍ مُنذُ فارَقْتُكَ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لِمَ عَذَّبْتَ نَفْسَكَ؟**»، ثم قال: «**صُمْ شَهْرَ الصَبْرِ، ويوماً مِن كُلِّ شَهْرٍ**»، قال: زِدْنِي فإنّ بي قُوَّةً، قال: «**صُمْ يَوْمَيْنِ**»، قال: زَدني، قال: «**صُمْ ثلاثَةَ أيام**»، قال: زِدْني، قال: «**صُمْ مِن الحُرُمِ واتْرُكْ، صُمْ مِنَ الحُرُمِ واتْرُكْ، صُمْ مِنَ الحُرُمِ واتْرُكْ**»، ـ وقال بأصابعه الثلاثَة فضمّها ثم أرسلها ـ. وشَهْرُ الصَبْر في هٰذا الحديث يعني: به شَهْرَ رمضان، وأصلُ الصَبْرِ الحَبْسُ، فسُمِّيَ الصِيَامُ صَبْراً: لما فيه مِن حَبْسِ النفْسِ عن الطعام والشراب والنِكاح. والحُرُمُ في الحديث، أي الأشهر الحرم، ثلاثة سرد متتالية وهي: ذو القِعْدة، ذو الحِجَّة، والمحرَّم، وواحدٌ فَردٌ وهو رَجَب.

أثر هذا الاسم على العبد

إن مَن عَلِمَ أنّ اللَّهَ حَليمٌ صَبُورٌ، وَجَبَ عليه أن يَتَخَلَّقَ بهٰذا الخُلُق الكريم، وقد أَمَرَ اللَّهُ تعالى عباده المُؤمنين بالصَبْر على الأعداء والتمسُّك بالدين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: 200].

الصَبْرُ قوَّةٌ خُلُقِيَّةٌ مِن قُوَى الإرادة، تمكّن الإنسانَ من ضَبْطِ نفسه لتحمُّل المَتاعِب والمَشَقّات والآلام. والصَبْرُ والثباتُ والمثابَرَةُ مِن مَعالِم العَظَمَةِ وشارات الكمال، والحياةُ لا يَنْهَضُ برسالتها الكبرى ويصلُ بها إلى أبعد الغايات من العِلْم والعَمَلِ والرُقيِّ والحضارة إلا أُناسٌ أَفذاذٌ صابرون، بل إن سائِرَ ما ينعم به البَشَرُ من النِعَمِ المادِّيَةِ والرُوحيَّة هو ثَمَرَةُ الصَبْرِ والكفاحِ، ونتيجة الدأب والمثابَرة.

إنَّ الصَّبْرَ هو منارةُ السَبيلِ إلى اللَّه، والمُوصِلُ إلى الإمامَةِ في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: 24]، وهو مِن علامات الإيمان، ولَنْ يفوزَ أَحَدٌ بدرجات القُرْب عند الله تعالى إلا عن طريق الصبر، قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا

﴿يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142]، وقد أوصى الإسلام بالصَبْرِ، وورد ذكرُه في القرآن الكريم في سبعين موضعاً، ففي بعض الآيات يُخْبِرُ أنه مع الصابرين بتأييده وتوفيقه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]، والصَبْرُ مِن أفضل نِعَم اللَّهِ على العَبْد، فقد أخرج البخاريُّ في «صحيحه» عن أبي سعيد الخُدَري ﷺ: «أن ناساً مِنَ الأنصار سألوا رسولَ اللَّهِ ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتّى نَفِدَ ما عندَه، فقال: ما يكونُ عندي من خَيْرٍ فلن أدَّخِرَه عنكم، ومَن يَسْتَعْفِف يُعفَّهُ اللَّهُ، ومن يَسْتَغْن يُغْنِهِ اللَّهُ، ومَن يَتصبَّرْ يصبّرهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أَحدٌ عطاءً خيراً وأَوْسَعَ مِن الصَبْرِ».

فضل الصبر

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142].

أنواع الصبر

للصبر أنواع ثلاثة: الصَبْر على أداء الطاعات وفعل الواجبات، والصَبْرُ عن المعاصي، والصبر على ما يصيب الإنسان في نفسه، أو ماله، أو أهله من مصائب الحياة.

(النوع الأول): أما صبر الإنسان على أداء الطاعات وفعل الواجبات، فالإنسان المؤمن الطائع يجتهد في عبادة ربه، ويُقبل على الصلاة والصيام والزكاة والحجّ، وطلب العلم وسائر العبادات بهمّة ونشاط، ولكنه قد ينتابُه الفُتورُ في طاعة الله تعالى أحياناً، أو تتغير أحواله وأوضاعه الاجتماعية أو النفسية، فينبسط مرّة، وينقبض أخرى، ويكون منشرحاً أحياناً، وأخرى مُسْتاءً مُنزعِجاً مِنْ تَغَيُّر أوضاعه في الحياة، وما يُلاقيه فيها مِن متاعب ومصاعب، وما يواجهه من الناس من أذًى وكيد وشدَّة، ولكن هٰذه المصاعِب يجب ألاّ تصرفُه عن طاعة ربه، وتُضعِفُ إيمانه، فكم مِن إنسان ضعيف الإيمان، نَكَسَ على عَقِبَيْه عند الشدائد، وتراجع القَهْقَرى، وفقد صَبْره وضعفَ إيمانُه بسبب تعرّضِهِ للفِتَن والمَصاعب،

وكم من إنسانٍ ارتَدَّ عن دينه ولَحِقَ بِصُفوفِ أعْدَاءِ الإسلام، وناصَبَ المسلمين العداءَ والكَيْدَ، فانقلبَ عَدُوّاً بعد أن كان عُضواً في المجتمع الإسلامي، واللَّهُ يَبْتَلِي عِبادَهُ بالفِتَن والمِحَن ليعلم الصادِقَ من الكاذب، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142] .

فالمؤمِنُ دائماً بحاجَة إلى سلاح يتسَلحُ به في مواجهة الصِعَاب، ولا يوجدُ أمْضَى مِنْ سِلاح الصَبْرِ لِيَنْشَطَ في اسْتِمرار طاعَةِ ربّه، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132].

(النوع الثاني) وأما صَبْرُ الإنسان عن المَعاصِي، أو عمّا يحِبُّه من شهواتِ الدُنيا وملذّاتها، وذلك بهجرها، ومجاهدة النفسِ في ترْكِها، مما يَسْمُو بها ويُقرِّبُها إلى خالِقها. قال أَنَسٌ ﷺ: «الصَبْرُ صَبْرَان: صَبْرٌ عِند المصيبة فَحَسنٌ، وصَبْرٌ على ما حرَّمَ اللَّهُ عليكَ، فَتُمْسِكُ نَفْسَكَ عنه، وذلك أفضل». ومَن لم يصبر على المعاصي واتَّبع هواه فهو معرّض للهلاك، قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: 37 ـ 40].

(النوع الثالث) وهو صَبْرُ الإنسان على ما يُصيبُه في نفسه، أو مالِهِ، أو أهله، أو منزلته مِن مصائِبِ الحياة وشدائِدها، والرِّضَى بقضاءِ اللَّهِ وقَدَرِهِ عن اقتناع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: 155 ـ 157].

مقاماتُ الصبر

للصَبْرِ مقاماتٌ شتّى، وشُعَبٌ مُتعَدِّدة، منها:

1 ـ الصَبْرُ في مواطِن الحق، واحتمال الصِعاب مِن أجل تبليغ الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإزالته، قال تعالى: ﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: 17]، وأخرج البخاري في «صحيحه» عن خبَّاب بن الأَرَتِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كان الرجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُم يُحفَرُ له في الأرض، فيُجْعَلُ فيه، فيُجَاءُ بالمِنشار فَيُوضَعُ على رأسِهِ، فَيُشَقُّ باثنتين، ما يَصُدُّه ذَلكَ عن دينه، ويُمشَطُ بأَمْشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحْمِهِ مِن عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينه»**.

2 ـ ومِن شُعَبِ الصَبْرِ احْتِمَالُ أَذَى الغَيْرِ ومُقابَلَتُهُ بالعَفْوِ والمُسَامَحَةِ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: 126].

3 ـ ومِن أعلى مَقاماتِ الصبر، الصَبْرُ عند نزول النَّوائِب، كَمَوْتٍ، أو ضياع مالٍ، وضعْفِ صحّة، وفُقدان عضو من أعضاء البَدَن أو شلله. وهٰذا يقتضي حَبْسَ النفْسِ عن الجَزَعِ، واللسانِ عن الشَّكْوَى، والجوارِحِ عن فعل ما يُذَمّ، وانتظارِ الفَرَجِ دونَ ضَجَرٍ، وأن لا يُغَيِّرَ عادَة من عاداته في هيئته، ولا في أكله، ولا في ملبسه، ولا في مظهر بيته، بل يبقى المرءُ على عاداته إظهاراً لِرضاهُ بقضاءِ اللّٰهِ تعالى.

ولا يتنافَى مع الصَبْرِ حُزْنُ القَلْبِ ولا دَمْعُ العَيْنِ، فقد أخرج الإمام مسلم في «صحيحه»، عن عبد اللّٰهِ بن عمر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللّٰهَ لا يُعذّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، ولا بحُزْنِ القَلْبِ، ولكن يُعَذّب بهٰذا**» ـ وأشار إلى لسانه ـ «**أو يَرْحَمُ**»، وأخرج ابنُ ماجه في «سننه» قال: لما توفي إبراهيمُ ابنُ رسولِ اللّٰهِ ﷺ، بكى ﷺ، وقال: «**تَدْمَعُ العَيْنُ، ويَحْزَنُ القَلْبُ، ولا نَقُولُ ما يُسْخِطُ الرَّبُّ**».

إن الصَبْرَ في مستواه الرفيع ثمرةٌ من ثمرات الفهم عن الله، وتَدَبُّرِ حِكْمَتِهِ في تَصريف الأمور، وامتحان عبادِهِ في هٰذه الحياة، وهو ثمرة من ثِمارِ الرِضَى عن الله فيما تجري به مَقاديره، لذلك فهو ضياءٌ ونور لصاحبه، كما قال رسولُ اللّٰهِ ﷺ: «**الصَّبْرُ ضياءٌ**» (أخرجه مسلم).

53 ـ المُنْتَقِم

معناه

هو بمعنى: المُعاقِب للعُصَاةِ والمذنبين، الذين لم يَسْتَغْفِرُوا مِن ذنوبهم، فلم يَشملهم عَفْوُ الله ولا غفرانه، وأصل النقمة: شِدَّة كراهية القبيح. ومَن عَرَفَ أن اللَّهَ سينتقم منه ويُعاقِبُه إذا هو أَصَرَّ على مُخالفته ومعصيته تعالى، ارْتَدَعَ عَن المَعاصِي، واسْتَغْفَرَ وأنابَ. وفي أنه تبارَك وتعالى ذو انتقام، قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: 47]. وفي وصفه تبارك وتعالى بأنه منتقم، قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[السجدة: 22].

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام الغزالي في «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (المنتقم هو الذي يَقصِمُ ظهورَ العُتَاةِ، ويُنكلُ بالجُناةِ، ويُشَدِّدُ العِقابَ على الطُغاةِ، وذلك بعد الإعذار والإنذار، وبعد التمكن والإمهال، وهو أَشَدُّ للانتقام من المعاجَلة بالعقوبَة.

المحمودُ من انتقام العَبْدِ أن يَنْتَقِمَ مِنْ أعداءِ الله تعالى، وأعدى الأعادي نَفْسُه، وحَقُّه أن ينتقمَ منها مهما قارفَ معصية، أو أخلّ بِعِبَادَة، كما نُقِلَ عن أبي يزيد أنه قال: تكاسَلَتْ عليَّ نفسِي في بعض الليالي عن بعض الأوراد، فعاقَبْتُها بأن منعتُها الماءَ سنةً). انتهى كلام الغزالي.

ويقولُ الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (المُنتَقِم هو المبالِغ في العقوبة لمن يشاء، وهو على وزن (مُفْتَعِل) مِن نَقَمَ يَنْقِمُ، إذا بَلَغَتْ به الكراهَةُ حَدَّ السُخْطِ.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»، عن عائشة ﵂ قالت: «ما انتقم رسولُ اللَّهِ ﷺ لنفسه قَطّ، إلّا أن تُنْتَهك مَحارِمُ اللَّهِ»، أي ما عاقَبَ أحداً على مكروه أتاه مِن قِبَلِه.

انتقام الله من أعدائه

في القرآن الكريم قصص كثير عن الأمم السابقة، ضَلّت عن سَبِيل ربها،

فأرسل اللَّهُ لها رُسُلاً وأنبياء ليَهْدُوها ويرشدوها إلى ربها وطاعته، فلما كَذَّبَت الرسلَ، وَرَفَضتْ هُدَى اللَّهِ، انتقم اللَّهُ منها وأهلكها، وجعلها عِبْرَةً للمعتبر، فهؤلاء قَوْمُ نوح ﷺ، قال اللَّهِ تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 59 _ 64].

وتتكرّر الهداية ويتكرّر التكذيب فالانتقام مَعَ مَنْ بَعْدِ قوم نوح: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: 65]، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: 72] _ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: 73]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: 78] _ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: 80]، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[الأعراف: 84]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: 91] .

ثم يُعقّبُ اللَّهُ على تكذيبهم بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: 101 _ 102].

أثر أسماء اللَّهِ الحسنى التي تدخل في باب علاقة المكلّفين بخالِقهم:

إنَّ مَن يُلاحظ باستمرار، مُلاحَظَةَ تَحقُّق وتَبصُّر، ما تدُلّ عليه أسماء اللَّهِ: (المَلِك، الهادي، الحَكَم، العَدْل، المُقْسِط، الحميد، الشَّكُور، التواب،

الغَفُور، الغَفّار، العَفُوُّ، الحليم، الصَّبُور، المُنْتَقِم)، ويلاحظُ مع ذلك أن اللَّهَ هو العليمُ الخبير، الذي لا تَخْفَى عليه خافِيَةٌ، وهو القادِرُ الذي لا يُعجزُهُ شيءٌ، فإنه لا بُدّ أنْ يَخشع أمام اللَّهِ مُعترفاً له بتمام الملك، راضياً بأمره ونهيه، ساعياً إلى مرضاته.

فإذا جاءه الهُدَى من ربه اتَّبَعَهُ مُطمئن القلب، مُسَلِّماً تسليماً، وإذا حَكَمَ اللَّهُ عليه بحُكم رضيَ بحكمه، ولم يُعَقِّب عليه بغير الثناء والإجْلالِ، ثم إذا سَعَى سَعْيَه عَلِمَ أنّ اللَّهَ لا يُضيعُ له أجْرَ عمله؛ لأنه العَدْلُ، ولا يَظلِمُه مثقال ذرّة؛ لأنه المُقْسِطُ بل سَيَمْنَحُهُ على الحَسَنَةِ عشرَ أمْثالِها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضْعَافٍ كثيرة؛ لأنه تعالى الحميدُ الشَكورُ، لِذا فهو يُضاعِف من أعماله الصالحة لِينالَ من رفيعِ الدرجاتِ عند الله.

على أنه إذا تَغَلَّبَتْ عليه نَفْسُه فانزلَقَ إلى المَعْصِيَةِ، فإنه أسْرَعُ ما يَعُودُ إلى الاسْتِغفارِ، ويؤوبُ إلى النَدَم والتَوْبَةِ، طامِعاً بِتَوْبَةِ اللَّهِ عليه، وغَفْرِ ذنوبه، والعَفْوِ عنها؛ لأنه يعلمُ أنّ اللَّهَ هو التوّابُ، الغَفُورُ الغَفارُ العَفوُّ، كما أنه لا يَغترُّ بتأخير معاقبة اللَّهِ له؛ لأنه يعلمُ أن اللَّهَ حَليمٌ صَبُورٌ، يؤخِّرُ العُقُوبَة، ويُمدُّ في آجالِ فُرَص التَوْبَةِ، ليعودَ المُسِيءُ إلى رُشْدِهِ، ويَسْتغْفِرَ مِن ذنبه، أما إذا تمادَى المُسِيءُ في غيِّه، فإنه يأخذه أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ؛ لأنه تعالى يُمْهلُ ولا يُهْمِل.

ثم هو لا يتجرّأ على اللَّهِ بالعناد والاستِكْبار والمعاصي؛ لأنه يعلمُ أنّ اللَّهَ منتقِمٌ قهّارٌ، شديدُ العقاب.

الأسماء الحسنى التي تعود إلى صفات الأفعال

مقدمة

بعد أن ذكرنا مجموعة الأسماء الحسنى التي تدخل في باب علاقة المكلّفين بخالقهم، نذكر الصنف السابع من مجموعة الأسماء التي تعود إلى صفات الأفعال، وهو ما يدخل في باب أن جميع ما يجري من متناقضات وأضداد ومختلفات في جميع الخلائق، هو من أفعال الخالق سبحانه بقضائه وقدره.

إذا لاحظنا جميع ما يُصيبُ الناسَ من خَفْضٍ أو رَفْعٍ، وعَزٍّ أو ذُلٍّ، وتقديم أوْ تأخيرٍ، وجَمْعٍ أوْ مَنْعٍ، وضُرٍّ أو نَفْعٍ، رأينا بوضوح أنه مِنَ اللَّهِ تعالى وبقضائه وقدره، ومن هنا جاء في المأثور مِن أسماء اللَّهِ الحسنى: (الخافض الرافعُ، المُعِزّ المُذِلُّ، المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ، الجامِعُ المانِعُ، النافِعُ الضارُّ)، وفيما يلي شرحُ هٰذه الأسماء.

54 ــ الخافض

اسم فاعل مأخوذٌ من الخَفْضِ، وهو الإهانَةُ وتنزيلُ المكانَةِ، فما يُصيبُ الإنسانَ من انحِطاط وسُقوط في درجته بين الناس، فمِنَ اللَّهِ جلَّ وعَلا؛ فهو سُبْحَانَه الذي يَخْفِضُ أهلَ الكُفْرِ والمعاصي، بما يَنالُهم مِن شَقاء، بسبب كُفْرهم ومعاصيهم. ولم يَرِدْ هٰذا الاسم في القرآن الكريم، ولكنه ورد في حديث أبي هريرة الجامع لأسماء الله الحسنى الذي أخرجه الترمذي والبيهقي، وهو مُجمعٌ عليه.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي في «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى»: (الخافِضُ الرافِعُ هو الذي يَخفِضُ الكفار بالإشقاء، ويرفع

المؤمنين بالإسعاد يرفع أولياءه بالتقريب، ويخفض أعداءه بالإبعاد، ومَن يرفَعْ مشاهَدَتَهُ عن المَحْسُوسات والمتخيّلات، وإرادتَه من ذَميم الشهوات، فقد رَفَعَهُ إلى أفق الملائكة المُقَرَّبين، ومَن قَصَرَ مشاهَدَته على المحسوسات، وهَمَّتَهُ على ما يُشاركُهُ فيه البهائِمُ مِنَ الشهوات، فقد خَفَضَهُ إلى أَسْفَلِ السافِلينَ، ولا يَفْعَلُ ذلك إلّا الله تعالى، فهو الخافِضُ الرافع.

حَظُّ العَبْدِ من ذلك أن يرفَعَ الحقَّ، ويَخفِضَ الباطِلَ، وذلك بأن يَنْصُرَ المُحِقَّ ويَزجُرَ المُبطِلَ، فيُعادِي أعداءَ اللَّهِ لِيَخْفِضَهُم، ويُوالي أولياءَ اللَّهِ لِيَرْفَعَهم).

ويقول الإمام اللغوي المحدّث أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الخافِضُ في أسماءِ اللَّهِ تعالى هو الذي يَخفِضُ الجَبَّارِينَ والفَراعِنَةَ ـ أي يَضَعُهُمْ ويُهينُهُم ـ ويَخْفِضُ كلَّ شيء يُرِيدُ خَفْضَهُ، والخَفْضُ ضِدُّ الرَّفْعِ.

ومنه الحديث الذي أخرجه مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي موسى الأشعري، قال: قام فينا رسولُ اللَّهِ ﷺ بخمس كلمات، فقالَ: «**إنَّ اللَّهَ ﷻ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قَبْلَ عَمَلِ النهار، وعَمَلُ النهارِ قَبْلَ عَمَلِ الليل، حجابُهُ النورُ، لو كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بَصَرُهُ مِن خَلْقِهِ**». ومعنى قوله: «**لاَ ينامُ ولا ينبغِي له أنْ يَنامَ**» فمعناه: أنه سُبحانه وتعالى لا ينامُ وأنه يَسْتحيلُ في حَقِّه النومُ؛ فإنَّ النومَ انْغِمَارٌ وغَلَبَةٌ على العَقْلِ، يَسْقُطُ به الإحساسُ، واللَّهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك، وهو مُسْتَحِيلٌ في حَقِّهِ جل وعلا، وأما قولهُ: «**يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ**». قال ابن قتيبة: القِسْطُ: الميزانُ، وسُمِّيَ قِسْطاً؛ لأنَّ القِسْطَ العَدْلُ، وبالميزان يَقَعُ العَدْلُ، قالَ: والمُرادُ أنّ اللَّهَ تعالى يَخْفِضُ المِيزانَ ويرفَعُهُ بما يُوزنُ مِن أعمالِ العِبادِ المرتفعةِ، ويوزنُ مِن أرزاقِهم النازِلَةِ، وهذا تمثيل لما يُقَدِّرُ تنزيله، فَشُبِّهَ بوَزْنِ الميزان. وقيل: المُراد بالقِسطِ: الرزقُ، الذي هو قِسْطُ كلِّ مخلوق، يَخْفِضُهُ فَيَقْتُرُه، ويَرْفَعه فيُوسِعُه، واللَّهُ أعلم.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إنَّ مَن عَلِمَ أنَّ اللَّهَ هو الخافِضُ، الذي يُذِلُّ أهلَ الكُفْرِ والعِصْيانِ، يَخْشَى

من سَطْوَته وبَطْشِهِ وجبروته، ويخضعُ لِعزّته وكبريائه، ويُعلنُ له الطاعَة والخضوعَ، ولا يتَكَبّرُ على طَاعَتِهِ، ولا يُعانِده، ولا يَعْلُو في الأرض استعلاء المتكبّرين المفسدين المتألّهين، كما كان شأنُ فرعونَ والنُمْروذِ، وأضرابهما، الذين كانت نهايَتُهم الخَفْضَ والذُلَّ والانتقام.

قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4]، وقد بلغ مِن اسْتِعْلائِهِ أنه ادَّعى الألُوهيَّة فَأَخَذَهُ اللّهُ أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٤٠﴾﴾ [القصص: 38 ـ 40].

أما المَلِكُ والحاكم المُؤْمِنُ فإِنَّهُ يُقِيمُ مَوازينه في الناسِ على أساسِ الإيمان والتقوى، والعمل الصالح، فيرفع المؤمنين ويُدنيهم ويُقرِّبهم ويتّخذهم بطانة صالحة، ويُبعد الفاسدين الأشرار، ويقمعهم ويعاقبهم ويخفضهم وقد قصّ اللّهُ لنا في القرآن قصةَ ذي القَرْنَيْن، وهو مَلِكٌ مؤمن عادِل قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: 83 ـ 88].

معناه

اسم فاعل مأخوذٌ مِنَ الرفَع، وهو الإكرامُ وإعْلاءُ المكانَةِ، وما يَصِلُ الإنسانُ إلى مَكانَةٍ رفيعة بَيْنَ الناسِ إلّا بِرَفْعٍ مِنَ اللّهِ ﷻ، فهو الذي يَرْفَعُ أَهْلَ

الإيمانِ والطاعَةِ، بما يُصيبُونَه مِنْ سَعَادَةٍ، بِسَبَبِ إيمانهم وطاعاتِهم.

وفي معنى أنه الرافع قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: 83].

ولم يَرِد هٰذا الاسم في القرآن الكريم، بهذه الصيغة، وإنما جاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى الذي رواه أبو هريرة ﷺ، وأخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي، كما أنه مُجْمَعٌ عليه بين العُلماء.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حجَّةُ الإسلام، وفيلسوفه الإمام المتكلِّم الفقيه الأصولي أبو حامد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «المقصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (هو الذي يرفَعُ المؤمنين بالإسْعادِ، يرفَعُ أولياءَه بالتقريب، ومَن يَرْفَع مُشاهدته عن المحسوسات والمُتَخَيَّلات، وإرادَتُه مِن ذمِيم الشهوات، فقد رَفَعَه إلى أُفُقِ المَلائِكَة المُقَرَّبينَ، ولا يَفْعَلُ ذلك إلا اللَّهُ تعالى، فهو الرافِعُ.

حَظُّ العبد مِن ذلك أنْ يَرْفَعَ الحَقَّ، وذلك بأن ينصُرَ المُحِقَّ ويَزْجُرَ المُبْطِلَ، فيُعادِي أعداءَ اللَّهِ لِيَخْفِضَهُم، ويُوالِي أَوْلياءَ اللَّهِ لِيَرْفَعَهُم).

وقال الإمام اللغوي المحدِّث مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الرافِعُ في أسماء اللَّهِ تعالى هو الذي يَرْفَعُ المُؤمنين بالإسْعادِ، وأولياءَه بالتَقْريبِ، وهو ضِدُّ الخَفْضِ).

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 165].

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جَعَلكم تَعْمُرُونَها

جيلاً بعد جيل، وقَرْناً بعد قَرْن، وخَلفاً بعد سَلَف؛ قاله ابن زيْد وغيرُه من المفسّرين، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: 60]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 62]، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30 وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129]. وقولُه: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾، أي فاوَتَ بَيْنكم في الأرزاق، والأخلاق، والمحاسِنِ والمَسَاوِي، والمَناظِرِ، والأشكالِ، والألوان، وله الحكمةُ في ذلك، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: 32]، وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: 21].

وقوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، أي: ليَخْتَبِرَكُم في الذي أنْعَمَ به عليكم وامتَحَنَكُم به ليَخْتَبِرَ الغنيَّ في غِناهُ، ويَسْأَلَهُ عن شُكْرِهِ، والفَقِيرَ في فَقْرِهِ ويَسْأَلَهُ عَنْ صَبْرِهِ. قال رسولُ اللَّهِ ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمامُ مسلمٌ في كتاب الذكر من «صحيحه»، عن أبي سعيدٍ الخُدريّ ﵁: «**إنَّ الدُنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها فَيَنْظُرُ كيفَ تعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدنيا واتَّقُوا النساءَ، فإنَّ أوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسرائيلَ كانَت في النساءِ**»، قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: معنى قوله: «**إن الدُنيا حُلوَةٌ خَضِرَة**»، يُحْتَمَلُ أن يُرادَ به شيئان:

(أحَدُهما): حُسْنُها للنفوسِ ونَضارَتُها ولَذَّتُها، كالفاكهة الخَضراءِ الحُلْوَةِ، فإنَّ النفوسَ تَطْلُبُها طلباً حثيثاً، فكذا الدُنيا.

(والثاني): سُرْعَةُ فنائها، كالشيء الأخْضَر في هٰذين الوَجْهَيْن، ومعنى قوله: «**إنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها**»، أي: جاعِلُكُم خُلَفاءَ مِنَ القُرونِ الذينَ قَبْلَكُم، فَيَنْظُرُ، هل تَعْملونَ بِطاعَتِهِ أم بمعصِيَتِهِ وشَهَواتِكُم، ومعنى قوله: «**فاتّقُوا الدُنيا واتَّقُوا النساء**»، أي: اجتنِبُوا الافتتان بها بأن تتعلَّقوا بمتاعِ الحياةِ الدنيا فتنشغلوا بها عن عبادَةِ ربِّكم بالكلّيةِ فتصرِفُوا حياتكم كلَّها في جَمع الأموال، والاستمتاع بالشهواتِ والملذاتِ من نساءٍ ومآكل ومشاربَ وسِياحات وسهرات، وبيّن ﷺ بأن أكثرَ الفتنِ فتنةُ النساء لدوامها وابتلاءِ أكثرِ الناسِ بها؛ لأنهن يأخُذْن بلُبّ الرجل

الحليم العاقل، وقد يَحْمِلْنَهُ على معاصي اللَّهِ فَيَهْلَكَ في الدنيا والآخرة، وقد بَيِّن ﷺ لأُمَّتِهِ أن أوَّلَ فِتْنَةِ بني إسرائيل كانت في النساء فأهلكتهم وارتكبوا بسببها الفواحِشَ والمعاصي والمُوبقاتِ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، تَرهيبٌ وترغيبٌ أنَّ حِسابَهُ وعِقابَهُ سَريعٌ فِيمن عَصاهُ وخالَفَ رُسُلَه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لِمَنْ والاه واتَّبَع رُسُلَه فيما جاءوا به من تشريع فيه الخير والهُدَى والنور.

فاللَّهُ سبحانه هو الخافِضُ الرافِعُ، يَرْفَعُ عِبادَهُ المؤمنين ويُعزُّهم بِدِينهِ، ويَخْفِضُ أهل الكفر والمَعاصي ويُذِلُّهم في الدنيا والآخرة، فَمَن طلبَ العِزّ والرِفْعَة في غير طريق الإيمان والطاعَةِ فقد أخطأ الطريق، ولن يَجِدَ إلّا الذُّل والصغار.

56 ــ المُعِزُّ

معناه

اسم فاعِل من الإعزاز، وهو إعلاء الشأن والتقوية، فما مِن عِزّ ينالُهُ الإنسانُ إلّا بإعزازِ اللَّهِ لهُ، وفي معنى أنه المُعِزّ قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 26]، وأعلى أنواعِ العِزّ: عِزُّ الطاعَةِ والقُربُ منَ اللَّهِ.

ولم يَرِدْ هٰذا الاسم في القرآن الكريم بهٰذه الصيغة، وإنما وَرَدَ في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى الذي أخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي، عن أبي هريرة ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (المُعِزّ هو الذي يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشاءُ، والمُلكُ الحقيقي في الخلاصِ عن ذُلِّ الحاجة وقَهْرِ الشَهْوَةِ، وعَيْبِ الجَهْلِ، فَمَنْ رَفَعَ الحجابَ عن قَلْبِهِ حتى

شاهَدَ جمالَ حَضْرَتِهِ، وَرزَقَهُ القَنَاعَةَ التي استغنى بها عن خَلْقِهِ، وأَمَدَّهُ بالقُوَّةِ والتأييد حتى استولى بها على صفات نفسه، فقد أعزّهُ اللَّهُ وآتاهُ الملكَ عاجلاً، وسَيُعِزُّهُ في الآخِرَةِ بالتقرُّب ويُناديهِ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾ [الفجر: 27 ـ 29]، وذلك صنعُ الله تعالى كما يشاءُ حيثُ شاء فهوَ المُعِزّ يُعِزّ من يشاء، وكلُّ عَبْدٍ اسْتُعْمِلَ في تيسير أسباب العِزّ على يدهِ ولسانِهِ فهو ذو حَظٍّ من هٰذا الاسم) انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (المُعِزّ في أسماء اللَّهِ تعالى هو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يَشَاءُ من عبادِهِ، والعِزَّةُ في الأصل: القُوَّةُ والشِدَّة والغَلَبَة، تقولُ: عَزَّ يَعِزُّ ـ بالكسر ـ إذا صارَ عزيزاً وعزَّ يَعَزُّ ـ بالفتح ـ إذا اشتدّ.

ومنه الحديث الذي أخرجه ابن عساكر في تاريخه، عن إعادة بناء الكعبة في الجاهلية بعد أن هدمها السيل أنه ﷺ قال لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها **«هل تدرين لم كان قومُك رفعُوا باب الكَعْبَةِ؟»**، قالت: لاَ، قال: **«تَعَزُّزاً أنْ لا يَدْخُلَها إلاَّ من أَرادُوا»**، أي: تكبرُّاً وتَشَدُّداً على الناسِ.

أقوال المفسّرين

يقول الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: 138 ـ 140].

يعني أن المنافقين وهم الذين آمنوا ثم كَفَروا فطبَعَ اللَّهُ على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾، بمعنى: أنهم معهم في الحقيقة يُوَالونَهم، ويُسِرُّونَ إليهم بالمَوَدَّةِ، ويقولون لهم إذا خَلَوْا بهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: 14]، أي بالمؤمنين في إظهارِنا لهم المُوافَقَةَ، فقال اللَّهُ تعالى مُنْكراً عليهم فيما سَلَكُوهُ مِنَ مُوالاةِ الكافرينَ: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ

﴿ٱلْعِزَّةَ﴾، ثم أخبر تعالى بأنَّ العِزّةَ كُلَّها له وَحْدَهُ لا شريكَ له، ولِمَنْ جَعَلها اللّهُ له، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: 10]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]، والمقصودُ مِن هٰذا التَهْييجِ على طلبِ العِزّةِ من جَنابِ اللّهِ، والإقْبالُ على عُبُودِيَّتِهِ، والانتِظامُ في جُملةِ عبادِهِ المؤمنين الذين لَهُمُ النُصْرَة في هٰذه ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51].

وقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾، أي: إنكم إذا ارتكَبْتُمُ النَهْيَ بَعْدَ وُصولِهِ إليكم، ورَضيتُم بالجُلوسِ مَعَهُم في المكان الذي يُكفَرُ فيه بآياتِ اللّهِ، ويُسْتَهْزَأُ ويُنْتَقَصُ بها، وأَقْرَرْتُمُوهُم على ذلك فَقَدْ شارَكْتُمُوهُم في الذي هم فيه، فلهٰذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾ في المَأْثَم، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي في «جامعه»: «**مَن كان يؤمِنُ باللّهِ واليَوْمِ الآخِرِ فلا يَجْلِسْ على مائِدَةٍ يُدارُ عَليها الخَمْرُ**»، والذي أُحِيلَ عليه في هذه الآية مِن النَهْيِ في ذلك هو قولُه تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: 68].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140]، أي: كما أشركوهم في الكفر كذلك يشاركُ الله بينَهُم في الخلود في نار جهنَّم أبداً، ويجمَعُ بينهم في دارِ العُقوبَةِ والنَكالِ والقُيُودِ والأغلالِ وشراب الحَميمِ والغسلين.

وهٰذا حالُ كثير من المسلمين اليوم، فإنهم تركوا دينهم، ولَحِقُوا بأعداء الإسلام من اليَهودَ والنصارى والعلمانيين، وانتسبوا لمَحافِلِهم المحلّيّة والدوليّة، وجمعياتهم وأحزابهم، يبتغون عندهم العِزّ، والجاه، والمناصِب، والأموال، والمراكز، وقدّموا لهم الولاء والطاعة، وناصَبُوا أهلَ دِينهم العَداوةَ والبَغْضاءَ والشحناءَ، فهٰؤلاء في خطرٍ عظيم إن لم يرجعوا إلى ربّهم، ويتوبوا إليه قبل فواتِ الأوان، قبل أن يأتيَ أحدَهم الموتُ، فيقولَ: ربِّ ارجعونِ لعلّي أعْمَلُ صالحاً فيما تركتُ، كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها، لقد جَهلَ هٰؤلاء أن العِزَّةَ للّهِ ورسولِهِ

وللمؤمنين، فطلبوها عند أعداء اللَّهِ ولن ينالوا إلّا الخيبة والخُسْرَان في الدنيا والآخرة، واللَّهُ غالب على أمرِهِ ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

57 ـــ المُذِلُّ

معناه

اسمُ فاعِلٍ من الإذْلالِ، وهو إسقاطُ الشَّأْنِ والإهانةُ والإضْعَافُ، فما مِنْ ذُلٍّ يَنْحَدِرُ إليه الإنسانُ إلّا بإذْلالِ اللَّهِ له.

وفي معنى أنه المُعِزُّ والمُذِلُّ قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 26]، وشَرُّ أنواعِ الذُّلِّ: ذُلُّ المَعْصِيَةِ والبُعْدِ عن اللَّهِ ﷻ.

أقوال العلماء في تفسيره

قال الإمام حُجَّةُ الإسلام وفيلسوفه أبو حامد الغزالي الشافعي في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (المُذِلُّ هو الذي يَسْلُبُ المُلكَ مِمَّن يَشاء، والمُلكُ الحقيقيُّ في الخلاصِ عن ذُلِّ الحاجَةِ، وقَهْرِ الشَّهْوَةِ وعَيْبِ الجَهْلِ.

ومَن مَدَّ عَيْنَهُ إلى الخَلْقِ حتّى احْتَاجَ إليهم، وتَسَلَّطَ عليه الحِرْصُ حتى لم يَقْنَعْ بالكِفايَةِ، واسْتَدْرَجَهُ بِمَكْرِهِ حتى اغْتَرَّ بنفسه وبَقِيَ في ظُلمَةِ الجَهْلِ فَقَدْ أذلَّهُ وسَلَبَهُ، وذلك صُنْعُ اللَّهِ تعالى كما يَشاءُ حيثُ يَشاءُ، فهو المُعِزُّ المُذِلُّ يعزّ مَن يشاء ويذِلُّ مَن يَشاء، وهٰذا الذليلُ هو الذي يُخاطَبُ ويُقالُ له: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: 14، 15]، وهٰذا غايةُ الذُلِّ). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام المحدِّثُ اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد

ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (المُذِلُّ في أسماءِ اللَّهِ: هو الذي يُلْحِقُ الذُّلَّ بِمَنْ يَشاءُ مِن عِباده، ويَنفي عنه أنواعَ العِزِّ جميعَها.

ومنه الحديث الذي أخرجه مسلم في «صحيحه»: «**يتركون المدينة على خير ما كانت مُذَلَّلة، لا يَغشاها إلاّ العوافي**»، أي: ثمارُها دانية، سَهْلَةُ المتناوَل مُخَلاَّةً غيرُ مَحْمِيَّةٍ، ولا مَمْنُوعَةٍ على أحسنِ أحوالها، وقيل: أرادَ أن المدينة تكون مُخَلاَّةً خالِيَةً مِنَ السُّكان، لا يغشاها إلاَّ الوُحوش.

أقوال المفسِّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾، يقولُ تبارك وتعالى: ﴿قُلِ﴾، يا محمدُ، مُعَظِّماً لِرَبِّك وشاكِراً له ومُفَوِّضاً إليه ومتوكِّلاً عليه: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، أي: لك المُلكُ كلُّه ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، أي: أنتَ المُعطِي وأنتَ المانِعُ، وأنت الذي ما شِئتَ كان وما لم تَشَأْ لم يكن.

وفي هٰذه الآية تنبيهٌ وإرشادٌ إلى شُكرِ نِعْمَةِ الله تعالى على رسولِهِ ﷺ، وهٰذه الأمَةِ؛ لأن اللَّهَ تعالى حَوَّلَ النُبُوَّةَ من بَنِي إسرائيلَ إلى النبي العَرَبيّ القُرَشِيّ الأُمِّيّ المكّيّ، خاتَمِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ على الإطلاق، ورسولِ اللَّه إلى جميع الثقلين الإنسِ والجنِّ، الذي جمعَ اللَّهُ فيه مَحاسِنَ مَن كان قَبْلَه، وخَصَّهُ بخصائِصَ لم يُعْطِها نَبيّاً من الأنبياء، ولا رَسولاً مِنَ الرُسُلِ، في العلم بالله وشريعته وَإِطْلاعِهِ على الغُيوبِ الماضِيَةِ والآتِيَةِ، وكشفُه له عن حقائِق الآخرة، ونَشْرُ أُمَّتِهِ في الآفاق في مَشارِق الأرض ومغارِبها، وإظهار دينه وشرعه على سائرِ الأديان والشرائع، فصلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقَبَ الليلُ والنهارُ، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، أي أنت المتصرِّفُ في خلقك، الفَعّالُ لما تُريد.

كما ردَّ تعالى على مَن يحكم عليه في أمره حيث قال: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31]، قال اللَّهُ ردّاً عليهم: ﴿أَهُمْ

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف: 32]، أي نحنُ نتصرَّفُ في خلقنا كما نُريدُ، بلا مُمانِعٍ ولا مُدافِعٍ، ولنا الحِكمَةُ البالِغَةُ والحُجَّةُ التامَّةُ في ذلك، وهكذا يُعْطِي النُبُوَّةَ لمن يُريدُ، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124]، وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [الإسراء: 21].

وقد روى الحافظ ابنُ عساكر في تاريخه في ترجمةِ إسحاق بن أحمد، عن المأمون الخليفة أنه رأى في قصرٍ ببلاد الروم مكتوباً بالحِمْيَرِيَّة، فَعُرِّبَ له فإذا هو: (بسم الله، ما اختلف الليلُ والنهار، ولا دارت نجومُ السماء في الفَلَكِ إلّا بِنَقْلِ النعيم، عن مَلِكٍ قد زال سُلْطانُه إلى مَلِك، ومُلْكُ ذِي العَرْشِ دائِمٌ أبداً لَيْسَ بِفانٍ ولا مشترك).

حَظّ المؤمن من هٰذا الاسم

إنّ المؤمن الموقِن بأنَّ اللَّهَ هو المُعِزُّ لأهل طاعَتِه، المُذِلُّ لأهل مَعْصِيَتِهِ، يكونُ عَزِيزاً بربِّه وبدينه، غير مُتَصاغِرٍ في نفسه، ولو تألَّبَتْ عليه قُوَى الشرِّ جميعاً، فلا يتزلزل في دينه، ولا يتطرّقُ الشَّكُّ إلى عقيدته، بل يُوقِنُ أنه على الهُدَى والحق ويثبت على دينه، وإذا رأى الباطِلَ مِن حولِهِ قد طغى وعمَّ في الأرض، وامتلك القُوَّة، فهو يعلم أنّ هذا اسْتِدْرَاجٌ مِن اللَّهِ لأهل الباطل، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: 196 ـ 198].

58 ـــ المُقَدِّمُ

معناه: مأخوذ مِن التقديم، ويقع في الأزمنة والأمكنة والمنازل المعنوية، فما مِن تقديم في الأزمنة، أو في الأمكنة، أو في المنازِل المعنوية يجري لأَحَدٍ مِن خلقِ اللَّهِ، إلاّ وهو حاصِلٌ بتقديم اللَّهِ، وأعلى أنواع التقديم: تقديمُ اللَّهِ أولياءَهُ، بتَقْرِيبِهِم إليه، وهدايتهم إلى معرفته، وهٰذا الاسم غير مَذكور في القرآن الكريم، ولكنه مُجْمَعٌ عليه، وقد ورد في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى عند الترمذي وابن ماجه في سننهما، والبيهقي في «الدعوات»، عن أبي هريرة ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ حُجَّةُ الإسلام، وفيلسوفه الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى»: (المُقدِّمُ: هو الذي يُقرِّبُ، ومَن قرَّبَهُ فقد قَدَّمَهُ، وقد قدَّم أنبياءَهُ وأولياءه بتقريبهم وهِدايتهم، والمَلِكُ إذا قَرَّبَ شخصَيْن مثلاً، ولكن جعل أحدَهُما أقربَ إلى نفسه يُقالُ: قَدَّمَهُ أي جَعَلَهُ قُدَّامَ غيرِه. والقُدَّام تارةً يكون في المكان، وتارَةً يكون في الرُّتْبَةِ، وهو مُضافٌ لا مَحالَةَ إلى مُتَأَخِّرٍ عنه، بالإضافة إليه يتقدَّمُ ما يتقدَّمُ ويتأَخَّرُ ما يتأخَّر، ولا بُدَّ فيه مِن مَقْصِدٍ هو الغايَةُ، والمَقْصِدُ هو اللَّهُ تعالى.

والمُقَدَّمُ عند اللَّهِ هو المُقَرَّبُ، فقد قَدَّم الملائكةَ، ثم الأنبياء، ثم الأولياء، ثم العُلماء، واللَّهُ تعالى هو المُقَدِّمُ؛ لأنّك إن أحلتَ تقديمهم على توفيرهم وكمالهم في الصفات، فَمَنْ هو الذي حملهم على التوفير بالعلم والعبادة بإثارَة دوَاعِيهم؟ فذلك كلُّه من الله تعالى، فهو المُقدِّمُ.

والمُرادُ هو التقديمُ في الرُّتْبَة، وتوجد إشارة إلى أنه لم يتقدَّمْ مَن تَقَدَّمَ بعلمه وعمله، بل بتقديم اللَّهِ إيَّاهُ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٣﴾ [السجدة: 13]) انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمامُ المحدّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (المُقَدِّم في أسماءِ اللَّهِ تعالى هو الذي يُقَدِّمُ الأشياءِ، ويضعُها في مواضعها، فَمَنِ اسْتَحَقَّ التَّقْديمَ قَدَّمَهُ.

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير من «صحيحه»، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أنا الحَاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قَدَمِي**»، أي على أَثَرِي). انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾ [النساء: 32]، أخرج الإمام أحمد في «مسنده» قالت أمُّ سَلَمَة: يا رسولَ اللَّهِ! تَغْزُو الرجالُ ولا نَغْزُو، ولنا نصفُ المِيراث؟! فأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وأخرج عليّ بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس في الآية قال: ولا يتمنّى الرجلُ فيقولُ: ليت لَوْ أَنَّ لي مالَ فلانٍ وأَهْلَهُ، فَنَهى اللَّهُ عن ذلك ولكن يَسْأَلُ اللَّهَ مِن فضله.

ثم قال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾، أي كلٌّ له جزاءٌ على عمله بِحَسَبِهِ، إنْ خَيْراً فَخَيْرٌ، وإنْ شَرّاً فَشَرٌّ؛ هٰذا قولُ ابنِ جرير الطبَرِيّ، وقيلَ: المُراد بذلك في الميراث، أيُ كُلٌّ يَرِثُ بِحَسَبِهِ، رواه الترمذي، عن ابن عباس.

ثم أرشدهم إلى ما يُصْلِحُهم فقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ لا تتمنَّوْا ما فَضَّلنا به بَعْضَكُم على بعضٍ، فإنَّ هٰذا أَمْرٌ مَحْتُومٌ، أي إنَّ التَمَنِّي لا يُجْدِي شيئاً، ولكن سَلُونِي مِن فَضْلِي أُعْطِكم، فإني كريمٌ وَهَّابٌ، وقد أخرج الترمذي في «جامعه» بسنده إلى ابن مسعود قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**سَلُو اللَّهَ مِن فضلهِ، فإنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أن يُسْأَلَ، وإنَّ أَفضلَ العبادَة انتظارُ الفَرَجِ**».

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي عليمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الدنيا فيُعْطيهِ منها، وبمن يَسْتَحِقُّ الفَقْرَ فيُفْقِرُه، وعليمٌ بَمَنْ يَسْتَحِقّ الآخرةَ فيُقَيِّضُهُ لأعمالها، وبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الخِذْلَان فَيَخْذُلُه، عن تعاطِي الخير وأسبابه، ولهٰذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أثر هٰذا الاسم على العبدِ

إنَّ منْ عَلِمَ أنَّ اللَّهَ يُقَدِّمُ عِبادَه المُؤمنين الطائعين، على غيرهم، وَجَب أن يكون مِيزانُه في تقديم الناسِ وتأخيرِهم تفاضُلُهم في الإيمان والتقوى والعمل الصالح، وهٰذا كان شأنُ الرسولِ ﷺ، إذ كان يُقَدِّمُ مِن أَصْحابِهِ الصالحين

والعلماء والمُتَفَقِّهين والأتقياء، فَيَسْتَعْمِلُهم ويَسْتَوْزِرُهم ويُؤَمِّرُهُم على الناسِ، وبذلك تَصْلُح شؤون الرَّعِيَّة؛ لأَنَّ الناسَ على دينِ مُلوكهم.

أما حالُ المسلمين اليوم، فإنه على العكس مِن ذلك تماماً، فقد تغيَّرت عندهم المَوازِينُ في تقديم الناس وتفاضلهم، فقدَّمُوا أصحابَ المال والسُلطة، ولو كانوا غيرَ مؤمنين باللَّهِ، واحْتَرَمُوا الكافِرَ والعَدُوَّ، واحْتَقَرُوا المُؤْمِنَ، وَرَمَوْهُ بالتَخَلُّف والرَّجْعِيَّةِ والسذاجة، وتارةً بالعُنفِ والإرهاب، فصارُوا أعزّةً على المؤمنين أذِلَّةً على الكافرين، من أجل ذلك سادت مجتمعاتهم الفوضى والظلم، وأصبح الشريفُ فيهم وَضيعاً، والوَضيعُ شريفاً، كما أخبر بذلك الرسولُ ﷺ قبل أربعة عشر قرناً، ولن يستعيدوا عِزّهم وقُوَّتَهم، ومَجْدَهُم إلا بالعودة إلى رَبِّهم، واتباع تعاليم دينهم.

59 ــ المُؤخّر

معناه

مأخوذٌ مِن التأخير، ويقع في الأزمنة والأمكنة والمَنازل المعْنَوِيَّة، فما مِن تأخير في الأزمنة، أو في الأمكنة، أو في المنازل المعنوية، يجري لأحد من خَلْقِ اللَّهِ إلّا وهو حاصِلٌ بتأخير الله، وأخَسُّ أنواعِ التأخيرِ: تأخيرُ اللَّهِ أعداءَه، بإبعادهم عن رحمته، وضَرْبِ الحجاب بينه وبينهم.

وهٰذا الاسم غير مذكور في القرآن الكريم، ولكنّه مُجْمَعٌ عليه، وقد ورد في حديث أبي هريرة ﷺ الجامع لأسماء الله الحسنى، الذي أخرجه الترمذي، وابن ماجه في سننهما والبيهقي في كتابه «الدعوات».

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام الغزالي في «المَقصدِ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (المُؤخِّرُ هو الذي يُبْعِدُ، ومَن أبْعَدَهُ فقد أخّرهُ، وقد أخّر أعداءَه بإبعادِهم وضَرْبِ الحجابِ بينه وبينهم. وكل متأخّر فهو مُؤَخَّرٌ بالإضافَةِ إلى ما قبله، واللَّهُ تعالى هو المؤخِّرُ؛ لأنّك إن أحلت تأخُّرَهُم على تقصيرهم، فمن هو الذي حملهم على

التقصير بِصَرْفِ دواعيهم إلى ضِدِّ الصِراطِ المستقيم؟ فذلك كُلُّه مِنَ اللَّهِ تعالى، فهو المُؤخِّر.

والمُراد هو التأخيرُ في الرُتْبَةِ، وتوجد إشارةٌ إلى أنّه لم يتأخّر من تأخَّرَ بعلمِهِ وعَمَلِهِ، بل بتأخير اللَّهِ إيّاه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: 13])، انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المحدّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (المُؤَخِّر في أسماء الله تعالى: هو الذي يؤخِّرُ الأشياءَ، فَيَضَعُها في مَواضِعِها، وهو ضِدُّ المُقَدِّمُ.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أبو داود في كتاب الأدب مِنَ «سننه» بسنده إلى أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمي ﷺ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ، يقولُ بِأَخَرَة إذا أرادَ أن يَقومَ مِن المَجْلِس: «**سُبْحانَكَ اللهُمَّ وبِحَمْدِك، أَشهدُ أن لا إِلهَ إلاّ أنتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وأتوبُ إليك**»، فقال رجلٌ: إنَّكَ لتقولُ قولاً ما كُنتَ تَقُولُه فيما مَضى يا رسولَ اللَّه! فقالَ: «**كفَّارَةٌ لما يكونُ في المجلس**»، أي في آخِرِ جلوسه، ويجوزُ أنْ يكون في آخِرِ عمره، وأَخَرَة: بفتح الهمْزَةِ والخاء المعجمة.

أقوال المفسّرين

يقول اللَّهُ تعالى في مُحكم كتابه المُبين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: 9 ـ 11]، يقولُ تعالى آمِراً لِعَبادِهِ المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تَشْغَلَهُم الأَمْوالُ والأولادُ عن ذلك، ومُخبِراً لهم بأنه من الْتَهى بِمَتَاعِ الحياةِ الدنيا وزينتها، عما خُلِقَ له مِن طاعة ربّه وذكره فإنه من الخاسِرينَ الذي يَخسَرُون أَنفُسَهُم وأَهْليهم يومَ القِيامَةِ.

ثم حَثَّهُمْ على الإنفاق في طاعتِهِ فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

ٱلصَّـٰلِحِينَ﴿١٠﴾﴾، فكُلُّ مُفَرِّطٍ يَنْدَمُ عند الاحتضار، ويَسْأَلُ طولَ المُدَّةِ، ولو شيئاً يَسيراً، ليَسْتَعْتِبَ ويَسْتَدْرِكَ ما فاته، وهيهات، كان ما كان وأتى ما هو آتٍ وكُلٌّ بحَسْبِ تفريطه، أمّا الكفّارُ فكما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: 44]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: 99، 100]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١١﴾﴾.

أثر هٰذا الاسم على العَبْد

إنّ مَنْ عَلِمَ أن اللّهَ هو المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ، يُقَدِّمُ عبادَهُ المُؤْمِنين وأولياءَه وأهل طاعته بما يُوَفِّقُهم إليه من طاعته ويفتح عليهم من بركاته وعلومه وفضله، وبما يُوَليهم من مراكز وولايات وإيماءات، ويؤخّرُ الكَفَرَةَ وأهلَ المعاصِي بما يحْجُبه عنهم مِن توفيق لطاعته وأنوار جلال قدسه، إنّ مَنْ عَلِمَ ذلك يُصْبِحُ مُقدِّماً لأهل الإيمان، مؤخِّراً لأهل العصيان، فيوالي اللّهَ ورسولَه والمُؤْمِنين، ويعادِي مَن عادَى اللّهَ ورسولَه، ويُحِبُّ في اللّهِ ويكرَهُ في اللّهِ، وتُصْبِحُ مشاعره وعواطِفُه وأفكارُه كلُّها وِفقَ مُرادِ اللّهِ ورِضاهُ، ولا يُقيم علاقات وُدّ ومَحَبّةٍ لأعداء اللّهِ، ولا يَنْتَمِي لأية جهة، أو حزب، أو جمعيّة، أو مَحفَلٍ، أو مركز، أو منظَّمَةٍ غير إسلامية، تُدارُ مِن أعداء المسلمين، وتعمل على حربهم، وعلى العكس من ذلك، فهو ينتمي لدين الله، وتربطه بأهل دينه رابطة الإيمان، وأخوَّة الإسلام، ويحبُّ أحبابَ الله، ويكره أعداءَ الله الكفرة، ويَتَواصَى مع أهل دينهِ على الحق، ويَصْبِرُ على أذى أعداء الله، كما أمره الله ﴿وَٱلْعَصْرِ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴿٣﴾﴾ [العصر: 1 ـ 3].

60 ـــ الجامِعُ

معناه

مأخوذٌ من الجَمْعِ، ويَقَعُ الجَمْعُ في الأجزاءِ المُتَباعِدَةِ، والأُمورِ المُتَفَرِّقَةِ،

وكثيرٌ مِن صُوَرِ الخَلْقِ في الأكوانِ إنّما يَتِمُّ بِجَمْعِ المُتَفَرِّقَاتِ جمعاً حَقيقيّاً، وهو بِفِعْلِ اللّهِ وقضائِهِ وقَدَرِهِ، فاللّهُ هُوَ الجامِعُ، ومِن ذلك جَمْعُ الناسِ ليوم القِيامَةِ، وجَمْعُ الخيْرَاتِ ومنحها لمن شاءَ مِن عِبادِهِ، قال اللّهُ تعالى حِكايَةً لِقَوْلِ الراسخينَ في العِلْم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9].

أقوالُ العُلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماءِ اللّهِ الحُسْنَى»: (الجامِعُ هو المُؤلف بين المتماثِلات والمتباينات والمتضادّات. أما جَمْعُ اللّهِ تعالى بين المتماثِلات، فكَجَمْعِهِ الخلقَ الكثيرَ مِن الإنسِ على ظهْرِ الأرضِ، وحَشْرِهِ إيّاهُم في صَعِيدٍ يومَ القيامَةِ.

وأما المتبايناتُ فَكَجَمْعِهِ بين السمٰوات والكواكب، والهواء، والأرض، والبحار، والحيوانات، والنبات، والمعادِن المختلفة، كلُّ ذلك متباينُ الأشكالِ والألوانِ والطُعُومِ والأَوْصَافِ، وقد جمعها اللّهُ في الأرضِ، وجمع بينَ الكلّ في العالَم، وكذلكَ جمعه بين العَظْمِ، والعَصَبِ، والعِرْقِ، والعَضَلَةِ، والمخّ، والبَشَرَةِ، والدَمِ، وسائر الأخلاط في بَدَنِ الحَيَوانِ.

وأما المتضادات فكَجَمْعِهِ بين الحَرارَةِ والبُرودَةِ، والرُطوبَةِ واليُبُوسَةِ في أَمْزِجَةِ الحيواناتِ، وهي متنافِراتٌ مُتعادِيات، وذلك أَبْلَغُ وُجُوهِ الجمْعِ.

وتَفْصِيلُ جَمْعِهِ لا يَعْرِفُه إلّا مَنْ يَعْرِفُ تفصيلَ مَجْمُوعَاتِهِ في الدنيا والآخِرَةِ، وكلُّ ذلك ممّا يَطُولُ شَرْحُه.

الجامع من العِبَادِ: مَن جمع بينَ الآدابِ الظاهِرَةِ في الجوارِحِ، وبين الحقائقِ الباطِنَةِ في القُلوبِ، فَمَن كَمُلَتْ مَعْرِفَتُهُ، وحَسُنَتْ سِيرَتُه، فهو الجامِعُ، ولذلك قيل: الكامِلُ مَن لا يُطْفِىءُ نورَ مَعْرِفَتِهِ نورُ وَرَعِهِ، وكأَنَّ الجمعَ بين البَصَرِ والبَصيرَةِ مُتَعَذِّرٌ، ولذلك نرى صَبوُراً على الزُهْدِ والوَرَعِ لا بصيرَةَ له، ونرى ذا بَصِيرَةٍ لا صَبْرَ له، والجامِعُ مَنْ جمع بين الصَبْرِ والبَصِيرَةِ). انتهى كلامُ الغزالي.

ويقول الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري

الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الجامع في أسماء الله تعالى هو الذي يجمَعُ الخلائِقَ ليوم الحساب. وقيلَ: هو المؤلِّفُ بين المُتماثِلاتِ، والمتباينات والمتضادّات في الوجود.

ومنه الحديث الشريف المتّفق عليه الذي أخرجه الإمام البخاري في كتاب التعبير من «صحيحه»، والإمام مسلم في كتاب المساجد من «صحيحه»، عن أبي هريرة ﷺ، عن رسولِ اللّهِ ﷺ أنه قال: «**فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بِستٍّ: أُعْطيتُ جَوَامِعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُعْبِ، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ، وجُعِلَتْ لي الأرضُ طهوراً ومَسْجِداً، وأُرْسِلتُ إلى الخَلْقِ كافَّةً، وخُتِمَ بي النَبِيُّون**»، ومعنى قوله: «**أُعْطيت جوامِعَ الكَلِم**» يعني: القرآنَ، جَمَعَ اللّهُ بِلُطْفِهِ في الأَلْفَاظِ اليَسِيرَةِ منه معاني كثيرة، واحِدها: جامِعَة، أي كَلِمَةٌ جامعة.

وقال النوويُّ: وكلامُهُ ﷺ كان بالجوامِعِ، قليلَ اللفظِ كثيرَ المعاني.

وأخرج أبو داود في كتاب الصلاة من «سننه» في أبواب الوتر، باب الدعاء، وأحمد في «مسنده» 6/ 148، عن أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت: «كان ﷺ **يُعْجِبُه** الجوامِعُ مِن الدُعاءِ، ويَدَعُ ما بين ذلك»، قال ابن الأثير: هي التي تَجْمَعُ الأغراضَ الصالِحَة، والمقاصِدَ الصحيحَة، أو تَجْمَعُ الثناءَ على الله تعالى وآدابَ المسألة.

وأَخْرَجَ أبو داود في كتاب الصلاة مِن «سننه»، باب تَحزيب القرآن، والإمام أحمد في مسنده 2/ 169، عن عبد الله بن عمرو، قال: أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقال: أَقْرِئْني يا رسولَ اللّهِ! فقال: اقرَأْ ثلاثاً من ذوات ﴿الٓر﴾ فقال: كَبُرَت سِنّي واشْتَدَّ قَلْبِي، وغَلُظَ لِسَاني، قال: فاقرأ ثلاثاً من ذوات ﴿حمٓ﴾ فقال مثل مقالته فقال: اقرأ ثلاثاً مِن المُسَبِّحات، فقال مِثلَ مقالته، فقال الرجلُ: يا رسولَ اللّهِ! اقْرِئْني سُورَةً جامِعَةً، فأقْرَأَهُ النبيُّ ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: 1]، حتى فرغ منها، فقالَ الرجُلُ: والذي بعثك بالحَقِّ لا أزيدُ عليها أبداً، ثم أدْبَرَ الرجُلُ فقال النبيُّ ﷺ: «**أَفْلَحَ الرُوَيْجلُ، مَرَّتين**»، أي إن سورة الزلزلة تجمع أسباب الخير لقوله فيها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

وأخرج الإمام الترمذي في أبواب العلم من «جامعه» باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، بسنده إلى يزيد بن سلمة ﷺ قال: يا رسولَ اللّه! إني قد سمعتُ منك حديثاً كثيراً أخافُ أن يُنسيني أوّلَه آخِرُه، فحدّثْني بِكَلِمَةٍ تكون جِماعاً، قال: «**اتّقِ الله فيما تعْلَمُ**»، الجَماعُ ما جمع عدداً، أي كلمةٌ تَجْمَعُ كلمات). انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝﴾ [آل عمران: 8، 9]، أي يقولون في دعائهم: إنّكَ يا رب سَتَجْمَعُ بين خلقك يوم مَعادِهِمْ، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كُلاً بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشرّ.

أثره على العبد: إن مَن عَلِمَ أن اللّهَ جامِعُ الناسِ ليَوْم لا ريبْ فيه ليُحاسِبَ الظالِمَ بِظُلْمِهِ، ويأخذَ للمظلوم حَقَّه مِن الظالم، يَرْتَدِعُ عن الظلم في الدنيا، ويخشى ذلك اليوم، وأيضاً من عَلم أن اللّهَ تعالى جامعٌ يجمع في الدنيا بين عِباده المؤمنين، الذين جمعهم الإيمان ومَحَبَّة الله وتقواه آخَى إخوانه المؤمنين، واجتمع معهم على محبة الله وطاعته، وعلى ذكره، فهو حريص على الاجتماع بهم؛ لأنهم سببُ قُوّتِهِ في المجتمع: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: 3]، وترك صحبة أعداء الله الأشرار.

61 ـــ المانِع

معناه

مأخوذ من المَنْع، وهو حَجْزُ الأشياء، وكثيرٌ مِن صُوَر حِفْظِ المخلوقات في نظامِها وأوضاعها من الخَلَلِ أوِ الفَسادِ، إنّما يَتِمُّ بِمَنْعِ المُهْلِكَاتِ عَنها، وبذلكَ تَتِمُّ صِيانَتُها ويَسْتَمِرّ بَقاؤها، ولَولا مَنْعُ اللّهِ المُهْلِكاتِ عنها لفَسَدَت واخْتَلَّ نِظامُها، وهٰذا ما يُسَمَّى: «بِدَفْعِ البَلاءِ» وما ذلك إلّا بِخَلْقِ اللّهِ تعالى.

كما أنّ مِن صُوَرِ المَنْعِ: الحِرْمانُ مِنْ بَعْضِ الخَيْرَاتِ، وإنما يكونِ ذلك بِخَلْقِ اللَّهِ وقضائه وعَدْلِهِ، ومنه دُعَاءُ الرسولِ ﷺ: **«اللهمَّ لا مانِعَ لِما أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ»** متّفقٌ عليه، أخرجه البخاري في كتاب الصلاة من «صحيحه»، ومسلم في كتاب المساجد من «صحيحه»، عن المغيرة بن شعبة ﷺ).

ولم يرِدْ هٰذا الاسم في القرآن الكريم ولكنه مُجْمَعٌ عليه، وقد جاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحُسْنَى الذي رواه أبو هريرة ﷺ، وأخرجه الأئمةُ: الترمذي وابن ماجه في «سننهما»، والبيهقيُّ في «الدعوات». وفي حديث الإمام مسلم في «صحيحه»، أنه كان يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الصلاة: **«لا مانِعَ لما أعطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لما منعت، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدّ منك الجَدّ»**.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حجة الإسلام، وفيلسوفه الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (المانِع هو الذي يَرُدُّ أسبابَ الهلاكِ والنُقْصَان في الأَدْيانِ والأَبْدانِ بما يخْلُقُه من الأَسْبَابِ المُعَدَّةِ للحفظ، وكلُّ حِفْظٍ فَمِن ضَرُورَتِهِ مَنْعٌ ودَفْعٌ، فَمَنْ فَهِمَ معنى الحفيظ، فَهِمَ معنى المانِع، فالمَنْعُ إضافَةٌ إلى السَّبَبِ المُهْلِك، والحِفظُ إضافَةٌ إلى المَحْرُوسِ عنِ الهلاكِ، وهو مَقْصودُ المنع وغايَتُهُ.

وإذا كان المَنْعُ يُرادُ لِلحِفْظِ، والحفظُ لا يُرادُ لِلمَنْعِ، فكلُّ حافظٍ دافِع مانِع، وليس كلُّ مانِع حافِظاً، إلا إذا كان مانعاً مُطْلقاً لجميع أسبابِ الهَلاكِ والنَّقْصِ، حتى يحصلَ الحِفظُ مِن ضرورته.

ويقول الإمام المُحدِّث اللغويُّ مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: المانِعُ هو الذي يمنع عن أهل طاعَتِهِ ـ أي يدافِع عنهم ـ ويَحُوطُهم ويَنْصُرُهُم. وقيلَ: يمنع من يُريدُ مِن خلقه ما يُريدُ، ويُعطيه ما يُريدُ.

وفيه الحديث الذي أخرجه الشيخان البخاري في كتاب الأدب من «صحيحه»، ومسلم في كتاب الأقضية من «صحيحه»، عن المغيرة بن شعبة ﷺ:

«أنه كان ينهى عن عقوق الأمهات ومنع وهات»، أي عن منع ما عليه إعطاؤه، وطلب ما ليس له.

وفيه الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في كتاب الفتن من «صحيحه» بسنده إلى أم المؤمنين حفصة ﵂ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**سَيَعُوذُ بهٰذا البَيْتِ قَوْمٌ ليسَت لَهُمْ مَنْعَةٌ، ولا عَدَدٌ ولا عُدَّةٌ، يُبْعَثُ إليهم جيشٌ، حتى إذا كانوا ببيداءَ مِن الأرض خُسِفَ بهم**»، ومعنى «**مَنْعَةٌ**»: أي قوّة تمنع مَن يُريدُهم بسوء، وقيل: هي «**مَنَعَةٌ**» ـ بفتح النون ـ جَمْعُ مانِع، مِثْلُ: كافِرٍ وكَفَرة، وهذا الحديث بشأن المَهْدِيّ الذي يَخْرُجُ في آخِرِ الزمانِ، ويَعوذُ بالبيت الحرام هو ومَن آمَن معه ليس لهم قوة تمنعهم ولا عدد ولا عُدَّة، فيُبْعَثُ إليهم جَيْشٌ مِن الشام للقضاء عليهم، فإذا وصل هٰذا الجيش إلى البيداء التي على طريق الخارج من المدينة إلى مكة خُسِفَ به، ويَنصُرُ اللَّهُ عِبادَه المؤمنين.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: 67]، يقولُ اللَّهُ تعالى مُخاطِباً عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ، باسم الرسالة وآمِراً بإبلاغ جميع ما أرْسَلَهُ اللَّهُ به، وقدِ امْتَثَلَ عليه أفضَلُ الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتَمَّ قِيام، أخرج البخاريّ، ومسلم في «صحيحيهما» بسندهما إلى عائشة ﵂ قالت: «مَن حدَّثك أنّ محمداً كَتَمَ شيئاً مِمّا أنزلَ اللَّهُ عليه فقد كذب».

وفي الصحيحين أيضاً عنها أنها قالت: لو كانَ محمدٌ ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هٰذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37]. وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره»، عن هارون بن عنترة، قال: كنتُ عند ابن عباس فجاءَ رجُلٌ فقالَ له: إنَّ أُناساً يأتوننا فيُخْبِرُونا: أنَّ عندكم شيئاً لم يُبْدِهِ رسولِ اللَّهِ ﷺ للناس، فقال ابنُ عباس: ألم تعلم أن اللَّه تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ واللَّهِ ما ورَّثنا رسولُ اللَّهِ ﷺ سَوْداءَ في بَيْضاء.

وأخرج البخاري في «صحيحه» من رواية أبي جُحَيْفَة وهب بن عبد الله السَّوَائِيّ قال: قلتُ: لعليّ بن أبي طالب ﷺ: هل عندكم شيء مِن الوحي ممّا ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبرأ النَسْمَةَ، إلّا فَهْماً يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلاً في القرآن، وما في هٰذه الصحيفة. قلتُ: وما في هٰذه الصحيفة؟ قال: العَقْلُ، وفِكاكُ الأَسِير، وأن لا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بكافِرٍ.

وقال البخاري ﷺ: قال الزهريُّ: (مِنَ اللَّهِ الرسالة، وعلى الرسولِ البلاغُ، وعلينا التسليمُ)، وقد شَهِدَتْ له أمَّتُه بإبلاغ الرسالة وأداءِ الأمانة واسْتَنْطَقَهُم بذلك في أعظم اجتماع في خُطبَتِهِ يوم حَجَّة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحوٌ مِن أربعين ألفاً، كما ثبتَ في «صحيح مسلم»، عن جابرِ بن عبد الله ﷺ، أن رسولَ الله ﷺ قال في خُطبَتِهِ يومَئِذٍ: «**أيها الناسُ! إنكم مَسْؤولونَ عَنّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نَشهَدُ أنك قد بلَّغتَ وأدَّيْتَ ونَصَحْتَ**»، فَجَعَلَ يرفعُ أُصْبُعَه إلى السماءِ ويَنكِسُها إليهم ويقول: «**اللهمَّ هل بلَّغْتُ؟**»، وفي رواية الإمام أحمد، عن ابن عباس زيادة: ثم قال: «**ألا فَلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ، لا ترجعوا بعدي كفّاراً يَضربُ بَعْضُكم رِقابَ بَعضٍ**».

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، أي بلّغ أنت رسالتي، وأنا حافِظُكَ وناصِرُكَ، ومؤيّدُك على أعدائِك ومُظفِرُكَ بهم، فلا تَخَفْ ولا تَحْزَنْ فَلَنْ يَصِلَ أحدٌ منهم إليك بِسُوءٍ يُؤْذِيكَ.

ومِن عصمة اللَّهِ لرسوله، حِفْظُه له من أهلِ مكة وصناديدها وحُسّادِها ومُعانديها ومُتْرَفيها، مع شِدَّة العَداوَةِ والبغضاء، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه اللَّهُ من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمَتِه العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمّه أبي طالب، إذْ كان رئيساً مُطاعاً كبيراً في قُرَيْش، وخلقَ اللَّهُ في قلبه مَحَبَّةً طبيعية لرسولِ اللَّهِ ﷺ لا شرعيّة، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كُفّارُها وكبارُها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قيّضَ اللَّه له الأنصارَ مِن أهل المدينة، فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحوّل إلى مدينتهم، فلما صار إليها منعوه.

62 ــ النافع

إن مِن صُوَر المتناقضات التي تجري في الخلق، صُوَر المَنْفَعَة والمَضَرَّة التي لا تدخلُ في مجال تكليف المكلّفين: كالصحّة والمَرض، والعطاء والحرمان، والنقص والزيادة في الأموال والأنفس والثمرات، فما يَجْرِي شيءٌ مِن ذلك وأمثاله إلّا بفعلِ اللَّهِ وقضائه وقَدَرِهِ، فمنه، ما يحصُل لخلائقه من منفعة، ومنه ما يصيبهم مِنْ مَضَرَّة، أمَّا المَضَرَّة فَبِعَدْلٍ منه، وأما المَنْفَعَةُ فَبِفَضْلٍ منه.

معناه

وفي معنى أنه النافع قال الله تعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: 17]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ﴾[الرعد: 16]، أي مع أنّ اللَّهَ هو الذي يملكُ النَفْعَ والضُرَّ لجميع مَن خَلق.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمامُ أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقصدِ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (النافع هو الذي يصدُر منه الخير والنفعُ، وكل ذلك مَنْسُوبٌ إلى الله تعالى إما بواسِطة الملائكة، والإنس والجمادات، أو بغير واسطة، فلا تَظُنَّنَّ أن الطعامَ يُشْبِعُ ويَنْفَعُ بِنَفْسِهِ، أو أنِ المَلِكَ والإنسان، أو شيئاً من المخلوقات من فلك، أو كوكب، أو غيرهما يقدِرُ على خيرٍ أو نَفْع بنفسه، بل كلُّ ذلك أسبابٌ مُسَخَّرةٌ لا يَصْدُرُ عنها إلّا ما سُخّرت له.

وجملة ذلك بالإضافة إلى القدرة الأزلية كالقَلَم بالإضافَة إلى الكاتب في اعتقاد العَامِّيّ، وكما أن السلطانَ إذا وَقَّع في التوقيع بكرامَة، لم يُرَ نفعُ ذلك من القَلم، بل مِنَ الذين القَلَمُ مُسَخَّرٌ لهم، فكذلك سائِر الوسائِط والأسباب.

وإنما قلنا في اعتقاد العامّيّ؛ لأن الجاهلَ هو الذي، يرى القلمَ مُسَخَّرٌ للكاتب، والعارفُ يعلمُ أنه مُسَخَّرٌ في يده لِلَّهِ تعالى، وهو الذي الكاتِبُ مُسَخَّرٌ

له، فإنه مهما خلق الكاتبَ وخَلَقَ لهُ القُدرةَ، وسَلّطَ عليه الداعِيَةِ الجازِمَةِ التي لا تَرَدُّدَ فيها، صَدَرَت منه حركةُ الأصابع والقَلَم لا مَحالَة شاءَ أم أَبَى، بل لا يمكنه أنْ لا يشاءَ، فإذن الكاتب بقلم الإنسانِ ويده هو اللّهُ تعالى، فإذا عرفتَ هذا في الحيوان المختار، فهو في الجمادات أظْهَرُ).

ويقول الإمام المحدِّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى النافعُ هو الذي يُوصِلُ النَفْعَ إلى مَن يَشاءُ مِن خَلْقِهِ، حيث هو خالِقُ النَفْعِ والضُّرّ، والخير والشر.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: 17، 18].

يقولُ تعالى مُخْبِراً أنه مالِكُ الضُرِّ والنَفْع، وأنّه المُتَصَرِّفُ في خَلْقِهِ بما يشاءُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه ولا رادَّ لِقضائِه، كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: 2]، وفي الحديث عند الإمام مسلِم في «صحيحه»، أن رسولَ اللّهِ ﷺ كان يَقولُ: «**لا مانِعَ لما أعْطيْتَ، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا يَنْفعُ ذا الجَدّ مِنك الجَدّ**»، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾، أي هو الذي خَضَعَتْ لهُ الرِقابُ وذَلَّت له الجبابِرَةُ، وعَنَتْ له الوُجوهُ وقَهَر كلَّ شيء ودانَت له الخَلائِقُ، وتواضَعَتْ لعَظمَة جَلاله وكِبْريائه وعَظَمَتِهِ وعُلُوِّه، وقُدْرَتِهِ على الأشياء، واستكانت وتضاءَلَتْ بَيْنَ يديه وتحت قَهْره وحكمه ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾: أي في جميع أفعاله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: بمواضع الأشياء ومحالّها فلا يُعطي إلّا مَن يَسْتَحِقّ، ولا يمنع إلّا مَن يَسْتحِقّ.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: 16].

يُقَرِّرُ تعالى أنه لا إلٰه إلّا هُوَ؛ لأنهم مُعْتَرِفُونَ بأنه هو الذي خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ وهو ربُّها ومُدَبِّرُها، وهم مع هٰذا قَدْ اتّخذوا مِن دونه أولياءَ يَعْبُدُونَهُم، وأولئك الآلِهَة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأَوْلى نفعاً ولا ضرّاً، أي لا تُحَصِّل لهم مَنْفَعةً ولا تَدْفَعُ عنهم مَضَرَّةً، فهل يَسْتَوِي مَن عَبَدَ هٰذه الآلٰهة مع اللَّهِ، ومَن عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا شريكَ له، فهو على نورٍ مِن ربِّه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾، أي أَجَعَلَ هٰؤلاء المشركون مع اللَّهِ آلِهَةً، تناظِرُ الرَّبَّ وتماثِلُه في الخلق فَخَلَقُوا كَخَلْقِهِ فتشابَهَ الخَلْقُ عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة مِن مَخلوقٍ غيرِه، أي ليس الأمرُ كذلك، فإنه لا يُشابِهُه شيءٌ ولا يماثِلُهُ، ولا نِدَّ لَهُ ولا عَدْلَ، ولا وَزِيرَ له، ولا وَلَدَ، ولا صاحِبَة، تعالَى اللَّهُ عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، وإنما عَبَدَ هؤلاء المشركون معه آلِهَة هم معترفون أنها مخلوقةٌ له، عَبيدٌ له، كما كانوا يقولون في تَلْبِيَتِهِم: (لَبَّيْكَ لا شريكَ لك، إلّا شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَكَ) وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، فأنكر تعالى عليهم ذلك حيثُ اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِندَه إلّا بإذنه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: 23]، وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: 26]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: 93 ـ 95]، فإذا كان الجميع عبيداً فَلِمَ يَعْبُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بلا دليل ولا بُرهان، بل مُجرَّد الرأي والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله مِن أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة مَن سِوَى اللَّهِ فكذّبوهم وخالَفوهم فحَقَّت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

63 ـــ الضارُّ

معناه

مِن صُوَر المتناقضات التي تجري في الخلق، صور المَنْفَعَة والمضرَّة التي

لا تدخل في مَجال تكليف المكلَّفين، كالمَرَض والصحة، والحرمان والعطاء، والنقص والزيادة في الأموال والأنفس والثمرات، فما يجري شيءٌ مِن ذلك، إلا بِفِعْلِ الله وقضائه وقدره، فما يَحْصُل لخلائقه من مَضَرَّة، فهو بعدله سبحانه.

وفي معنى أنه الضارُّ قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 17].

أقوال العلماء في تفسيره

قال الإمام الغزالي في «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الضارُّ هو الذي يصدر منه الشرّ، والضرّ، وكل ذلك منسوبٌ إلى الله تعالى، إما بواسطة الملائكة والإنس والجمادات، أو بغير واسِطة، فلا تَظُنَّ أن السُمَّ يَقْتُلُ ويَضُرُّ بنفسه، أو أن المَلِكَ والإنسانَ والشيطانَ، أو شيئاً مِن مخلوقاتِ الله مِن فلكِ أو كوكب أو غيرهما، يقدر على شرّ أو ضُرٍّ بنفسه، بل كل ذلك أسبابٌ مُسَخَّرة لا يَصدُرُ عنها إلّا ما سُخِّرَتْ له).

وقال مجد الدين ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: الضارُّ، هو الذي يَضُرُّ مَن يَشاءُ مِن خلقه، حيث هو خالِقُ الأشياء كلّها خيرِها وشرِّها ونَفْعِها وضَرِّها.

وفيه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» برقم (2865)، عن ابن عباس ﷺ: «**لا ضَرَرَ ولا إضْرَارَ**»، الضَرُّ ضِدُّ النَفْع، ضَرَّهُ يَضُرُّه ضَرّاً وضِراراً، وأَضَرَّ به يَضِرُّ إضْراراً، فمعنى قوله: «**لاَ ضَرَرَ**»: أي لا يَضُرُّ الرَّجُلُ أخاه فَيَنْقُصَهُ شيئاً مِن حَقِّه، والإضرارُ إفعال من الضَرّ، أي لا يُجازيه على إضراره بإدخالِ الضررِ عليه.

ومنه الحديث المتفق عليه الذي أخرجه الإمام البخاري في كتاب التوحيد من «صحيحه» الحديث (7437)، ومسلم في كتاب الزهد من «صحيحه» الحديث (7364): «**إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ والمرأةُ بطاعَةِ اللَّهِ ستِّين سَنَةً ثم يَحْضُرُهُمَا الموتُ فَيُضَارِرانِ في الوَصِيَّة، فتجبُ لهما النارُ**»، المضارَرَةُ في الوَصِيَّة: أن لا تُمضَى، أو يُنْقَصَ بَعْضَها، أو يُحْرَمَ مُسْتَحِقُّها، أو يُوصَى لغَيْرِ أهلها، ونحو ذلك ممّا يُخالِفُ السُنَّة.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﷺ: «**هل تُضارُّون في رؤية الشَمْسِ في الظهيرة، ليست في سَحَابَة؟ هل تُضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة، فوالذي نفسي بيده لا تضارُّونَ في رؤية ربّكم ﷻ، إلاّ كما تُضارُّون في رؤيتهما...**»، يُرْوَى: «**تُضارّون**» بالتشديد والتخفيف، فالتشديد بمعنى: لا تتخالَفُون ولا تتجادَلون في صِحَّةِ النَظَرِ إليه، لِوُضُوحِهِ وظهوره، يُقالُ: ضارَّهُ يَضُرُّهُ مثل: ضَرَّهُ يَضُرُّه. قال الجَوْهَرِيُّ في «الصِحاح»: (يقال: أَضَرَّني فلانٌ إذا دَنا مِنّي دُنُوّاً شديداً)، فأراد بالمُضارَّة في الحديث الاجتماعَ، والازدحامَ عند النظر إليه، وأما التخفيف فهو من الضَيْرِ، لُغَةٌ في الضُرِّ.

أقوال المفسّرين:

يقول الله تعالى في مُحكم كتابه المُبين: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: 76]، يقولُ تعالى مُنْكِراً على مَن عَبَدَ غَيْرَهُ من الأصنام، والأَنْدادِ والأَوْثانِ، ومُبَيِّناً له أنّها لا تَسْتَحِقُّ شيئاً مِن الإلٰهيَّة، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لِهٰؤلاء العابدينَ غَيْرَ اللّهِ مِن سائِرِ فِرَقِ بَنِي آدَمَ، ودَخَلَ في ذلك النَّصارَى وغيرُهُم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾، أي لا يَقدِرُ على دَفْعِ ضُرٍّ عنكم، ولا إيصالِ نَفْعٍ إليكم: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي السَمِيعُ لأقوال عِباده، العَليمُ بكل شيءٍ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عنه إلى عِبادَة جَمادٍ لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يَعْلم شيئاً، ولا يَمْلِكُ ضُرّاً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه.

ويقولُ تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: 22، 23]، يقول تعالى مُخْبِراً عن قرية أرسلَ اللَّهُ إليها ثلاثةً من الرسُلِ، فكذَّبَهُم أهلُ القرية، فجاءَهم رَجُلٌ مِن أقصى المدينة كان يتعبَّدُ في غارٍ لِيَنْصُرَهُم من قومه، وَلِيحُضَّ قومه على اتّباع الرُسُلِ الذينَ أتوهم، فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، أي وما يَمْنَعُنِي مِن إخلاصِ العبادَةِ للذي خَلَقَنِي وحده لا شريك له ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي يَوْمَ المَعادِ فيُجازيكم على أعمالِكم إن خيْراً فَخَيْرٌ وإنْ شَرّاً

فَشَرٌّ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ وتقْريعٍ ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، أي هٰذه الآلِهَةَ التي تَعْبُدونها مِن دونه لا يَمْلِكُونَ مِن الأمْرِ شيئاً، فإنَّ اللَّهَ تعالى لو أرادَني بِسُوءٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: 107]، وهٰذه الأصنامُ لا تملك دَفْعَ ذلك، ولا مَنْعَهُ ولا يُنقِذُونَنِي مِمّا أنا فيه.

أثر هٰذه الأسماء على العبد

إن مَن يلاحظ باستمرار، ملاحَظةَ تَحقُّقٍ وتَبَصُّرٍ، ما تدلُّ عليه أسماءُ اللَّه: (الخافِضُ الرافِعُ، المُعِزُّ المُذِلُّ، المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ، الجامِعُ المانِعُ، النافِعُ الضارُّ) ويلاحِظُ مع ذلك قُدرَةَ اللَّهِ القادِرِ، وحكمَتَهُ العالِيَةَ، فإنه لا بُدَّ أنْ يَقِفَ في مقام العُبوديَّة التامَّةِ لِلَّهِ تعالى، ويَخْشَعَ أمام قَهْرِ اللَّهِ: ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18]، ويَلْتَمِسُ منه جَلْبَ كلِّ خير، ودَفْعَ كلِّ ضُرّ، ويرْضى بقضائه وقدره. ويَعْلَمَ أنَّه الفَعّالُ الحقيقي في كلِّ أمْرٍ يحْدُثُ، مِن رَفْعٍ وخَفْضٍ، وعِزٍّ وذُلٍّ، وتَقْديمٍ وتأخيرٍ، وجَمْعٍ ومَنْعٍ، ونَفْعٍ وضُرٍّ، وأنَّ جميعَ الأفعال التي تباشِرُها المخلوقاتُ، وينتجُ عنها الآثارُ، إنَّما هي وسائلُ وأسبابٌ صُوريَّةٌ، لا تأثير لها في الحَقيقَةِ، فكم مِن سَبَبٍ صُوريٍّ بلا أثر، وكم مِن أثَرٍ بلا سبب من الأسبابِ الصورية؛ لأن مِن فوق كلِّ ذلك الربُّ القادِرُ القاهر.

وننتقل بعد هٰذا إلى الصنف الثامِن من أسماء الله الحسنى التي تعود إلى صفات الحمد والتمجيد.

الصِنْفُ الثامن مِن أسماء الله الحسنى
التي تعود إلى صفات الحمدِ والتمجيد

مقدمة

لمّا كان اللَّهَ سبحانه هو المُتَّصِفُ وحْدَهُ بما سبق مِن صِفات الذات، وصفات التنزيه، وصفات الأفعال، وكُلُّها في نهاية المجد والعظمة، والعُلُوّ والكبرياء، وفي غاية السيادة والشرف والكرم، لمّا كان اللَّهُ سبحانه كذلك، فهو الذي يَسْتَحِقُّ وحدَهُ مُنْتَهَى الحمدِ والثناءِ عليه، بالعظمةِ والجَلالِ، والعلُوّ والكبرياء، وهو الذي يَسْتَحِقّ التَمجِيدَ بمُنْتَهَى السُّؤْدَدِ، والشَرَفِ الحقيقي.

ومِن هنا جاء في المأثورِ مِن أسماء الله ثلاثةَ عَشَر اسماً وهي: (الكبير، المُتَكَبِّر، العَلِيّ، المُتَعالِي، الجليل، العظيم، الكريم، الماجد، المجيد، الحَسِيب، ذو الجلال والإكرام، الصمد، الحميد). وفيما يلي شرح هٰذه الأسماء.

64 ـــ الكَبِيرُ

معناه

مأخوذ مِن الكِبَر، وهو ضِدُّ الصِغَر، واللَّهُ هو الكَبِيرُ كما وصف نفسه تعالى الذي لا نهايَةَ لِكِبَرِهِ؛ لأنه هو الكامل الواجِبُ الوُجُودِ لِذَاتِهِ، وما عَداهُ مَوْجُودٌ بإيجادِ اللَّهِ له، ولأنه سبحانَه هو الغنيُّ عن كل شيء، وما عَداهُ في حَضِيض النَقْصِ والافْتِقَارِ، ولأنه سُبْحَانَه هو المُحِيطُ بكل شيء عِلْماً، ولأن قُوَّته سُبْحَانَه أكبَرُ مِنْ كُل قُوّة.

واللَّهُ هو الكبيرُ؛ لأنه أكبرُ مِن أنْ تشاهِدَه الحواسُّ أو تُدْرِكَ حقيقة ذاتِهِ العُقولُ. قال الله تعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: 62].

وقد ورد هٰذا الاسم في سِتّة مواضع من القرآن الكريم.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في «المقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (الكَبيرُ: هو ذو الكِبْرِياء، والكِبْرِياءُ: عِبارَةٌ عَن كمال الذات، وأعني بكمال الذات: كمالَ الوُجودِ، وكمالُ الوجود يرجع إلى شَيْئَيْن:

(أحدهما): دوامُه أَزَلاً وأبداً، وكل مَوْجُودٍ مَقْطوعٌ بعَدَم سَابِقٍ، أو لاحِقٍ فهو ناقِصٌ. ولذلك يُقالُ للإنسان إذا طالت مُدَّة وُجُودِهِ: إنه كَبِيرٌ، أي كبيرُ السِنِّ طويلُ مُدَّةِ البَقاءِ، ولا يُقالُ: عَظيمُ السِنِّ، والكبيرُ يُسْتَعْمَلُ فيما لا يُستَعْمَلُ فيه العظيمُ، فإن كان ما طالَتْ مُدَّةُ وُجودِهِ مع كونِهِ مَحدوداً مُدَّةَ البَقاء، كبيراً، فالدائِمُ الأَزَليُّ الأَبَدِيُّ الذي يَسْتَحيلُ عليه العَدَمُ، أَوْلَى بأن يكون كبيراً.

(والثاني): أن وجودَه هو الوجودُ الذي يَصْدُرُ عنه وجودُ كلِّ مَوْجُودٍ، فإن كان الذي تَمَّ وُجودُه في نفسه كامِلاً وكبيراً، فالذي حَصَلَ منه وُجودُ جميعِ المَوْجُودات أَوْلَى بأن يكونَ كامِلاً وكبيراً.

والكَبيرُ مِن العِبادِ هو الكاملُ الذي لا تقتَصِرُ عليه صفاتُ كماله، بل تَسْري إلى غيره، فلا يجالِسُه أحدٌ إلا ويَفِيضُ عليه شَيْءٌ مِن كمالِهِ، وكمالُ العَبْدِ في عَقْلِهِ وورعه وعلمه. فالكبيرُ هو العالِمُ التَقِيُّ، المُرْشِدُ للخلق، الصالِحُ؛ لأن يكون قُدْوَةً يُقْتَبَسُ مِن أنواره وعلومه. ولذلك قال عيسى عليه السلام: مَن عَلِمَ وعَمِلَ فذاك يُدْعَى عَظيماً في مَلكوت السماءِ). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام المحدِّث اللغوي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رحمه الله في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله الكبير أي العظيمُ ذو الكبرياء. وقيل: المتعالِي عن صفاتِ الخلق، والكبرياءُ: العَظَمَةُ والملك، وقيل: هي عِبارَة عن كمال الذات وكمال الوُجود، ولا يوصَفُ بها إلّا اللَّهُ تعالى. وهو من الكِبْرُ ـ بالكسر ـ وهو العظمة، ويُقال: كَبُرَ ـ بالضمّ ـ يَكْبُرُ، أي عَظُمَ، فهو كبير.

وفي حديث الأذان: «**اللَّهُ أكْبَر**» معناهُ: اللَّهُ الكَبيرُ، فوضع «أفْعَل»، مَوْضِعَ

«فعيل» كقول الفرزدق الشاعر:

إنّ الـذي سَمَـكَ الـسـمـاءَ بَـنـا لَـنـا   بَـيْـتـاً دَعـائِـمُـهُ أَعَـزُّ وأَطْـوَلُ

أي: عَزيزةٌ طَويلَةٌ. وقيل: معناه: اللَّهُ أَكْبَرُ من كلّ شيء، أي أعظم، فَحُذِفَت «مِن» لِوُضُوحِ معناها، و«أكبر» خَبَرٌ، والأخبارُ لا يُنْكَرُ حذفها، وكذلك ما يتعلّق بها. وقيل معناه: اللَّهُ أكبَرُ مِن أن يُعْرَفَ كُنْهُ كِبْريائه وعظمته، وإنما قُدِّرَ لَهُ ذلكَ وأُوِّلَ؛ لأنَّ «أفعل» فُعْلَى يلزمه الألف واللام أو الإضافة، كالأكبر، وأكْبَرُ القَوْمِ.

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: 9]، أي يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ مِمّا يُشاهِدُه العِباد، ومِمّا يَغيبُ عنهم، ولا يَخفَى عليه منه شيء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبَرُ مِن كل شيء ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾، أي على كلِّ شيء ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]، وقَهَرَ كلَّ شيء فَخَضَعَتْ له الرِقابُ، ودانَ له العِبادُ طوعاً وكَرْهاً.

أثر هٰذا الاسم على العَبْد

إنّ مَنْ عَلِمَ أنَّ اللَّهَ هو الكَبيرُ، وأَنَّ شَأْنَهُ أَكْبَرُ مِن كُلِّ شأنٍ، هَانَ أمامه كلُّ أَمْرٍ مِن أُمُور الدُنيا، ولم يَعُد يَتَوَهَّمُ منه، فالكُلّ صَغِيرٌ، وَاللَّهُ أكْبَرُ، والكُلُّ حقيرٌ واللَّهُ أَجَلُّ وأعظَمُ، فلا يعودُ يخشى أحداً إلّا الله، فيُقدِّم رضوانه على كل غايَة، ويُقدِّم أمر ربِّه على كل أمر.

وإذا سمع نداء الصلاة (اللَّهُ أكْبَر) ترك أمور الدنيا جميعَها، واستجاب لنداء ربّه، لعلمه أن شأْنَ اللَّهِ أكبرُ مِن كل شأن، وأن طاعةَ اللَّهِ مُقدَّمَةٌ على كل شيءٍ من أمور الدنيا.

وقد كان شعارُ المسلمين فيما مضى كلمةَ (اللَّهُ أكبر) وما أروعه من شعار! فهم إذا دخلوا ساحات المعارك، دخلوها مُرِيدِينَ وجهَ اللَّهِ، وإعلاء كَلِمَتِهِ ودِينِه، مستعينين بِقوَّة الكبير الأكبر، مُرَدِّدين هٰذا الشعار، الذي يزيدُ النفوس ثِقَةً باللَّه وتأييده وقوته ونصره.

65 ـ المُتَكَبِّر

لمّا كان اللَّهُ سبحانه هو الكبير في الحقيقة، ولا كبيرَ سِوَاهُ، ولمّا كان اللَّهُ سُبحانَه عليماً بالحقائق على وجهها، كان مِن كمال عِلْمِه وتَقْديرِه لِذاتِهِ، حقيقاً بأن يكون مُتَكَبِّراً، أي مُثْبِتاً لنفسه أنه هو الكبيرُ، وأنّه أكبرُ مِن كلّ كبير؛ لأنّ ما سِوَى اللَّهِ تعالى مَخْلُوقٌ له، ومِن هنا جاء في المأثور مِن أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى: (المُتَكَبِّرُ).

معناه

ومعناه أنه الذي يعلمُ حَقيقةَ ذاتِهِ، فَيُثْبِتُ لِنَفْسِه وصْفَهُ الحقيقيَّ، وهو أنه الكبيرُ، وهٰذا المعنى هو معنى التكبُّر بالنسبة لِلَّهِ تعالى، وأما التكبُّر بالنسبة لغيره سبحانه فهُو ادِّعاءٌ كاذِبٌ، وتَكَلُّفٌ مَمْقُوتٌ، وخُلُقٌ ذمِيمٌ، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: 23].

وقد ورد هٰذا الاسم في موضع واحد من القرآن الكريم لا غير، وهو المذكور، كما جاء في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (المتكبِّر هو الذي يَرَى الكُلَّ حَقيراً بالإضافَةِ إلى ذاتِه، ولا يَرَى العَظَمَة والكِبْرِياءَ إلّا لنفسه، فينظر إلى غيره نظر المُلوكِ إلى العَبيدِ، فإن كانت هذه الرؤيةُ صادِقَةً كان التَكَبُّر حقّاً، وكان صاحِبُها مُتكبِّراً حقاً.

ولا يُتَصَوَّرُ ذلك على الإطلاق إلّا لِلَّهِ تعالى، فإنْ كانَ ذلك التَكَبُّر والاسْتِعْظَامُ باطِلاً ومَذْمُوماً، وكُلُّ مَن رأى العَظَمةَ والكِبْرِيَاءَ لنفسه على الخصوص دُونَ غَيْرِهِ، كانت رُؤيَتُهُ كاذِبَةً، ونَظَرُهُ باطِلاً إلّا اللَّهَ تعالى) انتهى كلامُ الغزالي.

وقال الإمام مجدُ الدين ابن الأثير الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: المُتَكَبِّرُ، أي العظيمُ ذو الكِبْرياءُ. وقيل:

المتعالي عن صِفات الخلق، وقيلَ: المُتَكَبِّرُ على عُتَاةِ خلقه، والتاءُ فيه للتَفَرُّدِ والتَخَصُّص، لا تاءُ التعاطي والتَّكَلُّف، والكِبْرِياء: العَظَمَةُ والمُلْكُ، وقيلَ: هي عِبارَةٌ عن كَمالِ الذاتِ، وكمالِ الوُجُودِ ولا يُوصَفُ بها إلّا اللّهُ تعالى، وهو مِن الكِبْر - بالكسر - وهو العَظَمَةُ.

ومنه الحديثُ الذي أخرجه الإمام مسلم في الإيمان من «صحيحه»، الحديث (262) باب تحريم الكبر، والإمام أحمد في مسنده (1/ 399)، والحاكم في «مستدركه» (1/ 26): **«لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن في قَلبِهِ مثقالُ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن كِبْر»** - يعني كِبْرَ الكُفْر والشِركِ - كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]، ألا تَرى أنه قائله في نقيضه بالإيمان فقالَ: **«ولا يَدْخُلُ النارَ مَن في قلبه مِثلُ ذلك من الإيمان»**، أرادَ: دُخولَ تأبِيدٍ. وقيل: أراد إذا أُدْخِلَ الجنَّة نزع ما في قلبه من الكِبْرِ، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43].

ومنه الحديث الذي أخرجه مسلم في الموضع نفسه، الحديث (261) بلفظ الحديث السابق وزيادة: قال رَجُلٌ: إن الرجُلَ يحِبّ أن يكونَ ثوبَه حسناً ونَعْلُهُ حَسَنَة، قال: **«إنّ اللّه جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطْرُ الحق وغَمْطُ الناس»**. قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (أي احتقارهم، وأما «بَطْرُ الحقّ» فهو دفْعُه وإنكارُه تَرَفُّعاً وتَجَبُّراً.

واختلف العلماء في قوله ﷺ: **«إن اللّهَ جميلٌ»** فقيل: إنّ معناه أنَّ كُلَّ أمْره سُبْحَانَهُ وتعالى حَسَنٌ جَميلٌ، ولهُ الأسماءُ الحُسْنَى، وصِفَاتُ الجَمالِ والكمالِ. وقيل: جميلٌ بمعنى: مُجْمِلٌ، ككَريم وسَمِيع بمَعْنَى: مُكْرِم ومُسْمِع. وقال: الإمام أبو القاسم القُشَيْري رَحِمَهُ اللَّهُ: (معناه: جَليلٌ). وحكى الإمامُ أبو سُليمان الخَطّابي: أنه بمعنى ذي النور والبَهْجَة، أي مالكهما. وقيل: معناه جميلُ الأفعال بِكُمْ، باللُّطْفِ والنظرِ إليكم، يكلِّفُكُم اليَسيرَ مِنَ العَمَلِ، ويُعينُ عليه، ويُثيبُ عليه الجزيل، ويشكُر عليه، وليُعْلَم أن هذا الاسمَ ورد في هٰذا الحديث الصحيح، ولكنه مِن أخبار الآحاد، والمختار جواز إطلاقه على اللّهِ تعالى، ومِنَ العُلَماءِ مَن مَنَعَه. قال الإمام أبو المَعالي الجُوَيني إمامُ الحَرَمَيْن رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما وَرَدَ الشَّرْعُ

بإطلاقِهِ في أسماءِ اللّهِ تعالى وصفاته أَطْلقناهُ، وما مَنَعَ الشرعُ مِن إطلاقِهِ مَنَعْناهُ، وما لم يَرِدْ فيه إذْنٌ، ولا مَنْعٌ لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم، فإن الأحكامَ الشرعيَّة تُتَلَقَّى مِنْ مَوارِدِ الشرْعِ، ولو قَضَيْنا بتحليل أو تحريم لكنا مُثْبتين حُكماً بغير الشَرْع).

أقوال المُفسّرين

الكِبْرُ مِن الصِفاتِ التي تليقُ بجلالِ اللّهِ وحْدَهُ، ولا يَليقُ بالعَبْدِ أن يَتَّصفَ بها، وإذا اتَّصفَ بها اسْتَوْجَبَ مَقْتَ الربّ وغَضَبَهُ، قال اللّهُ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: 146]، ومعناه سأمْنَعُ فَهْمَ الحُجَجِ والأَدِلَّة الدالَّةِ على عظمتي وشريعتي وأحْكامِي قُلوبَ المُتَكبِّرين عن طاعَتي ويَتَكبَّرون على الناس بغَيْرِ حَقٍّ، أي: كما اسْتَكْبَرُوا بغَيْرِ حَقٍّ أذَلَّهُمُ اللّهُ بالجَهْلِ، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: 5]، وقال بعض العلماء: (لا يَنالُ العِلْمَ حَيِيٌّ ولا مُسْتكْبِرٌ). وقال آخرُ:

ومَن لم يَصْبِر على ذُلِّ التَعَلُّم ساعَةً تَجَرَّعَ كَأسَ الذّلِ طولَ حياته

بَقِيَ في ذُلِّ الجهلِ أبداً، وقال سفيان بن عُيَيْنَة في تفسير هٰذه الآية: (أَنْزِعُ عنهم فَهْمَ القرآن وأَصْرِفُهم عن آياتي). قال ابن جرير الطبري: (وهٰذا يدلُّ على أن هٰذا خطابٌ لهٰذه الأُمَّة). وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: 96، 97] وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، أي وإنْ ظهرَ لهم سَبيلُ الرُشدِ، أي طريق النجاة لا يَسْلُكوها، وإن ظهر لهم طريقُ الهلاكِ والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم عَلَّل مصيرَهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي كذَّبَتْ بها قلوبُهم ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، أي لا يعلمون شيئاً ممّا فيها.

66 ـــ العَلِيُّ

معناه

إذا وضعنا المَوْجُودات في منازِلَ معنوية، يعلو بَعْضُهَا بعضاً، كان اللَّهُ سُبحانه الخالق لهذه الموجودات هو العَلِيُّ بذاته وصفاتِه وأفعاله، وما عَداهُ سافِلٌ لا عُلُوَّ له؛ لأن ما لِلَّهِ سُبْحانَه فَمِنْ ذاته، وأمّا ما لِغَيْرِهِ فَبِهِبَةٍ مِنَ اللَّهِ، وبِخَلْقٍ منه، وَمِن هنا جاء في المأثورِ مِن أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى: (العَلِيُّ).

وهو مأخوذٌ مِنَ العُلُوِّ، وهو ضِدُّ السُفْلِ، والمُرادُ منه: عُلُوُّ الشَرَفِ والجلالَة والكِبْرِياء، وأنَّهُ فَوْقَ خَلْقِهِ، وهٰذا المعنى لا يَسْتَحِقُّهُ في الحَقيقَةِ إلّا اللَّهُ تعالى.

قال الله في مُحكم كتابه المُبين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: 62].

إزالة شبهة

يبالغ بعض البشر فينسب العُلُوّ والتقديس لغير الله تعالى، ولا عليَّ إلّا اللَّهُ تعالى، فهو وحده الربّ العليُّ الأعْلَى، وما سِواهُ مَخْلُوق ضعيفٌ، واللَّهُ تبارك وتعالى لا يَحِلُّ في شيءٍ من مخلوقاته، ولا في إنسان مِن عِبادِهِ، ومَن ظَن هٰذا واعتقده فهو حُلوليٌّ، وهذه عقيدة فاسِدَة تخالف عقائد المُسْلِمين، وتُخْرِج صاحِبَها من الإسلام والعياذُ باللَّه، وهي من عقائد الوثنيين البوذيين والفرس والمشركين، تعالى اَللَّهُ عما يقولون علواً كبيراً، فمنهم من يقول: إن الله تَجَسَّد في صنم بوذا، أو في بقرة، وقد انتقلت هذه العقيدة لأهل الكتاب، فقالوا: بحلوله تعالى في جسد عيسى ﷺ، ومنهم مَن يقول إنه تجسّد في كسرى ملك الفرس، ثُمّ انتقلت هذه العقيدة الفاسدة أيضاً إلى بعض فرق المسلمين، فقال بعضهم: بحلول الله في عليّ بن أبي طالب، ومنهم من يقول: إنه تجسَّد في سلمان الفارِسي، أو في أشخاص آخرين غيرهما، وهٰذا كلُّه كفرٌ يخالِفُ الإيمان الصحيحَ بالله الذي أرسلَ اللَّهُ به جميع رسله، فاللَّهُ مُنَزَّهٌ عن أن يَحِلّ في شيءٍ من مخلوقاته، ولم تَرِدْ آية في كتابِ اللَّه تُبيّن هٰذا، ولا في حديث رسولِ الله ما

يُؤيِّده هذه العقيدة الفاسدة، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد أرسلَ اللَّه جميع رسله وأنبيائهِ، وكان خاتمهم محمداً ﷺ، ليصحّح في الأرض مفهومَ الألوهية عند الناس، بعدما تشوَّه في أذهان كثير منهم، وليُعْلِنَ عقيدة التوحيد الخالِص والكمال والعُلُوّ والتقديس لله، وينفي عنه الشرك والوثنية وعبادة غير الله، فالله وحده هو الربّ المتعالي المعبود، وكلّ ما سِواه مخلوق عاجز ضعيف خاضِعٌ لسلطانه، مُحَاسَبٌ على أعماله، واللَّهُ سبحانه وتعالى قائِمٌ بنفسه، لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، واحِدٌ بذاته وصفاته وأفعاله، صَمَدٌ غنِيٌّ عن كل شيء، وكلُّ مخلوقاته فقيرة محتاجة إليه في وجودِها وبقائها، فالقُدْسِيَّةُ له وحده، ولا تقديسَ للأوثان ولا للأشخاص في الإسلام مهما كانوا، حتى ولو كانوا رسلاً، بل الرسُلُ هم أشخاصٌ مِن البَشَرِ، يشتركون مع سائر البشر في طبيعتهم الإنسانية، وإنما يختلفون عنهم باصطفائهم واختيارهم من سائر البشر لإنزال رسالة الله إليهم، وبتبليغ رسالة اللَّهِ للبشر، بعد أن اختارهم الله تعالى لتبليغ أقوامهم، وهو يُوحِي إليهم رسالاته بواسطة أمين الوحي جبريلعليه السلام، الذي يُبَلغ هو بدَوْرِهِ ما أُمِرَ بتبليغه للرسل ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: 110]. فلا حُلولَ ولا اتّحاد بَيْن الله ومخلوقاته، تعالى اللَّهُ عن ذلك علواً كبيراً.

إن احترامَ الأشخاص وتقديرَهم ينبغي أن لا يَصِلَ إلى تأليههم وتقديسهم، فالألوهية للَّهِ وحده لا شريك له، ومَقامُ الأُلوهية تفرَّدَ به اللَّهُ ربُّ العالمين، لا يشارِكُه، ولا يُدانِيه، ولا يُقارِبُه فيه أحدٌ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 1 ـ 4].

وأما مقام الملائكة فلا يصل إليه أحد مهما بلغ من الناس.

وكذلك مَقام النبوّة هو اختيارٌ واصطفاء من الله لبعض عباده، وليس مِن كسب الأنبياء، ومهما اجتهد الإنسان في العبادة فلا يصير رسولاً ولا نبيّاً، إلّا باختيار الله وإرادته هو ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75].

وتلي مَرْتَبَة النُبوَّة مرتبة الصِدِّيقية، ثم مرتبة الشهادة في سبيل الله، ثم مرتبة الصلاح والوِلاية في الناس، ثم مرتبة العِلم وهي مِن فضل الله ورحمته، ﴿وَمَن

﴿يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]، والناسُ متفاوتون بعد هذا في العلم والصلاح والتقوى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: 74]، واللَّهُ وحده هو العَليّ في الوجود على جميع خلقه.

أقوالُ العلماء في تفسيره

يقولُ الإمام حُجَّةُ الإسلام وفيلسوفُه أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «المَقصِد الأسنى في شرحِ أسماء اللَّهِ الحُسْنَى»: (العَليُّ هو الذي لا رُتْبَةَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ، وجميعُ المَراتِب مُنْحَطَّةٌ عنه.

وذلك لأنّ العليَّ مُشْتَقٌّ مِن العُلُوِّ، والعُلُوُّ مأخُوذٌ مِن العُلُوِّ المُقابل للسُفْلِ، وذلك إمّا في درجاتٍ مَحْسُوسَة، كالدرج والمَراقي، وجميع الأجسام المَوْضوع بعضُها فوقَ بعض، وإما في الرُتَب المعقولَة للموجودات المُترَتِّبَة نوعاً مِن الترتيب العقلي.

فكُلُّ ما له الفوقية في المكان فله العُلُوُّ المَكانِي، وكلُّ ما لَه الفَوْقِيَّة مِن الرُتْبَة فله العُلوُّ في الرُتْبَة).

وقال الإمام المحدّث اللغوي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: العلِيّ، وهو الذي ليس فَوْقَه شيءٌ في المرتبةِ والحُكَمِ، (فعيلٌ) بمعنى: (فاعل) مِن عَلَا يَعْلُو.

وفيه الحديث المُتّفَقُ عليه الذي أخرجه الإمام البخاري في الزكاة مِن صحيحه برقم (1429)، ومسلم في الزكاة من صحيحه برقم (2382): «**اليَدُ العُلْيا خيرٌ مِنَ اليَدِ السُفْلَى**»، والعُليا هنا بمعْنَى: المُتَعَفِّفَة، والسُفْلَى أي السائلة، رُويَ ذلك عن ابن عُمَر، ورُوِيَ عنه أن العُليا المُنْفِقَةُ ـ وقيل: العليا المُعْطِيَة، والسُفْلَى الآخِذَةُ، وقيل: السُفْلَى المانِعَةُ.

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: 18 ـ 21]، أخرج الإمام أحمد في «مسنده» (3/ 61): «**إنَّ أهل الجنَّةِ لَيَتراءُونَ أَهْل عِليّين كما تَرَوْنَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ**

في **أُفُقِ السماءِ**»، عليِّيُّونَ اسمٌ للسماءِ السابِعَةِ، وقيل: هو اسمٌ لِديوَانِ الملائِكَةِ الحَفَظَةِ، تُرْفَعُ إليه أعمالُ الصالحينَ مِنَ العِبَادِ، وقيل: أرادَ أعلى الأمكِنَةِ، وأشرفَ المَراتِبِ وأقرَبِها مِنَ اللَّهِ في الدارِ الآخِرَة.

أقوال المفسّرين

يقول الله تعالى في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]، هذه آية الكرسي ولها شأن عظيم، قد صحَّ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، بأنها أفضلُ آيةٍ في كتاب اللَّهِ، ففيها إخبار بأن اللَّهَ هو المنفردُ بالإلٰهيَّة لجميع الخلائق الحيُّ في نفسه الذي لا يموتُ أبداً، القَيِّمُ لغَيْرِهِ، فَجَمِيعُ المَوْجُودَات مُفْتَقِرَةٌ إليه وهو غنِيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمْرِه، لا يعتريه نَقْصٌ ولا غَفْلَةٌ ولا ذُهُولٌ عن خلقه، بل هو قائِمٌ على كلّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ، شَهيدٌ على كل شيءٍ لا يَغِيبُ عنه شيء ولا يَخْفَى عليه خافية، والجميع عبيده وفي مُلْكِهِ وتحتَ قَهْرِهِ وسُلطانِهِ، ومِن عَظَمَتِهِ وجلالِه وكِبْرِيائِهِ ﷻ أنه لا يتجاسَرُ أحَدٌ على أن يَشْفَعَ لأَحدٍ عنده، إلَّا بإذنه له في الشفاعة، وأنه يُحيط علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضِرِها ومُسْتَقْبَلها لا يَطَّلِعُ أحَدٌ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ على شَيءٍ، إلا بما أعْلَمَهُ اللَّهُ ﷻ وأطلعه عليه، وسِعَ عِلْمُهُ كل شيء في السَّمٰوات والأرض، ولا يُثْقِلُهُ حفظ السمٰوات والأرض ومن فيهما ومَن بينهما، بل ذلك سهل عليه يَسيرٌ لديه، وهو القائِمُ على كلّ نفسٍ بما كَسَبَتْ الرقيب على جميع الأشياء، فلا يَعْزُبُ عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلّها حقيرَة بين يديه، مُتواضِعَةٌ ذليلةٌ صَغِيرَةٌ بالنِسبة إليه مُحتاجَةٌ فقيرة، وهو الغنيُّ الحميدُ، الفعّالُ لما يُريد، الذي لا يُسْأَل عَمّا يَفْعَلُ وهم يُسْألون، وهو القاهِرُ لكل شيء الحَسِيبُ على كل شيء، الرَقِيبُ العلي العظيم لا إله غيرُه ولا رب سِواه.

67 ـــ المُتَعَالِي

لما كان اللَّهُ سبحانه هو العَلِيُّ في الحقيقة ولا عَلِيَّ سواه، ولما كان اللَّهُ

سبحانَه عليماً بالحقائِق على وَجْهِها، كان من كَمالِ علمه، وتقديره لذاته وصفاته وأفعاله حقيقاً بأن يكون مُتَعالياً، أي مُثْبِتاً لنفسه أنه هو العَلِيّ، ومِن هنا جاء في المأثورِ من أسمائه الحسنى المُتَعالِي.

معناه

المُتَعالِي أي الذي يَعْلَمُ حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله، فَيُثْبِتُ لنفسه وصْفَهُ الحقيقي، وهو أنه العليّ، وهٰذا المعنى هو معنى التعالي بالنسبة لله تعالى، وأما التعالي بالنسبة لغيره سبحانه، فهو ادِّعاءٌ كاذِبٌ، وتَكلُّفٌ مَمْقُوتٌ، وخُلُق ذميمٌ.

قال الله تعالى في مُحْكَمِ كتابه الكريم: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴿٩﴾﴾ [الرعد: 9]، وقد ورد هٰذا الاسمُ في موضع واحدٍ من القرآن الكريم.

أقوال العلماء في تفسيره

قال الإمام الغزالي في «المقصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (المتعالي بمعنى العلي، مع نَوْعٍ مِن المبالغة).

وقال الإمام مجد الدين ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى المُتَعالِي الذي جَلَّ عَنْ إفْكِ المُفْتَرِين، وعلا شأنُه. وقيل: جلَّ عن كُلِّ وَصْفٍ وثناءٍ، وهو (مُتَفاعِلٌ) مِن العُلُوِّ، وقد يكونُ بِمَعْنَى العَالِي.

ومنه الحديث الذي أخرجه البخاريّ في كتاب الجهاد مِن «صحيحه» باب ما يُكرَه من التنازع والاختلاف، الحديث (3039): أنّ المُسْلِمينَ لما هَزَمُوا المشركين يومَ أحُدٍ، وتَرَكَ الرُّماةُ مَواضِعَهُم في الجبل، انكشف المُسْلِمُون، فارتدّ إليهم خالد بن الوليد ومعه فلول المشركين مِن وراء ظهورهم، وأمْعَنُوا فيهم تقتيلاً وتَجريحاً، فقال أبو سُفيان لما انْهَزَمَ المسلمون وظَهَرُوا عليهم: أُعْلُ هُبَلُ، فأمر رسولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرَ أن يَرُدَّ عليه: «**اللَّهُ أَعْلَى وأَجَلّ**».

أقوالُ المفسّرين

يقول الله تعالى في مُحكم كتابه المُبين: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا

تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: 8، 9]، يُخْبِرُ تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه مُحيطٌ بما تحمله الحَوامِلُ مِن كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: 34]، أي ما حَملت مِن ذَكرٍ أو أُنْثى، أو حَسَنٍ أو قَبيح، أو شَقيٍّ أو سَعيدٍ، أوْ طَويل العُمُرِ، أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ﴾ [النجم: 32]، وقال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر: 6]، أي خلقكم طَوْراً مِنْ بَعْدِ طَوْر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: 12 ـ 14]، وفي الصحيحَيْن، عن ابن مسعود قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ خَلْقَ أَحدِكُم يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّه أربعينَ يوماً، ثم يكونُ عَلَقَةً مِثل ذلك، ثم يكون مُضغَة مِثلَ ذلك، ثم يَبْعَثُ اللَّهُ إليه مَلَكاً بأَرْبَعِ كَلِماتٍ: فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وشَقِيٌّ أَم سَعِيدٌ، ثم يَنْفُخُ فيه الروحَ**». وفي الحديث الآخَر: «**فيقولُ المَلَكُ: أي رَبِّ! أَذَكَرٌ أَمْ أُنثى؟ أي ربِّ! أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فما الرزقُ؟ فما الأجَلُ؟ فيقولُ اللَّهُ ويَكتُبُ المَلَكُ**».

وقولُه: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾، أخرج البخاري بسنده إلى ابن عمر، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَفاتيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهنَّ إلا اللَّهَ، لا يَعْلَمُ ما في غدٍ إلاّ اللَّهُ، ولا يَعْلَمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلا اللَّه، ولا يَعْلَمُ متى يأتي المَطَرُ أَحَدٌ إلاّ الله، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت، ولا يعلَمُ متى تقومُ الساعَةُ إلاّ اللَّه**». وقال العوفي عن ابن عبّاس: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ يعني: السَقْطَ ﴿وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ يَقولُ: ما زادت الرحمُ في الحَمْلِ على ما غاضَت حتى ولدته تماماً، وذلك أنّ من النساء مَن تحمِل عشرة أشهر، ومَن تحمل تسعَةَ أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تَنْقُص، فذلك الغَيضُ والزيادَة التي ذكر اللَّهُ، وكلُّ ذلك بعلمه تعالى.

وقال قتادَة: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾، أي بأجل، حَفِظَ أرْزاقَ خَلْقِهِ وآجالَهم وجعل لذلك أجَلاً مَعْلوماً. وفي الحديث الصحيح أن إحدى بناتِ

النبي ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها في الموت، وأنها تحبّ أن يحضره، فبعث إليها يقولُ: «**إنّ للّهِ ما أخذ وله ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عنده بأجل مُسَمًّى، فمروها فَلْتَصْبِر وَلْتَحْتَسِب**» الحديث بتمامه.

وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي علمُ كلَّ شيء ممّا يشاهده العِباد، وممّا يَغيبُ عنهم، ولا يَخْفَى عليه منه شيء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبَرُ مِن كل شيء ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾، أي على كل شيء ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، وقهر كلّ شيء فخضعت له الرِقابُ ودان له العبادُ طَوْعاً وكَرْهاً.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن المؤمن الذي يعلم أن صِفات العُلُوّ والتكبُّر لله وَحْدَه، لا يشاركه فيها أَحَد، يَتَجَنَّبُ الاتصافَ بهذه الصفات؛ لأنها لا تليق إلا بالله، فهي محمودة بحقّه وحده، ومذْمومة لخَلْقِهِ؛ ولذلك فالمؤمن يتجنّب التكبُّر على خلق الله والتعالي عليهم، ويحرِصُ على مؤاخاتهم والتواضع معهم وخفض الجناح لهم ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾ [الشعراء: 215]. ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، وكذلك فالمؤمن عليه أن يتعالى على سَفاسِف الأمور، ومَلذّات الحياة الدنيا التي غَرِق بها أهل الفجور والمَعاصي، فأسَرَتْهم ولم يعودوا يقدرون على التخلّص منها، فالمؤمن قويّ الإرادة، يحكّم إرادته ويَتعالى على ملذات الحياة الدنيا، بينما الكافر تحكمه شهواته، وتضعف إرادته أمامها.

68 ــ الجليل

لمّا كان اللّهُ سبحانه هو الكاملُ في صِفَاتِهِ، وما عَداهُ ناقصٌ، وهذا معنى الجلال، جاء في المأثور مِن أسماء الله الحُسْنَى (الجليلُ).

معناه

الجليلُ مَأْخُوذٌ من الجَلالِ، وهو الكمالُ في الصفات والأفعال، فاللّهُ سبحانه هو الجليل؛ لأنه وحدَه هو الذي له الجَلالُ والكَمالُ في جميع الصِفاتِ

والأفعال، وفي معنى أنه الجليلُ قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمٰن: 78]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: 26، 27]، ولم يرد هذا الاسمُ في القرآن الكريم بهٰذه الصيغة، ولكنه مُجمَعٌ عليه، وقد جاء في الحديث الجامع لأسماء الله الحسْنَى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الجليل هو الموصوف بنعوت الجلال، ونعُوتُ الجلال هي: الغِنَى، والمُلك، والتَقَدُّس، والعلم، والقُدْرَةُ، وغيرُها من الصفات التي ذكرناها، فالجامِعُ لجميعها هو الجليلُ المُطْلق، والموصوفُ ببعضها جلالته بقدر ما نالَ مِن هٰذه النُعوت.

فالجليلُ المطلقُ هو اللّٰهُ تعالى فقط، فكأنّ الكبيرَ ترجعُ إلى كمالِ الذاتِ، والجَليلَ إلى كمال الصفات، والعظيمَ يرجعُ إلى كمال الذات والصِفات جَميعاً منسوباً إلى إدْرَاكِ البَصيرَة إذا كان بحيث يَسْتَغْرِقُ البصيرة، ولا تَسْتَغْرِقُهُ البَصِيرَةُ.

ثم صفاتُ الجلَال إذا نُسِبَت إلى البصيرة المُدْرِكَةِ لها سُمِّيت جمَالاً، ويُسَمَّى المُتَّصِفُ بها جَميلاً، واسمُ الجميلِ في الأصل وُضِعَ للصورَةِ الظاهرة المُدرَكة بالبصر مهما كانت؛ بحيث يلائِمُ البَصَرَ ويوافِقُه، ثم نُقِلَ إلى الصورَة الباطِنيَّةِ التي تدرَك بالبصَائِر، حتى يُقالَ: سِيرَةٌ حَسَنَةٌ جَميلَةٌ، ويُقالَ: خُلُقٌ جَميلٌ، وذلك يُدرَكُ بالبصائر لا بالأبْصار.

فالصورَةُ الباطِنَةُ إذا كانت كاملة مُتناسِبَة جامعةً لجميع كمالاتها اللائِقة بها كما يَنْبغي، وعلى ما يَنْبغي فهي جميلةٌ بالإضافَة إلى البصيرة الباطِنَة المُدركة لها، ومُلائِمَةٌ لها مُلائمةً يُدرِك صاحِبُها عند مُطالعتها من اللَّذَّةِ والبَهْجَةِ والاهتزاز أكثر ممّا يُدْرِكُهُ الناظِرُ بالبَصَرِ الظاهِرِ إلى الصُورَةِ الجميلة.

فالجميلُ الحقُّ هو اللّٰهُ تعالى فقط؛ لأن كل ما في العالَم مِن جَمال وكمالٍ وبَهاءٍ وحُسْنٍ فهو مِن أنوارِ ذاتِه وآثارِ صِفاتِهِ، ولَيْسَ في الوُجودِ أَحَدٌ له الكمالُ المطلق الذي لا مَثوبَة فيه لا وُجوداً ولا إمكاناً سِواه. ولذلك يُدْرِكُ عارِفُه والناظِرُ

إلى جمالِه مِن البَهْجَةِ والسُّرورِ واللَّذَّةِ والغِبْطَةِ، ما يَسْتَحْقِرُ معها جمالَ الصورَةِ المُبْصَرَةِ بل لا مناسَبَة بين جمال الصورة الظاهرة وبَيْن جمال المعاني الباطِنَة المُدْرِكَةِ بالبصائر، وهٰذا المَعْنَى كشفنا عنه الغِطَاءَ في كتاب المَحَبَّة مِن كتب «إحياء علوم الدين».

فإذا ثبتَ أنه جَليلٌ وجَميلٌ، فكلُّ جَميلٍ مَحبُوبٌ ومَعْشُوقٌ عند مُدْرِك جماله، فلذلك كان الله تعالى مَحْبوباً، ولكن عند العارِفين، كما تكون الصورَة الجميلةُ الظاهِرَة مَحبُوبَةً، ولكن عند المُبْصِرين لا عند العِميان.

والجَليلُ مِنَ العِبادِ مَن حَسُنَت صفاتُه الباطِنَة التي تَسْتَلِذُّهَا القُلوبُ البَصِيرَةُ، فَأمّا جَمالُ الظاهِرِ فنازل القَدْر).

وقال الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزريّ المحدّث اللغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء اللَّهِ تعالى: الجَليلُ، وهو المَوْصُوفُ بِنُعُوتِ الجَلال، والحَاوِي جميعَها هو الجَليلُ المُطلَق، وهو راجعٌ إلى كمال الصِفاتِ، كما أنّ الكبيرَ راجِعٌ إلى كمالِ الذاتِ، والعظيمُ راجعٌ إلى كمال الذاتِ والصفات.

ومنه الحديثُ الذي أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (5/ 199) بسنده إلى أبي الدرداء الأنصاري: «أَجِلُّوا اللَّهَ يَغْفِرْ لكُم» أراد عَظِّمُوهُ، وجاء تفسيرُه في بعض الروايات: أي أَسْلِمُوا.

وأخرج الإمامُ مسلمٌ في كتاب الصلاة مِن «صحيحه»، باب ما يُقال في الركوع، الحديث (1084): «اللهمَّ اغْفِرْ لي ذنْبِي كُلَّه دِقَّهُ وَجِلَّه» أي صغيرَه وكبيرَه، ويُقال: ما له دِقٌّ ولا جِلٌّ.

ومنه حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «اللهمَّ جَلِّلْ قَتَلَةَ عثمانَ خِزْياً»، أي غَطِّهِم به، وأَلْبِسْهُمْ إياه، كما يَتجَلَّلُ الرَّجلُ بالثوب.

أقوال المُفسِّرين

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾

[الرحمٰن: 26، 27]، يُخْبِرُ تعالى أن جميعَ أَهْلِ الأرض سيذهبون ويموتون أَجْمَعُونَ وكذلك أهلُ السمٰوات إلّا مَن شاءَ اللَّهُ، ولا يَبْقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهُهُ الكَريمُ، فإنّ الربَّ تعالى وتقدَّسَ لا يموتُ، بل هو الحيُّ الذي لا يَموتُ أبداً، وفي الدعاءِ المأثور: (يا حيُّ يا قَيُّومُ يا بَديعَ السماوات والأرض، يا ذا الجلالِ والإكرام لا إلٰه إلّا أنتَ، برحمتك نَسْتَغيثُ أصلِحْ لنا شَأْنَنا كُلَّه، ولا تكِلنا إلى أنْفُسِنا طَرْفَة عَيْن، ولا إلى أحَدٍ من خلقك).

وقال الشَعْبِيُّ: إذا قرأتَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وهٰذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88].

وقد نَعتَ تعالى وَجْهَهُ الكريم في هٰذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي هو أهْلٌ أنْ يُجلَّ فلا يُعْصَى، وأنّ يُطَاعَ فلا يُخالَفَ، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: 28]، وكقوله إخباراً عن المُتَصدِّقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: 9]، قال ابنُ عباس: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذو العظمة والكبرياء.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن مَن عَلِمَ أن الجَلالَ والكمالَ والعَظَمَةَ لِلَّهِ تعالى وحْدَه، أَجَلَّه وعَظَّمَهُ في نفسه وآمَن به، وأخضع نفسه له، وحَمَلَها حَمْلاً على تعظيمه وتوقيره وإجْلالِهِ وطاعته، ولم يُكبِرْ في نفسه سواهُ مِن عَدُوٍّ، أو خَصْمٍ، ولم يخشَ أحداً إلّا الله، فهو وحده الجليل، والكلُّ مملوكٌ له فقيرٌ إليه، ضعيفٌ أمامه.

69 ــ العظيم

لما كان اللَّهُ سبحانَه هو الكَبيرُ في ذاته، والجليلُ في صفاته وأفعاله، والعَليُّ في شرفه ومَقامِه، وهٰذا مُنْتَهى العَظْمَةِ والكَرَم، جاءَ في المأثور مِن أسمائه الحُسْنَى: (العظيم والكريمُ في أحد معانيه).

معنى العظيم: أي الذي له صِفاتُ الكِبْر والعُلُوّ والجَلال، وبها كان عظيمَ

القَدْر، قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255]، وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في ستة مواضع.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام حُجَّةُ الإسلام، وفيلسوفُه أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (لِيُعْلَم أنَّ اسمَ اللَّهِ العظيمُ في أول الوَضْع إنما أُطْلِقَ على الأجسام، يُقالُ: هٰذا الجسمُ عَظيمٌ، وهٰذا الجسْمُ أعْظَمُ مِن ذلك الجسم، إذا كان امتدادُ مساحَته في الطولِ والعرْضِ والعُمقِ أكثرَ منه.

ثم هو يَنْقسِمُ إلَى: عظيم يَمْلأُ العَيْنَ وتأخُذُ منه مَأْخذاً، وإلى ما لا يُتصوَّرُ أن يُحِيطَ البَصَرُ أطْرَافَهُ كالأَرْضِ والسَماءِ، فإنَّ الفِيلَ عَظِيمٌ، والجَبَلَ، ولكنّ البَصَرَ قد يُحيطُ بأطْرَافِهِ، فهو عَظيمٌ بالإضافةِ إلى ما دونَه. وأما الأرضُ فلا يُتصوَّرُ أن يُحيطَ البَصَرُ بأطرافها، وكذا السماءُ. فذلك هو العَظِيمُ المُطْلَقُ في مُدرَكاتِ البَصر.

وَلْيُفْهَم أنَّ في مُدْرَكاتِ البصائرِ أيضاً تفاوُتاً، فمنها ما تُحيطُ العقولُ بكُنْهِ حقيقته، ومنها ما يَقْصُرُ عنه العَقْلُ، وما تَقْصُرُ العُقولُ عنه يَنقَسِمُ إلى ما لا يُتصوَّرُ أن يُحيطَ به بَعضُ العُقولِ، وإن قصُرَ عنه أكثرها، وإلى ما لا يُتصوَّرُ أن يُحيطَ العَقلُ بِكُنْهِ حَقيقَتِه، وذلك هو العَظِيمُ المُطْلَقُ الذي جاوز جميعَ حُدودِ العَقْلِ حتّى لم يُتَصوَّر الإحاطَةُ بكنهه، وذلكَ هُوَ اللَّهُ تعالى.

والعَظيمُ مِن العِبادِ: الأنبياءُ والعُلماءُ، الذينَ إذا عَرَفَ العاقِلُ شيئاً مِن صِفاتِهِم امتلأَ بالهَيْبَةِ صَدْرُه، وصار مُسْتَوْفَىً بالهَيْبَةِ قَلْبُه، حتّى لا يَبْقَى فيه مُتَّسَعٌ.

فالنَبِيُّ عَظيمٌ في حَقِّ أُمَّتِهِ، والشيخُ في حَقِّ مُريده، والأُسْتَاذُ في حق تلميذِهِ، إذْ يَقْصُرُ عَقْلُهُ مِنَ الإحاطَةِ بكنهِ صِفاتِهِ، فإن ساواه أو جاوزه لم يكن عظيماً بالإضافةِ إليه.

وكلُّ عظيم يُفْرَضُ غيرُ اللَّهِ، فهو ناقِصٌ وليسَ بعَظِيم مُطْلَقٍ؛ لأنه إنّما يَظهَر بالإضافةِ إلى شيءٍ أو دُونَ شيء، سِوَى عظمةِ اللَّهِ تعالى، فإنّه العَظيمُ المُطلَق لا بطريق الإضافة).

ويقول الإمام المحدّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: العَظِيمُ هو الذي جاوَزَ قَدْرُهُ، وَجَلَّ عن حدود العُقولِ، حتّى لا تُتَصَوَّرُ الإحاطَةُ بِكُنْهِهِ، وحَقيقَتِهِ، والعِظَمُ في صِفاتِ الأجسام: كِبَرُ الطولِ والعَرْضِ والعُمْقِ، واللَّهُ تعالى جَلَّ قَدْرُه عن ذلك.

ومنه الحديث القُدْسِيُّ: «**قال اللَّهُ تعالى: لاَ يَتَعاظَمُني ذَنْبٌ أن أَغْفِرَهُ**»، أي لا يَعْظُمُ عليَّ وعِنْدِي.

ومنه الحديث الذي أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن تَعَظَّمَ في نَفْسِهِ، واختالَ في مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهِ وهُوَ عَليه غَضْبانُ**» التَعَظّمُ في النفس: هو الكِبْرُ والنَخْوَةُ، أو الزَّهْوُ.

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾ [الشورى: 3، 4]. أي كما أُنزلَ إليك هٰذا القرآنُ أُنْزِلَ الكتبُ والصُحُفُ على الأنبياءِ قَبْلَك، وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي في انتقامه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله. أخرج الشيخان البخاري، ومسلمٌ في صَحِيحَيْهما بسندهما إلى أمّ المؤمنينَ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن الحارِثَ بنَ هشام سأل رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّهِ، كيفَ يأتيكَ الوَحْيُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحياناً يأتيني مِثلَ صَلْصَلَةِ الجَرَس**» ـ وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ ـ «**فَيَفْصِمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحياناً يأتيني المَلَكُ رجُلاً فيُكلّمُني فأَعِي ما يقولُ**». قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ ينزِلُ عليه الوَحْيُ في اليومِ الشديدِ البَردِ فَيَفْصِمُ عنه، وإنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً، واللفظ للبخاري.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي الجميعُ عَبيدٌ له ومُلْكٌ له، تَحْتَ قَهْرِه وتَصْريفِهِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كقوله تعالى: وهو ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23]، والآيات في هٰذا كثيرة.

أثر هذا الاسم على العبد

إن مَن عَلِمَ أن اللَّهَ هو وحدَه العَظيمُ، خَضَعَ لجلالِهِ وعَظَمَتِهِ وطلب منه العَوْن والمدد والنَصْرَ، وأطاع مَوْلاهُ وعَبَدَهُ خوفاً من عَذابه وناره، وطَمَعاً برضوانِهِ ورحمته ومغفرته وجَنَّتِه، ولم يَخْشَ أحداً سِوَى اللَّه؛ لأنه لا عظيمَ في المخلوقات مهما تعاظم أمام عَظَمَةِ اللَّه، فالكل مملوكٌ له، خاضع لسلطانه وقهره، ذليل بين يديه، وعلى المؤمِن الذي يَعْلم أن لا عظِيمَ إلّا اللَّهَ، أن لا يُعَظِّمَ سِواه من شخص أو جهة أو دولة: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: 54]، وبهٰذا يَقْوَى إيمانُه بالله وَحْدَهُ، ويعمل لنُصْرَةِ دينه بشجاعَةٍ وإقدامٍ، ودونما خوفٍ أو وَجَل من أحد، فلا قُوّةَ فوق قُوَّةِ الله، ولا قديرَ إلا الله.

والمؤمِنُ عَظِيمٌ في نفسه؛ لأنه آمَنَ باللَّهِ، وأطاع أوامِرَه واجْتَنَبَ معاصيه، فتعاظمت نفسه، وتعالت عن وساوس الشياطين التي توحي للناس بالكفر والمعاصِي، وهو عظيمٌ؛ لأنه جاهَدَ شيطانَ نفسِه فقهره، ولم يستجب له، ولم يَتّبِعْ هَواهُ، بل جاهد في طاعة ربه نفسه وهواه وشيطانه فانتصر عليهم، هٰذه المعركة التي يتساقط فيها كثير من الناس لضعف إرادتهم أمام شهواتهم، وهنا يظهر العظيم من الحقير: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142].

70 ــ الماجِدُ

أيُّ مَجْد وحَسْبٍ أعظم مِنْ جَمْع كل صِفاتِ الكمال، مع بُلوغ نهاية الكرم والقدر الرفيع، والشأن العظيم؟! ومن هنا جاء في المأثور مِن أسمائه الحسنى: (الماجِدُ، المَجيدُ، الحَسِيبُ في أحد معانيه، ذو الجلالِ والإكرام).

معناه

الماجِدُ مأخوذٌ مِن المَجْدِ، وهو بلوغُ غاية الشرف، ونهاية الكَرَم، وهٰذا الاسمُ غيرُ مَذكور في القرآن الكريم، بَل المذكور فيه المجيد كما يأتي، ولكنه مُجْمَعٌ عليه، كما ورد في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى، الذي رواه أبو

هريرة ﷺ، وأخرجه الإمامان الترمذي، وابن ماجه في «سُننهما»، والبَيْهَقي في «الدعوات».

أقوال العلماء في تفسيره

قال الإمام أبو حامد الغزالي في «المقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (الماجِدُ بمعنى المَجيد، كالعالِم بمعنى العَليم، لكن الفعيلَ أكثرُ مُبالَغَةً، وسيأتي معناه).

وقال الإمام مجد الدين ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: الماجِدُ، والمَجْدُ في كَلامِ العَرب الشَرَفُ الواسِعُ، ورَجُلٌ ماجِدٌ: مِفْضالٌ كثير الخير شريف.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام مسلمٌ في كتاب الصلاة مِن «صحيحه»، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، الحديث (876): «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**» أي: شرَّفَنِي وعَظَّمَنِي.

ومنه حديث علي بن أبي طالب الذي أخرجه الخطّابي في «غريب الحديث»: «أما نحنُ بنو هاشم فَأنجادٌ أمْجادٌ» أي أشرافٌ كِرامٌ. جمع: مجيد أو ماجد، كأشهاد في شهيد أو شاهِد).

أقوال المفسّرين

يقول الله تبارك وتعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: 11 ـ 16]، يُخْبِرُ تعالى عَنْ عبادِه المُؤْمنين أن لهُم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها بِخِلافِ ما أعَدَّ لأعْدائه مِن الحريق والجَحيم، ولهٰذا قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾، أي إن بَطْشه وانتقامَهْ مِنْ أعدائِه الذين كذّبوا رُسُلَه وخالَفُوا أمْرَه لَشَديدٌ عظيمٌ قويٌ، فإنّه تعالى ذو القُوَّةِ المَتينُ الذي ما شاءَ كان كما يَشاءُ في مِثلِ لَمْحِ البَصَرِ، أو هو أَقْرَبُ،

ولهٰذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾، أي مِن قُوَّتِهِ وقُدْرَتِهِ التامَّة: يُبْدِىءُ الخَلْقَ ويُعِيدُهُ كما بَدَأَهُ بِلا مُمَانِعٍ ولا مُدافِعٍ.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ أي يَغْفِرُ ذَنْبَ مَن تابَ إليه وخَضَعَ لدَيْهِ، ولو كانَ الذنْبُ مِن أيّ شيءٍ كانَ، و﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ قال ابنُ عباسٍ وغيرُه: هو الحَبيبُ ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي صاحِبُ العَرْشِ العَظيم العالي على جميع الخلائِق. و﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ فيه قِراءَتان: الرَّفْعُ على أنه صِفَةٌ للَّهِ ﷻ، والجَرُّ على أنه صِفَةٌ لِلعَرْشِ، وكِلَاهُما مَعْنًى صَحِيحٌ.

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾، أي مهما أرادَ فِعْلَهُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ و ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ لِعَظَمَتِهِ وَقَهْرِهِ وحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ، بَلْ لا يوجَدُ مَن يَسْأَلُه فهو العظيمُ الماجِدُ ﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾؛ لأنهم تحت قهره وسلطانه وحُكْمِهِ، وروي عن الخليفة الراشِد أبي بكر الصديق ﷺ، أنه قيلَ له وهو في مَرَضِ المَوْت: هل نظر إليكَ الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فَعّالٌ لما أريدُ.

ثم قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ أي هل بَلَغَكَ ما أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ البأس، وأَنْزَلَ عليهم مِن النِقْمَة التي لم يرُدَّها عنهم أحَدٌ؟ وهذا تقريرٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ أي إذا أَخَذَ الظَالِمَ أَخَذَهُ أَخْذاً أليماً شَديداً أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ. أخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» بسنده إلى عمرو بن ميمون قال: «مَرَّ النبيّ ﷺ على امرأةٍ تقرأ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ فقامَ يَسْتَمِعُ، فقال: «**نَعَمْ قد جاءَنِي**».

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾﴾ أي هُمْ في شَكٍّ وَرَيْبٍ وكُفْرٍ وعِنَادٍ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ أي قادِرٌ عليهم، قاهِرٌ لا يَفُوتُونَهُ ولا يُعْجِزُونَه.

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾﴾ أي عَظِيمٌ كريمٌ. أخرج الخَطّابيُّ في «غريب الحديث» بسنده إلى السَيِّدَة عائشة أم المُؤمِنِينَ ﷺ: (أنها قالت لِمَوْلَاتها: «نَاوِلِيني المَجِيد»، أي المُصْحَف. ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ أي: هو في الملأ الأعلى محفوظٌ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل، ومِنَ الأَيادِي أن تتلاعَبَ به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9]، فاللّهُ تبارك وتعالى هو المُتَكَفّلُ بحفظه في السماءِ والأرض عن أن تَتَلاعَبَ به الأَيْدي،

لا كما يَظُنّ البعضُ مِن شياطين الجن والإنس، أنهم يمكنهم التلاعُبُ بكتابِ اللَّهِ، فهو مَحْفُوظٌ في السماء في اللَوْح، محفوظٌ في الأرض في المصاحِف، مَحْفُوظٌ في صُدورِ المُؤمنين. أخرج البَغَويُّ في «تفسيره»، بسنده إلى ابن عباس قال: «إنَّ في صَدْرِ اللَّوْحِ: لا إلٰهَ إلّا اللَّهُ وَحْدَهُ، دِينُهُ الإسلامُ، ومحمَّدٌ عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، فَمَنْ آمَنَ باللَّهِ وصَدَّقَ بِوَعْدِهِ واتّبَعَ رُسُلَهُ أدْخَلَهُ الجَنَّةَ، قال: واللَّوْحُ لَوْحٌ مِن دُرَّةٍ بَيْضاءَ طولُه ما بين السَماءِ والأرضِ، وعَرْضُه ما بين المَشرِقِ والمَغْرِب، وحافتاه مِنَ الدُرِّ والياقوت، ودَفَّتاهُ ياقوتَةٌ حَمْرَاءُ، وقَلَمُهُ نورٌ، وكَلامُه مَعْقُودٌ بالعَرْشِ، وأصله في حِجْرِ مَلَك».

أثر هٰذا الاسم على العَبْد

إنّ مَن عَلِمَ أن المَجْدَ لِلَّهِ وَحْدَه لا شريكَ له، والتَعْظِيمَ له وَحْدَه، قَدَّمَ له وحده الطاعَةَ، وخَضَعَ لِعَظَمَتِهِ ومَجْدِهِ، وانْقَادَ لِرَبِّهِ طائعاً مُختاراً، عن مَحَبَّةٍ وإجلالٍ وتعظيم، لِعِلْمِهِ بأنّه الرَّبُّ المَعْبُودُ مالِكُ المُلكِ، وأنّ ما سِوَاهُ مِن الكائناتِ مَخْلُوقٌ له، مَمْلُوكٌ له، فقيرٌ له في وجودِه وإمْدادِهِ، حَقيرٌ ذليلٌ بين يديه، ولم يُمَجِّدْ أحَداً سِوَاه؛ لأن الجميعَ خاضع لقهره وسلطانه وأمره.

أمّا ما يفعله بعض المسلمين اليوم، مِن الخَوْفِ من أعداء اللَّهِ، والرَهْبَةِ منهم، والخضوع لسلطانهم، والانتماء لمحافلهم وجمعيّاتهم وتقديم الولاء والطاعة لهم، بل وتمجيدهم وتعظيمهم، فهو من ضَعْف إيمانهم قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: 138، 139].

71 ــ المَجيدُ

معناه

صِيغَة مُبالَغَة للماجد. ومعناهما واحد. قال اللَّهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: 73]. وقد ورد هٰذا الاسم في موضعين مِن القرآن الكريم الأول، هٰذا المذكور، والثاني قوله

تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴿١٥﴾﴾ [البروج: 15]، كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المَقصِد الأَسْنَى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (المَجيدُ هو الشَّريفُ ذاتُه، الجَميلُ أفعالُه، الجَزيلُ عَطاؤه ونوالُه، كما أَنَّ شَرَفَ الذاتِ إذا قارنه حُسْنُ الفِعالِ سُمِّيَ: مَجْداً، وهو الماجِدُ أيضاً، ولكنّ أحَدَهما أَدَلُّ على المُبالَغَة، وكأنما يَجْمَعُ مَعْنَى اسم الجَليلِ والوَهّابِ والكَريمِ).

وقال مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: المَجيدُ، المَجْدُ في كلامِ العَرَب: الشَرَفُ الواسِعُ، والمَجِيدُ: (فَعيلٌ) من ماجد للمبالغة. وقيل: هو الكريم الفِعَال. وقيل: إذا قارَن شَرَفُ الذاتِ حُسْنَ الفِعالِ، سُمِّي مَجْداً، و(فعيل) أبلغ من (فاعل) فكأنه يجمع معنى الجليل، والوَهَّاب، والكريم).

ومنه الحديث المتَّفق عليه: «أنهم قالوا: قد علمنا السلامَ عليكَ فكيفَ الصلاةُ عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: «**اللهمَّ صَلِ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على آل إبراهيمَ، إنّك حميدٌ مَجيدٌ**».

أقوال المفسّرين

يَقول الله تعالى في مُحكَم كتابهِ الكَريم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴿٧٣﴾﴾ [هود: 69 ـ 73].

يقولُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ وهم الملائكةُ ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ قيلَ: تُبَشِّرُه بإِسْحَاقَ، وقيلَ: بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، ويَشْهَدُ للأَوَّلِ قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هــود: 74]، ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾، أي عليكم، قال عُلماءُ البَيانِ: هٰذا أحسنُ مِمّا حَيَّوْهُ به؛ لأنَّ الرَفْعَ يَدُلُّ على الثُبوتِ والدَّوَام ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، أي ذَهَبَ سَرِيعاً فأتاهُم بالضِيافَةِ، وهو عِجْلٌ فَتى البَقَر ﴿حَنِيذٍ﴾ مَشْوِيٌّ على الرَّضْفِ، وهي الحِجَارَةُ المُحَمَّاةُ، هٰذا معنى ما رويَ عن ابن عباس، وقتادَة وغير واحِدٍ، كما قال في الآيـة الأخـرى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: 26، 27]، وقد تَضَمَّنَتْ هٰذه الآيةُ آدابَ الضِيافَةِ مِن وُجوهٍ كثيرة.

وقـولـه: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تـنـكَّـرَهُـم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، وذلك أن الملائكةَ لا هِمَّةَ لهُم إلى الطَعَام ولا يَشْتَهُونَه ولا يأكلونه، فلهٰذا رأى حالَهُم مُعْرِضِينَ عَمّا جاءَهُمْ به فَارِغِينَ عنه بالكُلِّيَةِ، فعند ذلك نكِرَهُم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، قالَ السُدِّيُ: لـمّا بَعَثَ اللّهُ المَلائِكَةَ لِقَوْم لُوطٍ أقْبَلَتْ تَمْشِي في صُوَرِ رِجَالٍ شُبّانٍ حتى نزلوا على إبراهيم فَتَضَيَّفُوهُ، فلمّا رآهُم أجَلَّهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات: 26]، فذبحه ثم شَواهُ في الرَّضْفِ وأتاهُم به، فَقَعَدَ معهم، وقامَتْ سَارَةُ تَخْدُمُهُم، فذلك حين يقولُ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾، وهو جالِسٌ في قراءة ابن مَسْعُودٍ: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قالوا: يا إبراهيم! إنا لا نأكل طعاماً إلا بِثَمَنٍ، قال: فإنَّ لهٰذا ثمناً، قالوا: وما ثَمَنُه؟ قال: تذكرون اسْمَ اللّهِ على أوَّلِه، وتَحْمَدُونَهُ على آخره. فنظر جِبريلُ إلى ميكائيلَ فقال: حُقَّ لهٰذا أن يَتَّخِذَه ربُّه خليلاً. ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقولُ: فلما رآهم لا يأكلون فَزِعَ مِنْهُمْ وأوْجَسَ مِنْهم خِيفَةً، فلما نَظَرَتْ سارَةُ أنه قد أكرمَهُم، وقامَتْ هي تَخْدِمُهُم ضَحِكَتْ وقالت: عَجَباً لأَضْيافِنا هٰؤلاء، نَخْدِمُهُم بأَنْفُسِنا كرامَةً لَهُم وهم لا يأكلون طعامنا! ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ مِنّا ﴿إِنَّآ﴾ مَلائِكَةٌ ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ لِنُهْلِكَهُم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سارَةُ اسْتِبْشاراً بهلاكهم لكثرة فسادِهم وغِلَظِ كُفْرِهم وعنادهم، فلهٰذا جُوزِيَتْ بالبِشارَة بالولد بعد الإيَاس، وقال قتادَةُ: ضَحِكت وَعجِبَتْ أنَّ قَوْماً يأتيهمُ العَذابُ، وهُمْ في غَفْلَةٍ.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: ضَحِكَتْ أي حاضَتْ. وقال وهَبُ بن مُنَبِّه: إنما ضَحِكَت لما بُشِّرَتْ بإسحاق، وهٰذا مخالف لهٰذا السِياق، فإن البِشَارَة صَرِيحَةٌ مُرَتَّبَةٌ على ضَحِكِها ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾، أي بِوَلَدٍ لها يكونُ له وَلَدٌ وَعَقِبٌ ونَسْلٌ، فإنّ يَعقوبَ وَلَدُ إسحاقَ، كما قال في آية البقرة: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: 133]، ومِن هنا اسْتَدَلَّ مَن اسْتَدَلَّ بهٰذه الآية على أن الذَبيحَ إنّما هو إسماعيلُ، وأنه يَمْتَنِعُ أنْ يكونَ هو إسحاقَ؛ لأنّه وقَعَت البِشَارَةُ به، وأنه سَيُولدُ له يعقوب فكيف يُؤْمَر إبراهيم بِذَبْحِه، وهو طِفْلٌ صَغيرٌ، ولم يولد له بعدُ يعقوبُ المَوْعُود بوجودِهِ، ووعْدُ اللّه حَقٌّ لا خُلْفَ فِيه، فَيُمْتَنَعُ أنْ يُؤْمَرَ بذَبْحَ هٰذا والحالةُ هذه، فَتَعَيَّن أنْ يكونَ هو إسماعيل، وهٰذا مِن أَحْسَنِ الاستدلال وأَصَحِّه وأبيَنِهِ ولِلّهِ الحمدُ، ويضاف إليه قوله ﷺ: **«أنا ابن الذَّبِيحَيْن»** (أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٤) يعني: إسماعيل وأباه عبد الله.

﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾﴾ حكى قولها كما جرت عادة النِساءِ في أقوالهن وأفعالهن عند التَّعجُب.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، أي قالت الملائكةُ لها: لا تعجبي من أمْرِ اللّه، فإنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فلا تعجبي مِن هٰذا، وإن كنتِ عَجُوزاً عقيماً وبَعْلُكِ شَيْخاً كَبيراً، فإنَّ اللّهَ على ما يَشاءُ قديرٌ ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ أي هو الحَميدُ في جميع أَفْعالِهِ وأقواله، مَحْمودٌ مُمَجَّدٌ في صِفاتِهِ وذاتِه.

72 ــ ذو الجلال والإكرام

معناه

أي هو الذي لا شرف ولا جَلالَ ولا كمالَ ولا مَجْدَ ولا حَسَبَ إلَّا وهُوَ له سُبْحَانَه، كما لا إكرامَ ولا عطاءَ ولا هِبَةَ إلا وهي صَادِرَةٌ منه تعالى. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: 26، 27].

وقد ورد هٰذا الاسم في موضعين مِن القرآن الكريم لا غير، هٰذا المتقدم، والآخرُ في السورة نفسها قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)﴾ [الرحمٰن: 78].

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه: «المَقصِد الأسنى في شَرْح أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى»: (ذو الجلالِ والإكرام هو الذي لا جَلالَ ولا كمالَ، إلّا وهو له، ولا كرامَةَ ولا مَكرُمَةَ إلّا وهي صادِرَة منه، فالجَلالُ له لِذَاتِهِ، والكرامَةُ فائِضَةٌ منه على خلقه، وفُنُونُ إكرامِهِ خَلْقَه لا تكادُ تَنْحَصِرُ وتَتَناهَى، وعليه دلَّ قولُه تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ [الإسراء: 70].

ويَقول الإمام المحدِّثُ اللغويُّ مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النِهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: «ذو الجَلالِ والإكرام» الجَلَالُ: العَظَمَةُ، والإكرامُ الجامِعُ لأَنْواعِ الخير والشرف والفضائل.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي في كتاب الدعوات من «جامعه»، باب (92)، الحديث: (3524) و(3525)، والإمام أحمد في «مسنده» (4/ 677): «**أَلِظُّوا بِياذَا الجَلالِ والإكرَام**»، أي الزَمُوه واثبتُوا عليه، وأَكثِرُوا مِنْ قوله والتَلَفُّظِ به في دُعائِكم. يقال: أَلَظَّ بالشيء يَلِظُّ إلظاظاً إذا لَزِمَهُ وثابَر عليه.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (5/ 199) بسنده إلى أبي الدرداء ﷺ: «**أَجِلُّوا اللَّهَ يَغْفِرْ لَكُم**» أي قولوا: يا ذا الجَلالِ والإكرام، وقيل: أراد عَظِّمُوه، وجاء تفسيره في بعضِ الروايات، أي أَسْلِمُوا).

أقوال المفسِّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)﴾ [الرحمٰن: 62 ـ 78].

أَخْبَرَ اللَّهُ قبلَ هٰذا فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)﴾، فهاتان الجنَّتان دون اللتَيْن قبلهما في المرْتَبَةِ والفَضِيلَةِ والمَنزِلَة بِنَصِّ القرآنِ، وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي في «جامعه» بسنده إلى أبي موسَى الأشْعَرِي في قوله تعالى قال: «جَنَّتانِ من ذَهَبٍ لِلمُقَرَّبِينَ، وجَنَّتانِ مِن وَرَقٍ ـ أي فِضَّة ـ لأصحاب اليَمين»، وقال ابنُ عباسٍ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)﴾ مِن دونِهما في الدَرَج. وقال ابن زيد: مِن دونهما في الفضل.

وقوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤)﴾ أي سَوْداوان مِن شِدَّةِ الريّ من الماء. قال ابن عبّاس في قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤)﴾ قد اسْوَدَّتا مِن الخُضْرَةِ مِن شِدَّةِ الريّ من الماءِ، وقال كعب: مُمْتَلِئَتانِ من الخُضْرَةِ.

وقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)﴾ أي ممتلئتان ولا تَنْقَطِعَان فَيّاضَتان.

وقوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)﴾ أَفْرَدَ النَخْلَ والرُّمَّانَ بالذكر لشرفهما على غيرهما. أخرج عبد بن حُمَيْد في «مسنده» بسنده إلى عمر بن الخطاب، قال: جاءَ أُناسٌ مِن اليهودِ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالوا: يا محمّد! أفي الجنَّة فاكِهَةٌ؟ قال: **«نَعَمْ، فيها فاكهة ونَخْلٌ ورُمَّانٌ»**. قالوا: أفيأكُلُونَ كما يأكُلُونَ في الدنيا؟ قال: **«نَعم وأضعافَ»**، قالوا: فَيَقْضُونَ الحوائِجَ؟ قال: **«لا ولكنّهم يَعْرَقُون ويَرْشَحُونَ فَيُذْهِبُ اللَّهُ ما في بُطونهم مِن أذى»**. وأخرج ابنِ أبي حاتم في «تفسيره» بسنده إلى ابن عباس قال: **«نَخْلُ الجنَّةِ سَعَفُها كِسْوَةٌ لأَهْلِ الجَنَّةِ، منها مقطعاتهم، ومنها حُلَلُهُم، وكربها ذَهَبٌ أَحْمَرُ، وجُذُوعُها زُمُرُّدٌ أَخْضَرَ، وثمرها أحلى مِن العَسَل، وأَلْيَنُ مِن الزُبْدِ، وليس له عُجْمٌ»**. وأخرجه بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسولَ اللَّهِ ﷺ، قال: **«نظرتُ إلى الجَنَّةِ فإذا الرُّمَّانَةُ مِنْ رُمَّانِها كالبَعِيرِ المُقَتَّبِ»**، أي المشدُودَةِ عليه أقتابُه، أي أحمالُه، شبَّهها به لِعِظَمها.

ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴿٧٠﴾﴾ قيل: المُراد خَيْراتٌ كثيرة حَسَنَةٌ في الجَنَّة؛ قاله قتادَة. وقيل: ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ جَمْع: خَيِّرة، وهي المرأةُ الصالِحَةُ الحَسَنَةُ الخُلُقِ، الحَسَنَةُ الوجه؛ قاله الجمهور: ورُوِيَ مَرْفوعاً عَن أَمِّ سَلَمَة ﷺ. وهُنَّ الحُورُ كما فسّرتها الآية التي تليها.

ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴿٧٢﴾﴾ أخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» بسنده إلى عبد الله بن مسعود، قال: إن لكل مسلم خَيِّرةً، ولكل خَيِّرَةٍ خَيْمَةٌ، ولكل خَيْمَةٍ أربعة أبواب يُدخِلُ عليها كلَّ يوم تُحْفَةً وكرامَةً وهَدِيَّةً لم تكن قبل ذلك، لا مَرِحَاتٌ ولا طَمِحَاتٌ، ولا بَخِراتٌ ولا ذَفِراتٌ، حورٌ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ. وأخرج البخاري في «صحيحه» بسنده إلى أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**إنّ في الجنَّةُ خيمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ، مُجَوَّفَةٍ عَرْضُها سِتّون ميلاً في كل زاويَةٍ منها أَهْلٌ ما يَرَوْنَ الآخرين، يَطوفُ عليهم المؤمن**».

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴿٧٤﴾﴾ أي بَلْ هُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ ـ جمعُ عَرُوبَة وهي المُتَحَبِّبَة إلى زوجها ـ لم يَطأْهُنَّ أَحدٌ قَبْلَ أزواجِهِنَّ من الإنس والجن.

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴿٧٦﴾﴾ قال الحسن البصري: الرَفْرَفُ الوسائِدُ، والعبقريّ بُسْط أهل الجنة. وقال مجاهد: العَبْقَرِيّ الديباج.

وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴿٧٨﴾﴾ أي هُوَ أَهْلٌ أن يُجَلَّ فلا يُعْصَى، وأن يُكَرَّمَ فَيُعْبَدَ، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ، وأن يُذكَرَ فلا يُنْسَى. وقال ابنُ عباس: ذي العظمة والكبرياء.

المجموعة العاشرة من الأسماء الحسنى
التي تعود إلى صفات الكمال لله تعالى

قدَّمنا أن الله مُتَّصِفٌ بِكلِّ كمالٍ ومُنَزَّهٌ عَن كل نَقص، إنَّ صفاتِ الكمال استنتجناها مِن آثار الخالق في مخلوقاته، ومن المؤيِّدات النقلية التي جاءت بها الرُسُلُ عليهمُ الصلاة والسلام، مِن وَصْفِ اللَّهِ بعدَّة صفات، ومن تسميته بعدّة أسماء وصفيّة.

ولكل صِفَةٍ من صفات الكمال أسماءُ تتعلَّقُ بها وتَدُلُّ عليها. وأوَّلُ صفات الكمال: الوجودُ الذي قام دليلُ الفطرة ودليل العقل والنقل على إثباته. ومن الأسماء الحسنى المتعلّقة به أربعة أسماء تعودُ إلى معنى تحقّق وُجودِ اللَّهِ تعالى، وهي: (الحق، النور، الظاهِر، الباطن)، وفيما يلي شرح هٰذه الأسماء

73 ــ الحقُّ

معناه

الحَقُّ هو الأمْرُ الثابِتُ الواجِبُ الذي لا شَكَّ فيه، وهو ضِدُّ الباطِلِ. فمعنى كون الله تعالى هو الحقّ: أنّه المُتَحَقِّقُ الثابِتُ وجودُه أزَلاً وأبداً، الذي لا يتغيَّر، ولا يتناقَصُ ولا يَعْرِضُ لذاته شَيْءٌ، وكلُّ ما عَداهُ مِن موجودات فهي موجودَةٌ بإيجادِهِ لها، وهي في الأصلِ عَدَمٌ وباطِلٌ، وأصَدَقُ كلمةٍ قالها شاعِرٌ كَلِمَةُ لبيد:

ألاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلاَ اللَّهَ باطِلُ ... وكلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زائِلُ

قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: 32]، وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: 114].

أقوالُ العُلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامِد الغزالي في كتابه «المَقْصِدُ الأسنى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى»: (الحَقُّ هو الذي في مُقابَلَة الباطل، والأشياءُ قد تُسْتَبان بأضْدَادِها، وكُلُّ ما يُخْبَرُ عنه فإمّا باطِلٌ مُطلَقاً وإما حَقٌّ مُطلَقاً، وإمّا حَقٌّ مِن وَجْهٍ، باطِلٌ مِن وَجْهٍ.

فالمُمْتَنِعُ بذاتِهِ هُوَ البَاطِل مُطْلَقاً، والواجِبُ بذاته هو الحَقُّ مُطلقاً والممْكِنُ بذاتِهِ الوَاجِبُ بِغَيْرِهِ هو حَقٌّ مِنْ وَجْهٍ، باطِلٌ مِن وَجْهٍ، فهو مِن حَيْثُ ذاته لا وُجُودَ له فهو باطِلٌ، وهو مِن جِهَةِ غَيْرِهِ مُسْتَفِيدٌ للوُجُودِ، فهو مِنَ الوَجْهِ الذي يَلي مُفيدَ الوُجودِ، فهو مِن ذلك الوَجْهِ حَقٌّ، ومِن جِهَةِ نفسه باطِلٌ، ولذلك: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88]، وهو كذلك أزلاً وأبَداً لَيْسَ في حالٍ دُونَ حَالٍ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ سِواهُ أزلاً وأبَداً مِنْ حَيْثُ ذاته لا يَسْتَحِقُّ الوُجُودَ، ومِن جهته يَسْتَحِقُّ، فهو باطِلٌ بذاتِهِ، حَقٌّ بِغَيْرِهِ.

وعند هٰذا نَعرفُ الحقَّ المُطْلَقَ، الواجِدَ الحقيقيَّ بذاته الذي منه يأخذُ كل حقٍّ حَقيقَتَه، فإذن أحَقُّ الكائنات بأن يكون حَقّاً هو اللَّهُ تعالى، فإنه حقٌّ في نفسه، أي مطابِقٌ لِلمَعْلُوم أزلاً وأبداً، ومُطابَقَتُهُ لذاته لا لغيره، لا كالعِلْم بوُجود غَيْرِهِ، فإنه لا يكونُ، إلّا ما دامَ ذلِكَ الغَيْرُ مَوْجُوداً، فإذا عُدِمَ عادَ ذلك الاعتِقادُ باطِلاً، وذلك الاعتقادُ أيضاً لا يكونُ حَقّاً لذاتِ المُعْتَقَدِ؛ لأنه ليْسَ مَوْجُوداً لذاته، بل هو مَوْجُودٌ لغَيْرِهِ.

وقد يُطْلَقُ ذاك على الأقوال، فيُقالُ: قَوْلٌ حَقٌّ، وقَوْلٌ باطِلٌ، وعلى ذلكَ فَأَحَقُّ الأَقْوَالِ قولُ: (لا إِلٰهَ إِلّا اللَّهُ)؛ لأنه صادِقٌ أَبَداً وأَزلاً لذاتِه لا لِغَيْرِهِ.

فَأَحَقُّ الأشياءِ بأن يكونَ حقاً هو الذي يكونُ وُجودُهُ ثابِتاً لذاتِه أَزلاً وأَبداً، ومعرفته حَقّاً أَزلاً وأَبَداً، والشهادَةُ له حقاً أزلاً وأبداً، وكل ذلك لِذاتِ المَوْجُودِ الحقيقيّ لا لِغَيْرِهِ.

حَظُّ العَبْدِ مِن هٰذا الاسم

أن يرى نفسَهُ باطِلاً، ولا يَرَى غَيْرَ اللَّهِ حَقّاً، والعَبْدُ إنْ كَانَ حَقّاً فَلَيْسَ حَقّاً

بنفسه، بل هو حقٌّ باللَّهِ، فإنّه مَوْجُودٌ به لا بذاتِهِ، بَلْ هو بِذَاتِهِ باطِلٌ لَوْلا إيجادُ الحَقِّ له.

وأهل التَصوُّفُ لمَّا كان الغالِبُ عَلَيْهِم رُؤيَةُ فَناءِ أَنْفُسِهِم مِنْ حَيْثُ ذَاتِهِم، كان الجارِي على أَلْسِنَتِهِم من أسماءِ اللَّهِ تعالى في أكثر الأحوال (هُوَ الحَقُّ)؛ لأَنَّهم يَلْحَظُونَ الذاتَ الحقيقية دُون ما هو هالِكٌ في نفسه.

وأهلُ الكلام ـ أي علماء العقيدة ـ لمّا كانوا أَبْعَدَ في مَقامِ الاسْتِدْلال بالأَفْعَالِ كانَ الجارَي على لسانهم في الأكثر اسم (الباري) الذي هو بمعنى: الخالق.

وأكثرُ الخَلْقِ يَرَوْن كلَّ شيء سِوَاهُ، فَيَسْتَشْهِدُونَ عليه بما يرونه، وهم المُخاطَبُونَ بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: 185].

والصدِّيقون لا يَرَوْنَ شيئاً سِوَاهُ فَيَسْتَشْهِدُونَ به عليه، وهم المُخاطَبون بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

ويقولُ الإمامُ اللغويُّ مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: الحقُّ، هو المُوجِدُ حَقِيقَةً المُتَحَقَّقُ وُجُودُه وإلٰهيَّتُهُ، والحَقُّ ضِدُّ الباطِلِ.

ومنه الحديث المتفق عليه عند الشيخين البخاري ومسلم في «صحيحيهما» بسندهما إلى أبي سعيد الخدري: «**مَنْ رآني فَقَد رَأى الحَقَّ، فإنّ الشيطانَ لا يَتكَوَّنني**» أي رؤيا صادقةً، ليست من أضغاثِ الأحلام، وقيل: فقد رآني حقيقةً غيْرَ مُشَبَّهٍ). وفي لفظٍ لأنس: «**مَنْ رآني في المنام فقد رآني، فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّل بي، ورؤيا المُؤْمِنُ جزْءٌ مِن سِتّةٍ وأربعين جُزْءاً من النبُوّة**».

أثر هٰذا الاسم على العبد

إنَّ مَن عَلمَ أن اللَّهَ هو الحَقُّ، وأَنَّ ما سِواهُ باطِلٌ، خَضَعَ للحَقِّ وحْدَه وآمن به وتَمسَّكَ به حتى يَلقاه، مهما كانت أحوالُه في الدنيا، ومهما تكالب عليه

الأعداء، وجَعَلَ حياتَه كُلَّها على مُرادِ الحَقِّ، وصَرَفَها كلَّها في طاعتِهِ ونُصْرَةِ دِينِهِ، ولم يَغْتَرَّ بالباطِلِ ولو كثر في الأرض، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: 196 ـ 198].

74 ـــ النور

معناه

أي ظاهِر الوجود بما نَصَب سُبحانه من الدلائل على وجوده في كل شَيءٍ. فيَرجِعُ اسمُ النور إلى معنى: ظُهورِ وُجودِهِ، ببرهان البداهَةِ والعَقْلِ، كما أن النورَ ظاهِرٌ للعيون بدليل الحِسّ، وهذا أَحَدُ معاني هٰذا الاسم.

كما يحمِلُ معنى أنه هو المُظْهِرُ لِغَيْرِهِ، إذْ يُوجِدُ الأشياءَ مِنَ العَدَمِ، ويَكْشِفُ خباياها بِنُورِهِ للناظِرينَ، فَيَرْجِعُ إلى صِفَةٍ من صفات الأفعال.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، وقد ورد هٰذا الاسم في مَوْضِعٍ واحدٍ مِن القرآن الكريم، وهناك سورة فيه تسمّى: بسورة النور. كما ورد في الحديث الجامع لأسماء الله الحُسْنَى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمام حُجَّةُ الإسلام، وفيْلَسُوفُه أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المقصِد الأسْنَى في شرح الأسماءِ الحُسْنَى»: (النُور هو الظاهِرُ الذي به كلُّ ظُهورٍ، فإنّ الظاهِرَ في نفسه المُظهِرَ لغَيْرِهِ يُسَمَّى: نوراً.

ومهما قُوبِلَ الوجودُ بالعَدَم، كان الظهورُ لا مَحالَةَ للوُجُودِ، ولا ظَلامَ أَظْلَمَ مِنَ العَدَمِ، فالبَريءُ عن ظُلمَةِ العَدَم، بَلْ عَنْ إمكانِ العَدَم، والمُخْرِجُ كُلَّ الأشياءِ مِن ظُلْمَةِ العَدَمِ إلى ظُهورِ الوُجُودِ، جَديرٌ بأنْ يُسَمَّى نوراً.

والوجودُ نورٌ فائِضٌ على الأشياء كُلِّها مِن نور ذاتِه، فَهُوَ نورُ السَّمٰواتِ

والأرضِ، وكما أنه لا ذرّة مِن نُورِ الشَمْسِ، إلّا وهي دالَّةٌ على وُجودِ الشَمسِ المُنَوَّرَة، فَلَا ذَرَّةَ مِنْ مَوْجُودَاتِ السَّمٰواتِ والأرضِ، وما بينهما، إلا وهي بجِوارِ وُجودِها دالَّةٌ على وُجوبِ وجود مُوجِدِها.

ومعنى الظاهِرِ يُفْهِمُكَ معنى النور أيضاً). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المحدّثُ اللغويُّ مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: النورُ، هو الذي يُبْصِرُ بِنُورِهِ ذو العَمَايَةِ، ويُرْشُدُ بهداه ذُو الغَوايَةِ، وقيلَ: هو الظاهِرُ الذي به كلُّ ظُهورٍ، فالظاهِرُ في نفسه المُظْهِرُ لغيره يُسَمَّى: نوراً.

ومنه الحديثُ الذي أخرجه الإمامُ مُسْلِمٌ في كتاب الإيمان من «صحيحه» باب في قوله عليه السلام: نُورٌ أَنَّى أراه، الحديث (442)، قال ابن شقيق لأبي ذرٍّ الغِفَارِيِّ: لَوْ رَأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ كنتُ أسألُهُ: هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: قد سألتُه فقال: **«نُورٌ أنّى أراه؟»**، قال الإمام النوويّ: النورُ جِسْمٌ وَعَرَضٌ، والبارِي جلَّ وعَزَّ ليس بجسم ولا عَرَض، وإنما المُرادُ: أنّ حِجابَهُ النورُ فكيف أراه؟ وكذا رُوِيَ في حديث أبي موسى الأشعري عند الإمام مسلم: **«حجابُه النورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بَصَرُه مِنْ خَلْقِهِ»**، وقال الإمام أبو عبد الله المازِرِيّ: معناه أن النورَ مَنَعَنِي من الرُؤْيَة كما جَرَتِ العادَةِ بإغشاءِ الأنوارِ الأَبْصَارَ، ومنْعَها مِن إدراك ما حالَتْ بين الرائي وبينَه.

وفي حديث الدُعاء الذي أخرجه الإمام مُسْلِمٌ في كتاب صلاة المسافرين من «صحيحه»، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (الحديث (1785): **«اللهمَّ اجْعَلْ في قَلْبِي نوراً، وفي بَصَري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يَميني نوراً، وعَن يَسَارِي نوراً، وفَوْقِي نوراً، وتَحْتِي نوراً، وأمامي نوراً وخَلْفِي نوراً وعَظِّم لِي نوراً»**، أراد ضِياءَ الحقّ وبيانَه، كأنه قال: اللَّهم اسْتَعْمِلِ هٰذه الأعضاء مِنِّي في الحقّ، واجْعَلْ تَصَرُّفي وتَقَلُّبي فيها على سَبيل الصواب والخير.

أقوال المُفسِّرين

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا

مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35].

قال علي بنُ أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يقول: هادي السمٰوات والأرض. وأخرج ابن جرير الطبري، عن أنس بن مالك: إنَّ اللَّهَ يقولُ: نُورِي هُدًى، واختاره ابن جرير. وعن أُبَيِّ بن كَعْب في هٰذه الآية، قال: هو المُؤْمِنُ الذي جعَلَ اللَّهُ الإيمانَ والقرآنَ في صَدْرِهِ، فَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلَهُ فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فبدأ بِنُورِ نفسه، ثم ذكرَ نور المؤمِن، فقال: مَثَلُ نُورِ مَن آمَن به. وقرأ بعضَهُم: اللَّهُ مُنَوِّرُ السمٰوات والأرض. وقال الضحّاك: اللَّهُ نَوَّرَ السمٰوات والأرض. وقال السُدِّيُّ: فَبِنُورِهِ أضاءَت السمٰواتُ والأرضُ. وفي الحديث الذي أخرجَه ابن إسحاق في «السيرة» أن رسولَ اللَّهِ ﷺ، قال في دُعَائِهِ يومَ آذاهُ أهلُ الطائِف: «**أعوذُ بِنُور وَجْهِكَ الذي أشْرَقَتْ به الظلمات، وصَلَحَ عليه أَمْرُ الدُنيا والآخِرَة أنْ يَحِلَّ بِي غَضَبُكَ أو يَنْزِلَ بي سَخَطُكَ، لك العُتْبَى حتى تَرْضَى، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللَّهِ**».

وفي «الصحيحَيْن»، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ، إذا قَامَ مِن الليلِ يَقولُ: «**اللهمَّ لك الحَمْدُ، أنتَ نور السمٰواتِ والأرض ومَن فِيهنَّ، ولك الحَمْدُ أنتَ قيُومُ السمٰواتِ والأرضِ ومَن فيهنّ**». وعن ابن مسعود قال: إن ربَّكم لَيسَ عنده لَيْلٌ ولا نهارٌ، نورُ العَرْشِ مِن نور وجهه.

أثر هذا الاسم على العبد

إن مَن عَلِمَ أن الله هو النُورُ، آمَن به دون شَكّ أو رَيبَة؛ لأن آياتِهِ ظاهرة باهرة في الأكوان، لكلِ ذي بصيرةٍ أراد أن يُبْصِرَ النور، وفتح عينيه وبحث عن الحقّ، ولم تنطَمِسْ بَصيرَتُه بظُلُماتِ الكِبْر والهَوَى والشَهْوَات والأنانية البغيضة، ولم يَنْحَجِبْ قَلْبُه بِرَانِ المَعاصِي، ولم تَتَشَوَّه فِطْرَتُه السَّليمةُ بأمراض الشكوك والأوهام والخيالات والرِيَب، وأعمى عَيْنَيْه، عن نور الحقّ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ

بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179].

75 ـــ الظاهِرُ

معناه

أي الظاهِرُ وُجودُه وكمالُ صِفاته، بما بَثَّ مِنَ الأدِلَّةِ والبراهين في مخلوقاته على وُجودِهِ، فَما مِن شيء إلّا وهو يَحْمِلُ آياتِ وُجودِهِ سبحانَه، ودلائِلَ قُدْرَتِهِ وعلمه، وطائفَةً من صفاتِهِ البالغةِ ذُروَةَ الكمال.

والظاهِرُ أيضاً: العَالِي الذي لا شَيْءَ فوقه. قال اللَّهُ تعالى مُشِيراً إلى اسمه الظاهر: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٣﴾﴾ [الحديد: 3]، وجاء هذا الاسم في الحديث الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى، الذي رواه أبو هريرة ﷺ، وأخرجه الإمامان الترمذي، وابن ماجه في سننهما، والإمام البيهقي في كتابه: «الدعوات».

وأخرج الإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم، الحديث (2713)، عن أبي هريرة ﷺ، قال: كان رسولُ الله ﷺ يأمُرُنا إذا أخذنا مَضْجَعَنا أن نقولَ: «**اللهمّ ربَّ السمٰوات وربَّ الأرض وربَّ العرش العظيم... اللهمَّ أنت الأولُ فليس قبلك شيء، وأنتَ الآخِرُ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهِرُ فليس فوقَكَ شَيْءٍ، وأنت الباطِنُ فليس دونَك شيء...**». قال الإمام النووي: (الظاهرُ مِن الظهور بِمَعْنَى الغلبة، والقهر، وكمال القدرة، ومنه: ظهر فلان على فلان، وقيل: الظاهر بالدلائل القطعية).

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقصِدُ الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى»: (الظاهِرُ ما لا يُتمارَى فيه، ولا يَخْتَلِفُ الناسُ في إدرَاكِه، وكثيرٌ من الخَلْقِ يرتابون في الخالق فكيف يكونُ ظاهراً؟.

فليُعْلَمْ أنه سبحانه وتعالى إنّما خَفِيَ مع ظهورِهِ لشِدَّةِ ظُهورِهِ، وظُهُورُهُ سَبَبَ

بُطونِهِ ونورُهُ هو حِجَابُ نُورِهِ! ولعلّك تتعجَّب مِن هٰذا الكلام وتَسْتَبْعِدُه، ولا تَفْهَمه إلا بِمِثالٍ فأقول: لو رأيتَ كلمةً مَكتوبَةً يَحْصُلُ لك يَقينٌ قاطِعٌ بِوُجُودِ كاتِبٍ لها، عالمٍ قادِرٍ سَمِيعٍ بَصِيرٍ حَيٍّ، ولَمْ تَدُلَّ عليه إلّا صُورَةُ كَلِمَةٍ واحِدَة.

وكما شَهِدَتْ هٰذه الكلمةُ شهادَةً قاطِعَةً بصِفاتِ الكاتِبِ، فما مِنْ ذَرَّةٍ في السَّمٰواتِ والأَرْضِ: مِنْ فلكٍ وكَوْكَبٍ، وشَمْسٍ، وقَمَرٍ، وحَيَوانٍ، ونَباتٍ، وَصِفَةٍ ومَوْصُوفٍ، إلّا وهي شاهِدَةٌ على نفسها بالحاجَةِ إلى مُدَبِّرٍ دَبَّرَها وقَدَّرَها، وخَصَّصَها بِخُصُوصِ صِفاتِها. بل لا يَنْظُرُ الإنسان إلى عُضْوٍ مِن أَعْضاءِ نفسه وَجُزْءٍ مِن أَجْزَائِهِ ظاهِراً وباطِناً، بل إلى صِفةٍ مِن صفاتِه، وحالَةٍ مِن حالاتِهِ التي تَجْرِي عليه قَهْراً بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، إلّا ورآها ناطِقَةً بالشهادَةِ لخالقها وقاهِرِها ومُدَبِّرِها، كذلك كلُّ ما يُدْرِكُهُ بجميع حَوَاسِّه في ذاتِه وخارِجاً مِن ذاته.

ولو كانَتِ الأشياءُ مُخْتَلِفَةً في الشهادَةِ: يَشْهَدُ بعضُها، ولا يَشْهَدُ بعضُها لكان اليَقينُ حاصلاً للجَميع، ولكن لمّا كَثُرَتِ الشهاداتُ حتّى اتَّفَقَت خَفِيَتْ وغَمُضَت لِشِدَّة الظُهورِ ومثالُه: أَنَّ أَظْهَرَ الأشياءِ ما يُدْرَكُ بالحَواسِّ، وأَظْهَرُهَا ما يُدْرَكُ بحاسَّةِ البَصَرِ، فأظْهَرُ ما يُدْرَكُ بحاسَّةِ البَصَرِ نورُ الشَمْسِ المُشْرِقُ على الأَجْسَام الذي بِهِ يَظْهَرُ كُلُّ شَيْءٍ. فما به يُظْهِرُ كلُّ شيءٍ كَيْفَ لا يكونُ ظاهِراً؟!) قال الشاعِرُ:

ما ضَرَّ ضوءَ الشمسِ ألاّ يراها ... مَن كان في إبصاره الرَمداءُ

(ولو تصوَّرنا مثلاً لِلّهِ تعالى وتقدَّس عَدَمٌ أو غَيْبَة عن بَعْضِ الأُمُورِ، لانْهَدَمَتْ السمٰواتُ والأرضُ، وكُلُّ ما انْقَطَعَ نُورُهُ عنه، ولأَدْرَكْتَ التَفْرِقَةَ بَيْنَ الحالَتَيْنِ، وعَلِمْتَ وُجُودَها قطعاً، ولكن لمّا كانت الأشياءُ كلُّها مُتَّفِقَةً في الشهادَةِ، والأحوالُ كلُّها مُطَّرِدَةٌ على نَسَقٍ واحِدٍ، كان ذلك سَبَباً لخفائِه.

فَسُبْحَانَ مَن احْتَجَبَ عن الخلقِ بِنُورِهِ، وخَفِيَ عليهم بِشِدَّة ظُهورِهِ، فهو الظاهِرُ الذي لا أظهرَ منه). قال الشاعر:

ولَيْسَ يصحُّ في الأَذْهَانِ شَيءٌ ... إذا احْتَاجَ النهارُ إلى دليل

ويقولُ الإمام المحدّث اللغوي مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن

محمد ابن الأثير الجزري في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللّٰهِ تعالى الظاهر، هو الذي ظَهَرَ فَوْقَ كُلِّ شيءٍ وعَلا عليه، وقيلَ: هو الذي عُرِفَ بِطُرُقِ الاستدلالِ العَقْلِيّ بما ظهر لَهُمْ مِن آثار أفعالِهِ وأوصافِهِ.

ومنه صَلاةُ الظُهْر، وهو اسمٌ لنِصْفِ النهارِ، سُمِّيَ به؛ لأنه أظهر أوقاتِ الصلاةِ للإبْصَارِ. وقِيلَ: لأنها أوّلُ صَلاةٍ أُظْهِرَتْ وصُلِّيَتْ.

وأخْرَجَ البخاريُّ في كتاب النفقاتِ من «صحيحه» في باب وُجوبِ النَفَقَةِ على الأَهْلِ والعِيالِ الحديث (5356): «**خَيْرُ الصَدَقَةِ ما كان عَن ظَهْرِ غِنًى**» أي ما كان عَفْواً قد فَضَلَ عَن غِنَى. وقيل: أراد ما فَضَلَ عن العِيالِ. والظَهْرُ قد يُزادُ في مِثلِ هٰذا إشْباعاً لِلْكَلامِ وتمْكِيناً، كأنَّ صَدَقَتَهُ مُسْتَنِدَةٌ إلى ظَهْرٍ قَوِيٍّ مِنَ المالِ).

أقوال المُفسِّرين

قال اللّٰهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: 32، 33]، يقولُ تعالى: يريدُ هٰؤلاء الكفار من المشركينَ وأهلِ الكتاب ﴿أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ﴾، أي ما بُعِثَ به رسولُ الله ﷺ من الهُدَى ودِينِ الحَقّ، بمجرّد جِدالهم وافترائهم، فَمَثَلُهُمْ في ذلك كَمَثَلِ مَنْ يُريدُ أنْ يُطْفِىء شُعَاعَ الشمسِ بنَفْخِه عليها، وهٰذا لا سبيل إليه، فكذلكَ ما أُرسِلَ به رسولُ اللّٰهِ ﷺ لا بُدَّ أن يَتِمَّ ويَظهَرَ، ولهٰذا قال تعالى مُقابِلاً لهُم فيما أرادوه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، فالهُدَى هو ما جاءَ به من الإخبارات الصادِقَة والإيمانِ الصَحيح والعِلم النافع ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو الإسلام وما جاء به من الاعتقادات الصحيحة بالله والأعمال الصَحيحة الصالحة النافِعَةِ في الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، أي على سائِر الأديان كما ثبت في «الصحيح»، عن رسولِ اللّٰهِ ﷺ: «**إن اللّٰهَ زَوَى ليَ الأرضَ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتي ما زُوِيَ لي منها**»، وأخرج الإمامُ أحمد في «مسنده»، عن تميم الداري رضي الله عنه، قال سمعتُ رسول اللّٰهِ ﷺ يقولُ: «**لَيَبْلُغَنَّ هٰذا**

الأمرُ» ـ أي دِينُ الإسلام ـ «**ما بَلَغَ الليلُ والنهار**» ـ أي سَيَصل إلى الشرق والغرب ـ «**ولا يترك اللَّهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، إلاّ أدخلهُ اللَّهُ هٰذا الدينَ، بِعِزِّ عزيزٍ، أو بِذُلِّ ذَليلٍ، عِزّاً يُعِزُّ الله به الإسلامِ، وذلاً يُذِلُّ الله به الكفرَ**».

76 ــ الباطِنُ

معناه

أي هو الباطِنُ بحقيقة ذاته، إذ تعجز العُقولُ والحواسُّ بمقتضى تكوينها عن إدراك حقيقته جلَّ وعلا؛ لأن الحواسَّ والعُقولَ صغيرة مَحْدُودَة، واللَّهُ سبحانه وتعالى كَبيرٌ لا حدَّ له.

قال تعالى مشيراً إلى اسمه الباطن: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: 3].

وثبت في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء من «صحيحه» باب ما يقول عند النوم، الحديث: (2713)، عن أبي هريرة ﷺ: «**اللهمَّ أنتَ الأوَّلُ فليس قبلكَ شيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فَليس بَعْدَك شيء، وأنتَ الظاهِرُ فليس فوقك شيء، وأنت الباطِنُ فليس دونكَ شيء**»، قال الإمام النووي في شرحه: (الباطِنُ: المُحْتَجِبُ عن خَلْقِهِ. وقيل: العالِمُ بالخَفِيّات). وعليه فقد يكون معنى الباطِنِ: أنه أقربُ إلى كل شيءٍ مِن نفسه، بعلمه وقدرته.

أقوال العلماء في تفسيره

قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في كتابه: «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى»: (الظاهر والباطِنُ هذان الوَصْفَانِ من المضافات إلى شيء، فإن الظاهِرَ يكون ظاهِراً لشيء، وباطِناً لشيء، ولا يكونُ مِن وَجْهٍ واحد ظاهِراً وباطناً، بل يكون ظاهِراً مِن وجْهٍ واحِدٍ بالإضافة إلى إدراك، وباطِناً مِن وجه آخر، فإن الظهورَ والبُطونَ إنما طُلِبَ مِن إدراك الحواس وخزانة الخيال، ظاهِرٌ إن طُلب من خِزانة العقل بِطَرِيقِ الاستدلال، وكونه باطناً بالإضافة إلى إدراك الحواس فأمر واضح).

وقال الإمام المحدّث اللغوي مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد بن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: الباطن، هو المُحْتَجِبُ عن أبْصارِ الخلائِقِ وأوهامهم، فلا يُدْرِكُه بَصَرٌ ولا يُحيطُ به وَهْمٌ. وقيل: هو العالِمُ بما بَطَنَ. يُقالُ: بَطَنْتُ الأَمْرَ إذا عرفتَ باطِنَهُ).

وفيه الحديث الذي أخرجه الإمام البخاريُّ في كتاب الأحكام من «صحيحه» بابُ بِطانَة الإمام وأهل شورته، الحديث: (7198): «ما بعث الله نبياً ولا استخلف من خليفة إلا كان له بِطانَتانِ: بِطانَةٌ تأمره بالمَعْروف وتَحُضُّهُ عليه، وبِطانَةٌ تأْمُرُهُ بالشَّرِّ وتَحُضُّهُ عليه، فالمَعْصُومُ مَن عَصَمَ اللَّهُ تعالى». قال الإمام البُخارِيُّ: البَطانَةُ: الدُخَلاءُ، وهو قول أبي عُبَيْدَة معمر بن المثنى اللغوي. والدُخَلاءُ جَمْع دَخِيلٍ: هو الذي يَدْخُل على الرئيس في مكان خلوته ويُفْضِي إليه بِسِرِّه ويُصَدِّقُهُ فيما يُخْبِرُهُ به مِمّا يَخْفَى عليه مِن أمْرِ رَعِيَّتِهِ ويَعْمَلُ بِمُقْتَضاهُ. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: 118، 119] وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي مِن غيركم مِن اليَهود والنصارَى والمُنافِقين.

فَعَلَى الإمام المسلم، كما أَمَرَ اللَّهُ تعالى في هٰذه الآية، أن لا يَتَّخذ مُسْتَشارِينَ غير مُسْلِمين، وغير مؤمنين، بل وغير صالحين من المؤمنين، وقد ختم اللَّهُ تعالى الآية الأولى بِقَوْله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فالعذابُ لا يكون إلا بَعْد بَيانٍ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إنَّ العاقِلَ هو الذي لا يَفْعَل خِلافَ ما يأمُره اللَّهُ به من اتّخاذ، الأَعْدَاء والكَفَرَة أولياء ومستشارين وأعواناً في الحكم؛ لأنهم كما بيَّن اللَّهُ لنا: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي تمنوا عنتكم وهو شدّة الضرر، وهم أيضاً ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصّرون في إفْسَادِكم وإضْعَافِكم، فَمَنْ خالفَ أَمْرَ اللَّهِ واتَّخذ بِطانَةً، أي مستشارين وأعواناً مِن غير المسلمين، فهو غير عاقل؛ لأنه

سَيَجُرُّ نفسه إلى غَضَبِ اللَّهِ ومَقْتِهِ، وسَيَجُرُّ المُسْلِمين الذين هم رعيّته إلى الفساد والضعف، وهو فعلٌ لا يفعله عاقِل، والعَقْلُ: الفَهْمُ، وقد اختصّ اللَّهُ به جنسَ الإنسانِ مِن بين سائر المخلوقات، كالجمادات والحيوانات، فَمَن عَطَّله انْحطَّ عن رُتْبَتِهِ التي خلقه اللَّهُ عليها، والعاقِلُ هو الذي يَفْهَمُ عَنِ اللَّهِ أَوامِرَه ويَعْقِلُها؛ لأن فيها مصلحته الدنيوية وسَعادَته الأُخْرَوِيَّة. وقد نهى اللَّه تعالى عن مُوالاة الكُفَّارِ ومصاحبتهم ومُؤاخاتهم ومعاشرتهم، والانضمام إلى جمعّياتهم وأحزابهم ومؤسساتهم ومحافلهم ومدارسهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: 51، 52].

أقوال المفسرين

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: 1 ـ 3] يُخبر تعالى أنه يُسَبِّحُ له ما في السمٰواتِ والأرضِ، أي مِن الحيوانات والنباتات ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الذي خَضَعَ له كُلُّ شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقهِ وأمْره وشرعه ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي هو المالِكُ المُتَصَرِّفُ في خَلْقِهِ فَيُحْيي ويُميتُ ويُعْطِي مَن يَشاءُ ما شَاءَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يكن. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾. أخرج الإمام أحمد في «مسنده»، عن العِرْباضِ بن ساريةَ ﷺ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ كان يقرأ المُسَبِّحاتِ قَبْل أنْ يَرْقُدَ وقال: «**إنّ فيهنّ آية أفضلُ مِن ألف آية**»، قال ابن كثير: والآيَةُ المُشارُ إليها في الحديث هي واللَّهُ أعلمُ هٰذه الآية. وأخرج أبو داود بسنده إلى أبي زميل، قال سألْتُ ابن عبَّاس فقلتُ: ما شيءٌ أجِدُه في صَدْرِي؟ قال: ما هو؟ قلتُ: واللَّهِ لا أتكلَّمُ به. فقال لي: أشَيءٌ مِن شَكٍّ؟ قال وضَحِكَ قال: ما نجا من ذلك أحَدٌ قال: حتى أنزل اللَّهُ تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ

مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: 94] الآية، قال: وقال لي: إذا وَجدْتَ في نَفْسِكَ شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٣﴾﴾. قال البخاري: قال يحيىٰ بن زياد الفرّاء: الظَاهِرُ على كل شيء عِلماً، والباطِنُ على كل شيء علماً.

الأسماء الحسنى المتعلّقة بصفة القِدَم

بعد أن ذكرنا الأسماء الحسنى المتعلّقة بصفة الوجود، ننتقل إلى الكلام عن الأسماء الحُسْنَى المتعلّقة بصفة القِدَم.

لما كانت الحوادِثُ ذاتَ بَداءَة تُحْوِجُها إلى سَبَب يوجِدُها فاللَّهُ سُبْحَانَهُ لا بداءَة له، جاء في المأثور من أسماء اللَّهِ الحسنى. (الأول، النور، الظاهر). ولا شيء قبله ومعه، أي إنه لا ابتداء لوجودُه.

77 ـــ الأَوّلُ

قال اللَّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: 3]. وقد ورد هذا الاسم الكريم في القرآن الكريم في موضع واحد فقط، هو هذا. وثبت في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلمٌ في كتاب الذكر والدعاء مِن «صحيحه»، باب ما يقول عند النوم، الحديث (2713)، عن أبي هريرة ﷺ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يأمُرُنا إذا أخذنا مَضْجَعَنا أَنْ نَقُولَ: «**اللَّهُمَّ أنتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بعدك شَيْءٌ...**». وأخرج البخاري في كتاب بدء الخلق من «صحيحه»، أن النبي ﷺ قال: «**كان اللَّهِ ولم يكن شيءٌ غيرَه**».

أقوال العلماء

قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى» (الأَوَّلُ يكون أوّلاً بالإضافة إلى شيء، وإذا نظرت إلى ترتيب الوجود، ولاحظتَ سلسلة المَوْجُوداتِ المُرَتَّبَة، فاللَّهُ تعالى بالإضافة إليها أوّل، إذْ المَوْجُودات كلُّها استفادَت الوُجودَ منه، وأما هو فمَوْجُودٌ بذاته، وما استفاد الوُجُودَ مِن غيرِه. فمنه المبْدَأ أولاً).

تعدّد معاني القِدَم

يُطلق القِدَم ويُراد به ثلاثة معاني: القِدَم الزماني، والإضافي، والذاتي.

أما القِدَم الزماني: فهو طولُ المدّة، يُقال: هٰذا بِناءٌ قديم، أي مضى عليه زمان طويل منذ وجوده، وهذا المعنى لا يليق إطلاقُه على الخالق سبحانه؛ لأنه خالق الزمان، ووجوده ثابت قبل أن يخلق الزمان، فمحال أن يجري عليه الزمان.

وأما القِدَمُ الإضافيّ: فهو سبق شيءٍ في الوجود لشيء آخر، ومثاله قِدَم الأب بالنسبة للابن، ولا يجوز إطلاقه على اللّٰهِ أيضاً لقياسه على مخلوقاته.

وأما المعنى الذي يجوز إطلاقه على الله فهو القِدَمُ الذاتي، أي عدم افتتاح الوجود، أو عدم الأولية للوجود، فهو سبحانه قديم ليس قبله شيء ولا ابتداء لوجوده، أزلي.

موقف العقل من هٰذا الاسم

إن جميعَ مدارك الإنسان إنما هي وليدة تَصَوُّراتِه، والتصوّرات إنما تتجمع في الذهن عن طريق نوافذ أوجدها الله للمعرفة داخل الإنسان يُطِلُّ منها على الحياة الخارجية عنه، وهي الحواس الخمس، وهٰذه الحواسّ التي هي مداخل المعرفة محدودة عند الإنسان، كمّاً وكيفاً.

فمن حيث الكمّ هي خمس فقط ولم يزوّده اللّٰهِ بأجهزة أخرى، كجهاز قياس الحرارة مثلاً (الترمومتر)، أو جهاز قياس الضغط الجوّي، أو جهاز اكتشاف الماء في باطن الأرض، أو المعادن كالذهب مثلاً.

ومن حيث الكيف، فإن أجهزة الحسّ مَحْدُودةٌ بحدود معينة لا تحسّ إلا ضمنها، ولا يمكنها الإحساس خارج هٰذه الحدود، فالعَيْنُ مثلاً لا تبصر في الظلام، ويلزمها الضوء للمكان حتى تبصره، كذلك فهناك حدود للأجسام حتى تبصرها، فهي مثلاً لا تبصر الجراثيم والميكروبات والأشياء المتناهية في الصغر، والتي ترى بالمجاهر (المكروسكوبات)، وأيضاً فهي تبصر الأشياء القريبة، وكلما ابتعد المرئي عنها تصاغر حتى لا تعود تراه، بينما يمكن رؤيته بالمناظير الكبيرة

(التلسكوبات) المُقَرِّبة للأشياء البعيدة، أو (المناظير) العسكرية فحاسة الإبصار إذن محدودة جداً عند الإنسان.

وكذلك الأُذن، فهي تسمع بحدود ضيّقة جداً الأصوات من حولها، ولكن أثبت العلم أن هناك في الجوّ ملايين الأصوات لا تلتقطها أذنُ الإنسان، ويمكن لأجهزة (اللاسلكي)، أو (الراديو) التقاطها، فحاسة السمع أيضاً محدودة جداً عند الإنسان، وقس على هذا سائر الحواسّ الخمس عند الإنسان.

وكذلك عقل الإنسان محدود، بحدود ما تقدمه له الحواس، وأيضاً فهو لا يُدرك الأشياء، إلا إذا عرف أبعادها الزمانية والمكانية، فإذا أراد التعرّف على شيء وجب أن يتصوّر له زماناً ومكاناً وشكلاً، وبدون هذه الأبعاد لا يستطيع أن يدرك الأشياء.

فالطاقة الفكرية في الإنسان محدودة إذن، والإنسان لا يعقل من المجرّدات، إلّا ما كان له مقاييس ونماذج حِسِّيَّة في ذهنه، فما لم يَسْبِق له في ذهنه أي نموذج أو مقياس، فإن مِن المُحال بالنسبة إليه أن يتصوّره ويدركه.

وعلى هذا فإن مِن السهل علينا أن نفهم صفة الرحمة في ذات اللّهِ تعالى؛ لأننا نحتفظ في ذهننا بتصوّرات لمعانيها وآثارها، ومِن السهل علينا أن نتصوّر له صفة العدل؛ لأنها تعود إلى مَعانٍ توجد في ذهننا صُوَر لها، وإن كانت هٰذه الصفات مختلفة في ذاته تعالى عنها في ذوات المخلوقين.

أما إذا قيل: إنه أَزَلِيّ أبدي لا يَحُدُّه زمان ولا مكان، فهذا ما لا يستطيع الإنسان أن يتخيّله؛ لأنه لا يحتفظ في ذهنه بأي معنى لهذه الصفة لكونها صفة خاصّة بذاته تعالى، فإذا قيل له: إن الله سبحانه وتعالى قديمٌ لا أوّل له، لا يستطيع أن يتخيّل ذلك؛ لأنه معنى طارىء على مخيّلته لم تسبقه رؤية لحقيقته أو ممارسة له بذاته.

غير أن من السهل أن نؤمِن بقِدَم الله تعالى وبقائِه، إيماناً جازماً بعد أن ثبت ذلك بالأدلّة القاطعة، وإن كلّت عقولنا عن تصوّر هٰذا المعنى وإدراكه، ذلك لأن من الحقائق المتّفق عليها عند أولي العقل والتفكير السديد، أن ما يجهله العقلُ لا

يعني أنه معدوم وأن ما لا يستطيع البشرُ إدراكَه والوقوفَ على حقيقة أمره لا يَصْدُقُ عليه أنه غير مَوْجود؛ أي إن هناك فرقاً بين أن يحكمَ العَقلُ باستحالة شيء وبين أن يُعلن عجزه عن فهم شيء، فالتصوّر غير التعقّل، والعِبْرَةُ لقُدرة العَقل على التَعقّل، ولا عِبْرَة لعجزه عن التصوّر.

إن الحَيْرَةَ أمام الغيبات ضرورة ناتجة عن كون العقل مَحْدوداً، وكيف يمكن للمحدود أن يحيط بالكامل المُطلَق غير المحدود، ولو أمكن هٰذا لكان العقلُ أكبرَ إحاطةً بالأَشياءِ مِن إحاطَةِ خالقها بها، وذلك غير معقول؛ لأنه يقتضي عدمَ ألوهية الخالق، تلك هي حقيقة الإيمان بالغيب الذي أمر اللَّهُ تعالى عباده به، وهو أن يؤمنوا بما غاب عن محسوساتهم وعقولهم مِن حيث التحديد والتكييف لهٰذا الغيب، وينقادوا خاضعين لأمر الله ويستسلموا بوجدانهم ومشاعرهم لله، فيُريحوا أنفسهم مِن عناء التكلّف بما لا يقوى العقلُ البَشَرِيّ على إدراكه.

الأسماء المتعلقة بصفة البقاء

بعد أن ذكرنا أسماء اللَّهِ الحسنى المتعلّقة بصفة القدم، ننتقل للكلام عن الأسماء المتعلقة بصفة البقاء وهي ثلاثة (الآخر، والباقي، والوارث) وسنشرح هذه الأسماء واحداً واحداً.

78 ــ الآخر

معناه

الآخر هو الذي ليْسَ بَعْدَه شيء، ولا آخِرَ لوجوده، والباقي إلى ما لا نهاية. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: 3]. وقد ورد هٰذا الاسم في موضع واحد من القرآن الكريم فقط، هو هٰذا. وجاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدُعاء من «صحيحه»، باب ما يقول عند النوم، الحديث (2713) عن أبي هريرة ﷺ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ أمَرُنا إذا أخذنا مَضجَعَنا أَنْ نقولَ: «**اللهمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنتَ الآخِرُ فليس بَعْدَكَ شيء**...».

أقوال العلماء

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى»: (الآخِرُ يكُونُ آخِراً بالإضافة إلى شيء، والأَوَّلُ والآخِرُ متناقضان، فلا يُتَصَوَّرُ أن يكون الشيءُ الواحِدُ مِنْ وَجْهٍ واحِدٍ، بالإضافة إلى شيءٍ واحد أولاً وآخِراً جميعاً، بل إذا نظرتَ إلى ترتيب الوجود، ولاحظتَ سلسلة الموجودات المُرَتَّبَة فاللَّهُ تعالى بالإضافة إليها أوَّلُ، إذْ المَوْجُودَات كلّها استفادَت الوُجُودَ منه، وأمّا هو فمَوْجُودٌ بذاته، لم يَسْتَفِدْ الوُجودَ مِن غيره.

ومهما نظرتَ إلى ترتيب السلوك، ولاحظتَ مراتِبَ منازِلِ السائِرِينَ إليه، فهو آخِرُ ما يَرْقَى إليه درجاتُ العارِفينَ، وكل مَعْرِفَةٍ تحصُل قبل معرفته، فهي مِرْقاةٌ إلى معرفته، والمَنْزِلُ الأقصى هو معرِفَةُ اللَّهِ تعالى، فهو آخِرٌ بالإضافةِ إلى السلوك، أوَّلٌ بالإضافة إلى الوجود، فمنه المَبْدأُ أولاً، وإليه المَرْجِعُ والمَصِيرُ آخِراً). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء اللَّهِ تعالى: الآخر، وهو الباقي بعد فناء خلقه كلّه ناطِقِهِ وصامِتِه.

أقوال المفسرين

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: 88].

أي لا تَليقُ العِبادَةُ إلّا له، ولا تنبغي الإلٰهيّة إلّا لِعَظَمَتِهِ. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيّومُ الذي تموتُ الخلائِقُ ولا يموتُ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: 26، 27]، فَعَبَّرَ بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هٰهنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، أي إلّا إيّاه. وقد ثبت في «الصحيح»، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أصدق كلمة قالها الشاعِرُ لبيد:**

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ ما خَلاَ اللهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحالَةَ زَائِلُ

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي إلّا ما أريد به وجهه.

وحكاه البخاري في «صحيحه» كالمقرر له. قال ابن جرير: ويُسْتشهد من ذلك بقول الشاعر:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذنباً لَسْتُ مُحْصِيهِ رَبَّ العِبادِ إليه الوَجْهُ والعَمَلُ

وهٰذا القولُ لا يُنافي القولَ الأول، فإنّ هٰذا إخْبارٌ عن كل الأعمال بأنّها

باطِلَةٌ إلّا ما أريدَ به وَجْهُ اللَّهِ تعالى مِنَ الأعمالِ الصالحة المطابِقَةِ للشريعة، والقَوْلُ الأولُ مُقْتَضاهُ أن كلَّ الذواتِ فَانِيَةٌ وزائِلَةٌ إلّا ذاتَه تعالى وتقدَّس، فإنه الأَوَّلُ الآخِرُ الذي هو قبلَ كلِّ شيءٍ وبَعْدَ كُلِّ شيءٍ.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدُنْيا في كتاب: «التفكُّر والاعتبار» بسنده إلى أبي الوليد قال: كان ابنُ عُمَر إذا أرادَ أن يتعاهَدَ قَلْبَهُ يأتي الخَرِبَةَ فَيَقِفُ على بابها فُينادِي بِصَوْتٍ حَزين فيقولُ: أينَ أَهْلُكِ؟ ثم يَرْجِعُ إلى نفسه فيقولُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي الملكُ والتصرُّفَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي يومَ مَعادِكُم فَيَجْزيكم بأعمالِكم إن كان خيراً فَخَيْرٌ، وإنْ شَرّاً فشَرٌّ.

وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: 26، 27]، فيخبر تعالى أن جميعَ أهْل الأرضِ سَيَذْهَبُونَ ويَمُوتُون أجمعون وكذلك أهْلُ السمٰوات، إلّا مَن شاءَ اللَّهُ ولا يبقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهِهِ الكريم، فإنّ الربّ تعالى وتقدَّس لا يموتُ، بل هو الحيُّ الذي لا يموتُ أبداً. قال قتادَة: (أنبأ ربُنا بما خَلَقَ، ثمّ أنبأ أنّ كُلَّ ذلكَ فانٍ). وفي الدعاء المأثور: (يا حيُّ يا قيّومُ يا بديع السمٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إلٰه إلّا أنت برحمتِكَ نستغيث أَصْلِحْ لنا شأننا كلَّه، ولا تكِلْنَا إلى أنْفُسِنا طَرْفَةَ عَيْن ولا إلى أحَدٍ مِن خَلْقِكَ).

وقال الشَعْبِيُ: إذا قرأتَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ فلا تسْكُتْ حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾، وقد نَعَتَ تعالى وجهه الكريمَ في هٰذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي هو أهلٌ أن يُجَلَّ فلا يُعْصَى، وأن يُطاعَ فلا يخالَف.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن مَن علم أن اللّهَ هو الآخر الباقي الذي ليس لآخره وجود، الخالد الأبدي لا يلحقه فناءٌ ولا عدم آمن به، وتمسَّك بطاعته، وقطع صِلَتِهِ بما سواه من الموجودات الفانية الزائلة، كالمال والزوجة والأولاد، والعشيرة والأهل والتجارات، وعلق قلبه بالباقي الحي الذي لا يموت؛ لأنه وحده هو الحق، وما

سواه باطل، وقدم لمولاه العبادة والطاعة.

79 ـــ الباقي

معناه

هو الدائِمُ الوُجودِ الذي لا يَقْبَلُ الفَنَاءَ ولا يَلْحَقُهُ العَدَمُ، فلا بِدايَةَ لِوُجُودِهِ ولا نهاية له. قال اللّهُ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: 26، 27]، ولم يَرِدْ هٰذا الاسم في القرآن الكريم بهٰذِهِ الصيغة، ولكنه وردَ بصيغة الفعل كما رأينا في الآية السابقة، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 73]، كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى الذي رواه أبو هريرة، وأخرجه الإمامان الترمذي، وابن ماجه في «سننهما»، والإمام البيهقي في كتابه «الدعوات».

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصدِ الأَسنَى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الباقي هو الواجبُ الوُجودِ في ذاته، ولكنه إذا أُضيفَ في الذهن إلى الاستقبال سُمِّيَ باقياً، وإذا أضيفَ إلى الماضي سُمِّيَ قديماً.

والباقي المُطْلَق هو الذي لا ينتهي تقديرُ وُجُودِهِ في الاستقبال إلى آخر، ويُعَبَّر عنه بأنه أَبَدِيٌّ، والقديمُ المُطْلَقُ هو الذي لا ينتهي تمادِي وُجودِهِ في الماضي إلى أوّل، ويُعَبَّر عنه بأنه أَزَلِيٌّ.

وقولنا: (واجب الوجود بذاته) مُتضمِّن لجميع ذلك. وإنما هٰذه الأسامي بِحَسَبِ إضافة هٰذا الوُجود في الذهن إلى الماضي أو المستقبل، وإنما يدخُلُ في الماضي والمستقبل المُتَغَيِّراتُ؛ لأنهما عبارتان عن الزمانِ، ولا يَدْخُلُ في الزمان إلّا التَغَيُّر، والحركة، إذْ الحَرَكَةُ بذاتها تنقسِمُ إلى ماضٍ ومُسْتَقْبَل، والمُتَغَيِّر يدخُلُ في الزمان بواسِطَةِ التغيُّر. فما جَلَّ عن التَغَيُّرِ والحركة، فَلَيْسَ في زمان، فَلَيْسَ فيه ماضٍ ومُسْتَقْبَل، فلا يَنْفَصِلُ فيه القِدَمُ عن التقابُل.

والماضي والمستقبل إنما يكون لنا إذا مضِي علينا وفينا أُمورٌ، وسَيَتَجَدَّدُ أُمُورٌ، لا بُدَّ مِن أُمورٍ تَحْدُثُ شيئاً بعد شيء، حتى تَنقَسِمَ إلى ماضٍ قد انْعَدَمَ وانقطع، وإلى زمانٍ حاضِرٍ، وإلى ما يُتوقَّع تجدُّده مِن بعد، فحيثُ لا تَجدُّد ولا انقضاء فلا زمان. وكيف لا؟ والحق تعالى قَبْلَ الزمان، وحيثُ خَلَقَ الزمان لم يتغيَّر مِن ذاته شيء، وقَبْلَ خَلْقِ الزمانِ لم يكن للزمان عليه جريانٌ، وبقي بعد خلق الزمان على ما عليه كان). انتهى كلام الإمام الغزالي.

ويقول الإمام المحدّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: الباقي، هو الذي لا ينتهي تقديرُ وُجودِهِ في الاستقبال إلى آخِرٍ ينتهي إليه، ويُعَبَّر عنه بأنه أَبَديُّ الوجود.

وفي حديث معاذٍ رضي الله عنه الذي أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة مِن «سننه» باب وقت العِشاءِ الآخِرَة، الحديث (421): «بَقَيْنا رسولَ اللَّهِ ﷺ وقد تأَخَّرَ لِصَلاةِ العَتَمَة» يُقالُ: بَقَيْتُ الرَّجلَ أَبْقِيهِ إذا انتظرته ورَقَبْتَه.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: 71 ـ 73].

يقول تعالى مُخْبِراً عن كُفْرِ فِرْعَونَ وعِناده وبَغْيه ومكابَرَتِهِ الحقَّ بالباطِلِ حين رأى من المعجزة الباهرة، والآية العظيمة من انقلاب العصَا التي ألقاها موسى حيَّة تسعى، ورأى الذين قد استنصر بهم من السَحَرَةِ قد آمنوا أوّل من آمن باللّهِ تعالى رب العالمين بحضرة الناسِ كلهم، وغُلِبَ كلَّ الغَلَبِ، شَرَعَ في المُكابَرَةِ والبُهْتِ، وعَدَلَ إلى استعمال القوة وجاهه وسلطانه في السَحَرَة، وهٰذا

دَأْبُ المُجْرِمِين، أنهم إذا انْهَزَمُوا في الحِجَاج والمُناظَرَةِ المنطقية العقلية، وقامت ضدّهم الأَدِلّةُ والبَرَاهِين شاهِدَةً على بُطلان حُجَجِهم ومَذاهبهم، لَجأُوا إلى استخدام القُوَّة ضِدَّ أخصامهم، وهكذا تَهدَّدَ فِرْعونُ السَحَرَةِ وتَوَعَّدَهم بالعذاب، وقال لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي لموسى وصدّقتم به ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي وما أمرتكم بذلك، وقال قَوْلاً يعْلَمُ هو والسَحَرَةُ والخَلْقُ كُلُّهُمْ أنه بُهْتٌ وكَذِبٌ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، أي أنتم إنما أخذتم السِحْرَ عن موسى واتَّفَقْتُم أنتم وإيّاهُ عَلَيَّ، وعلى رَعِيَّتِي لِتُظْهِرُوهُ، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123]، ثم أخذ يَتَهَدَّدُهُم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، أي لأَجْعَلَنَّكُمْ مُثْلَةً ولأَقْتُلَنَّكُمْ ولأُشْهِرَنّكم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أنتم تقولون: أنّي وَقَوْمِي على ضَلالَة، وأنتم مع موسى وقومِه على الهُدَى فسوف تعلمون مَن يكونُ له العَذابُ ويَبْقَى فيه، فلما صالَ عليهم بذلك وتَوَعَّدَهم، هانَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهم في الله ﷻ: و﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي لن نختارَك على ما حَصَلَ لنا مِنَ الهُدَى واليَقِينِ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ قَسَماً، ويُحْتَمَلُ أن يكون مَعْطوفاً على البَيِّنات، يَعْنُون: لَن نختارَك على فاطِرنا وخالِقنا الذي أَنْشَأَنا مِن العَدَم، المُبتَدِىءِ خَلْقَنا مِن الطِين، فهُو المُسْتَحِقّ للعِبادَةِ والخضوع لا أنتَ ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي فافْعَل ما شِئْتَ وما وَصَلْت إليه يَدُكَ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي إنّما لك تَسَلُّطٌ في هٰذه الدارِ، وهي دارُ الزوالِ، ونحنُ قد رَغِبْنا في دارِ القرار.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي ما كان مِنّا من الآثام خصوصاً ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ لتُعارِضَ به آيَةَ اللّهِ تعالى ومُعْجِزَةَ نَبِيِّه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي خير لنا منك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أَدْوَمُ ثواباً مما كُنْتَ وعدتنا ومَنَّيْتَنا. وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي منكَ عذاباً إن عُصِيَ. والظاهِرُ أنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللّهُ صَمَّمَ على ذلك وفعله بهم رحمةً مِنَ اللّهَ، ولهٰذا قال ابنُ عَبَّاسٍ وغيرُه: أصبحَوا سَحَرةً وأَمْسَوْا شُهَدَاء.

80 ـــ الوارث

معناه

وهو في بعض معانيه: الباقي بعد فَناءِ المَوْجُودَاتِ.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم بصيغة الجمع ثلاث مرات.

(الأولى): قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: 23].

(والثانية): قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

(والثالثة): قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: 58].

وورد بصيغة الفِعْل مَرّتين:

(الأولى): قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: 40].

(والثانية): قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴿٨٠﴾﴾ [مريم: 77 ـ 80].

وورد بصيغة مالك الميراث في موضعين:

(الأول): قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180].

(والثاني): قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الحديد: 10].

كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللّهِ الحسنى الذي رواه أبو

هريرة ﷺ، وأخرجه الإمامان الترمذي وابن ماجه في «سننهما»، والإمام البيهقيّ في «الدعوات».

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام الغزالي في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (الوارِثُ هو الذي يَرْجعُ إليه الأملاك بعد فناء المُلّاك. وذلك هو اللَّهُ سبحانه؛ إذْ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مَرْجِع كلّ شيء ومصيرُه، وهو القائلُ إذْ ذاك: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]، وهو المجيبُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، وهٰذا بحَسَب ظَن الأكثرين إذْ النِداءُ عبارَةٌ عن حقيقة ما ينكشِفُ لهم في ذلكَ الوقت.

فأما أربابُ البصائر، فإنهم أبداً مشاهِدُون لِمَعْنَى هٰذا النداء، سامِعُونَ له مِن غير صَوْتٍ ولا حَرْفٍ، يوقِنون بأن المُلْكَ لِلَّهِ الواحِدِ القَهّار في كلّ يوم، وفي كل سَاعَةٍ، وفي كل لحظة، ولذلك كان أزلاً وأبداً.

وهٰذا إنما يُدرِكُهُ مَن أدْرَكَ حقيقة التوجيه في الفعل، وعَلِمَ أن المُنْفَرِدَ بالفعل في المُلْكِ والملكوت واحِدٌ، وقد أشرنا إلى ذلك في أَوَّل كتاب التوكُّل مِن: «إحياء علوم الدين» فيُطلب منه).

ويقولُ الإمام مَجْد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجَزَرِي الشافعي رحمه الله في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»: (في أسماء اللَّهِ تعالى الوارِثُ هو الذي يَرِثُ الخلائِقَ، ويَبْقَى بعد فَنائِهم).

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي في كتاب الدعوات من «جامعه»، باب (67) الحديث (3480): «**اللهمَّ مَتِّعْني بِسَمْعِي وبَصَرِي، واجعَلْهُما الوارِثَ مِنّي**»، أي أبْقِهما سَلِيمَيْن صَحيحَيْن إلى أن أموتَ. وقيلَ: أراد بقاءَهما وقُوَّتَهما عند الكِبَر وانحِلالِ القُوَى النفسيّة فيكون السمعُ والبَصَرُ وارِثَيْ سائِرَ القُوَى، والباقِيَيْن بعدها. وقيل: أراد بالسَمْع وَعْيَ ما يسْمَعُ والعَمَلَ به، وبالبَصَرِ الاعتبارَ بما يَرَى. وفي روايةٍ: «واجعَله الوارِثَ مِنّي» على إفراد «واجعله» فردَّ الهاء إلى الإمْتاع، فلذلك وحَّدَهُ.

أقوال المفسّرين

قــال الله تــعــالــى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: 33].

يُخبر تعالى أنه مالِكُ كُلِّ شَيءٍ وأنَّ كلَّ شَيءٍ سَهْلٌ عليه، يَسِيرٌ لديه، وأن عنده خزائِنَ الأشياءِ من جميع الصُنوف ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، كما يشاءُ وكما يُريدُ، ولِما لَهُ في ذلك مِن الحكمة البالِغَةِ والرحْمَة بعباده، لا على جِهَةِ الوُجُوبِ، بل هو ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 12]. أخرج ابن جرير الطبري، عن ابن مسعود ﷺ، قال: «ما مِن عام بأمْطَرَ مِن عام، ولكنّ اللَّهَ يَقْسِمُه بينهم حيث شاء، عاماً هٰهُنا، وعاماً هٰهنا»، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، أي تُلَقِّحُ السَحاب، فَتَدُرُّ ماءً وتُلَقِّحُ الشَجَرَ، فَتَفْتَح عَنْ أَوْرَاقها وأكْمامها. وذكر ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ فإنّه أفردها، ووصفها بالعَقِيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلّا بين شَيْئَيْن فصاعِداً. أخرج الأعمش بسنده إلى ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، قال: «تُرْسَلُ الرياحُ فتحمل الماءَ من السَماءِ، ثم تَمُرُّ السَحاب حتى تَدُرَّ كما تَدُرُّ اللَّقْحَةُ»، وقال الضحَّاكُ: «يبعثها اللَّهُ على السَحابِ فتُلَقِّحُهُ فَيَمْتَلِىءُ ماءً». وقال عبيد بن عُمَير الليثي عن أنواع الرياح: «يبعث اللَّهُ المُبَشِّرَة فَتَقُمُّ الأَرْضَ قَمّاً ـ أي تَكْنِسُها كَنْساً ـ ثم يبعثُ اللَّهُ المُثِيرَةَ فَتُثِيرُ السَحَابَ، ثم يَبعثُ اللَّهُ المُؤلِّفَةَ فَتُؤَلِّف السَحَاب، ثم يبعثُ اللَّهُ اللواقِحَ فتُلَقِّحُ الشَجَرَ، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾. وأخرج ابن جرير الطبري بسنده إلى أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**الريحُ الجنوبُ مِن الجنَّةِ، وهي التي ذكر اللَّهُ في كتابه، وفيها منافِعُ للناسِ**».

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾، أي أنزلناهُ لكم عَذْباً يُمكنكم أن تشربوا منه ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: 70].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ قال سفيانُ الثَوْرِيّ: أي بمانِعِينَ. ويُحتمل أن المرادَ: وما أنتم له بحَافِظين في الأحْواض، بل نحن ننزّله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء اللّهُ تعالى لأغارَه في الأرض وذهب به، ولكن مِن رحمتِهِ أنزله وجعله عَذْباً وحفظه في العُيون والآبارِ والأنهارِ وغيرِ ذلك، ليبقى لهم في طُولِ السَنَةِ يَشْربُونَ ويَسْقُون أنعامهم وزُرُوعَهم وثمارَهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ إخبارٌ عن قُدرته تعالى على بَدءِ الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحْيا الخَلقَ مِنَ العَدَم ثمّ يُميتُهم، ثم يَبْعثُهم كلُّهم ليوم الجَمْعِ ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أخبر تعالى أنه يَرِثُ الأرضَ ومَن عليها، وإليه يُرْجَعُون.

الأسماء المتعلقة بصفة قيامه تعالى بنفسه

بعد أن ذكرنا أسماء اللَّه الحسنى المتعلّقة بصفة البَقَاءِ، ننتقل للكلام عن مجموعة الأسماء المتعلّقة بصفة قِيامِهِ بنفسه سبحانه وتعالى.

ومعنى القيام بالذات: عَدَمُ افتقاره إلى المكان، أو المَحَلّ، أي الذات التي يقوم بها، وعَدَمُ افتقاره سبحانه إلى المُخصِّص أي المُوجِد، فهو سبحانه قائِم بذاته، مُسْتَغْنٍ بذاته عمّا سِوَاهُ. ودليلها من الكتاب قولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، أي الذي لا يَحتاج إلى شيء، ويحتاجُ كُلُّ شيءٍ إليه، كما جاءَ في الحديث القُدْسِيّ الذي أخرجه الإمام مُسْلِمٌ في «صحيحه»، في كتاب البر والصلَة، باب (15)، الحديث (55)، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ فيما يرويه عن ربّه تباركَ وتعالى: «**يا عبادي! لو أنّ أوَّلَكم، وآخِرَكُم، وإنْسَكُم، وجَنَّكُم كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رجُلٍ واحِدٍ مِنْكم ما زادَ ذلك في مُلْكِي شيئاً، يا عبادي! لو أَنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكُم وإنْسَكُمْ وجِنّكُمْ، كانوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلْكِي شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخِرَكم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المَخِيط إذا أدخل البحر**»، فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

وهذا يدلّ على غِناهُ المطلق وقيامه بنفسَه مستغنياً عن خلقه، مُسْتكملاً نعوت قدسه.

ومِنَ الأسماء الحسنى المتعلقة بهذه الصفة: (الصمد، القيّوم، الغني) وسَبَق أن شرحنا معنى الصمد والقيوم، وبقي أن نعلم معنى الغني.

81 ـــ الغَنِيّ

معنى الغَنِيّ

هو الذي اسْتَغْنَى عَنِ الخَلْق، فَلَيْسَت به حاجَةٌ إِلَيْهم، وهُمْ إليه فُقراء

مُحتاجون، قال اللَّهُ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: 38]، وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في ثمانية عشر موضعاً مِن القرآن الكريم، وهو مُجمَع عليه، وجاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحُسْنَى.

أقوال العلماء

يقول حُجّة الإسلام الإمام أبو حامِد الغزالي في كتابه «المَقصِد الأَسْنَى»: (الغَنِيّ هو الذي لا تَعَلُّقَ لهُ بِغَيْره، لا في ذاتِه، ولا في صفات ذاته، بل يكون مُنَزَّهاً عن العلاقَة مع الأَغيار، ولا يُتَصَوَّرُ ذلكَ إلا لِلَّهِ تعالى.

فَمَنْ تَعَلَّقَ ذاته، أو صِفاتُ ذاته بِأَمْرٍ خارجٍ مِن ذاته يتوقَّفُ عليه وُجودُه أو كمالُه، فهو فقيرٌ مُحتاجٌ إلى الكَسْبِ. واللَّهُ تعالى هو المغني أيضاً، ولكنّ الذي أَغْناه لا يُتَصوَّرُ أن يَصيرَ بإغنائه غَنِياً مُطْلقاً، فإن أَقَلَّ أُمُورِهِ أنه يَحتاجُ إلى المُغنِي، فلا يكونُ غنِيّاً، بل يَسْتَغْنِي عَنْ غيْرِ اللَّهِ بأنْ يُمِدَّه بما يحتاج إليه، لا بأن يَقطعَ عنه أصلَ الحاجَةِ.

والغَنِيُّ الحقيقي: هو الذي لا حاجَة له إلى أَحَدٍ أصلاً، والذي يَحتاجُ ومَعه ما يحتاجُ إليه، فهو غنيٌّ بالمجاز، وهو غاية ما يَدْخُلُ في الإمكان في حق غير اللَّه تعالى، فأما فَقْدُ الحاجَةِ فلا، ولكن، إذا لم يَبْقَ حاجَةٌ، إلّا إلى اللَّهِ تعالى سُمِّيَ غَنِيّاً، ولو لم يَبْقَ له أَصْلُ الحاجة لما صَحَّ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: 38]، ولو أنه يتصور أنْ يَسْتغني عن كلّ شيءٍ سِوَى اللَّهِ ﷻ، لما صحَّ لِلَّهِ تعالى وصف المُغني).

ويقول الإمام مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء اللَّه تعالى: الغنيّ، وهو الذي لا يَحتاجُ إلى أحدٍ في شَيْءٍ، وكلُّ أحَدٍ يحتاجُ إليه، وهٰذا هو الغَنِيُّ المُطلَق، ولا يُشَارِكُ اللَّهَ تعالى فيه غيْرُه.

وفيه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (2/ 480) و(3/ 434): «**خَيرُ الصَّدَقَةِ ما أَبقَتْ غِنىً**»، وفي رواية الإمام البخاري في «صحيحه» (٢/ ١٣٩) و(٧/ ٨١)، والإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب الزكاة، باب

(٣٢)، (الحديث (٩٥): «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنَى، واليَدُ العُلْيا خَيْرٌ مِن اليَدِ السُفْلَى**»، أي ما فَضَل عن قُوتِ العِيال وكِفايَتِهِم، فإذا أعْطَيْتها غيْرَك أبْقَتْ بعدَها لَكَ ولَهُم غِنًى، وكانت عنِ اسْتِغْناءٍ منك، ومنهم عنها. وقيل: خَيْرُ الصَدَقَةِ ما أَغْنَيتَ به مَن أعْطَيْته عَنِ المَسْأَلَةِ.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أبو داود في كِتاب الصلاة من «سننه» الحديث (1469)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة من «سننه» الحديث (1337)، والإمام أحمد في «مسنده» (1/ 172): «**مَنْ لَم يَتَغَنَّ بالقرآنِ فلَيْسَ مِنّا**»، أي لم يَسْتَغْنِ بهِ عن غيره. وقيل: أراد من لم يَجْهَرْ بالقراءة، وقد جَاء مُفسَّراً في حديثٍ آخر: «**مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ كإِذْنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنّى بالقرآن يَجْهَرُ به**»، قيل: إن قولَه: «**يَجْهَرُ به**» تفسيرٌ لقوله: «**يَتَغنّى به**» ومعنى قوله: «**ما أَذِنَ**» أي ما اسْتَمَعَ الله لشيء كاسْتِمَاعِهِ لِنَبيٍّ يتغنّى بالقرآن، أي يَتْلُوه يَجْهَرُ به، يُقال منه: أَذِنَ يأْذَنُ أَذناً.

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: 5، 6].

يقولُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي في الدارِ الآخِرَةِ، وعَمِلَ الصالحات، ورجا ما عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثوابِ الجزيلِ، فإنَّ اللَّهَ سَيُحَقِّقُ له رَجَاءَهُ، ويُوَفّيه عَمَلَهُ كامِلاً مُوَفَّراً فإنَّ ذلك كائِنٌ لا مَحالَةَ؛ لأنه سَمِيعُ الدُعاءِ، بَصِيرٌ بكلِّ الكائنات، ولهٰذا قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: 46]، أي مَنْ عَمِل صالحاً فإنما يَعودُ نَفْعُ عَمَلِهِ على نفسه، فإنَّ اللَّهَ تعالى غَنِيٌّ عن أفْعالِ العِبادِ، ولو كانوا كلُّهم على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ منهم ما زاد ذلك في مُلْكِهِ شيئاً، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ

إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾، قال الحسن البَصْرِي: إن الرجُلَ ليُجاهِدُ، وما ضَرَبَ يوماً مِن الدهر بسيف، ثم أخبرَ تعالى أنه مع غِناه عن الخلائِق جميعهم، ومع بِرِّه وإحسانه بهم يجازي الذين آمَنُوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء.

الأسماء المتعلقة بصفة مخالفته تعالى للحوادث

بعد أن ذكرنا الأسماءَ الحسنى المتعلِّقة بصفة قِيامه بذاته سبحانه وتعالى، ننتقل للحديث، عن مجموعةٍ مِن الأسماء الحسنى تتعلق بصفة أخرى من صفات الكمال لله تعالى، وهي مخالفته تعالى لمخلوقاته الحادثة، أي عدم مماثلته جلّ جلاله لشيء منها، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. وهي (السلام، القُدُّوس، الواجِد).

صفة مخالفته تعالى لمخلوقاته: فلا نَظِيرَ ولا شَبِيهَ ولا مَثِيلَ له تعالى، و(**النظيرُ**) هو المساوي في أغلب الوُجُوهِ. و(**الشَبيهُ**) هو المُسَاوِي في بعض الوُجوه. و(**المثيلُ**) هو المُسَاوِي في جميع الوُجوه. فاللَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: 11].

فاللَّهُ ليس بِجِسْمٍ يأخذ حَيِّزاً مِن الفراغ، أو صِفَةٍ تحتاج إلى موصوفٍ، ولا تقبلُ ذاتُه الانقسامَ والتعدُّد، ولا تتركبُ مِن أَجْزاء كما هو شأن جميع المخلوقات؛ لذلك فهو مُنَزَّهٌ عما تَسْتَلْزِمُه هٰذه الصفات أيضاً من مختلف الأحوال والعَوَارِض النفسيَّة والجسمِيّة التي تصيبُ الإنسان وغيرِه من الكائنات الأخرى.

فلا يمكن إذن أن يكونَ لِلْخَالِقِ سبحانَه زَوْجَةٌ أو وَلَدٌ، أو يكون بحاجَةٍ إلى طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ، أو نَوْمٍ أو مَكانٍ يُوجَدُ فيه، أَوْ زَمَانٍ يَجْرِي عليه.

فهو مخالِفٌ سُبْحَانه لمخلوقاتِه مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ولا يُماثِلُهُ شيءٌ ولا يُماثِلُ شيئاً، وذاتُهُ سُبْحَانه فَوْقَ أن تُدْرَك، وفَوْقَ أَنْ تُحَدَّ، و (كلُّ ما خَطَرَ بِبَالِكَ فَاللَّهُ بِخِلَافِ ذلك).

فهو الغنيّ بذاتِهِ وصفاتِه، الذي لا يحتاجُ إلى شيء، والكامِلُ في قُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، الذي يَفْعَلُ ما يشاءُ ويختارُ، والذي يَرجِعُ إلى قُدْرَتِهِ وحْدَهُ فِعْلُ كلِّ شيء، وخَلْقُ كلِّ شَيْءٍ وتقديرُه.

فهو سُبْحانه لو لم يكن مخالِفاً للحوادث لكان مُمَاثِلاً لها، ولو كان مماثلاً لها لكان حادثاً مخلوقاً بعد أن لم يكن، ولاحْتاج إلى مَن يُوجدُه، سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوّاً كبيراً، وقد ثبت بالدليل القاطِع قِدَمُهُ، وأنه مَوْجُودٌ بِذَاتِهِ وغيرُ مُحتاج إلى مَنْ يُوجِدُه، فثبت أنه مُخالِفٌ لمخلوقاته.

والأُلوهِيَّةُ تقتضي الكمالَ المُطْلَق، والبُعْدَ عن النقائِص، ومِن أَبْرز مظاهر النقص ما تَتَّصِفُ به المخلوقات من الصِفات، كالتغيّرِ والحركةِ، والزيادةِ والنقصانِ، والجمعِ والتَفرِيقِ والتناكُح والتناسُلِ، والضعفِ والعَجْزِ، والحاجَةِ إلى المُوجِد والمُخصِّص، والحاجة إلى الأكلِ والشُرب والنوم أو غير ذلك مما تحتاجه المخلوقات الضعيفة العاجزة مِن المظاهر التي هي ثمرة عجزها وضعفها، تعالى اللَّه عن ذلك؛ لأن له الكمال المطلق.

فثبتَ أنّ اللَّهَ تعالى مخالفٌ لمخلوقاته، وأنه لا يشبه شيئاً منها، لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهٰذا هو التنزيه الذي أرسل اللَّهُ به جميع رُسُلِهِ إلى خلقه ليصحّحوا عندهم النظرة إلى الإلٰه؛ لأنّ الناسَ كان ينحرف عندهم مفهوم الألوهية الصحيح بين فَيْنَةٍ وأخرى وجيلٍ وجيل، بسبب إعمال عقولهم وخيالاتهم وأوهامهم في تَصوُّر الإلٰه، فمنهم من جَسَّده في صَنَم، وظنّ أن اللَّه يحلّ فيه فعبده، ومنهم من جسّده في شخص، ومنهم من نسب له الزوجة والولد، ومنهم من شبّهه بخلقه، وظن أنه يأكل ويشرب، فقدّم له القرابين. . . إلى غير ذلك من الديانات والمذاهب المنتشرة في الأرض، والتي لا تزال بقاياها إلى الآن، فأرسل الله رسله إلى خلقه ليبيّنوا لهم أن الخالق لا يشبه مخلوقاته في شيء، وأنّ له الكمال المطلق وحده، وأنه منزّه عن النقص.

82 ـــ السَّلاَمُ

معنى السلام

هو الذي سَلِمَ مِن كلّ عَيْبٍ في ذاته وصفاته وأفعاله، وبَرِيءَ مِن كلّ آفةٍ ونَقْصٍ يَلْحَقُ بالمخلوقين. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: 23]، وقد ورد هٰذا الاسم في موضِعٍ واحِدٍ مِنَ القرآن

الكريم، هو هٰذا المذكور. كما ورد في الحديث الجامع لأسماء اللّٰهِ الحسنى الذي أخرجه الإمامان الترمذي، والنسائي في «سننهما»، والإمام البيهقي في كتاب «الدعوات»، عن أبي هريرة ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامِد الغزالي في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللّٰهِ الحسنى»: (السلامُ هو الذي تَسْلَمُ ذاتُه عن العَيْبِ، وصِفاتُه عن النقص، وأفعاله عن الشّرّ، حتى إذا كان كذلك، لم يكن في الوُجُودِ سَلامَةٌ، إلّا وكانت مُعْزِيَّةً إليه، صادِرَةً عنه.

وقد فَهِمْتَ أن أفعاله تعالى سالِمَةٌ عن الشَّرِّ، أَعْنِي الشَّرَّ المُطْلَقَ المُرادَ لذاته، لا لِخَيْرٍ حاصِل في ضمنه أعظم منه. وليس في الوُجود شَرٌّ بهٰذه الصِفَةِ كما سَبَقَ الإيماء إليه.

وكلُّ عَبْدٍ سَلِمَ قَلْبُهُ عَنِ الغِشّ والحِقْدِ والحَسَدِ وإرادة الشَّرِّ، وسَلِمَتْ جوارِحُهُ عن الآثار والمحظوظات، وسَلِمَت صِفاتُه عن الانتكاس والانعكاس فهو الذي يأتي بَقَلْبٍ سَليم. وهو السليم مِن العبادِ، القريبُ في وصفه من السَلامِ المُطْلَق الحقّ الذي لا مثنويَّة في صفاته.

وأعني بالانتكاسِ في صفاتِه: أن يكونَ عقلُه أسِيرَ شَهْوَتِهِ وغَضَبِه، إذْ الحقُّ عكسُه، وهو أن تكونَ الشهوَةُ والغَضَبُ أسِيرَ العقلِ وطَوْعَه، فإذا انعكس فقد انتكس، ولا سلامة حيث يصيرُ الأميرُ مَأمُوراً، والمَلِكُ عَبْداً.

ولن يوصَفَ بالسلام والإسلام، إلّا مَن سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ، فكيفَ يُوصَفُ به مَن لم يَسْلَمْ هُوَ مِن نفسِهِ؟!

ويقولُ الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أَسْماءِ اللّٰهِ تعالى: السلامُ، قِيلَ: معناهُ سَلاَمَتُهُ مِمّا يَلْحَقُ الخَلْقَ مِن العَيْبِ والفَناءِ. والسَلامُ في الأَصْلِ: السلامَةُ. يُقالُ: سَلِمَ يَسْلَمُ سَلاَمَةً وسلاماً، ومنه قيل للجنَّة: دارُ السلام؛ لأنها دارُ السلامَة من الآفات.

ومنه حديث التسليم: «**قل السلامُ عليك، فإن عليكَ السلام تحيَّةُ الموتى**»، والتَسْلِيم مُشتَقٌّ من **(السَّلام)** اسم اللَّهِ تعالى لسَلامَتِهِ من العَيْبِ والنقص. وقيل: معناه أن الله مُطَّلعٌ عليكم فلا تَغْفُلوا. وقيل: معناه اسمُ السلام عليكَ، أي اسمُ اللَّهِ عليك، إذْ كان اسمُ اللَّهِ على الأعمالِ تَوَقُّعاً لاجتماع مَعانِي الخيرات فيه، وانتِفاءِ عَوَارِض الفَسادِ عنه. وقيل: معناهُ سَلِمْتَ مِنِّي فاجْعَلْنِي أَسْلمُ مِنكَ، مِنَ السَّلامَةِ بمعنى السلام).

83 ــ القُدُّوس

معناه

مِنْ أَبْنِيَة المُبالَغة النادِرَة، على وزن «فَعُّول»، وهو مَأخُوذٌ مِن القُدْسِ، أي الطهارَة. فَمَعْنَى القُدُّوسِ: الطاهِرُ منَ العُيُوبِ، المُنَزَّهُ عن الأَنْدَادِ والأولادِ، وكلِّ النقائِصِ التي لا تليقُ بكمال أُلُوهِيَّته. قال اللَّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: 23]. وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في موضِعَيْن من القرآنِ الكريم، هٰذا الأول، والثاني قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: 1]. كما ورد في الحديث الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِدُ الأَسْنَى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (القُدُّوسُ هو المُنَزَّه عن كلِّ وَصْفٍ يُدْرِكُه الحِسُّ، أو يَتَصَوَّرُهُ الخَيالُ، أو يَسْبِقُ إليه وَهَمٌ، أو يَخْتَلِجُ به ضميرٌ أو يقضي به تفكيرٌ.

ولستُ أقولُ: مُنَزَّهٌ عن العُيُوبِ والنقائِصِ، فإنَّ ذِكْرَ ذلك يَكادُ يَقْربُ من تَرْكِ الأَدَبِ، فليس من الأدب أن يَقولَ القائِلُ: مَلِكُ البَلَدِ لَيْسَ بِحائِكٍ ولا حجّام، فإن نَفْيَ الوُجُودِ يكادُ يُوهِمُ إمْكانَ الوُجُودِ، وفي ذلك الإيهامِ نَقْصٌ.

بل أقولُ: القُدُّوسُ هو المُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مِن أوصافِ الكَمالِ، الذي يَظُنُّهُ أكثرَ الخَلْقِ؛ لأنَّهم أولاً نظروا إلى أنفُسِهم، وعَرَفُوا صِفاتَهُم، وأدركوا

انقسامها إلى ما هو كمالٌ، ولكنَّه في حَقِّهم، مثلُ: عِلْمِهم، وقُدْرَتِهم، وسَمْعِهِم، وبَصَرِهم، وكَلامِهم، وَإرادَتِهِم، واختيارِهم، ووضعوا هٰذه الألفاظ بإزاءِ هٰذه المعاني، وقالوا: إنّ هٰذه الأسماء كمالٌ، وإلى ما هو نَقْصٌ في حَقِّهم مثلَ: جَهْلِهِم، وعَجْزِهم، وعَماهُم، وصَمَمِهم، وخَرَسِهِم، فوَضَعُوا بإزاءِ هٰذه المعاني هذه الألفاظَ، ثم كان غايَتُهم في الثناءِ على الله تعالى، ووَصْفِهِ أنْ وَصَفُوهُ بما هو أَوْصَافُ كَمالِهِم مِن: عِلْمٍ وقُدْرَةٍ، وسَمْعٍ، وبَصرٍ، وكلامٍ، وأَنْ نَفَوْا عنه أوصاف نَقْصِهِم.

وهُوَ مُنَزَّهٌ عن أوصاف كمالِهِمْ، كما أنه مُنزَّهٌ عن أوصاف نقصهم، بَلْ كلُّ صِفَةٍ تُتَصَوَّرُ للخلق فهو مُنَزَّهٌ مُقَدَّسٌ عنها وعمّا يُشْبِهها ويُماثِلُها. ولولا وُرودُ الرُّخْصَةِ والأَدَبِ بإطْلاقِها لم يَجُزْ إطلاقُ أكثرها.

وقُدْسُ العبد: في أن يُنزِّهَ إرادته وَعِلْمَهُ.

وأما عِلْمُه، فينَزِّهُه عن المُتَخَيَّلاتِ والمَحْسُوساتِ والمَوْهُوماتِ، وكلِّ ما يُشارِكُ فيه البهائِمَ من الإدراكات. بَل يكون تَرَدُّدُ نَظَرِهِ، وتَطْوَافُ عِلْمِهِ حَوْلَ الأُمورِ الأَزَلِيَّة المُنَزَّهَةِ عن أن تَقْرُب فَتُدْرَكَ بالحِسّ، أو تَبْعُدَ فَتَغِيبَ عَنِ الحِسِّ بَلْ يَصيرُ مُتجَرِّداً في نفسِهِ عن المحسوسات والمتخيّلات كلِّها، ويقتني مِن العُلوم ما لو سُلِبَ آلةَ حسِّه وتَخَيُّلِهِ بَقِيَ رَيَّانَ بالعُلوم الشَريفَةِ الكُلِّيَةِ الإلٰهيَّة المُتَعَلِّقَةِ بالمَعْلُوماتِ الأَزَلِيَّةِ الأَبَدِيَّةِ، دونَ الشخصِيّات المُتَغَيِّرَةِ المُسْتَحِيلَةِ.

وأَمّا إرادَتُه: فَيُنَزِّهُها عَنْ أَنْ تَدُورَ حَوْلَ الحُظُوطِ البَشَرِيَّةِ التي تَرْجِعُ إلى لَذَّةِ الشَهْوَةِ والغَضَبِ، ومُتْعَةِ الطعام، والمَنْكَحِ، والمَلْبَسِ، والمَلْمَسِ، والمَنْظَرِ وما لا يَصِلُ إليه مِنَ اللَّذَّاتِ إلا بواسِطَةِ الحِسِّ والقَلْبِ، بل لا يُريدُ إلَّا اللَّهَ ولا يَبْقَى له حَظٌّ إلّا في اللَّهِ، ولا يكونُ له شَوْقٌ إلّا إلى لِقاءِ اللَّهِ، ولا فَرَحُ إلّا بالقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، وَلَوْ عُرِضَتْ عليهِ الجنَّةُ وما فيها مِنَ النَعيمِ لم يَلْفِتْ هِمَّتَهُ إليها، ولم يَقْنَعْ مِنَ الدارِ إلّا بربِّ الدَّارِ.

وعلى الجُملَةِ، الإدراكاتُ الحِسِّيَّةُ والخياليَّةُ تشارك البَهائِمُ فيها، فَيَنْبَغِي أن يَتَرَقَّى عنها إلى ما هو مِنْ خَوَاصِّ الإنسانية، والحُظُوظُ البَشَرِيَّةُ الشهوانيَّةُ تتزاحَمُ البهائِمُ أيضاً فيها، فينبغي أن يَتَنَزَّهَ عنها.

فَجَلالَةُ المُرِيدِ على قَدْرِ جَلالَةِ مُرادِه، ومَن كانت هِمَّتُهُ ما يُدْخِلِ في بَطْنِهِ، فقيمته ما يُخْرِجُ منه. ومَن لم يكن له هِمَّةٌ سِوَى اللَّهِ فَدَرَجَتُهُ على قَدْرِ هِمَّتِهِ، ومَن رَقِيَ عِلْمُهُ عَنْ دَرَجَةِ المَحْسُوسَاتِ والمُتَخَيَّلاتِ، أو قَدَّسَ إرادَتَه عَنْ مُقتضى الشهوات، فقد نزل بُحْبُوحَةَ حَظِيرَة القُدْسِ). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى القُدُّوس هو الطاهِرُ المُنَزَّهُ عَنِ العُيُوبِ، و«فُعُّولُ» مِن أَبْنِيَةِ المُبالَغَة، وقد تُفْتَحُ القافُ فيُقال: قَدُّوس، وليس بالكثير المُسْتَعْمَل، ولم يَجِيءْ منه إلّا قُدُّوس وسُبُّوح).

ومنه الحديث الذي أخرجه القُضَاعِيُّ في «مسند الشهاب» الحديث (1151) و(1152): «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفخ في رَوْعِي أن نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حتى تَسْتَوْفِي أجَلَها**» - يعني به جبريلَ ﷺ - لأنَّهُ خُلِقَ مِنْ طَهارَةٍ.

ومنه «الأرض المُقَدَّسَة» قيل: هي الشامُ وفِلَسْطِينُ، وسُمِّي «بَيْتُ المَقْدِسِ»؛ لأنه المَوْضِعُ الذي يُتَقَدَّسُ فيه مِنَ الذُنُوبِ، ويُقالُ: بَيْتُ المَقْدِس، والبَيْتُ المُقَدَّسُ، وبَيْتُ القُدْسِ)، حَرَّرَهُ اللَّهُ مِن أيدي الصهاينة الذين دَنَّسُوه.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة: 1]، يُخْبِرُ تعالى أنّه يُسَبِّح له ما في السمٰوات وما في الأرض، أي مِن جميع المخلوقات ناطِقها وجامِدِها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44]، ثم قال تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾، أي هو مالِكُ السمٰوات والأرض المُتَصَرِّف فيهما بحُكْمِهِ وهو المُقَدَّسُ، أي المُنَزَّهُ عن النقائِصِ، الموصوف بصفاتِ الكمال، العَزيز الحكيم.

84 ـــ الوَاجِد

معناه

هو الغني الذي لا يحتاج إلى شيء، ولم يَرِدْ هٰذا الاسم في القرآن

الكريم، وإنَّما هو مُجْمَعٌ عليه، كما ورد في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى الذي رواه أبو هريرة ﷺ، وأخرجه الإمامان الترمذي، وابن ماجه في سننهما، والإمام البيهقي في كتابه «الدعوات».

أقوال الأئمة في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (الوَاجِدُ هو الذي لا يَعوزه شيء، وهو في مقابلة الفاقِدِ، ولعلَّ مَن فاته ما لا حاجَة به إلى وُجودِهِ، لا يُسَمَّى فاقِداً. والذي يحضُره ما لا تعَلُّقَ له بذاته، ولا بكمال ذاته لا يُسمَّى واجداً، بل الواجِد ما لا يُعُوزُه شيء، مما لا بُدَّ له منه.

وكلُّ ما لا بُدَّ منه في صفاتِ الإلٰهيّة وكمالها فهو مَوْجُودٌ لِلَّهِ تعالى. فهو بهٰذا الاعتبار واجِدٌ. وهو الواجد المُطْلَق، ومَن عَداهُ إن كان واجداً لشيء من صفات الكمال وأسبابه، فهو فاقدٌ لأشياء، فلا يكون واجداً إلا بالإضافة). انتهى كلامُ الغزالي.

ويقول الإمام المحدّث اللغوي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: الواجِدُ، هو الغنِيُّ الذي لا يَفْتَقِرُ. وقد وَجَد يَجِدُ جِدَةً: أي استغنى غِنًى لا فَقْرَ بَعْدَهُ).

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام البخاريّ في كتابِ الاستِقْراض من «صحيحه»، باب: لصاحب الحق مقال تعليقاً: «**لَيُّ الواجِد يُحِلُّ عُقوبَتَهُ وعِرْضَهُ**». أي إن مُمَاطَلَةَ الغني القادِرِ على قَضاءِ دَيْنِهِ تُحِلُّ عُقوبَته.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ

ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: 28، 29].

أمر اللّهُ تعالى عِبادَه المُؤمنين الطاهرين دِيناً وذاتاً بِنَفْي المُشْرِكين، الذينَ هم نَجَسٌ ديناً عن المسْجد الحَرام، وأَنْ لا يَقْرَبُوهُ بعد نُزول هٰذه الآية، وكان نزولها في سنة تِسْعٍ مِن الهجرة، ولهٰذا بَعَثَ رَسولُ اللّهِ ﷺ عَلِيّاً صُحْبَةَ أبي بكر رضي الله عنهما عامَئذٍ وأَمَرَهُ أَنْ يُنادِي في المُشْرِكين: أن لا يَحُجَّ بَعْدَ هٰذا العام مُشرِكٌ ولا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيَانٌ، فأتمَّ اللّهُ ذلكَ وحكَم به شَرْعاً وقَدَراً. قال الإمام أبو عمرو الأَوْزَاعِيُّ: كتَبَ عُمَرُ بنُ عبد العزيز رضي الله عنه: أنِ امْنَعُوا اليَهُودَ والنصارَى مِن دُخولِ مَسَاجِد المسلمين وأَتْبَعَ نَهْيَهُ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

ودَلَّت هٰذه الآيةُ الكريمةُ على نجاسَةِ المُشْرِكِ، كما وَرَدَ في «الصحيح»: قال رسول الله ﷺ: «**المُؤمنُ لا يَنْجُسُ**». وقال أشْعَثُ عن الحَسَنِ البصري رضي الله عنه: «**مَنْ صافَحَهُمْ**» - أي المشركين - «**فَلْيَتَوَضَّأْ**». وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال محمد بن إسحاق وذلك أنّ الناسَ قالوا: لتُقْطَعَنَّ عنّا الأسواقُ، ولتُهْلَكَنَّ التِجَارَةُ، وليذهَبَنَّ عنّا ما كنّا نُصِيبُ فيها من المرافق والمَصالِح إذا مَنَعْنا المشركين مِن دُخول الحرم فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ - أي فقراً - ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مِن وَجْهٍ غير ذلك ﴿إِن شَآءَ﴾، أي هٰذا عِوَضٌ ما تَخوفتم مِنْ قَطْع تِلكَ الأَسْوَاقِ، فَعَوَّضَهُمُ اللّهُ مِمّا قَطَعَ أَمْرَ الشِرْكِ ما أعطاهم من أعْنَاقِ أهلِ الكتابِ مِن الجِزْيَةِ، وهكذا رُوِيَ عن ابن عباسٍ، ومجاهِد، وعِكرِمَة، وسعيدِ بن جُبَيْر، وقَتادَةَ، والضحّاكِ وغيرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي بما يُصْلِحُكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يأمُرُ به وينهِي عنه؛ لأنه الكامِلُ في أفعاله وأقوالِهِ، العادِلُ في خلْقِهِ وأَمْرِهِ تبارك وتعالى، ولهذا عوَّضَهم عن تلك المكاسِبِ بأموال الجزْيَةِ التي يأخذونها مِن أهل الذِمَّة.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴿٢٩﴾﴾، يعني هم في نفس الأمْرِ لما كفروا بمحمّدٍ ﷺ، لم يَبْقَ لَهُم إيمانٌ صَحِيحٍ بأحَدِ الرُسُلِ، ولا بما جاءوا به، وإنّما يَتّبِعُون آراءَهم وأهواءَهم وآباءَهم فِيما هم فيه، لا لأنّه شرْعُ اللَّهِ ودينه؛ لأنَّهُمْ لو كانوا مُؤمِنِينَ بما بأيْدِيهم إيماناً صحيحاً لَقادَهُمْ ذلك إلى الإيمان بمحمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ جميعَ الأنبياء بَشَّرُوا به وأمَرُوا باتّباعه، فلما جاء كفروا به، وهو أشرفُ الرُسُلِ عَلِمَ أنّهم ليسوا مُتَمَسِّكين بِشَرْعِ الأنبياءِ الأقدمين؛ لأنه من الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بِسَيِّدِهم وأفْضَلِهِم وخاتِمهم وأكْمَلِهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وكان ذلك في سنة تِسْعٍ، ولهذا تَجَهَّزَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لقتال الروم ودعا الناسَ إلى ذلك، وأظهَرَهُ لهم، وبَعَثَ إلى أحْياءِ العَرَبِ حَوْلَ المدينة فَنَدَبَهُم فأَوْعَبُوا معه، واجتمع مِن المُقاتِلَةِ نحوٌ من ثلاثينَ ألفاً، وتخلَّفَ بعضُ الناسِ مِن أهلِ المدينة ومَن حَوْلَها مِن المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب ووقتِ قَيْظٍ وحَرٍّ، وخرج رسولُ اللَّهِ ﷺ يُريدُ الشامَ لِقتال الروم، فَبَلَغَ تبوكَ فَنَزَلَ بها، وأقام بها قريباً من عِشرين يوماً. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾، أي إن لم يُسْلِمُوا ﴿عَن يَدٍ﴾ أي عَنْ قَهْرٍ لهم وغَلَبَة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أي ذليلون حَقِيرُون مُهابُون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهلِ الذمَّة ولا رَفعُهم على المسلمين، بل هم أذِلاء صَغَرَةٌ أشْقِياءُ، ولهذا اشترط عليهم أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب تلك الشروط المعروفة «بالشروط العمرية».

النهي عن الخوض في المُتشابَه من الصفات

يَتَعَلَّق بصِفَةِ مخالفة الله تعالى لمخلوقاته أمر هامٌ في العقيدة الإسلامية هو: المتشابهُ من الصفات التي توهِم تشبيه اللَّه بخلقه، وقد كان هذا الموضوع مثار جدل كبير بين الفِرَق قديماً وحديثاً، فلا بُدَّ مِن بيان الحق فيه.

أولًا: المتشابه من الصفات

وردت في القرآن الكريم والسنّة الشريفة آيات وأحاديث ثابتة عن

رسول الله ﷺ، تُوهِمُ بظاهر ألفاظها مشابَهَة اللّهِ لِخَلْقِهِ في بعض صفاتهم، كالجِهَةِ، والجسمية، والجوارح، والأعضاء، والتَحَيُّزِ في المكانِ، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: 22]، وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: 10]، وقوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: 64]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: 48]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: 5].

وكقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب القدر، الباب (3)، الحديث (17): «**إنَّ قُلوبَ بَني آدَمَ كلَّها بَيْن أَصْبُعَيْنِ من أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ يُقلِّبُها كَيْفَ يَشاءُ**»، وقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب الجَنَّة وصِفَتها، الباب (11)، الحديث (28): «**خلَقَ اللّٰهُ آدمَ عَلَى صُورَتِهِ**»، وقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه أيضاً في كتاب الجنة، الباب (13) الحديث (37): «**لا تَزالُ جهَنَّمُ تقولُ: هَلْ مِنْ مَزيد حتّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ تبارَكَ وتعالى قَدَمَهُ، فتَقُولُ: قَطِ قَطِ**» - أي كَفَى كَفَى - **وعِزّتِك وَيُزْوَى بعضها إلى بعض**»، وقوله أيضاً في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب الدعوات، الباب (١٣)، الحديث (٥٩٦٢): «**يَنْزِلُ رَبُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا حِينَ يَبْقَى ثلثُ الليل الآخِر يقولُ: مَنْ يَدْعُونِي فأستجيبُ له، مَن يَسْألُني فأُعطِيهِ، مَن يستغفرني فأغفرُ له**»... إلى غير ذلك من الآيات الكريمات والأحاديث الصحيحات التي جاءت فيها صفاتٌ للّٰهِ تعالى تدل بظاهِرها على مشابهة المخلوقات.

وقد حاوَلَ الكثير الخوض في هٰذه المتشابهات، وتعدّدت آراؤهم فلم يَصِلُوا إلى معرفة كُنْهِ حقيقتها؛ لأنهم لا يملكون وسائل الخوض فيها، وشأن الألوهية عزيز المنال، وهو أسمى مما تتصوره الأذهان الكليلة والعقولُ القاصِرَةُ. يقولُ اللّٰهُ ﷻ في كتابه الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: 7].

فَبَيَّنَ تعالى أن في كتابه الكريم: (**آياتٌ مُحْكَمَاتٌ**) واضِحَةُ المَعْنَى، صَرِيحَةُ

اللفظ، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 4].

(وآيات مُتَشابِهات)، وهي التي لا يَتَّضِح المَعْنَى المُراد منها تماماً، وتوهِمُ بظاهِرِها ما قامَتِ الأَدِلَّةُ على نَفْيِهِ.

وعَلى المُؤمِن اتّباع **(الآيات المُحْكمات)** وبناء عقيدته في اللَّهِ بموجبها، وردّ **(الآيات المتشابهاتِ)** إليها من حيث فَهْمِها والوُقوفِ على المعنى المراد منها، والإيمان بها كما جاءت، وعدم الخوض فيها كما أمر الله، وتوكيل علمها لله، دون تشبيه أو تجسيم أو تعطيل، مع تنزيه الله تعالى ونسبة الكمال له، وألاّ يُطيلَ الغَوْص في معناها، ولا يتتبعُها فيجمعها ليفتن الناس بالبحث فيها. وهذا كان موقف الصحابة الكرام رضوان الله عليهم منها حين نزولها، وموقف الأئمة الأعلام من بعدهم.

وعلى ذلك فكلُّ ما قُطِعَ بثبوته في كتاب اللَّهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ، ممّا وصف اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وأَسْنَدَه إلى ذاته، يَجِبُ الإيمانُ به بدون تشبيه اللَّهِ بِخَلْقِهِ، ولا تجسيمه ولا تَعْطيله.

ونقصِدُ (بالتعطيل): نَفْيَ مدلولات الألفاظ مُطلَقاً عن الله تبارك وتعالى، وهو مَذْهَب (الجَهْمِيَّة) الذين يُعَطِّلون صِفاتِ اللَّهِ تعالى، فهو عندهم لا يتكلَّم ولا يسمع ولا يُبْصِر. . . الخ؛ لأن ذلك كما يَتوَهَّمُون لا يكون إلّا بِجارِحَةٍ وحاسَّة، والجوارحُ والحَواسُّ يجب أن تُنْفى عنه سبحانه، فيُعَطِّلون صفاته مِن حيثُ يتظاهَرون بتقديسه. وهو مَذْهَبٌ باطلٌ، لا يَسُوغُه عَقْلٌ ولا مَنْطِق، إذْ الصفاتُ قَسِيمُ الذاتِ ومُلازِمَةٌ لها لا تنفكُّ عنها، فمن عَطّلَ الصِفَاتِ فقد نَفَيَ الذات.

وكذلك مَن شَبَّهَ فقد جَسَّمَ الذات، لذلك كان السلفُ الصالح يقولونَ: (المُعَطِّلُ يَعْبُد عَدَماً، والمُشَبِّهُ يَعْبُد صَنَماً). . . لذلك وجب الإيمان باللَّهِ تعالى بدون تشبيه ولا تجسيم، ولا تعطيل تنفيذاً لأمْرِ اللَّهِ ﷻ وانسِجاماً مع تحذيره من الخَوْض في تأويلِ **(المُتشابَه)** مع ترك **(المُحْكَم)** الواضح. وقد اتّفق المسلمون سَلَفِهم وخَلَفِهم على ذلك، وعلى تنزيه اللَّهِ تعالى عما يقتضيه ظاهِر تلكَ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من الصفات المنافِيَةِ لكمال اللَّهِ وأُلوهِيَّته، ولكن

اختلفت مناهِجُهم في التنزيه والتمجيد على مذهَبْين:

١ ـ **مذهب السَلَف**: أما السَلَفُ وهم من كانوا من أهل العلم قبل نهاية القرن الثالث الهجري، أي قبل نشوء الفِرَق والمذاهب الكلامية، وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**خير القُرونِ قرني، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل**»، فسلكوا مذهب التفويض والتسليم بهٰذه المتشابهات بأنها من عند الله، مع عدم التعرّض لبيان المعنى المراد منه، ويكِلُون إلى اللّهِ تعالى العلمَ بمعانيها. سُئِلت السيدة أم سلمة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]، فقالت: «الكَيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والاستواء غيْرُ مجهولٍ، والإقرارُ به مِن الإيمان، والجُحُودُ به كفرٌ»، ورُوِيَ نحوُ ذلك عن الإمام مالك بن أنس. وفي هٰذا المفهوم عاش الجيلُ الأول من المسلمين، لا يسألون كيف يد الله وعينه، وقدرته، وعلمه، واستواؤه ونزوله ومجيئه؟ فلقد هُدُوا بفِطْرَتهم السليمة إلى عدم الخوض في المتشابه، وتوكيل العلم به لله، مع تنزيهه وتقديسه ونسبة الكمال له.

٢ ـ **مذهب الخلف** وهم أهل السُنَّة والجماعة الذي جاءوا بعد نهاية القرن الثالث الهجري فذهبوا إلى تأويل **(المتشابه)**، بما يتَّفِقُ مع النصوص **(المحكمة)** التي تنزّهُ الله عن التشبيه، وحملوا الألفاظ على معانٍ مَجازِيَّة تسوغُ في اللغة العربية وتليق بجلال الله. وحُجَّتُهم في التأويل أنّ المطلوبَ صَرْفُ اللفظِ، عن مَقامِ الإهمال الذي يوجِبُ الحَيْرَةَ، وما دام في الإمكان حمل اللفظ **(المتشابه)** على معنى سليم دون معارضته لحكم **(المُحكَم)**، فالنظرُ قاضٍ بوجوبه، ففسَّروا على ذلك الاستواء بتسليط القوة والسُلطان، وفسَّروا اليَدَ بالقُوَّة والكرم، والعَيْنَ بالرِعَايَة، وفسَّروا قوله ﷺ: «**خلق اللّهُ آدمَ على صورته**»، أي إن الله أوجده على الهيئة التي خلقه عليها والتي نعرفه بها، فلم يتطوَّر في النشأة من شكل إلى آخر، ولا تردَّد في الأرحامِ أطواراً كذرّيّته، بل خلقه اللّهُ رجُلاً كاملاً سَوِيّاً ابتداءً.

وهكذا اتفق السلف والخلف على تنزيه الله ﷻ عن مشابهته لخلقه، والحقيقة أن مذهب السلف كان الأفضل في عصره، ومذهب الخلف هو الأفضل في عصره وإلى زماننا هذا، بسبب نشوء المذاهب الفكرية والفلسفات العقلية التي لا تقنع بالتسليم.

مجموعة الأسماء الحسنى المتعلّقة بصفة الوحدانية

بعدما استعرضنا الأسماء الحسنى المتعلقة بصفة مخالفة الله تعالى لمخلوقاته، نذكر مجموعة الأسماء الحسنى المتعلقة بصفة الوحدانية.

85 ـــ الوَاحِد

معنى الوحدانية

إننا حين ننطق بكلمة التوحيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وحين نَصِفُ اللَّهَ تعالى بالوَحْدَانية فإنما نعني بذلك: أنه لا مَعبودَ بِحَقٍّ في الوجود إلا الله، ولا إلٰه يُطاع غيرُه، ولا خالِق سواه، فهو الواحد المطلق في ذاتِه وصفاته وأفعاله، الذي لا شريك له، لا في ربوبيّته وألوهيته، ولا في ذاته وصفاته وأفعاله جلّ وعلا.

والمُراد بوحدانية الذات: انتفاء وُجودِ ذاتٍ أخرى كذاته سبحانه، وانتفاء تعدّد ذاته تعالى، أي عدم قبولها للانقسام أو عدم تركيبها من أجزاء، أي إن ذاته واحِدَةٌ من غير تركيب، ولا تعدُّد بحيثُ يكون هناك إلٰه ثانٍ شريكٌ معه.

والمُرادُ بوحدانية الصفات: انتفاءُ أن يكون لغَيْره صِفَةٌ مِن صفاتِه سُبحانه، فليس لغيره عِلْمٌ كَعِلْمِهِ، أو قُدْرَةٌ كَقُدرته، وانْتِفاءُ أن يكونَ له صِفتان متماثلتان، أو مِن جنس واحد، فيمتنع أن يكونَ له عُلومٌ مُتَعَدِّدَةٌ بحسب المعلومات، بحيث يتمّم بعضُها بعضاً، بل علمه واحد، وهكذا في بقيّة الصفات.

وأمّا الوَحْدانية في الأفعال: فيُرادُ بها انفرادُه تعالى بإيجاد جميع الكائنات، وامتناع إسناد التأثير لغيره تعالى في شيء مِن الممكنات، فهو سبحانه يتصرَّف في ملكه وحده دون أن يشارِكه أَحَدٌ في فعل مِن أفعالِه، ودون أن يكون لأَحَدٍ غيرِه فعل كفعله سبحانه وتعالى، كالخَلْقِ، والرِزْقِ، والإحياءِ، والإماتة.

أهمية الوحدانية: الوَحدانية هي الركيزة الأولى التي يقومُ عليها الإيمان الصحيح باللَّهِ سبحانه وتعالى، وهي ركيزةٌ أساسيَّةٌ كبرى تُمَثِّلُ أعظمَ حقيقةٍ من

الحقائق المَبْثُوثَة في هذا الوُجود، بل إنها تُهَيْمِنُ على الحقائق جميعاً، لذلك كثر التنبيه إليها في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: 163] وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: 73]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19]، فَجعل العِلمَ كله فيها، وقد أرسل اللَّهُ رُسُلَه جميعاً إلى البشر لِيَدْعُوهم بدعوة واحدة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: 25].

أقوال المفسرين

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1 ـ 4]، فالله سبحانه هو الـ ﴿أَحَدٌ﴾ بما يعنيه ذلك من وَحْدَانية وتَفَرُّدٍ في ذاته وصِفاته وأفعاله. وهو ﴿الصَّمَدُ﴾ الغني في ذاته وصفاتِه غِنىً تاماً، وهو الذي يَقْصِدُه ويَرْتجيه العِبادُ لِحاجَتِهم وافْتِقارِهِم إليه في كافة الأحَايين. وأنه ﷻ لم يَنْبَثِقْ عنه ولدٌ، كما لم يَنْبَثِق عن غيره، فهو ليس محتاجاً للبنين والحَفَدَةِ ولا للصواحِبِ والخلائِق، فإن ذلك مِن شأنِ العِبادِ بما يُخالِطُهم من ضعفٍ ونقْصٍ، وأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن النقائص والتفريع والولادة لِتَفَرُّدِهِ بالإلٰهيَّة الكامِلَةِ، والكَمال المُطلق. وهو سبحانه ليس له في الوُجودِ نِدٌّ يُكافِئُه في شأنه وجَلَالِةِ قَدْرِهِ وصِفاته؛ لأنه أَعْظَمُ من كُلِّ عَظِيم، وأَكْبَرُ مِن كُل كَبِير، فلا يُسَاوِيه ولا يُشارِكُه ولا يُدانيه فيها أَحَدٌ، وهكذا جمعتْ سُورَةُ الإخلاص، على وَجازتها وسهولتها وبساطتها، الوَحْدانية المطلقة، وحدانية الذات والصفات والأفعال، ومن الأسماء الحسنى التي تعود لصفة الوحدانية (الواحد، الأحد).

معنى اسمِ اللّهِ (الواحد)

الواحد هو الفرد الذي لم يزل وَحْدَه لم يكن معه شريك، فهو وحْدَه واجبُ الوُجود في ذاتِه وصفاته وأفعاله، وهو وَحْدَهُ المُسْتَحِقّ للعبادَة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

﴿بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ٦٦﴾ [ص: 65، 66].

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (الواحِدُ هو الذي لا يتجزّأ ولا يَتَثَنَّى؛ أما الذي لا يَتَجَزَّأ فكالجوهر الواحد الذي لا ينقسم، فيُقال: إنَّه واحِد، بمعنى أنه لا جُزْءَ له، وكذا النقطة لا جُزْءَ لها، واللَّهُ تعالى واحِدٌ؛ بمعنى أنه يستحيل تقدير الانْقِسَامُ في ذاته.

وأما الذي لا يَتَثَنَّى، فَهُوَ مَن لا نَظيرَ له كالشمس مَثلاً؛ فإنها وإنْ كانت قابِلَةً للانقسام بالوهم، مُتجزِّئَةً في ذاتها؛ لأنها مِن قبيل الأَجْسام، فهي لا نظير لها، إلا أنه يمكن أن يكون لها نظير.

فإن كان في الوُجودِ مَوْجُودٌ يَنْفَرِدُ بخصوص وُجُودِهِ تَفَرُّداً لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُشَارِكَهُ غيرُه، فيه أَصْلاً، فهو الواحِد المُطلَقُ أزلاً وأبداً). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام مجدُ الدين ابنُ الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء اللَّه تعالى: الواحِدُ، هو الفَرْدُ الذي لم يَزَل وَحْدَهُ، ولم يكُنْ معه آخر. قال أبو منصور الأزهري محمد بن أحمد الإمام اللغوي (ت 370 هـ) في كتابه «تهذيب اللغة»: (الفرقُ بين الواحِدِ والأَحَد: أن الأَحَدَ بُنِيَ لنَفيِ ما يُذكَرُ معه مِنَ العَدَدِ. تقول: مَا جَاءَنِي أَحَدٌ، والواحِدُ اسْمٌ بُنِيَ لُمفْتَتَح العَدَدِ، تقولُ: جاءَنِي واحِدٌ مِن الناس، ولا تقول: جَاءَنِي أَحَدٌ، فالواحِدُ مُنْفَرِدٌ بالذاتِ في عَدَمِ المِثلِ والنَظِير، والأَحَدُ مُنْفَرِدٌ بالمعنى). انتهى كلام الأزهري.

وقيل: الواحِدُ هو الذي لا يَتَجَزَّأ ولا يُثَنّى، ولا يقبلُ الانقِسَام، ولا نظيرَ له ولا مِثلَ، ولا يجمَعُ هٰذين الوَصْفَيْن إلّا اللَّهُ تعالى.

أخرج الإمام أبو موسى المديني في «المجموع المغيث في غريبَيْ القرآن والحديث»، عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، أنه قال: «**إنّ اللَّهَ تعالى لم يَرْضَ بالوَحْدَانِية لأَحَدٍ غيْره، شِرارُ أُمَّتِي الوَحْدَانِيُّ المُعْجَبُ بدينه المُرائي بعمله**»، يُريد بالوَحْدَانيّ: المُفَارِقُ للجماعَة، المُنْفَرِدُ بنفسه، وهو منسوبٌ إلى الوَحْدَةِ من الانفِرادِ، بزيادة الألف والنون للمُبالغة) انتهى كلام ابن الأثير الجزري.

86 ـ الأَحَدُ

معناه

أي المُنْفَرِدُ، وهو كالواحد، وقد ورد في بعض روايات الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى أنه منها، وهو مِنَ الأسماء الوَاردة في الشرع قطعاً، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الصمد: 1]، وقد ورد في موضع واحِد من القرآن الكريم، هو هٰذا.

الدليل على وحدانية الله

أما الدليل النقلي: فقولُه تعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الصمد: 1]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19]، وقولُه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: 163]، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدلّ على وحدانيةِ اللّهِ، وترشِدُ العِبَادَ إلى إفْرَادِهِ بالعبادَةِ وحْدَه.

وفي السُّنَّة النبوية ما أخرجه الإمام البخاري في أوّل كتاب التوحيد من «صحيحه» (9/ 140) بسنده إلى ابن عبَّاس ﷺ قال: لمّا بَعثَ النبيُّ ﷺ مُعاذاً نَحْوَ اليَمَن قالَ له: «**إنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْم مِن أَهْلِ الكتابِ، فَلْيَكُنْ أَوّلَ ما تَدْعُوهُم إلى أن يُوَحِّدُوا اللَّهَ تعالى، فإذا عَرَفُواْ ذلك، فَأَخْبِرْهُم أن اللَّهَ فَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَواتٍ في يَوْمِهِم وَلَيْلَتِهِم، فإذا صَلُّوا فأَخْبِرْهُم أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عليهم زكاةً في أَمْوالهم تُؤْخَذُ مِن غَنِيِّهم فَتُرَدُّ على فقيرهم، فإذا أَقَرُّوا بذلك فَخُذْ مِنْهُم، وَتَوَقَّ كرائِمَ أموال الناس**».

وأخرج أيضاً بسنده إلى معاذ بن جبلٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**يا مُعَاذ! أَتَدْرِي ما حَقُّ اللَّهِ على العِبادِ؟** قالَ اللَّهُ ورسولُه أَعْلَمُ، قالَ: «**أن يَعْبُدُوه وَلاَ يُشْرِكُوا به شيئاً، أَتَدْرِي ما حَقُّهم عليه؟**» قالَ: اللّهُ ورسولُه أعلَم، قال: «**أن لا يُعَذِّبَهم**»، أي إن هم وحّدوه بالعِبادة وأَدُّوا حَقَّه.

وأخرج بسنده إلى أبي موسى الأَشعَرِيّ قال: قال النبي ﷺ: «**ما أَحَدٌ أَصْبَرُ**

على أَذَى سَمِعَهُ مِن اللَّهِ، يَدَّعُونَ لهُ الولدَ، ثم يُعافِيهم ويَرْزُقُهُم».

وأما الدليل العَقْلِيُّ: لو نظرنا إلى الساعَة التي تشير إلى الوقتِ، لوجدناها تتركَّب من أجزاءَ متفرِّقة تتعاون كلها لأداء وظيفة واحدة، وإنَّ وَحدانية الخالق في ذاته حقيقةٌ تَتَجَلَّى لِلعَقْلِ والبَصِيرَةِ على نَحْوٍ بَيِّنٍ مَكْشوفٍ، وهي حقيقة نستلهمها في غير ما صُعوبَة من خِلالِ وَحْدَةِ الخَلْق، وَوَحْدَة النظام، ووَحْدَة الغايَة والهَدَف في جَميع الأشياء والكائِنات، كالسَاعة تماماً.

فكلُّ ما في الكوْن من خلائِق وعَوَالِمَ تتشابَهُ في التركيب والنِظام، وكلُّها مِن ثَمَّ تتعاضَدُ وتتسانَد لأداءِ وَظيفةٍ كَوْنِيَّةٍ واحِدَةٍ من خلال قانونٍ دقيقٍ شامِلٍ. وكلُّ ما فيه مِن أُمورٍ وأشياءَ تجري في نَسْقٍ مُطَّرِدٍ عُجَابٍ، دون خَلَلٍ أو اضطرابٍ أو فسادٍ في أرضه وسمائه، في حركة نجومه وكواكبه، في وَحْدَةِ نظام مَجَرّاتِه، في كلّ جامِدٍ أو مُتَحَرِّكٍ، في كل نام أوْ ذِي حَيَاةٍ، في ترابُطِه بعضِهِ بِبَعْضٍ ترابُطاً تاماً مع أن كلَّ جُزْءٍ فيه يَعْمَلُ في نِطَاقِهِ ومَجالِهِ، دونَ أن يكونَ عَمَلُه هٰذا سَبباً في فسادِ عَمَلِ أيِّ جُزءٍ مِن الأجزاء التي لا حَصْرَ لها في هٰذا الكونِ الكبير، فلا شَكَّ أن ذلك كلَّه لَيَدُلُّ أَبْلَغَ دِلالَةٍ على أنَّ الخالِقَ المُهَيْمِنَ على الكَوْنِ كُلِّهِ واحِدٌ، وأنَّهُ لو كان مُتَعَدِّداً لتبايَنَتْ قَوانينُ الكَوْن وَلَتعارَضَتْ، ولانْتَهَى الأَمْرُ إلى التَّصَادُمِ والفَسَادِ في الكَوْنِ.

أمّا عُلماءُ التوحيد فَقَدْ ذَكَرُوا فروضاً عِدَّة لِنَفْيِ التَعَدُّد في الأُلُوهِيَّة، وهي في جملتها تقرير لبعض الحقائق التي لا مِراءَ في ضَرُورَة توفُّرِها لِمَن يجب اعْتِبَارُه إلٰهاً.

فلو كانَ مع الله إلٰهٌ آخَرُ فما هو مَوْقِفُه منه؟ بلْ أوّلاً ما هي مَنْزِلَتُه منه؟

إنْ كانَ دُون مَنْزِلَتِهِ ومكانته سَقَطَتْ أُلوهِيَّتُهُ.

وإن كان أعْلَى منه فهو أَحَقُّ منه بالأُلُوهِيَّة.

وإنْ كانَ مِثْلَهُ فما هي الحُدُودُ والفَواصِلُ بَيْنَ عَمَلَيْهما واختِصاصَيْهما؟ وكيفَ يَنْفُذُ مُرادُهُما مَعاً في الإحياءِ والإماتَةِ، والإشْقاءِ والإسْعاد وغير ذلك.

فإنه إن اتّفقا فلا يُمكن أن يُوجِدا الكونَ معاً، لِئَلّا يلزمُ اجتماعُ مُؤثِّرَيْنِ على أَثَرٍ واحِدٍ.

ولا يمكنُ أن يُوجِداهُ مُرَتّباً، بأنَ يوجِدَه أَحَدُهُما، ثم يُوجِدُه الآخَرْ، لِئَلَّا يَلْزَمُ تَحْصِيلُ الحاصِلِ، وتحصيلُ الحاصِلُ مُحالٌ.

ولا يُمكنُ أن يُوجِدَ أَحَدُهما بَعْضَ الكونِ والآخَرُ بَعْضَهُ الآخَرَ؛ لأنه إذا تعلّقت قدرةُ أَحَدَهما بالبَعْضِ سَدَّ على الآخَرِ تَعَلُّقَ قُدْرَته به، فلا يَقْدِرُ على مُخالفَتِهِ، فيكونُ الإٰله الآخَرُ مَقْهُوراً مَجْبُوراً، أي دون مَنْزِلَتِهِ ومكانته، وهٰذا عَجْزٌ مُنَاف للألوهِية، وهٰذا البرهانُ يُسَمَّى: بُرهانَ التَوارُدِ.

أما إنْ اختلفا بأَنْ أَرَادَ أَحَدُهُما إيجادَ شيءٍ مِنَ الكون، وأرادَ الآخَرُ إعدامَه؛ فإمَّا أنْ يَنْفُذَ مُرادَهُما مَعاً فَيَجْتَمِعُ النقيضانِ، وهو مُحالٌ، أو أن يَنْفُذَ مُرادُ أَحَدِهما، فيظهر عَجْزُ الآخَرِ وهو مُنافٍ للألوهية، أَوْ يَتَصادَمَا ويَتَنَازَعا فلا يُوجَدُ هٰذا ولا ذاك، فيظهرُ عَجْزُهُما معاً، ولو حصل ذلك فعلاً لَتَمَخض عنه فسادُ الكونِ واختلالُ نِظامِه. على أنّ نظامَ الكونِ لم يطرأ عليه فَسَادٌ في سَمائِه أو أرضه، وسُننُ الكونِ المُطَّرَدَةُ قاطِعَةٌ بِصُدُورِها عَنْ إلٰهٍ فَرْدٍ أَحَدٍ صَمَدٍ، ويُسَمَّى هٰذا البُرهانُ: بُرهانَ التمانُع، لِتَمانُعِهما واختلافهما.

ومن أروع البَراهين التي يُسْتَدَلُّ بها في هٰذا الصَدَدِ قول اللّهِ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: 91]، أي إنَّ اللّهَ تعالى لو كانَ معه إلٰهٌ آخَرُ يُشارِكُه في الألوهيَّة، ويَخْلُقُ معه لَذَهَبَ كلُّ واحِدٍ مَذهَباً خاصاً به في الخَلْقِ، وهٰذا يؤدِّي إلى تنافُرِ المخلوقات، وإلى وُقوع الخَلَلِ والاضطراب وفسادِ الكونِ وتَدْميرِهِ بالضرورة كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: 22]، كما يؤدِّي إلى طَلَبِ هؤلاء الآلِهَةِ مُغالَبَةَ اللّهِ ومُزاحَمَةَ ذِي الجلال طلباً لِسِعَةِ المُلْكِ؛ مما يُفْضِي كذلك إلى فَسادِ الكون، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: 42].

الأسماء الحسنى المتعلقة بالصفات السلبية

بعد أن تكلّمنا عن مجموعة الأسماء الحسنى المتعلّقة بالصفة النفسية، والأسماء المتعلقة بالصفات السلبية الخمس، ننتقل للكلام عن مجموعة الأسماءِ الحسنى المتعلّقة بصفات المعاني السبع، وكل هٰذه الصفات كما ذكرنا سابقاً هي مِنْ صِفاتِ الكَمالِ للّٰهِ تعالى العشرين.

ونَقْصِدُ بصفاتِ المَعاني كلَّ صِفَةٍ قائِمَةٍ بذاتِ اللّٰهِ تعالى، وتَسْتَلْزِمُ حُكماً مُعَيَّناً له، كَصِفَةِ العلم مثلاً، فهي تَسْتَلْزِمُ أن يكون المُتَّصِف بها عَليماً. . . وصِفات المعاني لله كَثيرَةٌ، ولكنها تجتمع في سبع صِفاتٍ رئيسية مُعَيَّنَةٍ قام عليها الدليلُ التفصيليُّ مِن الكتاب وهي: العِلْمُ، والإرادةُ، والقُدْرَةُ، والسَمْعُ، والبَصَرُ، والكلامُ، والحَياةُ، وسَنَعْمَدُ إلى بيانِ معنى كلِّ صِفَةٍ مِن هٰذه الصِفاتِ، وذكر أدلّتها، والأسماء الحُسْنَى المتعَلِّقة بها.

أولاً: صفة العلم

هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى مِن شأنها كَشْفُ الأُمورِ والإحاطَةُ بها على ما هي عليه في الماضي والحاضر، وما ستكون عليه في المُسْتَقْبَل. فَعِلْمُ اللّٰهِ ﷻ شامِلٌ مُحيطٌ بكُلِّ شيء، إجمالاً وتفصيلاً، ظاهراً وباطِناً، لم يُسْبَق بِجَهْلٍ، فلا يجوز أن يُقالَ: إن عِلْمَهُ مُكْتَسَبٌ، أي ناشيءٌ عن نظرٍ واستِدْلالٍ، أو مُتَجَدِّدٌ بعد عَدَم، تعالى اللّٰهُ عن ذلك، وما وَرَد ممّا يُوهِمُ اكتِسَابَ عِلْمِهِ فَمُؤَوَّلٌ، كقولِهِ تباركَ وتعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف: 12]، فَظَاهِرُ الآية يوهِمُ تَجَدُّدَ عِلْم اللّٰهِ، والمرادُ ـ واللّٰهُ أعْلَمُ ـ: ثم بعثناهُم ليظهَر لهُم مُتَعَلَّقُ عِلمنا، فتكون ﴿لِنَعْلَمَ﴾، بمعنى لِنُعْلِمَهُمْ، فاللّامُ للعاقِبَة، لا للعِلَّة.

وعِلْمُ اللّٰهِ لا يَعْتَريه نقص ولا نِسْيَان، ولا يَتَقَيَّدُ بزَمانٍ ولا مَكَانٍ، ولا يُمْكِنُ أن يُخَالِفَ الوَاقِعَ، وعلمُه بالكُليّات كَعِلْمِهِ بالجُزئيّات، والشُهُودُ والغَيْبُ لَدَيْهِ سَوَاءٌ، والقريبُ والبَعِيدُ، والقَاصِي والداني سَوَاءٌ. فعِلْمُ اللّٰهِ يُشْرِقُ على كل

شيءٍ فيُجَلِّي بَواطِنَهُ وخَوَافِيَهُ، ويَكْشِفُ بداياتِهِ ونهاياتِه، ويَكْتَنِهُ ذاتَه وصِفَاتِه.

دليلُها: أما الدليلُ النَقْلِيُّ فآياتٌ كثيرة وَرَدَت في كتابِ اللَّهِ تعالى، منها قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: 89]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: 47]. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [التغابن: 4].

وأمّا الدليلُ العَقْليُّ لصفة العلم للَّهِ تعالى فهو ظاهِرَة الإتقانِ البَديع، والإِحْكام الدَّقِيقِ في الأَنْفُسِ والآفاق، فما يبدو في الكون من نظام وإتقانٍ وإحكام ما هو إلّا بُرْهَانٌ ساطِعٌ على شُمولِ علمه، وكمالِ حِكمته سُبْحَانه وتعالى، وأيضاً، لو لم يَتَّصِف اللَّهُ سبحانه بالعِلْمِ، لَلَزِمَ عَليهِ نَقيضُهُ، وهو الجَهْلُ، وذلك يُنافي كمالَ الأُلوهِيَّةِ.

ومن الأسماءَ الحسنى التي تعود إلى صِفَةِ العلم لِلَّهِ تعالى: (العَليمُ، اللَّطِيفُ، الخَبيرُ، الشَهيدُ، الحَسِيبُ، المُحْصِي، الوَاجِدُ، الحفيظ، السَمِيعُ، البصيرُ، الرَّقِيبُ، المُهَيْمِنُ، الواسِعُ، المُؤْمِنُ)، وقد تقدم الكلام عن بعضها، وسنشرح الباقي منها.

87 ـ العَليمُ

معنى العليم

هو ذو العِلْم الكامل الشامِل المُحيط بكلّ شيء، فلا تخفى عليه خافيَةٌ ولا يَغيبُ عن علمه شَيْءٌ في الأرضِ ولا في السماء، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر: 86]، وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في القرآن في (162) موضعاً.

أقوال العلماء

يقول الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي في كتابه «المقصِد الأسنى»: (معنى العليم أنه يُحيطُ علماً بكلِّ شيءٍ ظاهِره وباطِنِه، دقيقهِ وجلِّه، أوَّلِه وآخِرِه، عاقِبَتِهِ وفاتحته، وهٰذا مِن حيثُ الوضوحُ والكشفُ على أتمِّ ما يمكنُ فيه، بحيث لا يُتَصَوَّرُ مشاهَدَةٌ وكَشْفٌ أظهرَ منه، ثم لا يكونُ مُسْتَفاداً مِن المعلوماتِ، بل تكونُ المعلوماتُ مُسْتَفادَةً منه.

للعبدِ حَظٌّ من وَصْفِ العَليمِ لا يكادُ يَخْفَى، ولكن يُفارِقُهُ علمُ اللّٰهِ تعالى في الخواصّ الثلاث:

(أحدها): في المعلومات في كثرتها، فإن معلوماتِ العَبْدِ وإن اتّسَعَتْ فهي مَحْصُورَةٌ في قِلَّةٍ، فأنَّى يناسِبُ ما لا نهايةَ له.

(الثاني): أن كَشفَهُ وإن اتّضَحَ فلا يَبْلُغُ الغايَةَ التي لاَ يكمُنْ وراءها، بل تكونُ مشاهَدتُه للأشياء كأنه يراها مِن وراء سَتْرٍ رَقيقٍ، ولا تُنْكِرَنَّ تَفاوُتَ درجاتِ الكشف، فإن البَصيرَةَ الباطِنَةَ كالبَصَرِ الظاهر، وفرقٌ بين ما يتّضحُ في وَقْتِ الإسفار، وبين ما يَتَّضحُ وقتَ ضَحْوَةِ النهار.

(والثالث): أن علمَ اللّٰهِ تعالى غيرُ مُسْتَفادٍ من الأشياءِ، بل الأشياءُ مُسْتفادَةٌ مِن علمه، وعلمُ العَبْدِ بالأشياء تابعٌ للأشياء وحاصِلٌ بها، فإن اعْتَاصَ عليك فهمُ هٰذا الفرقِ فانْسُبْ عِلْمَ متعلّم الشطرنج إلى علم واضِعه، فاعلم أن الواضِعَ هو سَبَبُ وُجودِ الشَطْرَنج، ووجودُ الشطرنج هو سَبَبُ عِلَم المُتعلِّم، وعلمُ الواضِعِ سابِقٌ على الشطرنج، وعلمُ المتعلِّم مَسْبُوق ومتأخّرَ، فكذلك علمُ الله تعالى بالأشياء سابق عليها وسَبَبٌ لها، وعلمه بخلافِ ذلك.

وشرف العَبْدِ سَبَبُه العِلمُ مِن حيث إنه من صَفاتِ اللّٰهِ تعالى، ولكنَّ العِلْمَ الأَشْرَفَ ما معلومُه أشرفُ، وأشرفُ المعلومات هو اللّٰهُ تعالى، فلذلك كانت معرفةُ اللّٰهِ تعالى أفضلَ المعارفِ، بل معرفة سائرِ الأشياءِ أيضاً لها مَعْرِفَةٌ لأفعالِ اللّٰهِ تعالى، أو معرفةٌ للطريقِ الذي يقرِّبُ العَبْدَ مِن اللّٰهِ، أو الأمرِ الذي يَسْهُلُ به

الوُصُولُ إلى مَعْرِفَةِ اللَّهِ والقُربِ منه، وكلُّ معرفةٍ خارجةٌ عن ذلك فليس فيها كثيرُ شَرَفٍ). انتهى كلام الغَزالي.

88 ـ الخَبير

معناه

هو العالِمُ بكلِّ شيءٍ، المُطَّلِعُ على حقيقته، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴿١٤﴾﴾ [الملك: 14]. وقد ورد هذا الاسم في (55) موضعاً من القرآن الكريم، وجاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العُلماء

يقولُ الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى»: (الخَبيرُ هو الذي لا تعْزُبُ عنه الأخبارُ الباطِنَةُ، ولا يجري في المُلْكِ والمَلَكوتِ شَيْءٌ، ولا تَتَحرَّكُ ذرَّةٌ ولا تَسْكُنُ، ولا يضْطَرِبُ نَفَسٌ ولا يَطْمَئِنُ، إلَّا ويكونُ عندَه خَبَرُه.

وهو بمعنى العليم، لكنَّ العِلْمَ إذا أُضِيفَ إلى الخفايا الباطِنَةِ سُمِّيَ: خِبْرَةً، وسُمِّيَ صاحِبُها: خَبيراً.

حَظّ العَبْدِ مِن ذلك أَن يكونَ خبيراً بما يَجْري في عالَمِه، وعالَمُهُ قَلْبُهُ وبَدَنُه، والخفايا التي يتَّصِفُ القَلْبُ بها مِنَ الغِشِّ والخِيَانَةِ، والتِطْوافِ حَوْلَ العاجِلَةِ، واضمارِ الشَّرِّ، وإظهارِ الخَيْرِ، والتجميلَ بإِظهارِ الإخلاصِ معَ الإفلاسِ عنه، لا يعرفها إلا ذو خِبْرَةٍ بالِغَة، قد خَبَرَ نفسِه ومارَسَها، وعَرَفَ مَكْرَها وتلبيسها وخِدَعَها، فحاذَرها، وتَشَمَّر لمُعاداتِها، وأَخَذَ الحَذَرَ منها، فذلكَ من العَبيد جديرٌ بأنْ يُسَمَّى خبيراً). انتهى كلام الغزالي.

ويَقولُ الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى الخبير، هو العالِمُ بما كانَ، وبما يكون، وبما سيكون. خَبَرْتُ الأمر أَخْبُرُه إذا عَرَفْتَه على حقيقته.

وفي حديث الحُدَيْبِيَة: «أنه ﷺ بعث عَيْناً مِن خُزاعَة، يَتَخَبَّرُ به خَبَرَ قُريش»، أي يَتعَرَّف، يُقالُ تَخَبَّرَ الخَبَر، واسْتَخْبَر: إذا سأل عن الأخبار ليَعْرِفها). انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المُفسِّرين

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: 27]، أي لو أعطاهم فوق حاجَتِهم مِن الرزْقِ لَحَمَلَهُم ذلك على البَغْي والطُغيان مِن بَعْضهم على بعض، أشَراً وبَطراً. وقال قتادةُ: (كان يُقالُ: خَيْرُ العَيْشِ ما لا يُلْهِيكَ، ولا يُطْغيكَ)، وذكر قتادَةُ حديث: «**إنما أخافُ عَليكُم ما يُخْرجُ اللَّهُ تعالى مِن زهرة الحَياةِ الدنيا**»، وسُؤَالُ السائِلِ: أيأتي الخَيْرُ بالشَّرِّ؟ الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي ولٰكن يرزُقُهم مِن الرِزْقِ ما يَخْتارُه مِمّا فيه صَلاحُهُم، وهو أعْلَمُ بذٰلِكَ، فيُغْنِي مَن يَسْتَحِقُّ الغِنَى، ويُفْقِرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الفَقْرَ، كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الأولياء»: «**إن مِن عِبادِي مَن لا يُصْلِحُه إلاّ الغنى، ولو أفْقَرْتُه لأفْسَدْتُ عليه دينَه، وإنَّ مِن عبادِي مَن لا يُصْلِحُه إلا الفقرُ، ولو أغْنَيْتُهُ لأفْسَدْتُ عليه دينه**».

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: 16]. يُقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أيها المُؤمنون أن نَتْرُكَكُم مُهْمَلِينَ لا نَخْتَبِرُكُم بِأُمُورٍ يَظْهَرُ فيها أَهْلُ العَزْمِ الصَّادِقِ مِنَ الكاذِبِ، ولهٰذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، أي إنَّ اللَّهَ يَبتَلِي المؤمنين دائماً بالأعْداء امتحاناً واختباراً لهم، لِيُظهرَ المؤمنينَ الصادِقين من المنافقين، أما المؤمنون فيظهر إيمانُهم وَقْتَ الشدائد والمِحَن والابتلاء والاختبار، فَهُمُ الذين يثبتون ويُجاهِدُون أعداءَ الله بأموالهم وأنفسهم، وهٰذا أمْرٌ ليس بالسهل على المنافِقين الذين لم يدخُل الإيمانُ قلوبَهم، وهم يَعيشُون مع المؤمنين، ويتظاهَرون بالإيمان، فيكشِفُ اللَّهُ نِفاقَهم دائماً بتسليط

الأعداء لِيَنْكَشِفَ المؤمِنُ مِنَ المنافِقِ، ويَميزَ اللّٰهُ الخبيثَ من الطيِّب، ولهٰذا قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في كتاب الصلاة مِن «صحيحه» (1/ 147)، باب ذكرِ العِشاءِ والعتَمَة، عن أبي هريرة ﷺ: «**أثْقَلُ الصلاةِ على المنافِقين العِشاءُ والفَجْرُ**»، وذلك لأنهم في سائر أوقات الصلوات يتظاهَرُون بالإيمان، ويُسَايِرُون المؤمنين وهم مُرْتاحون، أما في هٰذين الوقتين فإنهم يَنْكشِفون للمؤمنين بسبب عدم استطاعتهم على التظاهُر بالإيمان، لما يتطلبه ذلك مِن جُهْد وإرادة ومغالبة نفس، وهٰذا لا يَقدِرُ عليه إلا من قَوِيَ الإيمانُ في نفسه، وصار هَواهُ تبعاً لما جاء به النبي ﷺ من الهدى والحق.

ومِن صفات المؤمنين أيضاً أنهم لا يُصادِقُون، ولا يُوالُون أَعداءَ اللّٰهِ، ولا يُجالِسُونهم ولا يؤاكِلونهم ولا يَثِقُونَ بهم، ولا يَنْضَمُّون لأحزابهم وجمعيَّاتهم ومؤسّساتهم ومدارسهم ونواديهم ومحافلهم، ولا يَسْتعينون بهم في الوظائف والأعمال ولا يستشيرونهم، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، أي بطانةً ودخيلةً، بل هم في الظاهر والباطِن على النُصْح لِلّٰهِ ولِرَسُولِهِ، وقد قالَ تعالى في الآية الأخرى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: 142]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179] والحاصل أنه تعالى لمّا شرع لعباده الجهادَ بيَّن أن فيه حِكمةً، وهو اختبارُ عَبيده، مَن يُطيعه مِمَّن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكونُ، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فيعلمُ الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إلٰه إلا هو ولا ربّ سواه، ولا رادّ لما قدّره وأمضاه، فهو الخبير القدير.

89 ـــ الشَهيد

معناه

الشهيدُ هو العَالِم بكلِّ مَخْلوقٍ عِلْمَ شُهودٍ وحُضُور، فلا يغيب عن عِلْمِهِ

شَيْءٌ قال اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33]، وقد ورد هٰذا الاسم في (20) موضعاً من القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء

يقول الإمام حُجَّة الإسلام، وفيلسوف المسلمين المتكلّم الأصولي الفقيه الزاهد أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الشهيد يرجع معناه إلى العليم، مع خصوص إضافة، فإنه تعالى عالم الغيب والشهادة، والغيبُ: عبارةٌ عمّا بَطَنَ، والشهادَةُ. عِبارَةٌ عما ظَهَرَ، وهو الذي يُشاهَدُ.

فإذا اعتُبرَ العِلْمُ مُطلقاً فهو العليم، وإذا أُضيفَ إلى الغيبِ والأُمورِ الباطِنَةِ فَهُوَ الخَبيرُ، وإذا أضيفَ إلى الأمور الظاهِرَة فهو الشهيدُ.

وقد يُعْتَبَر مع هٰذا أن يشهد على الخلق يوم القِيامَةِ بما عَلِمَ وشاهَد منهم، والكلامُ في هذا الاسم يَقْرُبُ مِن الكلامِ في العليم والخبير) انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المُحدِّث اللغوي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى الشهيد: هو الذي لا يَغيبُ عنه شَيْءٌ، والشاهِدُ: الحاضِرُ، و(**فَعِيلٌ**) مِن أبنيَة المُبالَغَة في (**فَاعِل**) فإذا اعْتُبِرَ العِلْمُ مُطلقاً فهو العَليمُ، وإذا أضيفَ إلى الأُمورِ الباطِنَةِ فهو الخبير، وإذا أُضِيفَ إلى الأمور الظاهِرَة فهو الشهيد، وقد يُعتبر مع هٰذا أن يَشَهَدَ على الخلق يومَ القِيامَةِ بما علم منهم.

ومنه حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**وشهيدك يوم الدين**»، أي شاهدك على أمته يوم القيامة. ومنه الحديث: الذي أخرجه الحميدي في «تفسير غريب ما في الصحيحين»: «**سَيِّدُ الأَيَّام يَوْمُ الجُمُعَةِ، وهو شاهِدٌ**»، أي: هو يَشْهَدُ لِمَن حَضَر صلاتَه، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج: 3]، إن الـ (**شاهِدَ**) يومُ الجمعة، والـ (**مشهود**) يَوْمُ عَرفَةَ؛ لأن الناسَ يشهدُونَهُ، أي يَحْضُرُونه ويجتمعون فيه.

ومنه حديث الصلاة: «**فإنّها مَشْهُودَةٌ مَكْتُوبَةٌ**»، أي تَشْهَدُها الملائِكَةُ وتَكْتُبُ أجْرَهَا للمُصَلِّي.

ومنه حديث صلاة الفجر: «**فإنها مَشْهودَةٌ مَحْضُورَةٌ**»، أي: يَحْضُرها ملائكةُ الليل والنهار؛ هذه صاعِدَةٌ وهٰذه نازِلَةٌ.

ومنه الشهيد من المؤمنين، وفيه الحديث: «**المَبْطونُ شَهيدٌ، والغَرقُ شَهِيدٌ**»، قد تكرَّر ذكر الشهيد والشهادَة في الحديث، والشهيد في الأصل مَن قُتِلَ مُجَاهِداً في سبيلِ اللَّهِ، ويُجمع على شُهَداءَ، ثم اتُسِعَ فيه فأُطْلِقَ على مَن سَمَّاهُ النَّبيُّ ﷺ من المَبْطُونِ والغَرقِ والحَرقِ، وصاحِبِ الهَدْمِ، وذات الجَنْبِ وغيرهم، وسُمِّيَ شهيداً؛ لأنَّ اللَّهَ ومَلائِكَتَهُ شُهُودٌ له بالجنَّة، وقيل: لأنَّه حَيٌّ لم يَمُت، كأنه شاهِدٌ، أي حاضِرٌ، وقيل: لأنّ ملائكةَ الرحمةِ تَشْهَدُه، وقيل: لقيامِهِ بشَهادَة الحقّ في أمْرِ اللَّهِ حتى قُتِلَ، وقيلَ: لأنَّه يَشْهَدُ ما أعدَّ اللَّهُ لهُ مِن الكرامَة بالقَتْلِ، وقيل: غيرُ ذلك. فهو (**فَعِيلٌ**) بمعنى: (**فاعل**) وبمعنى: (**مفعول**) على اختلاف التأويل.

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: 98، 99].

هذا تعنيفٌ مِنَ اللَّهِ تعالى لِلكفَرةِ مِن أهْلِ الكتاب على عِنادِهِم للحقِّ، وكُفْرِهِم بآيات اللَّهِ، وصَدِّهِمْ عن سَبيل اللَّهِ مَن أرادَهُ مِن أهلِ الإيمان بِجَهْدِهِمْ وطاقَتِهِم، مع علمهم بأنَّ ما جاءَ به الرَّسُولُ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، وبما عندهم مِن العِلْم عن الأنبياءِ الأقدمين، والسادَةِ المُرْسَلِينَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهم أجمعين، وما بشَّروا به ونَوَّهوا به من ذكْر النَّبيِّ الأُمِّيِّ الهاشِمِيِّ العَرَبيِّ المَكِّيِّ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، وخاتَم الأنبياءِ ورسولِ رَبِّ الأرضِ والسماءِ، وقد توعَّدَهُمُ اللَّهُ على ذلك، وأخبرَهم بأنه شَهيدٌ على صنيعهم، ذلك بما خالَفُوا ما بِأَيْديهم عن الأنبياءِ، ومعامَلَتِهم الرسولَ المُبشَّر به بالتكذيبِ والجحودِ والعِنادِ، فأخبرَ تعالى أنه ليس

بغافل عما يَعْملون، أي وسَيُجازيهم على ذلك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشعراء: 88].

ثم قال تعالى مُحذِّراً عِبادَه المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: 100، 101]، يُحذِّر تبارك وتعالى عِبادَه المؤمنين أن يُطيعوا طائفَةً مِن أهل الكتاب اليهودِ والنّصارى الذين يَحْسُدون المؤمنين على ما آتاهم اللّهُ مِن فضله، وما مَنَحهُم مِن إرسالِ رسُولِه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109]، وهكذا قال هنا: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾، يعني: أن الكفْرَ بَعيدٌ منكم وحاشاكم منه، فإن آيات اللّهِ مَعَكم وهي تُتلى عليهم ليلاً ونهاراً، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: 8].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال لأصحابه يوماً: «**أيُّ المؤمنين أعجبُ إليكم إيماناً؟**» قالوا: الملائكة، قال: «**وكيف لا يؤمنون والوحيُ يَنْزِلُ عليهم؟!**» قالوا: فنحنُ، قال: «**وكيف لا تؤمِنون وأنا بين أظهُرِكم؟**»، قالوا: فأيّ الناس أعجبُ إيماناً؟ قال: «**قومٌ يَجيئُون مِن بعدِكم يَجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها**».

90 ـــ المُحْصِي

معناه

هو الذي أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ بعِلْمِهِ، فلا يَفُوتُه مِنها دَقِيقٌ، ولا يُعْجِزُهُ جَليلٌ، ولا يَشْغَلُه شَيْءٌ منها عمّا سِواه، أَحْصَى حَركاتِ الخَلْقِ وأنفاسَهُم، وما عَمِلُوهُ مِن حَسَنَةٍ، واجْتَرحُوهُ مِن سَيِّئَةٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: 12]، وقال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المجادلة: 6]. وقد ورد هٰذا الاسم بصيغة الفِعْل في القرآن الكريم في

خمسة مواضع، وجاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء

قال أبو منصور الأزهري في معجمه «تهذيب اللغة»: (فُلانٌ ذو حَصَى، أي ذُو عدد، وهو مِن الإحْصَاءِ، وفلانٌ حَصِيٌّ، وحَصِيفٌ، ومُسْتَحْصِ: إذا كان شديدَ العَقْل، وقال اللَّهُ ﷻ: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: 28]، أي أحاط عِلْمُه باستيفاء عَدَدِ كلِّ شيء، وقال الفَرَّاء في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمّل: 20]، قال: علمَ أن لَن تحفظوا مَواقِيتَ الليلِ). انتهى كلام الأزهري.

وقال الإمام حُجَّةُ الإسلام وفيلسوفهُ النَّظَّارُ المُتكَلِّمُ، الأصولي الفقيه أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت 505 هـ) في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (المُحْصِي هو العالِمُ، ولكن إذا أُضيفَ العِلمُ إلى المعلومات مِن حيثُ يُحْصِي المعلومات ويَعدُّها ويُحيط بها سُمِّيَ إحصاءً، والمُحصِي المُطْلَقُ هو الذي يَنْكَشِفُ في عِلْمِهِ حَدُّ كُلِّ مَعْلومٍ وَعَدَدُه ومَبْلَغُهُ.

والعَبْدُ إن أمكنه أَنْ يُحْصِيَ بعلمه بَعضَ المعلومات، فإنه يَعْجَز عن حَصْرِ أَكْثَرِها. فَمَدْخَلُه في هٰذا الاسم ضعيفٌ كمدخله في أصْلِ صِفَةِ العلم)، انتهى كلامُ الغزالي.

وقال الإمام المُحدِّثُ اللغويُّ مجدُ الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي (ت 606 هـ) في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: المُحْصِي هو الذي أَحْصَى كلَّ شَيْء بعلمه وأحاط به، فلا يفوتُه دقيقٌ منها ولا جَليلٌ، والإحْصَاء: العَدُّ والحِفْظُ.

ومنه الحديث المتّفق عليه: «**إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتسعين اسْمِاً مَن أَحْصَاها دَخلَ الجَنَّة**»، أي مَن أحصاها عِلْماً بها وإيماناً، وقيل: أحصاها: أي حَفظَها على قَلْبه. وقيلَ: أرادَ مَنِ اسْتَخْرَجَها مِنْ كتابِ اللَّهِ تعالى وأحاديثِ رَسُولِهِ؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يَعُدَّها لهم، إلّا ما جاءَ في روايةٍ عن أبي هريرة، وتكلَّمُوا فيها. وقيل: أرادَ

مَن أطاق العمل بمقتضاها، مِثْلُ مَن يَعْلمُ أنه سَمِيعٌ بَصيرٌ، فيَكُفَّ لسانه وسَمْعه عَمَّا لا يجوز له، وكذلك باقي الأسماء. وقيل: أراد مَن أخطر بباله عند ذكرها معناها، وتفكَّر في مَدلولها مُعَظِّماً لِمُسَمّاها، ومُقَدِّساً مُعْتَبِراً بمعانيها، ومُتَدَبِّراً راغِباً فيها وراهِباً، وبالجُملَة ففي كل اسمٍ يجريه على لسانه يُخْطِرُ ببالِهِ الوصْفَ الدالَّ عليه.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع والسجود، الحديث (1090): «**لا أُحْصِي ثَناءً عليك، أنتَ كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِك**» أي: لا أُحْصِي نِعَمَكَ، والثناءَ بها عليك، ولا أبْلُغُ الواجبَ فيه.

وأخرج أيضاً في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهَذِّ، الحدث (1905): «جاءَ رجلٌ يُقالُ له: نِهَيكُ ابنُ سِنان إلى عبد اللّهِ بن مسعود فقالَ: يا أبا عبد الرحمٰن! كيفَ تقرأُ هٰذا الحرفَ؟ أَلِفاً تَجِدُهُ أم ياءً: ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: 15]، أو من ماءٍ غيْرِ ياسِنٍ، فقالَ عبدُ اللّهِ: وكُلَّ القُرآنِ أَحْصَيْتَ غَيْرَ هٰذا؟» أي حَفِظْتَ). انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يٓس: 12].

يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي يومَ القيامة، وفيه إثبات البَعْث، وكذلك فيه إشارة إلى أن الله يُحْيِي قَلْبَ مَن يشاءُ من الذين ماتَت قلوبُهم بالضلالة، فيهديهم إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذِكر قَسْوَةِ القلوب: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: 17].

وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ أي مِنَ الأعمال، وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قَوْلان: (**أحَدُهما**): نكتبُ أعمالهم التي باشروها بأنفُسِهم، وآثارهم التي آثروها مَن بَعْدَهُم، فنجزيهم على ذلك أيضاً، إنْ خَيْراً فَخَيْرٌ، وإنْ شَرّاً فَشَرٌّ، كقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مُسْلِم في «صحيحه» بسنده إلى جرير

ابن عبد الله البَجَلِيّ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً كان له أجْرُها، وأجْرُ مَن عَمِلَ بها مِن بعده، مِن غيْرِ أن يَنْقُصَ مِن أُجُورهم شيئاً، ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئَةً كان عليه وِزْرُها، ووِزْرُ مَن عمل بها مِن بَعْدِهِ مِن غيْرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارهم شَيْءٌ**»، وأخرج أيضاً، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا ماتَ ابنُ آدَمَ انقطع عَمَلُه إلاّ مِن ثلاثٍ: مِن عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالِحٍ يَدْعُو له، أو صدَقَةٍ جارِيَةٍ مِن بَعده**». **(والقول الثاني)** أنّ المُرادَ بذلك آثارَ خُطاهُم إلى الطاعَةِ أو المعْصِيَة. قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ قال: أعمالهم ﴿وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾، قال: خُطاهم بأرجُلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أي وجميعُ الكائناتِ مكتوبٌ في كتاب مَسْطُورٍ مَضْبوطٍ في لوحٍ محفوظ، والإمامُ المُبينُ هٰهنا هو أمُّ الكتاب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ [الإسراء: 71]، أي بكتاب أعمالهم الشاهِدِ عليهم بما عملوه مِن خير أو شَرٍّ، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49].

الأسماء المتعلقة بصفات الكمال - العلم

91 ـــ السَمِيعُ

معناه

السَمِيعُ (**فَعِيلٌ**) مبالغةٌ لِـ (**فاعِل**) فهو السامِعُ، أي الكاشِفُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ بِصِفَةِ السَمْعِ، وكشفُ الأشياءِ بالسَمْع نَوْعٌ مِنَ العِلْمِ.

والسَّمْعُ صِفَةٌ أَزَلِيَّةٌ قائِمةٌ بذاته تعالى، تَتَعَلَّقُ بالموجودات تَعَلُّقَ إحاطَةٍ وانكشاف، لا بالمسموعاتِ فقط، خلافاً للتفتازاني.

فاللّهُ سُبْحَانَه يَسْمَع كُلَّ شَيْءٍ، ويُشْرِفُ بِسَمْعِه على كل حَرَكَةٍ وسَكَنَةٍ في الوُجُودِ تَنْبَعِثُ مِن مَصدَرِها القَريب أو البَعِيدِ، ولَيْسَ هناك قُرْبٌ ولا بُعْدٌ بالنِسْبَةِ إلى اللّهِ، فيعلمُ كُنْهَها ويَسْمَعُ صوتها، حتى إنه يَسْمَعُ دَبِيبَ النَمْلَةِ السَوْداءِ على الصَّخْرَةِ المَلْسَاءِ في الليلةِ الظَلْماء، ويَسْمَعُ خَفَقانَ القُلوبِ في حنايا الخَلْقِ أجمعينَ، ولا يمنعُه سماعُه تعالى جماعَةً عن سماعِهِ جماعَةً آخرين، فما يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عن شَأْنٍ، وما تَغيبُ عنه هَمْسَةٌ وَسْط الضجيج، ولا تَشْتَبِهُ عليه لُغَةٌ على اختلاف الأَلْسِنَةِ.

ولا يَفْتَقِرُ سَمْعُهُ تعالى إلى جارِحَةٍ أو أُذُنٍ أَوْ صِماخٍ، ولا يَحتاجُ إلى واسِطَةٍ كالهَواءِ، ولا إلى شَيْءٍ ممّا يحتاجُ إليه الإنسانُ وغيرُه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11].

دليله: من النقل قولُه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: 1]، وقولُه تعالى وقد أرسلَ موسى وهارونَ عليهما السلامُ إلى فِرْعَوْنَ: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ﴾ [طه: 46]. وقد ورد اسمُ اللّهِ السميع في (47) موضعاً من القرآنِ الكريم.

ومِنَ السُنَّة حديث أبي هريرة الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى التسعة والتسعين، الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه في «سننهما»، والبَيْهَقِي في «الدعوات»، وقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في كتاب التوحيد، الحديث (6952) في الحج للناس، وقد رفَعَ الناسُ أصواتَهم بالتَلْبِيَةِ والتكبير: «**ارْبَعُوا** - أي أَشْفِقوا - **على أَنْفُسِكُم فإنكم لا تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غائباً، تَدْعُونَ سَميعاً بَصيراً**».

ودليله من العقل أن يُقال فيه: لو لم يَتَّصِفُ سبحانه بالسَمْع لَاتَّصَفَ بضدها وهي الصَمَمُ، ولَلَزِمَ النَقْصُ في حقه سُبْحَانه، والنَقْصُ عليه مُحالٌ؛ لأنه مُنافٍ لِكمالِ الأُلوهِيَّة فَثَبَتَ كَونه سمعياً.

واختلفَ العلماءُ في مدى شمول وتعلّق صفة السمع، فقال الإمامان، محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ)، وإبراهيم بن محمد الباجوري (ت 1277هـ) في عقيدَتَيْهما أنها شاملةٌ لجميع الموجودات، أي إن سَمْعَهُ تعالى يتعلّق بما هو قابل للسمع بالنسبة إلينا، وبما هو غير قابل له مِن سائِر المَوْجُودَات. وقال سَعْد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت 793 هـ): إنّ صفةَ السَمْعِ تَتَعَلَّقُ بالمسموعات، فلا تتعلق عنده بكل الموجودات.

والذي يجب أن نقفَ عنده هو تفويضُ الأمرِ إلى علم اللَّهِ تعالى، والاعتقاد أن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالعلم، وإلّا لما كان في إسْنَادِ كُلٍّ منهما إليه تعالى على حِدَة، أيّ معنى غير التكرار وهو مُحال، وليس الأمرُ على ما نعهده من أن السَمْعَ يفيد وضوحاً فوق العلم، بل جميعُ صفاته تعالى تامَّةٌ كامِلة، ويسْتَحيل عليه الخفاء والزيادةُ والنَقْصُ، وحَسْبُنا في هٰذه الأُمور التي لا نافِذَةَ للعقل إلى الإثباتِ والإنكار فيها، أن نُثْبِتَ ما أَثْبَتَهُ اللَّهُ تعالى لنفسه، وأَنْ نَكِلَ علمَ ما لم يأتِنا خَبَرٌ منه وبيانٌ إلى اللَّهِ ﷻ.

أقوال العُلماء

يقولُ حُجَّةُ الإسلام، وفَيْلَسُوفُه الإمامُ المُتَكَلِّمُ النَّظَّار، الأصولي الفقيه، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (السميعُ هو الذي لا يَعْزُبُ عن إدراكه مَسْمُوعٌ وإنْ خَفِيَ، فيدركُ دَبيبَ النَملَةِ السَوْدَاءِ على الصَخْرَةِ الصَّمَّاءِ في اللَّيْلَةِ

الظلْمَاءِ، يسمع حَمْدَ الحامِدينَ فيجازيهم، ودُعَاءَ الداعينَ فيَسْتَجِيبُ لهم، ويسْمَعُ بغير أَصْمِخَةٍ وأُذُن، كما يَفْعَلُ بغير جارِحَةٍ، ويتكلّمُ بِغَيْرِ لِسان، وسَمْعُه مُنَزَّهٌ عن أن يتطرَّقَ إليه الحَدَثان.

ومهما نَزَّهْتَ السَمْعَ عن تغيير يَعْتَريهِ عندَ حُدوث المَسْموعات، وقَدَّسْتَهُ عن أن يَسْمَعَ بأذن أو آلَةٍ وأَداةٍ، علمتَ أَنَّ السَمْعَ في حَقِّهِ، عِبَارَةٌ عن صِفَةٍ يَكْشِفُ بها كمال صِفاتِ المَسْمُوعَاتِ، ومَن لَمْ يُدَقِّق نظراً فيه وقع بالضَّرورَةِ في مَحْضِ التشبيه فخذ مِنكَ حَذَرَك، ودَقِّق فيه نظرك.

للعَبْدِ مِن حيثُ الحِسِّ حَظٌّ في السَمْعِ، لكنه قاصِرٌ، فإنه لا يُدْرِكُ جميعَ المَسْمُوعَاتِ بل ما قَرُبَ مِنَ الأَصْواتِ، ثُمّ إنّ إدراكه لحاجَتِهِ بأداةٍ مُعَرَّضَةٍ للآفاتِ، فإنْ خَفِيَ الصَوْتُ قَصُرَ عَنِ الإِدْرَاكِ، وإنْ بَعُدَ لم يُدْرَكْ، وإنْ عَظُمَ الصوتُ ربَّما بَطَلَ السَمْعُ واضْمَحلَّ.

وإنما حَظّهُ الدينيُّ مِنهُ أَمْرانِ: **(أَحَدُهما)**: أن يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ فَيَحْفَظَ لسانَه. **(والثاني)**: أن يَعْلَمَ أنه لم يُخْلَقْ له السَمْعُ، إلاّ لِيَسْمَعَ كلامَ اللَّهِ تعالى ـ أي كتابَه الذي أنزله وهو القرآنُ الكريمُ ـ فَيَسْتَفِيدُ به الهِدَايَةَ إلى طَريقِ اللَّهِ، فلا يَسْتَعْمِلُ سَمْعَه إلا فيه). انتهى كلامُ الغزالي.

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: 200]، أَصْلُ النَزْغِ الفَسَادُ، إمّا بالغَضَبِ أو غيره، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: 53]، والعِيَاذُ: الالتِجاءُ والاسْتِنادُ والاسْتِجارَةُ مِنَ الشَّرّ، وأمّا الملاذُ ففي طلب الخَيْر. يقول ابن جرير الطَبَرِيُّ في تفسير هٰذه الآية: وإما يُغْضِبَنَّكَ مِنَ الشيطانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَن الإعراض عَنِ الجاهِلِ، ويَحْمِلُكَ على مُجازاته ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، يقولُ: فاسْتَجِرْ باللَّهِ مِن نَزْغ الشيطان ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سَمِيعٌ لِجَهلِ الجاهِلِ عليك والاستعاذة به من نَزْغه ولِغَيْر ذلك مِن كلام خَلْقِهِ، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يُذهب عَنكَ نَزْغَ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه، وفي الحديث:

أن رجلين تسابّا بحضرة النبيّ ﷺ، فَغَضِبَ أحَدُهما حتى جَعَلَ أَنْفَهُ يَتمَرَّغُ غَضباً فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إني لأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالها لَذَهَبَ عنهُ ما يَجِدُ، أعوذُ باللّهِ مِن الشيطان الرجيم**»، (أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق من «صحيحه» (٤/ ٢٥٢)، باب صفَة إبليس وجنوده، الحديث (٣٢٨٢)، عن سُليمان بن صُرَد ﷺ).

92 ــ البَصِيرُ

معناه

البَصيرُ على وزن (**فَعِيل**) صيغة مبالغة لـ (**فاعِل**) فهو الباصِرُ، أي الكاشفُ لكُلِّ مَوْجُودٍ بصفَةِ البَصَر، وكشْفُ الأشياء بالبَصَر نوْعٌ مِن العِلم. ويُقالُ: البَصيرُ العالِمُ بِخَفّيات الأُمور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: 20]، وقد ورد هذا الاسم في القرآن في (51) موضعاً، كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماءِ اللّه الحُسْنَى، والبَصَرُ صِفَةٌ أزلية قائِمةٌ بِذاتِه تعالى تتعلق بالموجودات تعلقَ إحاطةٍ وإنكِشافٍ لا بالمُبْصَراتِ فقط خلافاً لسعد الدين مسعود ابن عمر التفتازاني (ت 793 هـ).

فاللَّهُ سبحانَه وتعالى يَرَى كلَّ شَيْءٍ رُؤيَةً شامِلَةٍ تَسْتَوْعِبُ كلَّ الكائِناتِ مِن بدْءِ الخلق إلى قِيام الساعَة وما قبل ذلك وما بعدَه. ورؤيَتُه سُبْحانه تَنْظُر في أعماق الظُّلُماتِ فَتَسْتَشِفُّ كوامِنَها، فما هو بحاجَةٍ إلى ضِيَاءٍ يُبْصِرُ به الخَفِيَّ، أو مُكَبِّر يُعَظِّمُ به الدَقيقَ، وفي هٰذا قال الشاعر:

يَا مَن يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَناحَها في ظُلْمَةِ اللَيلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ

وكذلك ما هو بحاجَةٍ إلى حَدَقةٍ وأَجْفَانٍ أو حاسَّةٍ في رؤيَتِهِ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11].

وهو سُبحانه قد مَنَح البَشَر نِعْمَةَ البَصَرِ، ولكن ما قيمةُ رُؤْيَتِهم إلى جانب الرؤيَةِ الإلٰهيّة المُحِيطَةِ الشامِلَةِ، سواءٌ فيها المُسْتَخْفِي بالليل والسَارِبُ بالنهار، الخالِي وحْدَهُ، والبارزُ للناس، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: 61].

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (البَصيرُ هو الذي يُشاهِدُ ويَرَى حتى لا يَعْزُبُ عنه ما تَحْتَ الثَرَى، وإبْصارُهُ أيضاً مُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يكونَ بِحَدَقَةٍ وأَجْفَانٍ، ومُقَدَّسٌ عَنْ أَنْ يَرْجِعَ إلى انْطِباعِ الصُّوَرِ والألوانِ في ذاته كما ينطبع في حَدَقَةِ الإنسان، فإنّ ذلك من التأثُّر والتَغيُّرِ المُقْتَضِي للحَدَثان، وإذا نُزِّهَ عن ذلك كان البَصَرُ في حَقِّه عبارَةً عن الصِفَةِ التي يَنكشِفُ بها كمالُ نُعوتِ المُبْصَراتِ، وذلك أوضَحُ وأَجْلَى مما تَفْهَمُه مِن إدراكِ البَصَرِ القاصِرِ على ظواهِرِ المَرئِيّات.

حَظُ العَبْدِ مِن حيثُ الحِسِّ مِن وَصْفِ البَصَرِ ظاهِرٌ، ولكنه ضعيفٌ قاصِرٌ؛ إذ لا يَمْتَدُّ إلى ما بَعُدَ، ولا يَتَغَلْغَلُ إلى باطِن ما قَرُبَ، بل يتناوَلُ الظواهِرَ، ويَقْصُرُ عن البواطِنِ والسرائِر، وإنما حظّه الديني منه أَمْران:

(أحدُهما): أن يعلمَ أنه خُلِقَ له البَصَرُ لِيَنْظُرَ إلى الآياتِ وعجائب المَلَكُوتِ والسمٰوات، فلا يكونُ نظرهُ إلا عِبْرَةً. قيلَ لعيسَى عليه السلام: هل أَحَدٌ مِنَ الخَلْقِ مِثْلُكَ؟ فقال: مَن كان نَظرُهُ عِبْرَةً، وصَمْتُهُ فِكْرَةً، وكَلامُهُ ذِكراً فَهُوَ مِثْلِي.

(والثاني): أَنْ يَعْلَمَ أنه بِمَرْأَى مِنَ اللّهِ تعالَى ومَسْمَع، فلا يَسْتَهينُ بِنَظَرِهِ إليه واطِّلاَعِه عليه، ومَن أَخفَى عَن غَيْرِ اللّهِ ما لا يُخْفِيهِ عنِ اللّهِ تعالى، فقد استهانَ بنظرة الله تعالى، والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان بهذه الصفة، فمن قارب مَعْصِيَةً، وهو يَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ تعالى يَراهُ فما أَجْرَأَهُ وما أَخْسَرَهُ!! وإنْ ظَنَّ أَنَّ اللّهَ تعالى لا يَراهُ فما أَكْفَرَهُ!). انتهى كلام الغزالي.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

ٱلْبَلَـٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: 18 ـ 20].

شَهِدَ تعالى وكفى به شهيداً وهو أَصْدَقُ الشاهدين وأَعْدَلُهُمْ، وأَصْدَقُ القائلين ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي المُنفَرِدُ بالإِلْهيّةِ لجميع الخلائِقِ، وأن الجَميعَ عبيدُه وخَلْقُه، وفُقراءُ إليه، وهو الغنيُّ عمّا سِواه، ثم قَرَنَ شهادَةَ ملائِكَتِهِ وأولي العلم بِشهادَتِهِ، وهٰذه خصوصيَّةٌ عَظيمةٌ للعلماء في هٰذا المقام ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾، أي بالعَدْل، ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُرَامُ جنابُه عَظمةً وكِبْرِيَاءً ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعالِه وشَرْعِهِ وقَدْرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُۗ﴾ إخبارٌ منه تعالى بأنه لا دينَ عِنده يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الإسلام، وهو اتّباعُ الرُّسُلِ فيما بعثهم به في كل حِين حتّى خُتِمُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ الذي سُدَّ جمِيعُ الطرُقِ إلى اللّهِ، إلّا مِن جِهَة محمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ لَقِيَ اللّهَ بَعْدَ بِعْثَةِ محمد ﷺ بدِينٍ على غَيْرِ شَرِيعَتِهِ فليس بمقبولٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85].

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتابَ الأولَ وهم اليهودُ والنصارَى، إنما اختلفوا بعدما قامَت عليْهِمُ الحُجَّةُ بإرسال الرُسُلِ إليهم، وإنزالِ الكتبِ عليهم فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ﴾، أي بَغى بَعْضُهم على بَعْضٍ فاختلفوا في الحق لتحاسُدِهم وتَبَاغُضِهِم وتَدابُرِهم، فحملَ بَعْضُهم بُغْضُ البَعْضِ الآخَر على مخالفته في جميع أقوالِهِ وأفعالِهِ وإن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي مَن جَحَدَ ما أَنْزَلَ اللّهُ في كتابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي فإنَّ اللّهَ سَيُجَازِيه على ذلك ويُحاسِبُه على ذلكَ ويحاسِبُه على تكذيبِهِ ويعاقِبُه على مخالفته كتابَه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾، أي جادَلوكَ في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾، أي فقل: أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي للّهِ وحده لا شريكَ له، ولا نِدَّ ولا وَلَدَ ولا صاحِبَةَ له ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ على دِيني من المسلمين يقولُ مقالتي، ثم قال تعالى آمِراً لعبده ورسولِه محمدٍ ﷺ، أن يدعو إلى طَريقتِهِ ودينه والدخول في شرعِهِ، وما بعثه الله به اليهودَ والنصارى والمشركين العرب فقال تعالى: ﴿وَقُل

﴿لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، أي هو عليمٌ بمن يستحق الهداية ممّن لا يستحقُّها، وهٰذه الآية دليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق.

93 ـــ الرَّقِيبُ

معناه

الذي يُراقِبُ الأشياءَ ويُلاحِظُها، فلا يَغيبُ عن علمه مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52]، وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، وهو مجمعٌ عليه، وورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ حُجَّةُ الإسلام، وفيلسوفه الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللّٰه الحُسْنى»: (الرَّقِيبُ هو العليمُ الحَفيظُ، فَمَنْ راعى الشَّيْءَ حتّى لم يَغْفُلْ عنه، ولاحَظَه ملاحَظَةً دائمَةً لازِمَةً لُزوماً لو عرفه المَمْنُوعُ عنه لما أقْدَم عليه سُمِّيَ: رقيباً. وكأنه يَرْجِعُ إلى العلم والحِفظِ، ولكن باعتبار كونه لازماً دائماً، وبالإضافة إلى مَمْنُوعٍ مَحْرُوسٍ عن التَنَاوُلِ.

وصفُ المُراقَبَةِ لِلعَبْدِ إنما يُحْمَدُ إذا كانت مُراقَبَتُه لِرَبِّه بقَلْبِهِ؛ وذلك بأنْ يَعْلَمَ أنَّ اللَّهَ رَقيبُه وشاهِدُه في كل شَيْءٍ، ويَعْلَمَ أنَّ نَفْسَهُ عَدُوٌّ له، وأَنَّ الشَّيْطانَ عَدُوٌّ له وأنَّهما ـ أي نفسُه والشيطان ـ يَنْتَهِزَانِ منه الفُرَصَ حتّى يَحْمِلاهُ على الغَفْلَةِ والمُخَالَفَةِ، فيأخُذُ منهما حِذْرَهُ بأنْ يُلاحِظَ مَكامِنَهما أو تلبيسهما ومَواضِعَ انبعاثِهما، حتى يَسُدَّ عليهما المنافِذَ والمَجارِي، فهٰذه هي مُراقَبَتُه). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المُحدِّث اللُّغَوِيُّ مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى الرقيبُ هو الحافِظُ الذي لا يَغيبُ عنه شيء. **(فَعيلٌ)** بمعنى: **(فاعِلٌ)**.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول اللّهِ ﷺ، الحديث (3713): «**ارْقُبوا مُحَمَّداً في أَهْلِ بَيْتِهِ**»، أيّ احْفَظُوهُ فيهم.

ومنه الحديث: «**ما مِن نبيٍّ إلاّ أُعْطِيَ سَبْعَةَ نُجَبَاءَ رُقَبَاءَ**»، أَي حَفَظَةً يكونون معه)، انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: 116 ـ 118].

هٰذا مما يخاطِبُ اللّهُ به عَبْدَهُ ورَسُولَه عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﷺ، قائلاً له يومَ القِيامَةِ بِحَضْرَةِ مَن اتَّخذَهُ وأُمَّهُ إلٰهينِ مِن دُونِ اللّهِ، ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهٰذا تهديدٌ للنَّصارَى وتوبيخ وتَقْريعٌ على رُؤُوسِ الأَشْهَادِ، هكذا قال قتادَةُ وغيره مِن المفسّرين، واستدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119]، أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» بسنده إلى عُبادَةَ بن الصامِت ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال: «**مَن شَهِدَ أن لا إلٰهَ إلا اللّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأن محمداً عبدُه ورسوله، وأن عيسى عبدُ اللّهِ ورسولُهُ وكَلِمَتُه ألقاها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منه، وأن الجنَّة حَقٌّ والنارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللّهُ الجنَّة على ما كان مِن العمل**». وقد أمرهم الله بالإيمان فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: 171]، أي فَصدِّقوا بأن اللّهَ واحِدٌ أَحَدٌ لا وَلَدَ له ولا صاحِبَةَ، واعلموا وتيقّنوا بأن عيسى عبدُ اللّهِ ورسوله، وكذلك محمدٌ ﷺ رسولُ اللّه، وقد بَشّر عيسى قومه به، وقال تعالى ناهِياً إياهم عن الشرك: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمّه مع اللّهِ شريكين، تعالى اللّهُ عن ذلك علوّاً كبيراً، وبين أن قائِل ذلك كافرٌ فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ

﴿إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: 73]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، والنصارى مِن جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حدّ، بل أقوالُهم وضلالهم منتشر، فمنهم مَن يعتقد عيسى إلٰهاً، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وآراء غير مؤتلفة، وقد ذكر بطرك الاسكندرية سعيد بن بطريق: أن القولَ بأن عيسى هو ابنُ اللّه أُقِرَّ في «مجمع نِيقْيَة» الذي عقده قسطنطين عام 330 م.

وقولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، هذا توفيقٌ للتأدّب في الجواب الكامل. وقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، أي إن كان صَدَرَ مِنّي هٰذا فقد عَلِمتَه يا ربّ، فإنه لا يَخفى عليك شيء، فما قُلْتُه، ولا أَرَدْتُه في نفسي، ولا أَضْمَرْتُه، ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، أي بإبلاغه ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، أي ما دعوتُهم إلّا إلى الذي أرسلتني به وأمَرْتَني بإبلاغه ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾، أي هٰذا هو الذي قلتُ لهم.

وقولُه: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ﴾، أي كنتُ أشْهَدُ على أعمالِهم حين كنتُ بين أظْهرُهِم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾. أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» في كتاب التفسير، عند هذه الآية، عن ابن عباس قال: «قام فينا رسول اللّه ﷺ بموعِظَةٍ فقال: **يا أيُّها الناسُ إنكم محشورون إلى اللّهِ ﷻ حُفاةً عُراةً غُرْلاً** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، **وإنّ أوَّلَ الخلائِق يُكْسَى يومَ القيامَةِ إبراهيمُ، ألا وإنّه يُجاءُ برجالٍ مِن أُمَّتي** ـ أي خالفوا دينه ولم يتّبعوه ـ **فيُؤخذ بهم ذاتَ الشمالِ، فأقولُ: أصحابي! فيُقالُ: إنّك لا تدري ما أحْدَثُوا بعْدَكَ، فأقولُ كما قال العَبْدُ الصالِحُ:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، **فيُقالُ: إنّ هؤلاء لم يزالوا مُرْتَدّين على أعقابهم منذ فارَقْتَهم**».

وقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، هٰذا الكلام يَتضمّنُ ردَّ المَشيئَةِ إلى اللّهِ فإنّه الفعّال لما يشاءُ،

الذي لا يُسْألُ عما يفعلْ وهم يُسْألون، ويتضمّن التبرِّي من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا للّهِ نِدّاً وصاحِبَةً وولداً، تعالى اللّهُ عما يقولون عُلُوّاً كبيراً، وهٰذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث: أن النبيَّ ﷺ قامَ بها ليلةً حتى الصباحَ يُردِّدُها.

الأسماء المتعلّقة بصفة القدرة

بعد الانتهاء من ذكر الأسماء الحسنى المتعلقة بصفة العلم، ننتقل لذكر مجموعة الأسماء الحسنى المتعلّقة بصفة القُدْرَة.

القدرة: لغةً القوّةُ والاستطاعَةُ. واصطلاحاً: صِفَةٌ أَزَليَّةٌ قَائمة بِذاتِهِ تعالى مِن شأنها إيجادُ كلَّ مُمْكِنٍ وإعدامُه وتكيْيفُه وفقَ ما خَصَّصَتْهُ الإرادَةُ أزلاً.

وقُدْرَةُ اللَّهِ سبحانه وقُوَّتُه لا تُشْبِهِ مِن قريبٍ ولا مِن بعيدٍ قدرات البَشَرِ وقُواهم فَقُدْرَتُهُ تعالى كامِلةٌ لا يعتريها عَجْزٌ ولا فُتورٌ، وهي شامِلَةٌ لجميع المَوْجُودَاتِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45]، فلا يُعْجِزُهُ سبحانه شَيْءٌ، ولا يَفُوتُه شَيْءٌ، ولا يَحُولُ دون إرادَتِهِ شَيْءٌ، ولا يحِدُّ تنفيذَ مَشيئَتِهِ شيءٌ، يَخلُقُ ما يشاءُ، ويَفعَلُ ما يُريدُ، وهو قادِرٌ على ما يُريدُ، وقدْرَتُه سبحانه ذاتِيَّةٌ غيرُ مُسْتَمَدَّةٍ مِن شيءٍ، وهي مُطْلَقَةٌ لا متناهِيَة، لا يَردُ عليها قَيْدٌ مِن مألوفِ الحِسِّ أو مألوفِ العَقلِ أو الخيال، فهي وراءَ كلِّ ما يَخْطُرُ للبشر على أية حال.

والبَشَرُ وإنْ وُصِفُوا بالقُدْرَةِ والقُوَّةِ فإنّ قُواهُم وقُدْرَاتِهم متناهِيَةٌ مَحْدُودة، وعن بَعْضِ الأُمورِ قاصِرَةٌ، ثم هي ليست ذاتيَّة مُسْتَمِدَّةً مِن طبيعتهم المجرَّدة، إنما هي أَثَرٌ لِقُدْرَة اللَّهِ سُبْحَانه وتعالى.

دليلها من النقل: قوله تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: 1]، وغيرها من الآيات.

ومن العقل: فإن التأمُّلَ اليَسِيرَ في السمٰواتِ والأرض، والليلِ والنهارِ، والحَياةِ والمَوْتِ، وما يَجْرِي من شؤونٍ في كلِ لحظَةٍ، يَهْدِي إلى مَعْرِفَة القُدْرَةِ الباهِرَةِ؛ لأنّ ظاهِرَةَ العملِ الكبير الضخم الذي يتطلَّب قدرةً عظيمةً، تدلُّ بداهَةً على أن مَن قام بهٰذا العَمَلِ الكَبير، لديه مِن القدرة ما يكفي للقيامِ به، فصدور

هٰذا الكون بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وما فيه مِن حَركة وسكون ونظام ما هو إلاّ مظهر مِن مظاهِر قُدرَةِ اللَّهِ وعظمته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴿٣٨﴾﴾ [ق: 38].

ولو لم يتَّصِف اللَّهُ تعالى بالقُدْرَةِ لَاتَّصَفَ بضدِّها، وهو العَجْزُ، ولو كان مُتَّصِفاً بالعَجْزِ لما ظهرَ شيءٌ مِن هٰذا الكون، كيف وقد ظهَرَ؟ فَظُهُورُها منافٍ للعجز، وبانتِفائه تثبتُ القُدرَةُ.

ومن الأسماء الحسنى التي تعود إلى صفة القدرة: (القويّ، المتين، القادر، المقتدر، الواجد، العزيز، المُقيت، مالك الملك، الوارث، المَلِك). وتقدّم الكلام عن بعض هٰذه الأسماء، وسنشرح ما تبقّى منها.

94 ــ القَوِيُّ

مَعْنَى القَوِيِّ

بمعنى القادر، ومَن قَوِيَ على شيء فقد قَدَرَ عليه، ويكون معناه التامُّ القُوَّةِ الذي لا يسْتَوْلِي عليه العَجْزُ في حالٍ من الأَحْوَالِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: 66]، وقد ورد هٰذا الاسم في تسعة مواضع من القرآن الكريم.

أقوال العلماء في معناه

يَقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللَّه الحسنى»: (القُوَّةُ تدلُّ على القدرة التامَّة، فاللَّهِ تعالى مِن حيثُ إنه بالغُ القدرة تامُّها قويٌّ، وذلك يرجع إلى معنى القُدرة). انتهى كلام الغزالي.

ويقولُ الإمام أبو منصور الأزهري (ت 370هـ) في معجمه «تهذيب اللغة»: (يقال: قَوِيَ الرَّجُلُ يَقْوَى قُوَّةً، فهو قَوِيٌّ، وجمع القُوَّةِ: قُوًى، قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴿٥﴾﴾ [النجم: 5]، قيل: هو جبريل. وقال اللَّهُ لِمُوسَى عليه السلام حين

كتبَ له الألواح: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 145]، قال الزجّاجُ: أي خُذْها بقُوَّةٍ في دِينك وحُجّتِكَ، وقال اللّهُ ﷻ ليحيىٰ ﵇: ﴿خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12]، أي بِجدٍّ وعَوْنٍ مِنَ اللّهِ ﷻ). انتهى كلام الأزهري.

أقوال المفسّرين

قال اللّهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: 50 ـ 52].

يقول تعالى: ولو عاينتَ يا محمدُ حال تَوَفّي الملائكةِ أرواحَ الكُفّارِ، لرأيتَ أمْراً عظيماً هائلاً فظيعاً مُنكراً إذ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، قال ابن جريج عن مُجاهِد: ﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ أَسْتاهُم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: 93]، أي باسِطوا أيديهم بالضربِ فيهم بأمْرِ ربهم إذ اسْتَصْعَبَتْ أنفُسُهم وامتنعت مِن الخروج مِن الأجْسَادِ أن تخرجَ قَهْراً، وذلك إذا بشّروهم بالعذاب والغضب مِن اللّهِ. كما في حديث البَراء بن عازب: «أن مَلَكَ الموتِ إذا جاءَ الكافِرَ عند احْتِضَارِهِ في تلك الصُورَةِ المُنْكَرَةِ يقولُ: اخرُجي أيّتُها النفسُ الخبيثَةُ إلى سَمُوم وحَمِيم وظِلٍّ مِن يَحْمُوم، فَتفَرَّقُ في بَدَنِهِ، فَيسْتَخْرِجُونَها مِن جَسَدِهِ كما يُخْرَجُ السَفُودُ من الصُوفِ المَبْلُولِ فَتَخْرُجُ معه العُرُوقُ والأَعْصَابُ، ولهٰذا أخبر تعالى أن الملائكة تقولُ لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، أي هٰذا الجزاء بسبب ما عملتم مِن الأعمال السَيِّئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هٰذا الجزاء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي لا يظلمُ أحداً من خَلْقه، بل هو الحَكَمُ العَدْلُ الذي لا يَجُورُ تبارَكَ وتعالى وتقدَّسَ وتَنَزَّهَ الغَنيُّ الحميدُ.

ثم قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾، يقول تعالى: فِعْلُ هٰؤلاءِ

مِنَ المُشركين المكذّبينَ بما أرسلتَ به يا مُحمَّدُ، كما فعل الأُمَمُ المكذّبَةُ قبلَهم ففعلنا بهم ما هو دأْبُنا، أي عادتنا وسُنَّتُنا في أمثالهم مِن المكذّبين مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ومَنْ قَبلَهُم مِنَ الأمَم المُكَذِّبَةِ بالرُّسُلِ، الكافرين بآياتِ اللَّهِ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، أي لا يغلبهُ غالِبٌ ولا يفوته هاربٌ.

95 ــ المَتِينُ

معناه

الشديدُ القويُّ الذي بلغ النهاية في الشِدَّة، فلا تَنْقَطِعُ قُوَّتُهُ، ولا تَلْحَقُه في أفعاله مَشَقَّةٌ، ولا يَمَسُّهُ لُغُوبٌ، أي تَعَبٌ. قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: 58]. وقد ورد هٰذا الاسم مرَّة واحدة في القرآن الكريم، وهو مجمعٌ عليه، وجاء في الحديث الشريف الجامع للأسماء الحسنى. وَوَرَد صِفةً لِكَيْدِ اللَّهِ أنه مَتينٌ في موضعين مِن القرآن الكريم وذلك قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴿١٨٣﴾﴾ مرّتين، في [الأعراف: 183] و [القلم: 45].

أقوال العلماء

قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقصد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (المَتانَةُ تدلُّ على شِدَّة القوَّة، فاللَّهِ تعالى مِن حيث إنه شديد القُوَّةِ مَتين، ويرجع ذلك إلى معنى القدرة). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام المحدّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد بن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى المَتِينُ هو القويُّ الشديدُ الذي لا يَلْحَقُهُ في أفعاله مَشَقَّةٌ ولا كُلْفَةٌ ولا تَعَبٌ، والمَتانَةُ: الشِدَّةُ والقُوَّة، فهو مِن حيثُ إنه بالِغُ القُدْرَةُ تامُّها قَوِيٌّ، ومِن حيث إنه شديدُ القُوَّة مَتينٌ).

وقال أبو منصور الأزهري (ت 370 هـ) في معجمه «تهذيب اللغة»: (المَتينُ من كل شيء القَوِيُّ، وقد مَتَنَ مَتانَةً، والمَتينُ في صِفَةِ اللَّهِ تعالى: القَوِيُّ).

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾ [الذاريات: 52 ـ 60].

يَقولُ تعالى مُسَليّاً لِنبيِّهِ ﷺ: وكما قال لك مشركو العرب، قال المكذّبون الأوّلون لِرُسُلِهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ قال اللَّهُ ﷻ: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾؟! أي أَأَوصَى بَعْضُهُم بَعْضاً بهٰذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، أي لكن هم قَوْمٌ طُغاةٌ تَشابَهَتْ قُلوبُهم، فقال مُتأخِّرُهم كما قال مُتَقَدِّمُهم، قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي فأَعْرِضْ عنهم يا محمّدُ ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، يعني فما نلومُكَ على ذلك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾، أي إنما تَنْتَفِع بها القلوبُ المُؤْمِنَةُ. ثم قال جل جلالُه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، أي إنما خَلَقْتُهم لآمُرَهُم بِعِبادَتِي، لا لاحْتِيَاجي إليهم، وقال عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباس، ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا لِيُقِرُّوا بعبادتي طَوْعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير الطبري، وقال ابن جريج: إلا لِيَعْرِفُونِ. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا للعبادة. وقال السُّدِّيُّ: كان المُشرِكُون يعرفونَ اللَّهَ أنه الرب الخالِق، ولكنهم كانوا يشركون بعبادته الأوثان قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25]، وهٰذا منهم اعترافٌ بالله الخالِق، وليسَ يَنْفَعُهم مع الشرك، وكثيرٌ من أهل الأرضِ يُؤمنونَ بوجود اللَّهِ الخالق، ولكنّ إيمانَهم به ينقسم إلى نوعين:

إيمانٌ صحيح: وهو الذي أنزله الله بواسِطَة وحيه على رُسُله، وبَلَّغَتْهُ الرسُلُ للعباد ويقوم على تنزيه الله عن كل نقصان ووصفه بكل كمال وَصَفَ به نفسَه في كتابه القرآن الكريم، وتسميته بالأسماء الحسنى التسعة والتسعين التي سمّي بها نفسه، وعدم تشبيهه بشيء من مخلوقاته لا في ذاتِه، ولا في صِفاته ولا في أفعاله

وتوحيده وعدم إشراك إلٰه آخر معه بالربوبية وفي الألوهية.

وإيمان غير صحيح: وهو الذي تتدخل فيه عقول البشر وأَخْيلَتُهم وأوْهامُهم في تصوُّر الذات الإلٰهية، كمن يُشَبِّهُه بشيء من مخلوقاته، فَيَصِفُه بأنه كالإنسان الكبير، أو يُجسّده بتمثال أو صنم، أو يعتقد أن الله يحل فيه، كالبوذيين، أو يعتقد: أن اللّهَ يحلّ في بشر مِن عباده كبعض طوائف اليهود والنصارى والحُلُولِيَّة ومن تبعهم من المسلمين، أو أن له ولداً أو زوجة، أو أنه ضعيف لا يقدر على أمر معيّن، أو يصفه بصفة من صفات النقص التي تعتري البشر، أو يعتقد أن له شريكاً فيعبده معه... وكلّ هٰذه الطوائف والفرق وُجدت في البشر على مدى تاريخ الإنسانية، ولا يزال يوجد منها اليوم بقايا، وبعضها يعدّ بمئات الملايين.

وهٰذا الانحراف في الإيمان كلُّه ناشِئٌ عن الابتعاد عن معرفة الله الصحيحة بسبب عدم الاستجابة لأَمْرِ اللّهِ حين أمر عباده باتّباع رُسُلِه، وخاتمهم نبيّه محمد ﷺ الذي جاء بالهُدَى ودين الحق، وتصحيح مفهوم الألوهية.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾، ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خَلَقَ عبادَه ليعبُدوه وحْدَه لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أَتَمَّ الجزاء، ومَن عصاه عذّبه أشدَّ العذاب، وأخْبَر أنه غيرُ مُحتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أَحْوالهم، فهو خالِقُهم وَرَازِقُهُم. أخرج الإمام أحمد في «مسنده»، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال اللّه تعالى: يا ابنَ آدم! تفرَّغْ لِعِبَادَتي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى، وأَسُدَّ فَقْرَك، وإلاّ تَفْعَلْ مَلأْتُ صَدْرَك شُغْلاً ولم أسُدَّ فَقْرَكَ**». وفي بعض الكتب الإلٰهيَّة: (يَقولُ اللّهُ تعالى: ابنَ آدم! خَلَقْتُكَ لِعِبَادَتي فلا تَلْعَبْ: وتَكفَّلْتُ برِزْقِك فلا تتعبْ، فاطلُبْنِي تَجدْنِي، فإن وَجَدْتَنِي وجدْتَ كلَّ شيءٍ، وإن فُتُّكَ فاتَكَ كلُّ شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾، أي نصيباً مِنَ العذاب فلا يَستعجلون ذلك فإنه واقِعٌ لا مَحالَة. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾، يعني: يومَ القيامَةِ.

96 ــ القادر

معناه

هو من القدرة على الشيء، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: 65]. وقد يكون بمعنى المُقَدِّر للشيء، كقوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: 23]، أي نِعْمَ المُقَدِّرون. وقد ورد هٰذا الاسم في اثني عشر موضع من القرآن الكريم، كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللّٰهِ الحسنى.

أقوال العلماء

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماء اللّٰهِ الحسنى»: (القادر معناه ذو القدرة، والقدرة: عبارة عن المعنى الذي به يوجَد الشيء متقدّراً بتقدير الإرادة والعلم، واقعاً على وفقهما. والقادر هو الذي إن شاءَ فعل، وإن شاء لم يفعل، وليس مِن شرطه أن يشاء لا مَحالة، فإن اللّٰهَ تعالى قادِرٌ على إقامَة القِيامَةِ الآن؛ لأنه لو شاءَ أقامها، فإن كان لا يُقيمها؛ لأنه لم يَشَأْها ولا يَشَاؤها لما جَرَى في سابِق علمه مِن تقدير أجلها ووقتها؛ فذلك لا يقدح في القُدرة. والقادِرُ المُطلَقُ هو الذي يخترع كلَّ مَوْجُود اختراعاً ينفردُ به، ويَسْتغني به عن معاونة غيره، وهُوَ اللّٰهُ تعالى.

وأما العَبْدُ فله قُدْرَةُ على الجملة، لكنها ناقِصة، إذ لا يتناوَلُ إلا بعضَ الممكِنات، ولا يصلح للاختراع، بَلِ اللّٰهُ تعالى هو المخترع لمقدوراتِ العبد بواسطة قدرته مهْما هَيَّأ جميعَ أسباب الوُجودِ لمقدوره). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء اللّٰهِ تعالى القادِرُ، اسم فاعل مِنْ قَدَرَ يَقدِرُ.

ومنه قوله في حديث الاستخارة الذي أخرجه الإمام البخاريّ في «صحيحه»، كتاب التهجُّد، باب ما جاء في التطَوُّع مثنى مثنى، الحديث

(1162): «**اللهمَّ إني أَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِكَ**»، أي أطلبُ منكَ أن تجعَلَ لي عليه قُدرَة، وفيه أيضاً: «**فاقْدُرْهُ لي ويسِّرْهُ**»، أي اقضِ لي به وهيِّئهُ).

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (٤٠)﴾ [القيامة: 26 ـ 40].

يخبرُ تعالى عن حالة الاحتضار وما عندها مِنَ الأَهوال، ثَبَّتَنا اللَّهُ هنالك بالقَوْلِ الثابت، فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦)﴾ كلّا رَدْعٌ، والتراقي جمع: تَرْقُوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق قريبة من الحُلْقُوم. والمعنى: لَسْتَ يا ابن آدم: هناك تكذّب بما أُخبِرْتَ به، بل صارَ ذلك عندك عَياناً، كقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ (٨٣) وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ (٨٥) فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٨٧)﴾ [الواقعة: 83 ـ 87].

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧)﴾ قال عكرمة، عن ابن عباس، أي مِن راقٍ يرقي. وقال أبو قلابة: قيل هل مِن طَبيبٍ شافٍ، وكذا قال قتادة والضحّاك وابن زيد. وروى ابن الجوزاء، عن ابن عباس: قيل مَن يَرْقَى بروحه؟ ملائكة الرَّحْمَة أم ملائكةُ العذاب؟ فعلى هٰذا يكون مِن كلام الملائكة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩)﴾، قال ابن عبّاس: التفَّتْ عليه الدنيا والآخرة، آخِرُ يوم مِن الدنيا بأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشِدَّةُ بالشِدَّة إلّا مَن رحمَ اللَّهُ. وقال عكرمة: الأمرُ العظيم بالأمر العظيم. وقال مُجاهِد: بلاءٌ ببلاءٍ. وقال الحسنُ البصري: هما ساقاكَ إذا التفّتا. وفي رواية عنه: ماتت رجلاه فلم تَحْمِلاه، وقد كان عليهما جَوَّالاً. وفي رواية: هو لَفُّهما في الكَفَن، وقال الضحّاك: اجتمع عليه أمران: الناسُ يُجهّزُون جسده، والملائكةُ يجهّزون روحَهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴿٣٠﴾﴾، أي المَرْجِعُ والمآبُ. وذلك أن الروح تُرْفَعُ إلى السمٰوات فيقولُ اللَّهُ ﷻ: رُدُّوا عَبْدِي إلى الأَرْضِ، فإني منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم ومنها أُخرجُهم تارَةً أخرى، كما ورد في حديث البراءِ بن عازب. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: 61، 62].

وقوله ﷻ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴿٣٢﴾﴾، هٰذا إخبارٌ عن الكافِرِ الذي كان في الدنيا مُكذِّباً للحق بقَلْبِهِ مُتولِّياً عَنِ العَمَلِ بقالَبِهِ، فلا خَيْرَ فيه باطِناً، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴿٣٣﴾﴾، أي جَذْلان أَشِراً بَطِراً كَسْلاناً لا هِمَّةَ له، ولا عمل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: 31]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: 13، 14]، أي يرجع ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: 15]، قال الضحّاكُ، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴿٣٣﴾﴾، أي يختال، وقال قتادَة وزيدُ بنُ أسلم: يَتَبَخْتَر. قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴿٣٥﴾﴾، وهٰذا تهديدٌ ووَعيدٌ أكيدٌ مِن اللَّه تعالى للكافرِ به، المُتبَخْتر في مَشْيِهِ، أي يَحِقُّ لك أنْ تَمْشِي هكذا وقد كفَرْتَ بخالِقِكَ وبارِئِك! كما يقالُ هٰذا على سبيل التهكُّم والتهديد كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: 49]، وكقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: 46]، وعن سعيد بن جبير: أن عَدُوَّ اللَّهِ أبا جهل أَخَذَ نَبِيَّ اللَّهِ بِمَجامِعِ ثِيابِهِ، فقال له النبيُّ ﷺ: «**أَوْلَى لك فأَوْلى ثم أَوْلَى لك فَأَوْلَى**»، فقال عدوُّ اللَّهِ أبو جهل: أَتَوَعَدُنِي يا محمدُ؟ واللَّهِ لا تَسْتَطيعُ أنت ولا ربُّكَ شيئاً، وإنّي لأَعَزُّ مَن مَشَى بين جَبَلَيْها. فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴿٣٦﴾﴾، قال السدّي: يعني لا يُبْعَثُ. وقيل: يعني لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهَى، أي ليس يُتْرَكُ في هٰذه الدنيا مُهْملاً لا يؤمَرُ ولا يُنْهَى، ولا يُترَكُ في قبره سُدًى لا يُبْعَثُ، بل هو مأمور منهيٌّ في الدنيا، مَحْشُورٌ إلى اللَّهِ في الدار الآخرة، والمقصود هنا إثباتُ المَعَاد والردُّ على مَن أنكره من أهل الزيْغ والجهَل والعِناد، ولهٰذا قال تعالى مُسْتَدِلاً على الإعادَة بالبَداءَة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ

﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾، أي أَمَا هٰذا الذي أنشأ الخَلْقَ السَوِيَّ من هٰذه النُّطْفَةِ الضعيفةِ بقادِرٍ على أن يعيدَه كما بدأه؟.

97 ــ المقتدر

معناه

هو التامُّ القُدْرَة الذي لا يمتنع عليه شيءٌ، ولا يَحْتَجِزُ عنه بِمَنَعَةٍ ولا قُوَّة. وهو على وزن (**مُفْتَعِل**) مِن القُدْرَةِ، إلاّ أنَّ الاقتدارَ أبلغُ وأَعَمُّ؛ لأنه يقتضي الإطلاقَ، أمّا القُدرةُ فقد يدخلها نوعٌ منَ التضمينِ بالمَقْدُورِ عليه، ودليلُ الاقتدارِ قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: 54، 55]، أي قادِرٌ على ما يشاءُ. وقد ورد هٰذا الاسم في أربعة مواضع من القرآن الكريم، وجاء في الحديث الشريف الجامع لأسماءِ اللّهِ الحسنى، وهو مُجْمَعٌ عليه.

أقوال العُلماء في تفسيره

يقول الإمام الفيلسوف المُتَكَلِّم النَظَّارُ، الأصوليُّ الفقيه الربّاني حُجَّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماءِ اللّهِ الحسنى»: (المُقْتَدِرُ: معناه ذو القُدْرَةِ، لكنَّ المقتَدِرَ أَبْلَغُ من القادر، والقدرة: عبارَةٌ عن المعنى الذي يوجَدُ به الشيء مُتَقَدَّراً بتقديرِ الإرادَةِ والعلم، واقِعاً على وِفْقِهما). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المحدِّثُ اللغوي مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (المُقْتَدِر (**مُفْعَتِل**) مِن اقْتَدَرَ، وهو أَبْلَغُ من القادر والقدير).

أقوال المفسّرين

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ

مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: 41 ـ 46].

يقولُ تعالى مُخبراً عن العِبادِ المجْرِمين الكافِرين باللَّه، المُكَذِّبين لرسله، المُحاربين لدينه والمؤمنين في كل زمانٍ ومكانٍ: أن نهايتَهم الهزيمةُ في الدنيا والعَذابُ الشديد في الآخرة، ومن هٰؤلاء فِرْعونُ وقَوْمُه، جاءَهم رسولُ اللَّهِ موسى وأخوه هارون بالبِشارةِ، إنْ آمَنوا، والنُذارَةِ إن كَفَروا، وأيَّدَهُما بمعجزات عظيمةٍ وآيات مُتعَدِّدَة فكذَّبوا بها كلِّها، فأخذهم اللَّهُ أَخْذ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ، أي فأبادَهم اللَّهُ ولم يَبْقَ منهم مُخْبِر ولا عَيْنٌ ولا أثَرٌ.

ثم قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾، أي أيها المشركون مِن كفّارِ قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾، يعني مِن الذين تقدَّم ذكرهم مِمَّن أُهْلِكوا بسبب تكذيبهم الرسُلُ وكفرهم بالكتب، أأنتم خيرٌ مِن أولئكم؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾، أي أم معكم مِنَ اللَّهِ بَرَاءَةٌ أن لا ينالُكم عذابٌ ولا نكالٌ؟.

ثم قال تعالى مُخبراً عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾، أي يعتقدون أنهم يتناصَرون بعضُهم بعضاً، وأنَّ جَمْعَهُم يُغني عنهم مَن أرادَهم بِسُوء، قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، أي سيتفرق شمْلُهم ويُغْلَبون. أخرج الإمام البخاريّ في «صحيحه» بسنده إلى ابن عباس: أن النبيَّ ﷺ قال، وهو في قُبَّةٍ له يومَ بَدْر: «**أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللهمّ إنْ شِئتَ لم تُعْبَد بعد اليوم فِي الأرض أبداً**»، فأخذ أبو بكر ﷺ بيده، وقال: حَسْبُكَ يا رسولَ اللَّهِ! أَلْحَحْت على ربك، فخرج وهو يَثِبُ في الدرع وهو يقولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾. وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره» بسنده إلى عكرمة، قال: لما نزلَتْ ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، قال عمر بن الخطاب: أيُّ جَمْعٍ يُهْزَمُ أيُّ جَمْعٍ يُغْلَب؟ قال عمرُ: فلما كان يومُ بدر رأيت رسولَ اللَّهِ ﷺ يثبُ في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ فعرفتُ تَأويلَها يومَئِذٍ. وأخرج البخاري في «صحيحه» بسنده إلى عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾، فأخبر أنهم في ﴿ضَلَـٰلٍ﴾، عن الحق ﴿وَسُعُرٍ﴾، ممّا هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كلَّ من اتّصف بذلك مِن كافر مبتدع مِن سائر الفلسفات والفِرَق والأحزاب والجماعات والجمعيات والمحافل وكلّ مَن آمن بدين غير دين الله، واتبع تشريعاً غير تشريع الله، وحارب المؤمنين الذين آمنوا بالله وعملوا بشرعه، واتهمهم بأنهم رجعيون متخلّفون متحجّرون جامِدون إرهابيون ليضللهم، ثم قال تعالى مُبَيِّناً عذاب هٰؤلاء الكفرة ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾، أي كما كانوا في سُعُر وشَكٍّ وتردُّدٍ أَوْرَثَهُم ذلك النارَ، وكما كانوا ضُلّالاً يُسْحَبُونَ فيها على وُجوههم لا يَدْرُون أين يَذْهبون، ويُقالُ لهم تقريعاً: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، أي قدّر قَدراً، وهَدَى الخلائق إليه، ولهذا يَسْتَدِلُّ بهٰذه الآيةِ الكريمةِ أئمةُ السُّنَّةِ على إثباتِ قدرِ اللّهِ السابقِ لِخَلْقِهِ، وهو علمُه الأشياءَ قبلَ كونِها وكتابَتُه لها قبلَ بَرْئِها، وردّوا بهٰذه الآية وبما شاكلها مِنَ الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على مُنكِري القدر. وفي الحديث الصحيح: «**اسْتَعن باللّهِ ولا تَعْجَزْ، فإن أصابَك أَمْرٌ فقل: قَدَّرَ اللّهُ وما شاء فعل، ولا تقل: لَوْ أني فعلتُ كذا لكان كذا، فإنَّ (لَوْ) تفتح عَمَلَ الشيطان**». وفي حديث ابن عباسٍ، أن رسولَ اللّهِ ﷺ قال له: «**واعلم أن الأُمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم يكتبه الله لكَ، لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يكتبه اللّهُ عليك، لم يضرّوك، جَفَّتِ الأقلامُ وطُويَت الصُّحُفُ**». وثبت في «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «**إن اللّهَ كتَبَ مَقادِيرَ الخَلقِ قبل أن يخلقَ السماوات والأرضِ بخمسين ألفِ سنةٍ**».

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ هو إخبارٌ عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبَرَ بِنُفوذِ قَدَرِهِ فيهم فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، إنما نأمُر بالشيءِ مرّةً واحِدَةً لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمُر به حاصِلاً مَوْجُوداً كلمح البَصَرِ لا يتأخَّرُ طرفة عين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾، يعني أمثالكم وسَلَفَكُم مِن الأمم السابقة المكذِّبن بالرُّسُلِ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أي فهل مِن مُتَّعِظٍ بما أخزى اللّهُ

أولئك وقدَّرَ لهم من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾، أي مكتوبٌ عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾، أي مِن أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾، يعني مجموعٌ عليهم ومُسَطَّرٌ في صحائفهم لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾، أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلالِ والسعر والسحبِ في النار على وجوههم مع التقريع والتوبيخ والتهديد.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه، وجُودِهِ وإحسانه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، أي عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدِّرها وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون.

98 ــ العزيز

معناه

العَزيز هو ذو العِزّة الكاملة. والعِزّةُ في كلام العرب بمعنى الغَلَبَةِ، أو الشِدَّة والقُوَّة، أو نفاسَة القَدْرِ، فيكون معنى العزيز: المَنِيعَ الذي لا يُغلَب لكمال قوّته وقدرته، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: 66].

وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في (95) موضعاً. كما ورد في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى. وهو مُجْمَعٌ عليه.

أقوال أهل اللغة

قال الإمام أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370 هـ) في معجمه «تهذيب اللغة»: (العَزِيزُ من صِفاتِ الله جَلَّ وعزّ، وأسمائه الحسنى. وقال أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج (ت 311 هـ) في كتابه: «شرح أسماء الله الحسنى»: العزيزُ في صِفَةِ اللّهِ: المُمْتَنِعُ، فلا يَغْلِبُهُ شيءٌ. وقال غيره: هو القويُّ

الغالِبُ على كل شيءٍ. وقيل: هو الذي ليس كمثله شيء. ويُقال: مَلِكٌ أَعَزُّ، وعزيزٌ بمعنًى واحِد. وقال اللَّهُ ﷻ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: 23]، معناه غلبني. قال ابن السِّكِّيت يعقوب بن إسحاق (ت 244 هـ) عَزَّهُ يَعِزُّهُ: إذا غَلبهُ وقَهرَهُ. وأما قول اللَّهِ ﷻ: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: 14]، فمعناه: قَوَّيْناه وشدَّدناه. ويُقال: عَزَّ يَعَزُّ إذا اشتَدَّ. ويُقال: عزّ كذا إذا قَلَّ ونَدُرَ حتى لا يكادُ يُوجَد، وهو يَعِزُّ ـ بكسر العين ـ عِزَّةً، فهو عَزيزٌ. ورَوَى أبو عُبَيْد القاسم بن سلّام (ت 224 هـ)، عن أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت 215 هـ) في كتابه: «النوادر في اللغة»: يُقال: عَزَّ الرَّجُلُ يَعِزُّ عِزّاً وعِزَّة إذا قَوِيَ بَعْدَ ذِلَّةٍ).

أقوال العلماء

يقول حجّة الإسلام وفيلسوفه وزاهده، الإمام المتكلّم النظّارُ الأصولي الفقيه الشافعي أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المقصِد الأسنى في شرحِ أسماء الله الحسنى»: (العَزيزُ هو الخَطِيرُ الذي يَقِلُّ وُجُودُ مثلِه، وتَشْتَدُّ الحاجَةُ إليه، ويَصْعُبُ الوُصُولُ إليه. فما لم يجتمع عَليه هٰذه المعاني الثلاثة لم يُطْلَقْ عليه اسمُ العَزيز. فكم مِن شيء يَقِلُّ وُجودُه، ولكن لم يعظُمْ خطره، ويكثُرْ نفعُه، ولا يوجَدُ نظِيرُه، ولكن إذا لم يصعُب الوصولُ إليه لم يُسَمَّ عَزيزاً، كالشمسِ مثلاً، فإنها لا نظيرَ لها، والأرضِ كذلك، والنَّفْعُ عَظِيمٌ في كل واحدٍ منهما، والحاجَةُ شديدةٌ إليهما، ولكن لا يوصَفانِ بالعِزَّةِ؛ لأنه لا يَصْعُبُ الوصُولُ إلى مشاهدتهما، فلا بُدَّ مِن اجتماع المعاني الثلاثة.

ثم لكل واحِدٍ مِن المعاني الثلاثة كمالٌ ونُقْصانٌ. فالكَمالُ في قِلَّةِ الوُجودِ يَرْجِعُ إلى واحِدٍ إذْ لا أَقَلَّ مِن الواحِدِ. ويكونُ بحيث يَسْتحيلُ وُجُود مِثلِهِ، وليس هو إلا اللَّهُ تعالى، فإن الشمسَ وإن كانت واحِدَةً في الوُجود فليست واحِدَةً في الإمكان، فيُمْكِنُ وُجُودُ مثلها في الكمال والنفاسَةِ، وشدَّةُ الحاجَة أنْ يحتاجَ إليه كلَّ شيءٍ في كل شَيءٍ حتى في وُجودِهِ وبَقائِهِ وصِفاته، وليسَ ذلكَ على الكمال إلّا إلى الله تعالى، فإنا قد بيّنّا أنه لا يعرفُ اللَّهَ تعالى إلّا اللَّهُ تعالى، فهوَ العَزيزُ المُطْلَقُ الحَقُّ لا يُوازِيهِ فيه غَيْرُه.

العزيزُ من العباد مَن يَحتاجُ إليه عِبادُ اللَّهِ تعالى في أهمّ أُمورِهم، وهي

الحَياةُ الأُخْرَوِيَّةُ والسعادَةُ الأبدية، وذلك مما يَقِلُّ وُجودُه، ويَصْعُبُ إدراكه، وهٰذه رُتْبَةُ الأنبياء صلواتُ اللّهِ عَليهم، ويُشارِكهم في العِزِّ مَن ينفرِدُ بالقُرْب مِنْ دَرَجَتِهِم في عصرهم، كالخلفاء، وورثتهم مِن العلماء، وعِزَّةُ كلِّ واحِدٍ منهم بِقَدْرِ عُلوِّ رُتْبته على سُهولَةِ النَّيْلِ والمشارَكة وبقدر عنائه مِن إرشاد الخَلْق). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المحدّث اللغَوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى العَزيزُ هو الغالِبُ القويُّ الذي لا يُغلَبُ، والعِزَّةُ في الأَصْلِ: القُوَّةُ والشِدَّةُ والغَلَبَةُ، ومن أسماء اللّهِ تعالى: المُعِزُّ وهو الذي يَهَبُ العِزَّ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ.

ومنه الحديث أنه ﷺ قال لعائشة: «**هل تدرينَ لم كان قَوْمُكِ رَفَعُوا باب الكعبة؟**» قالَتْ: لا، قال: «**تَعَزُّزاً أن لا يَدْخُلَها إلاّ من أرادوا**»، أي تكبُّراً وتشدُّداً على الناس، وفي رواية البخاري: «**لِيُدْخِلوا من شاءُوا ويَمْنَعُوا مَن شاءُوا**» وفي رواية مسلم: «**فكان الرجُلُ إذا هو أراد أن يَدْخُلَها يَدعُونَه يَرْتَقِي حتى إذا كاد أن يَدْخُلَ دفَعُوهُ فَسَقَطَ**».

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾ [آل عمران: 123 ـ 126].

يَمْتَنُّ اللّهُ على عِبادِه المؤمنين ويُذكِّرُهم بنَصْرِهِ لهم يومَ بَدْرٍ، وهم ثلاثمائة وتِسْعَة عشر نفراً وعَدُوُّهم ألفُ رجلٍ، وبالرغم مِن قِلَّة عددهم فقد نصرهم ليعلموا أن النصر إنما هو مِن عند اللّهِ لا بكثرة العَدَدِ والعُدَدِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي تقومون بطاعته، ثم وعدهم اللّهُ بِمَدَدٍ من عنده بثلاثة آلاف من الملائكة تقاتل معهم، أخرج ابن إسحاق في «سيرته» بسنده إلى أبي داودَ المازني

قال: إنّي لأَتْبَعُ رجلاً مِنَ المشركين يومَ بَدْرٍ لأضربه بالسيف إذْ وقع رأسُه قبل أن يَصِلَ إليه سَيفي، فَعَرَفْتُ أنه قَتَلَهُ غَيْري. وعن ابن عباس قال: لم تُقاتِلِ الملائكة إلّا يومَ بَدْرٍ، وقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، يعني تصبِرُوا على مصابَرَةِ عَدُوِّكم وتَتّقوني وتطيعوا أمري ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي مِن وجْهِهم هٰذا ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، أي معلّمين، أخرج ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس قال: كان سيما الملائكة يوم بدر عمائمَ بيض قد أرسلوها في ظهورِهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي وما أنزلَ اللّهُ الملائكةَ وأَعْلَمَكُمْ بإنزالهم إلا بِشَارَةً لكم وتَطييباً لقلوبكم وتطميناً، ﴿و﴾ إلّا فـ﴿مَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الذي إذا شاءَ لانتصر مِن أعدائه بدونكم، ومِن غير احتياج إلى قتالِكُم لَهُم كما قال تعالى بعد أمْرِهِ المؤمنينَ بِالقِتال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾ [محمد: 4 ـ 6]، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، أي هو ذو العِزّةِ التي لا تُرام، والحِكْمَةِ في قَدَرِهِ والأحكام.

99 ــ مالك الملك

معناه

المالِكُ: هو الخاصُّ المِلْكِ. والمُلْكُ يضمّ الميم ـ هو التصرُّف، فيكون معنى مالِكِ الملك: أن المِلْكَ بِيَده، يَتَصَرَّفُ فيه كيفَ يَشاءُ، ولا يكونُ ذلك إلّا مِن كَمالِ قُوَّتِهِ وقُدْرَتِهِ وعِزِّه وغِناهُ. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٦﴾ [آل عمران: 26]، وقد ورد هٰذا الاسم الكريم مَرَّةً واحدَةً في القرآن.

أقوال العلماء

يقول حجةُ الإسلام وفيلسوفُه، الإمام المُتكلِّم النَّظَّارُ، الأُصُولِيُّ الفقيه، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي رحمه الله في كتابه «المقصد

الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (مالكُ المُلكِ هو الذي يُنَفِّذُ مَشِيئَتَهُ في مَمْلَكَتِهِ كيفَ شاءَ وكما شاءَ، إيجاداً وإعْداماً وإبقاءً وإفناءً. والمُلْكُ هنا: بمعنى المملكة، والمالِكُ: بمعنى القادِرُ التامُّ القُدْرَةِ.

والمَوْجُودَاتُ كلُّها مملكةٌ واحِدَةٌ، وهو مالِكُها وقادِرُها، وإنما كانت المَوْجُودَاتُ كلُّها مَمْلَكَةً واحِدَةً؛ لأنها مُرَتَّبَةٌ بَعْضُها بِبَعْضٍ، فإنها وإن كانت كثيرةً مِنْ وَجْهٍ، فلها وَحْدَةٌ مِن وَجْهٍ.

ومثالُه: بَدَنُ الإنسان، فإنها مملكة لحقيقة الإنسان، وهي أعضاءٌ كثيرة مُخْتَلِفَةٌ، ولكنها كالمُتَعاوِنَةِ على تحقيقِ غَرَضٍ مُدَبِّرٍ واحِدٍ، فكانت مملكةً واحِدَةً. فكذلك العالمُ كلُّه كَشَخْصٍ واحِدٍ، وأجزاءُ العالَمِ كأَعْضَائِهِ، وهي مُتعاوِنَةٌ على مَقصودٍ واحِدٍ، وهو إتمامُ غايَةَ الخَيْرِ المُمْكِنِ وجُودُه على ما اقتضاهُ الجودُ الإلٰهيُّ. ولأَجْلِ انتظَامِها على ترتيبٍ مُنَسَّقٍ وارْتِباطِها برابِطَةٍ واحِدَةٍ، كانَت مَمْلَكَةً واحِدَةً، واللَّهُ تعالَى مالِكُها وحده فقط.

ومملكةُ كلِّ عَبْدٍ بَدَنُهُ خاصَةً، فإذا نَفَذْت مَشيئَتُه في صِفات قلبه وجَوارِحِه، فَهُوَ مالِكُ مَمْلَكَةَ نفسِهِ بِقَدْرِ ما أُعْطِي مِنَ القُدْرَةِ عليها). انتهى كلام الغزالي.

ويَقولُ الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (المَلِكُ هو اللَّهُ تعالى، ومنه الحديث الذي أخرجه الإمامُ البخاري في «صحيحه» في كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدوُّ على حكم رجل، الحديث (3043): **«لقد حكمتَ بِحُكْمِ المَلِك»**.

وأخرج في كتاب بدءِ الوَحي، الباب (6)، الحديث (7) قول أبي سفيان عند هِرَقْلَ عظيم الروم: **«هٰذا مُلْكُ هٰذه الأُمَّةِ قد ظَهَرَ»** وفيه أيضاً: **«هل كان في آبائِهِ مِن مَلِك»**.

وأخرجَ الإمام مسلمٌ في «صحيحه» في كتاب البرِّ والصِلَة، باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالَك، الحديث (6952)، حديث خَلقِ آدَمَ حينمَا رآهُ إبليسُ طيناً ملقًى على الأرضِ قبل نَفْخِ الرُّوحِ: **«فلما رآهُ أجْوَفَ عَرَفَ أنه خَلْقٌ لا**

يتمالَكُ»، أي لا يتماسَكُ، وإذا وُصِفَ الإنسانُ بالخِفَّةِ والطَيْش، قيل: إنه لا يَتمالَكُ.

أقوال المفسّرين

قال اللَّهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: 26، 27].

يقولُ تبارَكَ وتعالى: ﴿قُلِ﴾، أي يا محمدُ، مُعَظِّماً لِرَبِّكَ وشاكِراً له ومُفَوِّضاً إليه ومُتوكِّلاً عليه ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، أي لكَ المُلكُ كلُّه ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، أي أنتَ المُعطِي وأنتَ المانِعُ، وأنتَ الذي ما شِئْتَ كان، وما لم تشأ لم يكن. وفي هٰذه الآية تنبيهٌ وإرشاد إلى شكرِ نِعمةِ اللَّهِ تعالى على رسوله ﷺ، وهٰذه الأُمّة؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى حَوَّلَ النُبُوَّةِ مِن بني إسرائيل إلى النبيِّ العربيّ القُرشِيِّ الأُمِّيِّ المكّيّ خاتمِ الأنبياءِ عَلى الإطلاقِ، ورسولِ اللَّهِ إلى جميع الثَّقَلَيْن الإنسِ والجِنِّ، الذي جَمَعَ اللَّهُ فيه محاسنَ مَن كان قَبْلَهُ وخَصَّهُ بِخَصَائِصَ لم يُعْطِها نبيّاً مِن الأنبياء ولا رَسُولاً مِنَ الرُسُل في العِلْم باللَّهِ وشريعَتِهِ، وإطلاعهِ على الغُيوب الماضِيَة والآتِيَة وكَشْفِهِ له عن حقَائِقِ الآخِرَة ونَشْر أمَّتِهِ في الآفاقِ في مشارِقِ الأرض ومغارِبها وإظهارِ دينه وشرعه على سائر الشرائع والرسالات، فصلوات اللَّهِ وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقَبَ الليلُ والنهارُ، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية. أي أنتَ المُتَصَرِّفُ في خَلْقِكَ الفعّالُ لما تريد، كما ردَّ تعالى على مَن يحكم عليه في أمره حيث قال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾، قال اللَّهُ راداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، الآية أي نحن نتصرَّفُ فيما خلقنا كما نريدُ بلا مُمانِعٍ ولا مُدافِعٍ ولنا الحكمةُ البالِغَةُ والحُجَّةُ التامَّةُ في ذلك، وهكذا يُعْطِي النُبُوَّةَ لمنْ يُريدُ كماً يُريدُ كما قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية.

وقولُه تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ أي تأخُذُ مِن طُولِ هٰذا فتَزِيدُه في قِصَرِ هٰذا فيعتدلان، ثم تأخذ مِن هٰذا في هٰذا فيتفاوَتان ثم يَعْتَدِلان؛ وهكذا في فُصولِ السنَةِ رَبيعاً وصيفاً وخريفاً وشِتاءً.

وقوله تعالى: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ أي تُخرِجُ الزرعَ مِنَ الحَبِّ، والحَبَّ مِن الزرْعِ، والنَخْلَةَ مِن النَواة، والنواةَ مِنَ النَخْلَةِ، والمُؤمِنَ من الكافِرِ، والكافِرَ مِنَ المؤمن، والدجاجَةَ من البَيْضَةِ، والبَيْضَةَ مِنَ الدَجاجَة، وما جَرَى هٰذا المَجْرَى في جميعَ الأشياء، ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي تُعطي مَن تشاءُ مِن المالِ ما لا يَعُدُّهُ ولا يَقْدِرُ على إحصائه، وتُقَتِّرُ على آخرين لما لك في ذلك من الحِكْمَةِ والإرادَةِ والمَشيئة.

* * *

هَذَا ما فَتَح اللهُ به من شرح أسماء الله الحُسْنَى، نسألُه تعالى أن يُنَوِّر قُلوبَنا بِنور معرفته، وأن يرزُقنا حُسْنُ العَمَلِ بطاعته، وآخِرُ دَعوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد مُعَلِّم الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين، ويلي هذا الجُزْءَ من «السبيل إلى الله» كتاب «تزكية النفس».

فهرس المحتويات

مقدمة **5**

1 ـ اللّه جلّ جلاله **8**

مفهوم الإيمان الصحيح بالله 9

معنى لا إله إلا الله 11

الأسماء المتعلقة بالخلق والإيجاد والتكوين **15**

2 ـ الحكيم **15**

آثار الحكمة تدلّ على الحكيم 16

3 ـ الخالق **18**

المخلوقات تدلّ على الخالق 19

الإعجاز العلمي يؤدّي للإيمان بالخالق 21

مدى العلم الحديث والحضارة المادية 22

القرآن كتاب هداية 22

4 ـ الرشيد **24**

نَجاةُ المُؤْمِن مِنْ عذاب الحيرة والشَّكِّ 26

بين الدين والفلسفة **28**

أ ـ تعريفات 28

الدين 28

وأما الفلسفة 28

متى أُنزل الدين؟ 28

ماذا يحتوي الدين؟ 29

أهمية الدين في الحياة 29

فشل الفلسفة في بناء الإنسان الصالح 31

5 ـ البارىء **32**

خلق الإنسان 33

الصلب والترائب 35
ظلمات ثلاث 35
الأمشاج 36
مراحل تطور الجنين 37
أ ـ مرحلة النطفة التي أطلقت على ثلاثة أشياء: 38
2 ـ مرحلة العلقة 39
3 ـ مرحلة المضغة 39
4 ـ مرحلة العظام 40
5 ـ مرحلة اللحم 40
6 ـ مرحلة الإنشاء والخلق 40
6 ـ البَدِيع 40
7 ـ المُصَوِّر 44
8 ـ الهادي 47
هداية الطفل للرضاعة 48
تقليب بيض الدجاج 49
عودة الطيور إلى ديارها 49
هداية الله للإنسان 50
أنواع هداية الله 50
هداية الله عزّ وجلّ للإنسان على أربعة أوجُه: 50
هداية التبيين والتوضيح 51
أسباب الضلال 51
أنواع النفوس الإنسانية 52
9 ـ المُبْدِىءُ 53
دليله من القرآن الكريم 54
دليله من العلم الحديث 54
10 ـ المُعِيدُ 56
إثبات البعْث بعد الموت 56
11 ـ الباعث 59
هل الموت عدم؟ 59
ما الذي خلقه الله أولاً؟ 60

هل الوصول إلى الكمال يكون في النشأة الآخرة؟ 61
هل البعث مقصور على إحياء الموتى؟ 61
دليله من القرآن 61
12 ـ المُحْيِي **62**
معنى الاسم 62
أقوال العلماء 62
دليله من القرآن الكريم 63
محاولة الإنسان إيجاد الحياة 63
الإسلام والعَلمانية 64
فشل محاولة الخلق 65
قيمة الحياة الإنسانية في الإسلام **65**
تكريم الله للإنسان 65
تحريم الاعتداء على الحياة 67
تحريم الانتحار 67
فرض العقوبات لحماية الحياة 67
13 ـ المُمِيتُ **69**
أقوال العلماء 69
دليله من القرآن الكريم 70
أثر هٰذا الاسم على العبد 71
عقيدة الموت في سبيل الله عند المسلمين وفضل الجهاد **72**
الدعوة إلى الله 73
الأمر بالجهاد في سبيل الله 73
الصراع بين الحق والباطل 74
تعدُّد صور الجهاد 74
14 ـ الجَبَّار **76**
معناه 76
أقوال الأئمة فيه 76
أقوال المفسرين 77
أثر هٰذا الاسم في الإنسان 77
هل الإنسان مُسَيّر أم مخيّر **79**

شُبْهة الجَبْر 79
ما معنى التَسْيير والتخيير؟ 79
مهمة الإنسان في الحياة 80
هل تخضع إرادة الإنسان للبيئة التي يعيش فيها ولمؤثرات أخرى؟ 80
15 ـ القَهّار 83
والموضع الثالث 83
والموضِعُ الرابع 84
الموضع الخامس 84
الموضع السادس 85
أقوال العلماء في تفسير هٰذا الاسم 85
أثر هٰذا الاسم في العبد 86
بين إرادة الله وإرادة الإنسان 86
16 ـ القَيُّومُ 89
معناه 89
أقوال العلماءِ في تفسيره 90
أثر هذا الاسم على الإنسان 91
بين التوكُّلِ والتَّواكُل أهمية العمل في الإسلام 92
معنى التواكُل 92
معنى التوكُّل 92
17 ـ الحَفيظُ 95
معناه 95
الملائكة تحفظ الإنسان بأمر الله 96
آية الكرسي لحفظ الإنسان 96
آثار الحفظ تدلّ على الحفيظ 98
مقاومة الطفل ومناعته ضِدّ الأمراض 98
حفظ الله للقرآن 99
شُبْهَة تحريف القرآن 99
القرآن كتابُ الله 100
كيفية تدوين القرآن ووصوله إلينا 101
جمع القرآن على عهد أبي بكر 101

الخليفة عثمان يجمع الناس على مصحف واحد ... 101
18 ـ المؤمن ... **102**
معناه ... 102
أقوال العلماء في تفسيره ... 103
أثر هٰذا الاسم على الإنسان ... 104
الإنسان بين القلق النفسي والإيمان ... **105**
الأَمْنُ النَفْسِيّ ... 108
أثر الإيمان على النفس ... 109
مخاوف الكفّار والملحدين والشاكّين ... 110
19 ـ المُهَيْمِن ... **110**
أقوال العلماء في تفسيره ... 111
أثر هٰذه الأسماء على العبد: ... 111
مجموعة الأسماء الحسنى الدالة على الرزق ... **114**
مقدّمة ... 114
20 ـ الرزّاق ... **114**
أقوال العلماء في تفسيره ... 115
أثر هذا الاسم على المؤمن ... 116
21 ـ المُقِيت ... **117**
أقوال المفسّرين ... 117
أقوال العلماء في تفسير هٰذا الاسم ... 118
أثر هٰذا الاسم على العبادِ ... 119
22 ـ المُغْنِي ... **120**
معناه ... 120
أقوال العلماء في تفسيره ... 122
الغِنَى والفَقْر ... **122**
تعريف الغنى والفقر: ... 122
الغنى والفقر في القرآن الكريم ... 122
الغنى والفقر في السُّنَّة ... 124
23 ـ القَابِضُ ... **125**
أقوال المُفَسِّرين في معناه ... 126

أقوال العلماء في تفسيره 127
أثر هذا الاسم على العبد 127
24 ـ البَاسِطُ 128
أقوال المفسّرين 128
القناعَةُ والرضا 130
أثر الأسماء التي تدلّ على الرزق 130
معنى القَناعةِ والرِّضا 131
المجموعة الثالثة من أسماء الله الحسنى الداخلة في باب الهبة والعطاء 134
25 ـ الوهاب 134
مقدمة 134
الموضع الأول 134
الموضعُ الثاني 135
الموضع الثالث 136
أقوال العلماء في تفسيره 136
أقوال المفسّرين 136
26 ـ البَرُّ 137
معناه 137
أقوال المفسّرين في تفسيره 137
أقوال العُلماء في تفسيره 139
أثره على العَبْد 139
برّ الوالِدَيْن 140
مفهوم برّ الوالدين 140
تشريع بِرّ الوالدين 141
مراتب بر الوالدين 142
برّ الوالدين في السُنَّ 142
27 ـ الكَريمُ 143
معنى هٰذا الاسم 143
أقوالُ العُلماء فيه 143
أقوال المفسّرين 144
أثر هٰذا الاسم على العبد 145

إن أكرمكم عند الله أتقاكم **145**
28 ـ الواسع **148**
معناه 148
أقوال العلماء في تفسيره 148
أقوال المفسِّرين 149
نِعَمُ اللَّه تعالى **151**
تذكير الإنسان بِنِعَم اللَّهِ الكثيرة 151
آثار الكرم تدلُّ علىَ الكريم **153**
مقدمة 153
حظ المسلم من هٰذه الأسماء 154
آثار الكريم في خلق الإنسان 154
شُكْرُ النِعَم **156**
معنى الشكر 156
أهمية الشكر 157
الكفر ضد الشكر 157
جزاء كفران النعمة 158
فوائد الشكر 158
أنواع الشكر وكَيفيَّتُه 159
أما شكر الجنان 159
وأما شكر اللسان 159
وأما شكر الجوارح 159
الصنف الرابع من الأسماء الحسنى وهو ما يعود إلى الرحمة **160**
مقدمة 160
29 ـ الرحمٰن **160**
معنى اسم الله «الرحمٰن» 160
أقوال العلماء في تفسيره 161
أثر هٰذا الاسم على العبد 162
الإسلام دين الرحْمَة **163**
تعريفها 163

رحمة الله تعالى 163
رحمة النبي ﷺ 164
الرحمة المطلوبة من المؤمنين 165
إلى مَن تتوجه الرحمة؟ 165
30 ـ الرحيم 166
أقوال العلماء في معناه 166
امتحان الرحيم عبَاده 166
الفرق بين الرحمٰن والرحيم 168
بين الرحمةُ والشِدَّةُ 169
مُقدَّمَة 169
مواضعُ الرحمة ومواضع الشِدَّة 169
31 ـ الفَتَّاح 171
أقوال العلماء في تفسيره 172
معناه في السنة 172
أقوال المفسّرين 173
حَظّ العَبْدِ من هٰذا الاسم 174
32 ـ اللطيف 174
أقوال العلماء في تفسيره 174
حَظُّ العَبْدِ مِن هٰذا الاسم 176
33 ـ الرؤوف 176
معناه 176
أقوال اللغويين في تفسيره 177
أقوال العلماء في تفسيره 177
أقوال المفسّرين في تفسيره 178
34 ـ الودود 179
معناه 179
معناه في اللغة 180
أقوال العلماء 180
أثر أسماء الله المتعلّقة بالرحمة على العبد 181
المَحَبَّة والإيثار 182

لمن تكون المحبَّة؟ 182
المحبة علامة الإيمان 183
ثمار المحبة 184
المجموعة الرابعة من الأسماء الحسنى التي تدخل في باب الولاية والنصر . . 186
مقدمة 186
35 ـ **الوالي** **186**
أقوال أئمة اللغة 187
أقوالُ العلماء 187
أثره على العبد 188
36 ـ **الوليُّ** **189**
معناه 189
أقوال العلماء في تفسيره 189
أقوال المُفَسِّرين 190
ولاء المسلم **191**
تعريف الولاء 191
لمن يكون ولاء المسلم؟ 192
الانتماء لأُمَّةُ الإسلام 192
إزالة دولة الإسلام 193
العمل على تغريب الإسلام 193
37 ـ **الوكيل** **194**
معناه 194
أقوال العلماء في تفسيره 195
أثر هٰذا الاسم على العبد: (التوكُّل على الله) 196
التوكُّل في القرآن 196
التوكُّلُ في السُّنَّةِ 197
38 ـ **الحسيب** **198**
معناه 198
أقوال العلماء في تفسيره 198
39 ـ **الصمد** **200**
معناه 200

أقوال اللغويين في تفسيره 201
أقوال العلماء 201
أثر هٰذا الاسم على الإنسان 202
40 ـ المُجِيبُ 203
معناه 203
أقوال العلماء في تفسيره 204
أثر هٰذا الاسم على العَبْد 204
أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب علاقة المُكلَّفين بخالقهم 207
41 ـ المَلِكُ 207
معنى المَلِكُ 207
أقوال العلماء في تفسيره 208
أَثر هٰذا الاسم على العبد 209
42 ـ الحَكَمُ 209
معناه 209
أقوال العلماء في تفسيره 210
الرضا بِحُكْم الله 212
أثر اسْم اللَّهِ الحَكَم على العَبْد 213
مسؤوليَة الإنسان عن أعماله 214
43 ـ العَدْلُ 215
معناه 215
أقوال العلماء في تفسيره 215
44 ـ المُقْسِطُ 218
معناه 218
أقوال العلماء في تفسيره 219
أثر هذا الاسم على العبد 220
الإسلام دين العَدالة 221
أهمية العدالة في الإسلام 221
تحريم الإسلام للظلم 222
عدم المَيْل في الحكم 222
وجوب العدالة على الفرد والمجتمع 222

مبادِئ العَدْل 223
مجالات العدل في الإسلام 223
45 ـ الحميد **224**
اسمُ اللّهِ الحَمِيد 224
أقوال العُلَماء في تفسيره 225
46 ـ الشَّكُور **227**
معناه 227
أقوال العُلماء في تفسيره 227
أثر هٰذا الاسم على العبد 228
ثمرات الشكر 229
47 ـ التوّاب **230**
معناه 230
أقوال العلماء في تفسيره 230
أثر هٰذا الاسم على العبد 230
48 ـ الغَفُور **232**
معناه 232
أقوال عُلماء اللغة 233
أقوال العُلماء في تفسيره 233
أثر هٰذا الاسم على العبد 234
49 ـ الغفّار **235**
معناه 235
أقوال العلماء في تفسيره 235
حظ العبد من هٰذا الاسم 236
في عظيم عَفْوِهِ وحِلْمِهِ ﷺ 237
50 ـ العَفُوُّ **238**
معناه 238
أقوال العلماء في تفسيره 238
الشقاء يَكْمُن في المعصية، والسعادة في الطاعة 239
51 ـ الحَلِيمُ **241**
معنى الحليم 241

أقوال العُلماء في تفسيره 241
أقوال المفسّرين 242
أثر هٰذا الاسم على العبد 243
53 ـ الصَّبُور **243**
معناه 243
أقوال العلماء في تفسيره 244
أثر هذا الاسم على العبد 245
فضل الصبر **246**
أنواع الصبر 246
مقاماتُ الصبر 247
53 ـ المُنْتَقِم **249**
معناه 249
أقوال العلماء في تفسيره 249
انتقام الله من أعدائه 249
أثر أسماء اللّهِ الحسنى التي تدخل في باب علاقة المكلَّفين بخالِقهم: 250
الأسماء الحسنى التي تعود إلى صفات الأفعال **252**
مقدمة 252
54 ـ الخافض **252**
أقوال العلماء في تفسيره 252
أثر هٰذا الاسم على العبد 253
55 ـ الرافع **254**
معناه 254
أقوال العلماء في تفسيره 255
أقوال المفسّرين 255
56 ـ المُعِزُّ **257**
معناه 257
أقوال العلماء في تفسيره 257
أقوال المفسّرين 258
57 ـ المُذِلُّ **260**
معناه 260

أقوال العلماء في تفسيره 260
أقوال المفسّرين 261
حَظّ المؤمن من هٰذا الاسم 262
58 ـ المُقَدِّمُ 262
أقوال العلماء في تفسيره 263
أقوال المفسّرين 264
أثر هٰذا الاسم على العبدِ 264
59 ـ المُؤخّر 265
معناه 265
أقوال العلماء في تفسيره 265
أقوال المفسّرين 266
أثر هٰذا الاسم على العَبْد 267
60 ـ الجامِعُ 267
معناه 267
أقوالُ العُلماء في تفسيره 268
أقوال المفسّرين 270
61 ـ المانِع 270
معناه 270
أقوال العلماء في تفسيره 271
أقوال المفسّرين 272
62 ـ النافع 274
معناه 274
أقوال العلماء في تفسيره 274
أقوال المفسّرين 275
63 ـ الضارُّ 276
معناه 276
أقوال العلماء في تفسيره 277
أقوال المفسّرين: 278
أثر هٰذه الأسماء على العبد 279

الأسماء التي تعود إلى صفات الحمدِ والتمجيد **280**
64 ـ الكَبِيرُ **280**
معناه 280
أقوال العلماء في تفسيره 281
أقوال المفسّرين 282
أثر هٰذا الاسم على العَبْد 282
65 ـ المُتَكَبِّر **283**
معناه 283
أقوال العلماء في تفسيره 283
أقوال المُفسّرين 285
66 ـ العَلِيُّ **286**
معناه 286
إزالة شبهة 286
أقوالُ العلماء في تفسيره 288
أقوال المفسّرين 289
67 ـ المُتَعَالِي **289**
معناه 290
أقوال العلماء في تفسيره 290
أقوالُ المفسّرين 290
أثر هٰذا الاسم على العبد 292
68 ـ الجليل **292**
معناه 292
أقوال العلماء في تفسيره 293
أقوال المُفسِّرين 294
أثر هٰذا الاسم على العبد 295
69 ـ العظيم **295**
أقوال العلماء في تفسيره 296
أقوال المفسّرين 297
أثر هذا الاسم على العَبد 298
70 ـ الماجِدُ **298**

معناه 298
أقوال العلماء في تفسيره 299
أقوال المفسّرين 299
أثر هٰذا الاسم على العَبْد 301
71 ـ المَجيدُ 301
معناه 301
أقوال العلماء في تفسيره 302
أقوال المفسّرين 302
72 ـ ذو الجلال والإكرام 304
معناه 304
أقوال العلماء في تفسيره 305
أقوال المفسِّرين 305
المجموعة العاشرة من الأسماء الحسنى 308
73 ـ الحقُّ 308
معناه 308
أقوالُ العُلماء في تفسيره 309
حَظُّ العَبْدِ مِن هٰذا الاسم 309
أثر هٰذا الاسم على العبد 310
74 ـ النور 311
معناه 311
أقوال العلماء في تفسيره 311
أقوال المُفَسِّرين 312
أثر هذا الاسم على العبد 313
75 ـ الظاهِرُ 314
معناه 314
أقوال العلماء في تفسيره 314
أقوال المُفسِّرين 316
76 ـ الباطِنُ 317
معناه 317
أقوال العلماء في تفسيره 317

أقوال المفسرين 319
الأسماء الحسنى المتعلّقة بصفة القِدَم 321
77 ـ الأَوّلُ 321
أقوال العلماء 321
تعدّد معاني القِدَم 322
موقف العقل من هٰذا الاسم 322
الأسماء المتعلقة بصفة البقاء 325
78 ـ الآخر 325
معناه 325
أقوال العلماء 325
أقوال المفسرين 326
أثر هٰذا الاسم على العبد 327
79 ـ الباقي 328
معناه 328
أقوال العلماء في تفسيره 328
أقوال المفسّرين 329
80 ـ الوارث 331
معناه 331
أقوال العلماء في تفسيره 332
أقوال المفسّرين 333
الأسماء المتعلقة بصفة قيامه تعالى بنفسه 335
81 ـ الغَنِيّ 335
معنى الغَنِيّ 335
أقوال العلماء 336
أقوال المفسّرين 337
الأسماء المتعلقة بصفة مخالفته تعالى للحوادث 339
82 ـ السَّلاَمُ 340
معنى السلام 340
أقوال العلماء في تفسيره 341
83 ـ القُدُّوس 342

معناه 342
أقوال العلماء في تفسيره 342
أقوال المفسّرين 344
84 ـ الوَاجِد 344
معناه 344
أقوال الأئمة في تفسيره 345
أقوال المفسّرين 345
النهي عن الخوض في المُتشابَه من الصفات 347
أولاً: المتشابه من الصفات 347
مجموعة الأسماء الحسنى المتعلّقة بصفة الوحدانية 351
85 ـ الوَاحِد 351
معنى الوحدانية 351
أقوال المفسرين 352
معنى اسم اللَّهِ (الواحد) 352
أقوال العلَماء في تفسيره 353
86 ـ الأَحَدُ 354
معناه 354
الدليل على وحدانية الله 354
الأسماء الحسنى المتعلقة بالصفات السلبية 357
أولاً: صفة العلم 357
87 ـ العَليمُ 358
معنى العليم 358
أقوال العلماء 358
88 ـ الخَبير 360
معناه 360
أقوال العُلماء 360
أقوال المُفسِّرين 361
89 ـ الشَهيد 362
معناه 362
أقوال العلماء 363

أقوال المفسّرين 364
90 ـ المُحْصِي **365**
معناه 365
أقوال العلماء 366
أقوال المفسّرين 367
الأسماء المتعلقة بصفات الكمال ـ العلم **369**
91 ـ السَمِيعُ **369**
معناه 369
أقوال العُلماء 370
أقوال المفسّرين 371
92 ـ البَصِيرُ **372**
معناه 372
أقوال العلماء في تفسيره 373
أقوال المفسّرين 373
93 ـ الرَّقِيبُ **375**
معناه 375
أقوال العلماء في تفسيره 375
أقوال المفسّرين 376
الأسماء المتعلّقة بصفة القدرة **379**
94 ـ القَوِيُّ **380**
مَعْنَى القَوِيِّ 380
أقوال العلماء في معناه 380
أقوال المفسّرين 381
95 ـ المَتِينُ **382**
معناه 382
أقوال العلماء 382
أقوال المفسّرين 383
96 ـ القادر **385**
معناه 385
أقوال العلماء 385

أقوال المفسّرين 386
97 ـ المقتدر **388**
معناه 388
أقوال العُلماء في تفسيره 388
أقوال المفسّرين 388
98 ـ العزيز **391**
معناه 391
أقوال أهل اللغة 391
أقوال العلماء 392
أقوال المفسّرين 393
99 ـ مالك الملك **394**
معناه 394
أقوال العلماء 394
أقوال المفسّرين 396
فهرس المحتويات **398**